

العرب بين القومية والإسلام

قراءة إسلامية فى التاريخ الحديث والمعاصر

أستاذ دكتور

زكريا سليمان بيومى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة المنصورة وكلية التربية بجدة

الناشر

مكتبة زهراء الشرق

١١٦ شارع محمد فريد

ت: ٣٩٢٩١٩٢ موبايل: ٠١٢٣١٧٧٥١٠

هذا الكتاب

- يناقش على ضوء الأحداث التاريخية غلبة الهوية الإسلامية على تاريخ المنطقة العربية، ويوضح كيف أن البعد القومى لم يكن خياراً جماهيرياً فى فترات تاريخ العرب .
- ويناقش أبعاد الدور الذى لعبه الاستعمار الغربى بدءاً بحملة نابليون ومدى تطويعه للمغامرين والطامعين من أمثال محمد على وكيفية تطويعه ثم تحجيمه .
- ويناقش أثر المحافل الماسونية فى دفع الكثير من الأحداث التاريخية وتشويه صياغتها مما أسهم فى طمس العديد من المعالم وسطو غيرها .
- ويناقش الأحداث التى أحاطت بتوارى المد الإسلامى وفرض الإطار القومى بعد تقسيم العالم العربى إلى كيانات وتكتلات سياسية - وتكاتف أصحاب المصالح مع القوى الاستعمارية والماسونية فى المنطقة العربية .

الناشر

العرب بين القومية والإسلام

قراءة إسلامية فى التاريخ الحديث والمعاصر

أستاذ دكتور

زكريا سليمان بيومى

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة المنصورة وكلية التربية للبنات بجدة

الناشر

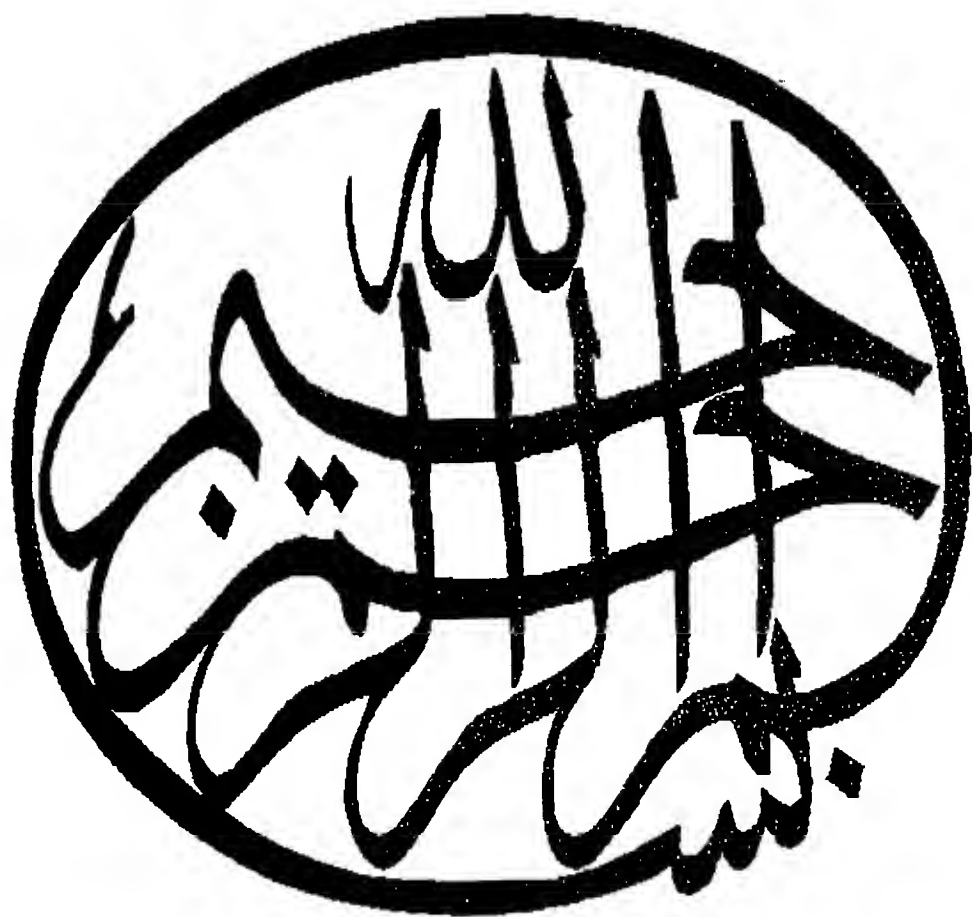
دار القاهرة

١١٦ ش محمد فريد - القاهرة

ت ٣٩٢٩١٩٢

حقوق الطبع محفوظة

العرب بين القومية والإسلام	اسم الكتاب
الدكتور / زكريا سليمان بيومي	اسم المؤلف
الأولى	رقم الطبعة
٧٥٤٢	رقم الإيداع
I. S. B. N 977 - 6048 - 04 - 8	الترقيم الدولي
٢٠٠٢	سنة النشر
دار القاهرة	الناشر
١١٦ ش محمد فريد. القاهرة	عنوان الناشر
القاهرة. جمهورية مصر العربية	بلد الناشر
٣٩٢٩١٩٢ - ٠١٢/٣١٧٧٥١٠	التليفون
٣٩٢٩١٩٢ - ٣٩٣٣٩٠٩	فاكس



إهداء

إلى صاحب السمو الملكي الأمير
عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز آل سعود
عرفانا وحباً وتقديراً

إلى والدي ووالدتي وشقيقي محمد يرحمهم الله

إلى زوجتي وأولادي

إلى إبني العزيز محمد

إلى الصادقين في عهدهم مع الله
إلى كل من يحفظ للكلمة أمنها فحيثما يوجد الأمان يوجد
الإبداع

مقدمة

أفرزت فترة التحول القومي التي تولتها بعض الأنظمة السياسية في العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية، وما صاحبها من تيارات فكرية، العديد من المؤلفات التي جنحت بعيدا عن المنهج الإسلامي، وقدمت العديد من الصياغات التاريخية وفق هذه التيارات .

وسبقت ذلك العديد من الصياغات التاريخية التي أتى بها المبعوثون إلى الدول الغربية أو من تتلمذ على أيديهم من أبناء الوطن العربي، وبالطبع فإن هذه الصياغات هي الأخرى بعدت عن الأخذ بالمنهج الإسلامي متأثرة بموقف الباحث الأوروبي من الدين بشكل عام، ومن الإسلام على وجه الخصوص .

ولكون أوروبا قد سبقتنا في الأخذ بمنهج البحث التاريخي حديثا، فإن مجمل هذه الصياغات التاريخية، سواء المتأثرة بأوروبا أو التي فرضتها الأنظمة السياسية العربية ذات التوجه القومي، ونتيجة لعوامل ومصالح اقتصادية كانت وراء نشأة هذه الأنظمة، قد امتلأت بها المكتبة التاريخية وبالتالي بما هو بعيد عن الموضوعية العلمية .

وبشكل عام فإن الصياغة التاريخية الأوروبية بكل تياراتها الفكرية العلمانية والمادية اليسارية، وبعدها الديني الصليبي واليهودي وبعدها الإستعماري، تعتبر صياغة متجنبة في أغلبها على تاريخنا الإسلامي، ولا تعبر هذه الصياغات عن صورة الإسلام في التراث الغربي الأوروبي فقط بل إنها تسهم كذلك في المزيد من ترسيخ هذه الصورة للأجيال الحالية والمستقبلية تجاه كل ما هو إسلامي . وبالتالي فلن تغلح محاولات التصحيح لهذه الصياغة من قبل المسلمين في تغيير هذه الصورة لدى هذه الشعوب على المدى المرني أو القريب .

ومع ذلك فإن على المؤرخين من أصحاب النظرة الإسلامية مواصلة دورهم في إعادة صياغة تاريخهم لترسيخ صورة حقيقية وموضوعية أمام الشعوب الإسلامية والعربية تؤكد لهم نقاء تراثهم، وتقدم لهم نماذج من التاريخ تعينهم على الثقة في مقوماتهم الحضارية .

ولعل من الأمور التي تشجع الباحثين من أصحاب المنظور الإسلامي أن أحداث النصف الثاني من القرن العشرين وبكل ما صاحبها من محاولات أغلب الأنظمة السياسية العربية القومية لم تستطع أن تجعل من التيار القومي خيارا

جماهيريا، وأن ما بقي - أو ما هو ظاهر منه على الساحة الإعلامية حتي الآن - تفرضه ضرورات اقتصادية وسياسية لدى القلة المسيطرة من المنتفعين أو التابعين النفعيين بوعي أو بغير وعي، وأن تقبل الشعوب العربية له ليس إلا لاعتباره جزء من الكل الإسلامي.

وتؤكد الأحداث التاريخية أن السماح بقدر من الحرية السياسية والفكرية يفتح الطريق لاتباع التيار الإسلامي وهم الذين تفرزهم وتؤيدهم الأغلبية، وتجعل منه الخيار الأقوى . فقد أصبح من قبيل المسلمات لدى الأكثرية من الشعوب الإسلامية أن العدل الاجتماعي الذي لم تفلح التجارب أو الأيديولوجيات الأخرى كالاشتراكية أو الديمقراطية في تطبيق قدر كاف منه قد يطبق بشكل أفضل تحت القبة الإسلامية مهما اختلفت صور الاجتهاد حولها أو صادفها من خلل في وسائل وآليات التطبيق، وبرغم كل محاولات التشكيك أو التشويه لمحاولات سابقه أو معاصره، وحتى ولو كان جزء كبير من هذه الفتاعات راجع إلى بعد التيار الإسلامي في أغلب الأقطار العربية عن الميدان التطبيقي وانحصاره في أطر نظرية فإن السعي لاستلهام نموذج إسلامي شمولي عصري يستوجب من بين فرضياته صياغة تاريخية موضوعية .

ولاشك أن مثل هذه الحتمية هي التي دعت المؤرخ الانجليزى توينبى إلى القول بأن حضارة الإسلام وبكل ما يعتريها من توتر في الاستجابة حيال تحدى الحضارة الغربية ستكون هي حضارة المستقبل لأنها تحمل في طياتها مقومات صمودها وتجدها .

ولأن التاريخ علم مختار وليس علما ثابتا، ولأنه علم صياغة - أو صناعة - المستقبل على ضوء الماضي، أقدم هذه الصياغة من منظور إسلامي يتواءم وطبيعة تاريخ شعوب المنطقة العربية الإسلامية أملا في أن يجدوا فيها ما يعينهم على استلهام جوانب إيجابية في تراثهم . على أنني سألتزم فيها كسابقاتها بالموضوعية والحيدة التي هي عماد الباحث المسلم، كما أنني لا أقصد بها أو من خلالها الانتصار لشخص أو لتيار أو نظام أو أذم فتلك غاية تنقص من قدر البحث العلمي القويم .

والله من وراء القصد خير الشاهدين،،،

الفصل الأول

بداية مرحلة التاريخ الحديث في المشرق العربي الإسلامي

- متى يبدأ تاريخ العرب الحديث ؟
- الوجود العثماني في المشرق العربي بين طبيعة الفتح و تهمة الاحتلال
- العثمانيون وتهمة فرض العزلة على المشرق العربي الإسلامي .

فى البداية لابد أن نذكر أن استخدام مصطلح التاريخ الحديث والتاريخ الوسيط والتاريخ القديم ليس استخداماً دقيقاً ولا موضوعياً فى أغلبه ويرجع ذلك إلى أنه مصطلح مؤقت وليس مصطلحاً ثابتاً، فلو تصورنا إمكانية استخدام هذا المصطلح بعد نصف قرن من الآن على الأقل فإنه لن يكون استخداماً دقيقاً، وبالطبع ينطبق هذا على غيره من العصور السابقة ؟ والأجدر أن تربط الأحداث بالقرون أو الدول فهى أمور ثابتة لا تتغير كأن نقول القرن الخامس عشر الهجرى/العشرين الميلادى مثلاً، أو أن نقول تاريخ الدولة السعودية الأولى أو الاستعمار الفرنسى لسوريا، أو تاريخ الدولة العثمانية، أو الحملة الفرنسية على مصر والشام فهذا أوقع وأدوم .

كما أن تقسيم التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث تقسيم أوروبى، وأخذ به الكتاب فى الشرق الإسلامى كجزء من اتباعهم للعديد من الجوانب التى نقلوها عن أوروبا دون تمحيص أو ربما دون وعى فى بعض الأحيان . فقد اعتبرت أوروبا التاريخ السابق لاعتناقها المسيحية تاريخ قديم برزت فيه حضارة اليونان وحضارة روما . ويبدأ التاريخ الوسيط من اعتناقها المسيحية حتى تمردى عليها فى عصر النهضة فى القرن الخامس عشر الميلادى، وذلك لأن الكنيسة المسيحية قد ساندت النظام الإقطاعى وأصبحت جزءاً منه فشاركت فى الظلم الذى عانت منه خلال هذه الفترة فاستوجبت لهذا كره الأوروبيين وثورتهم على دور الدين فى المجتمع ودور المؤسسات الدينية أيضاً . فضلاً عن أن اعتناق أوروبا للمسيحية من البداية قد قسمها إلى إمبراطوريتين وامتأ العصر كله بالصراع بينهما وهو صراع مذهبى، لهذا اعتبرت أوروبا عصر النهضة والثورة على كل ما هو دين فى المجتمع بداية لعصر جديد هو العصر الحديث باعتباره بداية مرحلة انتقال الحضارة إليهم أو بزوغ حضارتهم وأن مجرد التلويح بالعودة هو تخلف ورجعية .

ولكن هل هذا التقسيم التاريخى يتناسب مع مراحل التاريخ فى الشرق الإسلامى ؟ إن مرحلة التاريخ القديم عند المسلمين هى المرحلة السابقة على اعتناق الإسلام، ولكن منذ بداية انتشار الإسلام أو ظهوره تحول سكان الجزيرة العربية ومن حولها من شعوب مفككة متحاربة إلى أمة قوية مهابة الجانب . وبدأ دورهم الحضارى مع هذه الفترة التى التزموا خلالها بالمنهج الذى أمدهم به الدين الإسلامى، كما أن الخلل التاريخى الذى حدث فى بعض العصور الإسلامية كان

بسبب البعد - نسبياً - عن الأخذ بالمنهج الإسلامى . هذا إلى جانب أن المنهج الإسلامى ما زال حتى الآن هو الأساس فى حركة الشعوب الإسلامية وعلاقاتها، وأن محاولة اللجوء إلى الأنظمة الغربية والشرقية والسعى لإقصاء هذا المنهج عن مواضع التأثير الاجتماعى والاقتصادى والسياسى وصنع التاريخ لم تحقق نجاحاً حتى الآن لتثبت الشعوب الإسلامية به . لهذا فإن الكتاب المسلمين يؤكدون بأنهم ليسوا فى حاجة إلى اعتبار أى مرحلة من مراحل التاريخ بعد الإسلام مرحلة جديدة بل هى امتداد للتاريخ الإسلامى ذلك لأن الإسلام فى نظرهم كان وما زال يلعب دوراً رئيسياً فى تحديد توجهات الشعوب المؤمنة به والطبقات الكادحة منها على أقل تقدير ودورها فى كافة الجوانب .

ومع هذا يرى بعض الكتاب المسلمين أن حجة سهولة دراسة التاريخ تدعو إلى قبول ما يسمى بالتاريخ الحديث والمعاصر تجاوزاً باعتبار هذه المرحلة مرحلة ممتدة للتاريخ الإسلامى وما تتعرض له الشعوب الإسلام مدأ وجزراً وفق الظروف التاريخية باعتباره المعيار الأساسى لحركة هذه الشعوب سلباً أو إيجاباً . وقد أطلق البعض على هذه الفترة وفقاً لهذه الأمور " التاريخ الإسلامى الحديث والمعاصر " .

متى يبدأ تاريخ العرب الحديث ؟

لعل طرح هذه الإشكالية في البداية يفرض ضرورة الرد على أتباع التيار القومي وغيرهم الذين قصدوا بهذا الطرح للتسليم بوجود كيان سياسي عربي قومي له جذوره التاريخية وهو طرح غير صحيح وبعيد كل البعد عن الموضوعية العلمية أو الحقائق التاريخية، ولهذا يستوجب الأمر توضيح طبيعة تاريخ وتطور هذا الكيان من خلال الكل الإسلامي الذي يحاول هؤلاء الكتاب إهماله على حساب الموضوعية في البحث التاريخي .

وبشكل عام فقد انقسم للدارسون إلى عدة آراء فهناك رأى يقول أن تاريخ العرب الحديث يبدأ مع الحملة الفرنسية على مصر والشام لأنها كسرت حاجز العزلة الذى فرضه العثمانيون على المسلمين فلم يحتكوا بأوروبا المتحضرة فأصبحوا متخلفين، ولأن هذه الحملة كانت بداية فتح باب الاحتكاك بين الحضارتين وإطلاع المسلمين على الحضارة الغربية فتعد بداية لمرحلة تاريخية جديدة . وبالطبع هذا الرأى يقول به العلمانيون الذين تعلموا فى أوروبا وتأثروا بمظهرها الحضارى واتبهروا به، ولكنه رأى يعبر عن غرور الأوروبيين فى أن الذى يحتك بهم يبدأ تاريخه والذى يبتعد عنهم يظل على تخلفه، كما أنه يتناسى الطبيعة العدوانية لهذه الحملة التى كانت جزءا من هجمة استعمارية على المنطقة بأكملها، وبالطبع لا يقبل بهذا الرأى على إطلاقه أصحاب الفكر الإسلامى والقومى كذلك.

وهناك رأى آخر يرى أن تاريخ العرب الحديث يبدأ من عصر محمد على لأنه على الصعيد الداخلى قضى على الإقطاع وغير فى وسائل وقوى الإنتاج فى مصر وارتبط بأوروبا فى أسلوب ووسائل تحديث دولته، ثم حاول على الصعيد الخارجى أن يضم المنطقة العربية بعيدا عن العثمانيين، وهذا رأى العلمانيين واليساريين من دعاة القومية على السواء . وبالطبع فإن هذا الرأى لم يقبل به أصحاب الفكر الإسلامى لأن محمد على كان قد حول مصر إلى إقطاعية كبيرة بعد أن أصبح هو المالك الوحيد للأرض الزراعية فيها، ثم أشرك معه العناصر الأجنبية دون العناصر المحلية وعلى حسابها فى هذه الملكية . وعلى الصعيد الخارجى كان قد حول كل جهده لضرب القوى العربية الإسلامية المناهضة للتدخل الاستعمارى فى المنطقة مسaire لأطماعه وأضعف بذلك دولة الخلافة فأسهم فى سرعة انقضاء الاستعمار على المنطقة بأسرها، كما أنه لم ينعم بتأييد شعبى فى

كل تحركاته لا فى مصر ولا فى المنطقة العربية، ولم يكن بالتالى معبراً عن توجهات الشعوب بل مجافياً لها وذلك أنه فيما فعله من إصلاحات لم يكن يبتغى وجه الشعب المصرى أو العربى، ولم يسع لإيجاد شرائح ترتبط مصالحها بمصالحه بل كان ذاتياً له ولأسرته وللعناصر الأجنبية التى ساعدته، وللدول الأجنبية التى وقفت خلفه .

أما رأى الثالث فيرى أن تاريخ العرب الحديث يبدأ من العصر العثمانى ودخول العثمانيين المشرق العربى، ومع ما فى هذا رأى من وجاهة وقبول من قبل أصحاب الفكر الإسلامى إلا أنه هو الآخر يشكّل فخاً حيث أن من يقول به يؤكد أن العرب كانت لهم هوية قومية واضحة منذ بداية الحكم العثمانى، يعنى كان هناك عرب وأتراك، وهذا غير صحيح فالجميع كانوا مسلمين ولم تكن هناك هوية قومية أو جنسية تفرّق بين الشعوب الإسلامية منذ عصر صدر الإسلام .

والحقيقة أنه لم يظهر على ساحة التاريخ ما يمكن أن نسميه العالم العربى منذ الدعوة الإسلامية إلا قبل الحرب العالمية الأولى بعد أن نجح أعداء الشرق الإسلامى فى فصل إيران وتركيا والعرب الذين كانوا يشكّلون أركان الدولة الإسلامية الواحدة، ثم سعوا - ومازالوا يسعون - لتمزيق كل كيان من هذه الكيانات إلى دول أو أشباه دول ضعيفة صغيرة .

ولكن مع هذا يصعب معرفة تاريخ المنطقة العربية منذ الحرب العالمية الأولى فقط حيث أن الإستعمار الأوروبى قد قسّم المنطقة واستولى عليها ووضع لها حدوداً سياسية تستوجب التعرف على مخططاته التى وصلت بالمنطقة إلى هذه النتيجة . وتعود إرهابات هذه المخططات إلى بداية الوجود العثمانى فى المشرق العربى الإسلامى والذى يتوافق تاريخياً مع بداية الهجوم الاستعمارى على هذه المنطقة وما يمثله هذا الدور من تأثير على بداية مرحلة التاريخ الحديث فى أوروبا وكذلك منطقة المشرق العربى الإسلامى .

العثمانيون وبداية التاريخ الحديث فى المشرق العربى الإسلامى

لاشك أن عودة القوة العثمانية من الساحة الأوروبية إلى المشرق العربى الإسلامى يعد معلماً تاريخياً هاماً أسهم فى تشكيل تاريخ هذه المنطقة لعدة قرون لاحقة، فقد استطاعت هذه المنطقة أن تحتفظ بمقومات تلاحقها وترابطها كنتيجة للتدخل العثمانى الذى ساعد حركة الجهاد الإسلامى فى الشمال الإفريقى من جهة،

وحاول التصدي للهجوم الصليبي البرتغالي على المناطق المقدسة فى الجزيرة العربية من خلال مساعدة المماليك ثم التصدى المباشر لهم بعد هزيمة المماليك من جهة أخرى .

وقد حاول العديد من المؤرخين القوميين التقليل من الدور العثمانى وذلك من خلال اعتبار العثمانيين محتلين دون أن ينظروا بميزان العصر نفسه حيث كان المعيار وقتها معياراً دينياً لا يميز بين المسلمين من حيث الجنس أو المذهب، كما لم ينظروا بمعيار للمنهج الإسلامى نفسه الذى يسقط المعيار الجنسى العرقى القومى . واحتوت محاولات هؤلاء المؤرخين من دعاة القومية بالتالى على تفسير العودة العثمانية إلى المشرق الإسلامى لإنقاذه من الهجمة الصليبية الجديدة بإرجاعها إلى أسباب أخرى تتفق وتفسرهم كقطع العثمانيين فى التوسع ورغبتهم فى تكوين إمبراطورية إسلامية وغير ذلك . وبالطبع كان عليهم وفق هذا التفسير أن يقللوا من شأن الهجوم الصليبي الغربى ويجعلوه أحد العوامل وليس العامل الرئيسى فى التحول العثمانى وبالتالي تغير الخريطة السياسية للمنطقة.

والحقيقة أن الهجمة الأسبانية البرتغالية على الشمال الإفريقى - بعد نجاحهم فى طرد المسلمين من الأندلس - كانت هجمة مدفوعة بدوافع الانتقال من المسلمين بنفس صورة حربهم ضد المسلمين فى الأندلس، فقد سيطرت الروح الصليبية من جديد واندفعت الحملات إلى الشمال الإفريقى برعاية البابوية ومباركة رجال الدين، ووضع كل فرد من أفراد هذه الحملات صليباً فى رقبته وسمع دعاوى الجهاد والشهادة (١)، وتمكنوا من خلال هذه الحملات من الإستيلاء على طنجة وسبتة ومليلة ووهران وغيرها، وتعالى صيحات المواصلة إلى احتلال مصر ثم الإنطلاق منها إلى مكة والمدينة وضرورة إعادة المسلمين - العرب - إلى الصحراء التى خرجوا منها، وقد أطلق المؤرخون على هذه الحركة تجاوزاً الكشوف الجغرافية . ولم تتمكن هذه الحملات الصليبية من تحقيق أهدافها فى البحر المتوسط حيث تصدى لها المجاهدون المسلمون خلف حركة الأخوين عروج وخير الدين بربروسا التى جمعت وراءها مجاهدين من الشمال الإفريقى ومن المسلمين الفارين والمطرودين من الأندلس، كما سارعت الدولة العثمانية بمد يد العون والمساعدة بالعتاد والسلاح والرجال لهذه الحركة حتى أصبحت قوة يخشى بأسها ودون أية فروض أو شروط من قبل العثمانيين مما دعا هذه الحركة لأن تسعى للارتباط بالدولة العثمانية (١).

وقد نتج عن نجاح حركة الجهاد الإسلامى فى البحر المتوسط اضطراب الأسباب والبرتغاليين للبحث عن طريق بديل يحقق أهدافهم العدائية ضد المسلمين والمقدسات الإسلامية، وسمح هذا الشعور الدينى الجارف فى كلا الدولتين بظهور المغامرين الجغرافيين حيث زينوا للحكام الأسباب فكرة الوصول إلى المشرق الإسلامى عن طريق الإتجاه غرباً، أى فكرة كروية الأرض، وزينوا للبرتغاليين الالتفاف حول إفريقيا للوصول إلى الحبشة النصرانية واتخاذها منطلقاً لحملات عدائية على غرار حملة أبرهة الحبشى قبل الإسلام تمكنهم من الوصول إلى مكة والمدينة (٢) .

ولم يكن أمر هذه الهجمة الصليبية قاصراً على أسبانيا والبرتغال بل كانت تخطط لها البابوية حيث دعت ملوك أوروبا إلى مؤازرة مخططها ضد العالم الإسلامى فيما عرف بخطة الهند التى ظهرت من خلال مراسلات البابا " نقولا الخامس" مع الأمير " هنرى الملاح " (٣)، واعتمدت هذه الخطة على الرهبان الفرنسيين الذين كانوا يقيمون فى بيت لحم بفلسطين حول المقدسات المسيحية حيث كان عليهم الإتصال بملك الحبشة عن طريق الزوار الأحباش النصارى للمنطقة المقدسة فى فلسطين والتنسيق لشن حملة صليبية ضد المسلمين . وعلى الرغم من استخدام بعض الدول الأوروبية لهذه الخطة بهدف اقتصادى مثل إنجلترا إلا أن العامل الدينى كان العامل الرئيسى للبابوية ولأغلب دول أوروبا وكذلك للرهبان أنفسهم بحكم طبيعة فكرهم، كما أن العامل الاقتصادى فى حد ذاته وهو السعى لكسر احتكار المسلمين لتجارة الهند كان يحتوى على عامل دينى لأنه استخدم بقصد إضعاف قدرات المسلمين وإمكانياتهم الاقتصادية (٤) .

وقد سارع العثمانيون - بعد أن تأكدوا من طبيعة الدور الصليبي ضد المقدسات الإسلامية - إلى تجميد نشاطهم على الساحة الأوروبية وعادوا إلى الشرق لمواجهة الهجوم الروسى المدفوع بدوافع دينية مدعومة من البابوية، وكذلك الإثارة الصفوية على الحدود، وترقب أبعاد الهجوم البرتغالى . وأرسل العثمانيون المساعدات المتتالية للمماليك سواء قبل هزيمة المماليك أمام البرتغاليين فى معركة ديو البحرية ٩١٥هـ - ١٥٠٩م أو بعدها، لكن المماليك تحولوا إلى ترقب الدور العثمانى بفعل الدسائس الصفوية البرتغالية، فدخل العثمانيون المشرق الإسلامى ليتولوا الدفاع عنه وعن مقدسات المسلمين .

ومع أن التاريخ لا يتحمل التنبؤات إلا أننا لو تصوّرنا غياب الدور العثماني بعد هزيمة المماليك ونجاح البرتغاليين في مهاجمة المقدسات الإسلامية ومحاصرة طرقهم التجارية لكانت الخريطة السياسية للمشرق العربي الإسلامي قد تغيرت تماماً، وبخاصة لو أدركنا شراسة الدور البرتغالي وعدائه للمسلمين من خلال المذابح الجماعية للمسلمين في زيلع وسواكن ومصوّع والاستيلاء عليها للانطلاق إلى الجزيرة العربية، فكم كان حجم المذابح وطبيعة هذا الدور؟ .

ولذلك فإن حماية العثمانيين للمشرق العربي الإسلامي ومحافظةهم على مقومات الوحدة والترابط والتلاقى التي تجمع العرب الآن هو من نتاج الدور العثماني الذي يستحق أن يكون للعرب والمسلمين معطاً تاريخياً هاماً، وأن من يتجه إلى رفضه فإنه ينحو بفكره منحى بعيداً عن النظرة الإسلامية أو حتى النظرة القومية العربية .

الوجود العثماني في المشرق العربي بين الاحتلال والفتح

في الوقت الذي اتجه فيه أغلب الكتاب والمؤرخين من أصحاب المنظور القومي إلى اعتبار التدخل العثماني في المشرق العربي في مطلع القرن الحادي عشر الهجري السادس عشر الميلادي غزوا واحتلالاً اتجه بعض المؤرخين من أصحاب المنظور الإسلامي إلى اعتباره فتحاً . ومع أن مفهوم أو مصطلح الفتح لم يستخدم من قبل إلا في دخول جيش إسلامي لأراض غير إسلامية إلا أنهم رأوا أن التدخل العثماني لم يكن دافعه التوسع أو السيطرة وإنما كان ضرورياً لحماية المسلمين من مخطط غربي صليبي قادته البرتغال (٥)، وأنه لولا هذا التدخل وهذه الحماية لتغير وجه التاريخ الإسلامي في هذه المنطقة، ولفقدت ترابطها واستمرار تراثها الذي يعد من أهم مقومات وحدتها المعاصرة .

وساق المؤرخون القوميون وغيرهم العديد من الأسباب التي تؤكد - أو تبرر - وجهة نظرهم فذكروا أن الفتح العثماني على الساحة الأوروبية كان قد وصل إلى مرحلة من التشبع أو إلى أقصى مدى يستطيعه، وأن القوات العثمانية قد أصبحت في موقف دفاعي لا في موقف هجومي مما دعاها إلى التوقف عن مواصلة الزحف على هذه الساحة (٦) . واستتبع ذلك بالضرورة - من وجهة نظرهم - عودة ثقل هذه القوات إلى الساحة الشرقية للتصدي للمشكلات الحدودية مع الصفويين والمماليك. ثم رأت أن الفرصة سانحة أمامها لتحقيق

الأطماع التى راودت بعض السلاطين العثمانيين والمتمثلة فى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف حول البحر المتوسط وحتى يصبح بحيرة عثمانية (٧) . ويرى هذا الفريق من المؤرخين أنه قد تهيأت بعض الأسباب التى أسهمت فى صنع الدور العثمانى بالصبغة الإسلامية يأتى فى مقدمتها تصيدهم للأطماع البرتغالية فى البحر الأحمر وبحر العرب، فضلا عن نجاحهم فى وقف نشاط فرسان القديس يوحنا فى البحر المتوسط (٨)، وأنه بغض النظر عن دافعهم فى التصدى لهذه القوى إلا أن موقفهم تجاهها كان ضروريا لتحقيق أهدافهم فى التوسع فى الشرق العربى، وأنهم قد نجحوا فى استثمار هذا النجاح باسم الدين الذى أسهم فى خضوع هذه المنطقة لهم على مدى أربعة قرون أو يزيد .

وبداية فإن هناك أدلة عديدة تؤكد أن وقف العثمانيين لفتوحاتهم فى أوروبا فى عهد السلطان سليم الأول وعودتهم إلى المشرق ترجع فى المقام الأول إلى عامل رئيسى هو التصدى للهجوم الصليبي البرتغالى على الأراضى والمقدسات الإسلامية فى المشرق العربى، وحصار نشاط فرسان القديس يوحنا فى البحر الأبيض المتوسط، وكذلك وقف الخطر الصفوى الذى استشرى وأصبح يشكل خطرا سياسيا عليهم، فى حين أن العوامل الأخرى المتمثلة فى ضعف القوات العثمانية على الساحة الأوروبية وكذلك رغبة العثمانيين فى تكوين إمبراطورية مترامية الأطراف يكون جناحها الشرقى هو المشرق العربى لا تستند إلى دليل تاريخى، وأن هذه النظرة للتاريخ العثمانى قد خضعت لأدلة من فترة ضعفه لاينبغي أن تكون دليلا لطمس الحقائق التاريخية لطبيعة هذا الدور برمته .

فقد اندفع الأسبان والبرتغاليون بروح دينية صليبية متعصبة ضد الشرق الإسلامى حيث أغرتهم انتصاراتهم الدينية على المسلمين فى الأندلس ونجاحهم فى طرد المسلمين منه، ولقى اتجاههم هذا تأييدا من البابوية فى روما بنفس القدر الذى أثارت به حماسهم طوال حربهم فى الأندلس (٩)، ونجحت القوات الأسبانية والبرتغالية فى احتلال العديد من المراكز والموانئ الساحلية فى الشمال الأفريقى مثل سبتة ومليلة وطنجة وأصيلا ووهران وغيرها. ووضعت خططها للإجهاد على بقية هذا الساحل ثم الوثوب منه إلى مصر والجزيرة العربية، وارتفعت الشعارات الحماسية الداعية إلى إعادة المسلمين إلى صحراء العرب التى انطلقوا منها، بل وذهبت هذه الشعارات إلى حد المناداة بنبش قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة وهدم الكعبة وإنهاء الوجود الإسلامى من

أساسه (١٠)، ولكن هذه المخططات قد واجهت صعوبات شديدة بسبب حركة الجهاد الإسلامى المتمثلة فى دور الأخوين عروج وخير الدين بربروسا فى البحر المتوسط، وقد لقيت هذه الحركة دعما قويا من الدولة العثمانية مما أسهم فى استمرار صمودها وتقويتها واستعادتها لعدة مراكز من القوات الأسبانية والبرتغالية .

وأدى هذا - مع عوامل أخرى - إلى تحويل مسار الدور الأسباني إلى الغرب بدوافعه الاقتصادية والدينية عبر المحيط الأطلسى، ودفع للدور البرتغالى إلى الالتفاف حول إفريقيا للوصول إلى الشرق الإسلامى، وقد تأكدت حقيقة الدور البرتغالى من خلال عديد من المسلمين واليهود الفارين من الأندلس حيث قدموا للسلطان العثمانى الخطط التى وضعها البرتغاليون لتنفيذ مخططاتهم العدائية ضد المقدسات الإسلامية مدعمة بالخرائط، وتضمنت هذه المخططات ما يشير إلى تقارب صفوى برتغالى يوضح أطماع الصفويين فى المشرق العربى واتجاههم المعادى للدولة العثمانية (١١) .

ومما زاد من تأكيد العثمانيين من صدق هذه المخططات مسيرة الأحداث نفسها، ففي الوقت الذى تدخلت فيه القوات الصفوية واحتلت العراق سنة ٩١٤ هـ - ١٥٠٨ م ثم ازداد نفوذهم فى الشام والحجاز، كان البرتغاليون قد بدأوا بالفعل فى تنفيذ مخططاتهم فاصطدموا بالمماليك وهزمهم فى معركة ديو البحرية سنة ٩١٥ هـ - ١٥٠٩ م (١٢)، وبعد عدة أشهر من هذه المعركة تمكن شريف مكة الشريف بركات من القبض على ثلاثة من الجواسيس البرتغاليين داخل مكة سنة ٩١٦ هـ - ١٥١٠ م، وتعرف الشريف منهم على ما يؤكد عزم بلادهم على الاعتداء على هذه المناطق، فأرسلهم إلى السلطان المملوكى فى مصر قنصوه الغورى كي يقف بنفسه على حقيقة الأمر (١٣) .

وفى هذه الفترة كان البرتغاليون قد وصلوا إلى مداخل البحر الأحمر، وحاولوا الاستيلاء على عدن ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك فاستولوا على جزيرة سوقطرة سنة ٩١٢ هـ - ١٥٠٦ م، واستعملوا العنف والحرق ضد السفن والمدن الإسلامية، و لم تنجح القوى المملوكية فى مواجهة هذا الخطر (١٤) . وحاول البرتغاليون احتلال ميناء جدة والوصول إلى المدن المقدسة فجهزوا حملة برية لذلك لكن عاصفة شديدة قد منعت هذه الحملة من الوصول إلى المنطقة (١٥) .

وفى جهة الشمال الإفريقي تمكن الأسبان من احتلال برقه وتكوين العديد من الدويلات الصغيرة سنة ٩١٦هـ - ١٥١٠م (١٦)، وتوالت انتصاراتهم برغم حركة الجهاد الإسلامى، وازداد دور فرسان القديس يوحنا فى البحر المتوسط، وقد أبت هذه الأمور إلى استنجد الكثيرين من شعوب هذه المنطقة بسلطان الدولة العثمانية باعتبارها أقوى الدول الإسلامية لدرجة دعت قاضى بجاية وغيره من الفقهاء أن يكتبوا إلى السلطان العثمانى قائلين " إن بلادنا لك أو للذنب " (١٧) .

ولم يكن أمام السلطان العثمانى كممثل لدولة اعتبرت نفسها دولة إسلامية لا تقل عن الدولة الإسلامية الأولى (١٨)، وأقامت كيائها السياسى الأول وكذلك كافة مراحل تطوره باسم الإسلام وتحت رايته إلا أن يوقف جهوده - مؤقتا - فى التوسع على الساحة الأوروبية ويسرع إلى الشرق لـتـرقب تطورات الموقف والإعداد لمواجهة بما يحقق المصلحة السياسية لبلاده.

ومع أن هذه العوامل التى تعرض لها المشرق العربى الإسلامى كانت دافعا - أو مبررا - قويا ومقتعا للتدخل العثمانى وبخاصة بعد هزيمة المماليك سنة ٩١٥هـ - ١٥٠٩م، إلا أن العثمانيين لم يخططوا لذلك أو يسعوا له، فقد بادر السلطان العثمانى بمساندة الأسطول المملوكى بأسطول شاركهم فى التصدى لهجوم من فرسان القديس يوحنا تساعده قوات برتغالية بالقرب من الإسكندرية سنة ٩١٦هـ - ١٥١٠م (١٩)، كما قام العثمانيون بإرسال معونة عسكرية من المدافع والبارود والمؤن البحرية إلى المماليك سنة ٩١٧هـ - ١٥١١م، وأرسلوا كذلك العديد من بناء السفن والبحارة للمساعدة فى إعادة بناء الأسطول المملوكى الذى تحطم فى ديو البحرية، وكان الهدف الرئيسى من ذلك هو تعضيد موقفهم للتصدي للمخططات البرتغالية (٢٠) .

ولم يقف الأمر بالسلطان العثمانى عند هذا الحد، إدراكا منه لخطورة الموقف، بل إنه قبل عرضا مملوكيا بعقد حلف رسمى بينهما سنة ٩١٩هـ - ١٥١٣م يقضى بالتنسيق بينهما لمواجهة الخطرين البرتغالى والصفوى (٢١) . ولا شك أن ذلك التحالف قد أسهم فى اطمئنان العثمانيين تجاه المماليك، وجعلهم يوجهون جهودهم للجبهة الإيرانية التى كانت قد ازدادت خطورتها، فقد فتح الشاه " إسماعيل الصفوى " بلاده لعديد من الثائرين والمتمردين على السلطان العثمانى، وأمدتهم بالعتاد والسلاح لمحاربة القوات العثمانية من جهة

وليكونوا في مقدمة جيشه حين حدوث صدام كان متوقعا بينه وبين القوات العثمانية من ناحية أخرى . ومن الأمور التي دعت الشاه " إسماعيل الصفوى " لأن يوجه سياسته إلى العثمانيين في الشمال دون الاهتمام بالمناطق الجنوبية والغربية في الخليج العربي، وهو اتجاه اتسمت به سياسته منذ بداية عهده، أن البرتغاليين قد أبدوا توددا كاملا له بشكل طمأنه على سلامة أراضييه، وكان البرتغاليون يهدفون من وراء توددهم للصفويين أن تتاح لهم فرصة تحقيق أهدافهم في إيجاد مراكز لهم في الخليج العربي، وكانوا يدركون أنهم إذا لم يكسبوا ود الصفويين فإن تعاون قوتهم مع القوى المحلية في الخليج العربي قد يؤدي إلى فشلهم في تحقيق أهدافهم ولا سيما أن مشروعاتهم في إيجاد مراكز نفوذ في البحر الأحمر قد منيت بالفشل إلى حد كبير.

وتبدو سياسة البرتغال الرامية إلى التحالف مع الصفويين في رسالة أرسلها للبوكيرك إلى الشاه إسماعيل الصفوى جاء فيها " إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك، وأعرض الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد " (٢٢)، وقد تضمن مشروع التحالف البرتغالي الصفوى تقسيم المشرق العربي إلى مناطق نفوذ حيث اقترح أن يحتل الصفويون مصر والبرتغاليون فلسطين (٢٣) .

ومن جهة أخرى كان الصفويون قد حاولوا عن طريق بعض العناصر الشيعية الموالية لهم والمنتشرة في الأناضول القيام بثورة داخلية ضد الحكم العثماني السني، وبالفعل تمكنوا من إشعال ثورة بزعامة " شاد قولى " في نهاية عهد "بايزيد الثاني" أخمدها ابنه "سليم الأول" في بداية توليه الحكم، وقد أدى ذلك إلى اتخاذ "سليم" سياسة تتسم بالحذر تجاه العناصر الشيعية الموجودة في بلاده، وسعى لمحاصرة نشاطهم واضطهاد بعضهم اضطهادا وصل إلى حد القتل . ورد الصفويون على ذلك بإقامة مذابح جماعية للعناصر السنية الموجودة في بلادهم، ثم للتحرش بالقوات العثمانية على الحدود، وأدى ذلك إلى التقاء قوات الدولتين في سهل جالديران سنة ٩٢١ هـ - ١٥١٤م وانتهت المعركة بانتصار القوات العثمانية انتصارا ساحقا احتلت على أثره العاصمة الصفوية لبعض الوقت (٢٤)،

وقد دعت هذه الأحداث في مجملها لأن يحمل المؤرخ "أرنولد تويني" الجانب الصفوي مسئولية الصدام بين هاتين القوتين الإسلاميتين (٢٥) . وأسهمت هذه الهزيمة في قبول الشاه "إسماعيل الصفوي" لعقد اتفاقية هرمز مع البرتغاليين أقر فيها الجانب الصفوي باستيلاء البرتغاليين على هرمز في مقابل مساعدته على غزو البحرين والقطيف إلى جانب تعهدهم بمساندته ضد القوات العثمانية (٢٦)، وأن يتنازل للبرتغاليين عن ميناء "جوانر" على ساحل بلوشستان مقابل فتح "جوار" للتجار الإيرانيين (٢٧) .

وإذا كنا نتفق مع الدكتور "محمد أنيس" في رفضه الأخذ بنظرية "أرنولد تويني" القائلة بأن إدراك الصفويين والعثمانيين لعدم قدرة أي منهما لإحداث هزيمة كاملة بالآخر تؤدي إلى سيطرة أحدهما على أراضي الآخر وإخضاعه لسيادته، وأن ذلك الإدراك قد أسهم في انتقال الصراع بينهما إلى المناطق المجاورة في المشرق العربي وسعى كل منهما للسيطرة عليها وهو أمر أدى إلى مهاجمة العثمانيين للشام ومصر والحجاز، حيث كان بإمكان القوات العثمانية هزيمة القوات الصفوية هزيمة كاملة وإخضاع الأراضي الإيرانية لسيطرتها بعد معركة جالديران، إلا أننا نختلف مع "الدكتور أنيس" في تفسير أسباب التدخل العثماني في التوسع على حساب هذه الأراضي التي كانت خاضعة للمماليك حيث فسر ذلك برغبة العثمانيين في التوسع على حساب هذه الأراضي من ناحية وإلى التسابق العثماني البرتغالي على الاستيلاء على مفااتيح البحار العربية وهي البحر الأحمر والخليج العربي من ناحية أخرى .

وبقدر ما كان موقف العثمانيين تجاه الصفويين موقفا دفاعيا — في الغالب — وليس موقفا هجوميا كما اتضح من مسيرة الأحداث، فإن موقف العثمانيين تجاه المماليك كان كذلك، فقد سبق أن أوضحنا قيام العثمانيين بمساندة المماليك وإمدادهم بالعتاد والسلاح لتقوية موقفهم أمام البرتغاليين، ومساندتهم للأسطول المملوكي في البحر الأحمر والعمل على إعادة بنائه، وكذلك الوقوف إلى جانبهم في البحر المتوسط أمام فرسان القديس يوحنا، ثم قبول التحالف معهم لمواجهة الخطر البرتغالي المتزايد، ولا شك أن هذه المواقف من قبل العثمانيين تجاه المماليك تدعو لعدم قبول الرأي القائل برغبة العثمانيين في التوسع على حساب المماليك، فليس من المعقول أن يمد العثمانيون المماليك بمعونات ضخمة وبخاصة المعونات العسكرية وهم يبيتون النية أو يخططون للتوسع في أراضيهم .

وتؤكد العلاقات العثمانية المملوكية هذه الحقيقة، فعلى الرغم من حدوث بعض المعارك بين الجانبين على الحدود الشمالية للمماليك في بلاد الشام إلا أنها لم تحتكم إلى حد التهديد بحدوث حرب شاملة بينهما، وإن كانت قد أسهمت في أن يخيم شعور بعدم الثقة بينهما الأمر الذي أدى إلى تعثر مفاوضات الصلح سنة ٨٩٧هـ-١٤٩١م . ومع أن السلطان المملوكي " قايتباي " قد ساورته مخاوف من احتمال قيام حرب واسعة بينه وبين العثمانيين سواء لإدراكه ما كان عليه العثمانيون من قوة أو لانشغال جزء هام من قواته في مواجهة البرتغاليين، إلا أن السلطان العثماني " بايزيد الثاني " قد بدد له هذه المخاوف حيث قام بإرسال رسول من قبله إلى السلطان المملوكي سنة ٨٩٧هـ-١٤٩١م ومعه مفاتيح القلاع التي استولى عليها العثمانيون على الحدود .

وقد لقي هذا الأمر ترحيباً لدى السلطان المملوكي فقام بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين . وأسهمت هذه الأمور في عقد صلح بينهما في نفس السنة ٨٩٧هـ-١٥١٢م ، وأكدت هذه الأحداث عدم وجود نية للتوسع لدى العثمانيين على حساب الأراضي المملوكية (٢٨) .

على أن الخلاف بين العثمانيين والمماليك على عهد سليم الأول وقنصوه الغوري يتحمل المماليك جانباً كبيراً منه، فقد بدأ ذلك بسبب استيلاء العثمانيين على إحدى الإمارات الموجودة على الحدود المملوكية في بلاد الشام سنة ٩٢١هـ -١٥١٥م، وكانت هذه الإمارة برغم استقلالها، ووجود صلة قرابة بين حاكمها وبين السلطان العثماني، تحت السيادة الإسمية للمماليك . ويرجع السبب الرئيسي في استيلاء العثمانيين على هذه الإمارة (ذي قار) وقتل حاكمها إلى موقفه المعادي للقوات العثمانية أثناء مرورها لملاقاة القوات الصفوية حيث رفض تزويدها بالإمدادات وتقديم أي مساعدة لها، ومنع أتباعه أن يبيعوا لهذه القوات المأكّل أو يمدوها بالمياه وغير ذلك (٢٩) .

وعلى الرغم من قيام السلطان العثماني بإبلاغ السلطان المملوكي بما تم تجاه هذه الإمارة وموضحاً له الأسباب التي دعت له للإستيلاء عليها مبدئياً حرصه على ألا يؤدي ذلك إلى إثارة الخلاف بينهما، إلا أن القوة التي ظهرت بها القوات العثمانية أمام الصفويين وهزيمتها لهم قد أثارت مخاوف السلطان المملوكي وهو ما عبر عنه ابن إياس بقوله " وقد ملك ابن عثمان غالب بلاد الصوفى من ممالك الشرق فلم يرسم السلطان بدق الكوسات لهذا الخبر وكذلك الأمراء أخذوا حذرهم

من ابن عثمان وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان المملوكى .

وبدأ السلطان الغورى فى اتباع سياسة تتسم بالعداء تجاه العثمانيين، وحدد ابن إياس هذه السياسة بمحاولة المماليك إثارة بعض القادة على العثمانيين فى إمارة الحدود التى سيطروا عليها، كما أوى الغورى أحد أبناء الأمير العثمانى الذى قتلته السلطان سليم وهو " قاسم العثمانى " واتخذته أداة لتهديد العثمانيين، وفوق ذلك قام بالاتصال بالشاه " إسماعيل الصفوى " وأكد له وقوف القوات المملوكية إلى جانبه فى أى جولة قادمة للقتال بينه وبين العثمانيين (٣٠) .

وعلى أثر تحرك القوات العثمانية تجاه الأراضى الفارسية سنة ٩٢٢هـ ١٥١٦ م تحرك الغورى على رأس قوات مملوكية حتى وصل بها إلى الحدود العثمانية وهدد القوات العثمانية المرابطة على الحدود، فأرسل السلطان سليم العثمانى رسلا يعرضون للصلح على السلطان الغورى وسلموه رسالة من السلطان سليم تحتوى على عبارات التودد والاحترام ، فقبل الغورى الصلح وقور إرسال سفراء لهذا الغرض للسلطان العثمانى (٣١) .

ومع أن أعمال السلطان المملوكى وبخاصة تحالفه مع الصفويين قد أثارت السلطان العثمانى وجعلته يرتاب فى موقف المماليك وأن الصلح بينهما بالتالى، وكما توحى مسيرة الأحداث، كان لمجرد كسب الوقت حتى ينتهى من أعماله أمام الصفويين، وحتى لا يصطدم بالقوتين الصفوية والمملوكية فى وقت واحد إلا أن الرغبة فى التوسع على حساب الأراضى المملوكية لم تدر بخلد السلطان سليم، ففى أعقاب الصدام الذى حدث بينه وبين المماليك فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ ١٥١٦ م أدرك سليم أنه قد نجح باستيلائه على الشام فى القضاء على التحالف الصفوى المملوكى (٣٢)، وأبدى رغبته فى عدم استمرار القتال مكتفيا بسيطرته على الشام كى تصبح حائلا بينه وبين هجوم مملوكى جديد أو بين عودة التحالف الصفوى المملوكى الذى يعد من أهم أسباب صدامه مع المماليك كما ذكر ابن أبى السرور البكرى (٣٣) .

لكن السلطان العثمانى على الرغم من ذلك أراد أن يضمن ولاء المماليك فى مصر له، وألا يعودوا لمحاولة الصفويين، فكتب إلى طوماتباى، السلطان المملوكى الذى تولى بعد موت الغورى، يطلب منه أن يجعل الخطبة والسكة باسمه، وقيل إنه طلب منه أن يمثل أمامه لتأكيد ذلك وفى نفس الوقت طمأنه على

سلامته ودولته، ولكن السلطان المملوكى رفض ذلك وبدأ فى الاستعداد لجولة جديدة مع العثمانيين دون أن يرد على رسائل سليم المتكررة مما جعل سليم يستعد لإرسال قواته إليه حتى يفرغ للقوات الصفوية ولمقاومة الأطماع البرتغالية (٣٤) . وعند وصول القوات العثمانية إلى مصر، وقبل وقوع الحرب بينها وبين القوات المملوكية أرسل السلطان المملوكى طوماتباى يعرض الصلح على السلطان العثمانى مشروطا عليه أن يسحب جيشه ويخرج من مصر مقابل أن تكون الخطبة والسكة باسمه، وقبل السلطان سليم هذا العرض وأرسل رسالة من كبار علماء الدين للتفاوض مع طوماتباى، لكن بعض معارضى طوماتباى من المماليك هاجموا سفراء السلطان العثمانى وطاردهم فأدرك سليم أنه موقف من طوماتباى، وأن هذا العرض خدعة حتى يأخذ فرصة للاستعداد وأقدم على الحرب (٣٥) .

ويذكر المؤرخ " أحمد بن زنبيل الرمال " قول السلطان سليم الأول لطوماتباى بعد هزيمة الأخير فى معركة الريدانية وقبل أن يعدم " والله ما كان قصدى أذيتك، ونويت الرجوع من حلب، ولو أطعنى من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمى ما جئت لك ولا دست أرضك " (٣٦) .

ويتضح من خلال استعراض الصراع الصفوى العثمانى وكذلك الصراع المملوكى العثمانى أن الصفويين والمماليك، كلا على حدة، هم الذين بدأوا بالتحرش بالقوات العثمانية، وأن الدولة العثمانية كانت مضطرة للدخول فى حوب مع كل منهما، وبالتالي فإن نية التوسع فى الشرق لم تكن هدفا سياسيا لدى أى من السلاطين العثمانيين قبل وقوع هذه الأحداث أو أثناءها . وإذا كانت التهديدات الصفوية المتكررة من بين الأسباب التى دعتهم للعودة إلى الساحة الشرقية فإن خطر فرسان القديس يوحنا فى البحر المتوسط كان على رأس الأسباب التى دعت السلطان العثمانى لأن يوقف فتوحاته العسكرية على الساحة الأوروبية ويعود إلى الشرق، فتحالف مع القوات المملوكية لهذا الغرض فى البداية، ثم تحمل العبء الكامل فى مقاومة هذه الأخطار بعد سقوط الحكم المملوكى (٣٧)، ونستدل على ذلك بما قاله السلطان سليم الأول العثمانى لطوماتباى آخر سلاطين المماليك بعد أن هزمه فى معركة الريدانية " أنا ما جئت عليكم إلا بفتوى علماء الأعصار والأمصار، وكنت متوجها إلى جهاد الرافضة " ويعنى بهم الصفويين " والفجار، ويعنى بهم البرتغاليين وفرسان القديس يوحنا " فلما بغى أميركم الغورى وجاء بالعساكر إلى حلب واتفق مع الرافضة واختار أن يمضى إلى مملكتى التى هى

ورث آبائي وأجدادي، فلما تحققت تركت الرافضة ومشيت إليه "، والذي يدعونا للأخذ والاستدلال بقول السلطان العثماني هو أنه كان قد انتصر ولم يكن في حاجة إلى أن يظهر خلاف ما يبطن أو غير ذلك (٣٨) .

وقد ظل طابع الجهاد هو الطابع الذي يميز الدور العثماني تجاه البرتغاليين فحينما استغاث بعض المسلمين في الهند بالسلطان العثماني سنة ٩٤٣هـ — ١٥٣٧م، استجاب السلطان لهم فأرسل إلى واليه في مصر " سليمان باشا الخادم " يقول " عليك يا بك البكوات بمصر سليمان باشا أن تقوم فور تسلمك لأوامرنا هذه بتجهيز حقيبتك وحاجتك وإعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء فبئك إذا قطعت الطريق وأزلت السبيل المؤدية إلى مكة والمدينة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهن من البحر " (٣٩) .

أما الرأي القائل بأن الفتح العثماني على الساحة الأوروبية قد توقف ووصل إلى أقصى مدى يمكن أن يصله، وأن القوات العثمانية على هذه الجبهة قد أصبحت في وضع الدفاع لا في وضع الهجوم ولهذا اتجهت إلى الساحة الشرقية فهو رأي لا يستند إلى دليل تاريخي، فتثبت الأحداث التي دارت على هذه الساحة في عهد السلطان سليمان القانوني عدم صواب هذا الرأي حيث استطاعت هذه القوات الاستيلاء على عدة أراضى حتى استولت على بلجراد سنة ٩٢٨هـ — ١٥٢١م، وحينما عاودت المجر إعلان التمرد على العثمانيين قامت القوات العثمانية والتقت مع القوات الأوروبية المتحالفة فيها وسحقته في معركة موهاكز سنة ٩٣٣هـ — ١٥٢٦م، وأصبح الطريق في وسط أوروبا وحتى فيينا مفتوحا أمام القوات العثمانية، كما استولت القوات العثمانية على العاصمة المجرية " بودا " وضاحتها " بست " . وأعد السلطان " سليمان القانوني " حملة عسكرية للسيطرة على فيينا سنة ٩٣٦هـ — ١٥٢٩م، وكادت أن تستولي عليها لولا عوامل مناخية حيث حل فصل الشتاء واشتد البرد على القوات العثمانية مما اضطرها لفك حصارها للمدينة .

وفي جبهة البحر المتوسط تمكنت القوات العثمانية من الإستيلاء على جزيرة رودس التي كانت معقلا لفرسان القديس يوحنا، وعلى بعض مناطق في إيطاليا، كما منحت فرنسا — التي تحالفت مع الدولة العثمانية لفترة محدودة — جزيرة طولون للقوات العثمانية لاتخاذها قاعدة بحرية .

وهكذا يتضح أن الدافع الرئيسى لعودة العثمانيين إلى الشرق كان دافعا دينيا قبل أن يكون دافعا سياسيا أو توسعيا، وكان أساسه الرغبة فى حماية العالم الإسلامى من هجوم صليبي استعماري فى المقام الأول، وحماية الجناح السنى فى المشرق الإسلامى من هجوم شيعى فى المقام الثانى، وبالتالي فإن الوجود العثمانى فى المشرق العربى الإسلامى يعد فتحا باسم الدين وليس غزوا واحتلالا كما ذهب كثير من المؤرخين (٣٩)، وكما ورد فى الميثاق الوطنى الذى أصدرته الحكومة المصرية سنة ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢م والذى ذكرت فيه " أنه احتلال باسم الدين وأن الدين منه براء " .

العثمانيون وتهمته فرض العزلة على المشرق العربى الإسلامى

اعتبر كثير من المؤرخين الأوروبيين والعرب أن السبب الرئيسى فى تخلف المشرق العربى يرجع فى المقام الأول إلى العزلة التى فرضها العثمانيون عليه ما يقرب من ثلاثة قرون، وأعتبروا هذه العزلة فى مقدمة السوءات التى يتسم بها نظام الحكم العثمانى للوطن العربى .

وبقدر ما يعبر ذلك من قبل المؤرخين الأوروبيين عن غرور أوروبى يتمثل فى جعل الحضارة الأوروبية محورا أساسيا لتاريخ تقدم أو تخلف الشعوب، بل وحتى يبدو فى تحديد مواقع الشعوب الأخرى من أوروبا كالمشرق الأوسط والأدنى والأقصى وغير ذلك، فإن موقف المؤرخين العرب يعبر فى أغلبه عن نزعة استسلام وانهازامية نتجت عن اتبهارهم بمعطيات هذه الحضارة ومظاهرها وإحساسهم بالعجز تجاهها كان من أول آثاره التزامهم بالتبعية الفكرية وانسياقهم وراء تحليلات المؤرخين الأوروبيين للتطور التاريخى .

وحتى تلك المحاولة التى قدمها الدكتور " عبد العزيز الشناوى " فى كتابه " الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها " والتى حاول خلالها - من منظور إسلامى - أن يبرهن على أن العثمانيين لم يفرضوا تلك العزلة على المشرق الإسلامى من خلال إثباته لمجموعة معاهدات واتفاقيات تجارية عقدها العثمانيون بين كل من جنوة والبندقية وفرنسا ثم إنجلترا وبين ولايات المشرق العربى الإسلامى، وأن الولايات العربية هى التى تقاعست عن العمل بهذه المعاهدات، فإنه مع ذلك قد برهن على جعل العزلة عن الحضارة الأوروبية هى السبب الرئيسى فيما حاق بالمشرق العربى الإسلامى من تخلف وجمود، كما سار فى

نفس الإتجاه الدكتور " محمود غرايبة " حين حاول أن يلقى بتبعية التخلف والجمود على العرب أنفسهم وأنهم أرادوا أن يلقوا تبعة كسلهم وسلبيتهم على العثمانيين فابتعدوا عن مجرى الأحداث السياسية والعسكرية وفقدوا اهتمامهم بها ولم يشاركوا فى أحداثها (٤٠)، حيث أكد بهذا التفسير كذلك أن عدم الاحتكاك بحضارة الغرب سواء أكان بسبب العثمانيين أم بسبب العرب يعد عاملا أساسيا فى تخلف وجمود المشرق العربى .

وقبل أن ندلل على أن العثمانيين لم يفرضوا العزلة على المشرق الإسلامى فإتينا نوضح بداية أن ذلك ليس تسليما بأن الابتعاد عن الحضارة الأوروبية مهما كانت أسبابه يعد العامل الرئيسى فى التخلف والجمود بل إن ذلك يرجع فى المقام الأول إلى وجود اتجاه إسلامى عام كان وما زال يرفض الانفتاح الكامل على الحضارة الغربية لما يحسه المسلم والشرقى فى الغالب فى نظرة الغرب المتعالية والمشوبة بالحق والكراهة له، وقد أسهمت عديد من العوامل فى تكوين هذا الإحساس لعل من أهمها ذلك الرصيد التاريخى الذى خلفته الحروب الصليبية التى أشعلت جذوة الصراع الدينى بين الشرق والغرب والتى استمرت تأخذ أشكالا عدة عبر مراحل التاريخ الحديث (٤٥) . وتبع ذلك اتجاه المفكرين الغربيين إلى التقليل من شأن الحضارة الإسلامية وإنكار استفادتهم منها بل وإرجاع الجوانب المضيئة فيها إلى حضارات أوروبية قديمة كاليونانية والرومانية .

العثمانيون لم يفرضوا العزلة على المشرق العربى الإسلامى

سعت الدولة العثمانية منذ بداية فتحها للمشرق العربى الإسلامى إلى ربطه بالعالم الخارجى وبأوروبا على وجه الخصوص، فقد عقد السلطان سليم الأول معاهدة مع جمهورية البندقية سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م، بقصد إحداث تبادل تجارى بينها وبين ممالك مصر ولكونهم قد أضرروا معا بسبب تحول طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح (٤٦). وفى سنة ٩٤٢هـ - ١٥٣٥م، عقد السلطان سليمان القانونى معاهدة مع فرنسا حصلت فرنسا بمقتضاها على امتيازات اقتصادية متعددة داخل الولايات العثمانية وهى الامتيازات التى طالبت دول أوروبية أخرى أن تحصل على مثلها وفى مقدمتها إنجلترا، واستجابت الدولة العثمانية لهذه المطالب وعقدت معاهدة مماثلة مع الإنجليز (٤٧).

وإذا كانت الدولة العثمانية قد نجحت في فرض حظر كامل على السفن الأوروبية من دخول البحر الأحمر بسبب نزعتها الدينية المعادية للمسلمين والمقدسات الإسلامية، وأن تلك السياسة قد أدت إلى حدوث ركود اقتصادي لموانئ البحر الأحمر، إلا أنها بعد أن استقرت أوضاعها في المشرق العربي الإسلامي في أواخر القرن العاشر والحادي عشر الهجريين السادس عشر وأوائل السبع عشر الميلادي قد فتحت الباب لتنافس شركات تجارية غربية كشركة الهند الشرقية البريطانية والشركة الهولندية لإقامة الوكالات التجارية في أحد موانئ البحر الأحمر وهو ميناء المخا حيث تنزل البضائع والتوابل والأقمشة الهندية (٤٨) .

وإلى جانب ذلك فقد عادت الحيوية إلى عديد من الطرق التجارية القديمة بين بلدان المشرق العربي الإسلامي، فضلا عن تدعيم الدولة العثمانية لحركة التبادل التجاري بين الموانئ الإفريقية سواكن ومصوع وبلاد الحبشة وبين ميناء جدة وبقية المدن الحجازية المقدسة (٤٩) .

إيجابيات عزلة المشرق العربي عن الغرب الأوروبي

على الرغم من حرص الدولة العثمانية على دوام تدعيم العلاقات الاقتصادية بين المشرق الإسلامي وبين أوروبا إلا أن سياستها تجاه تحركات الدول الغربية العسكرية صوب المشرق والتي ظهرت بطابع ديني عدائي قد اتسمت بالحذر والحيلة الكاملة، واستطاعت هذه السياسة أن توفر عوامل الأمن والأمان للشوق العربي الإسلامي، ومع أن سياسة الحذر هذه كان لها تأثيرها غير المباشر على عدم السماح بالتبادل الثقافي بين المشرق والغرب إلا أن المسلمين في الولايات العربية أنفسهم لم يبد لديهم قبول للأخذ عن الثقافة الغربية لاستقرار حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إلى جانب تأثرهم بالرصيد التاريخي للغرب والذي يحمل طابع العداء في عديد من المراحل .

ولم يكن باستطاعة الدولة العثمانية أن تسعى لإحداث تغييرات في النظم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى الدور الدفاعي الذي كانت تتولاه ضد القوى الأوروبية وعلى جميع الجبهات سواء على الساحة الأوروبية أم في الهجمات الأوروبية على البحار والموانئ الإسلامية في البحرين الأحمر والأبيض المتوسط وفي منطقة الخليج العربي، كما تعرضت هذه الدولة

لحروب من قبل الروس فى الشمال . وقد استوجب هذا الدور إتفاق الدولة لأموال طائلة فى الحروب المتوالية لم تمهلها للقيام بالعديد من جوانب الإصلاح فى الداخل . كما أن الدول الأوروبية قد استغلت انشغال الدولة بهذه الحروب أو ضعفها بسببها وشجعت أصحاب الأطماع الشخصية من حكام الولايات العثمانية على إعلان التمرد والعصيان الأمر الذى أدى إلى مزيد من إضعافها بدلا من مساعدة هذه الولايات لها فى مسئولية الدفاع المتواصلة ضد الأطماع الروسية والغربية .

ويأتى فى المقام الثانى ضعف الرصيد الحضارى العثمانى بسبب هذه العوامل وبالتالي بدا نظام الحكم العثمانى عاجزا وخاليا من الخطط الإصلاحية لإحداث تغييرات فى نظام الدولة أو فى أحوالها الداخلية .

وإذا كان لنا أن نسلم بمسئولية الدولة العثمانية فى تدعيم النظام الإقطاعى فى كل ولاياتها فذلك يرجع إلى أنه كان للنظام السائد الذى قام عليه نظامها منذ بداية تكوينها السياسى، لكن الضعف الذى ألم بالحركة التجارية والحرفية (الصناعية) فقد كان بفعل عوامل أخرى سابقة للوجود العثمانى فى المشرق العربى حيث كان الوصول إلى طريق رأس الرجاء الصالح وتحول طريق التجارة إليه منذ ٩٠٤هـ - ١٤٩٨م، وما ترتب عليه من إهمال لطرق التجارة القديمة عبر المشرق العربى الإسلامى هو السبب الرئيسى فى ضعف النشاط التجارى والحرفى وبالتالي ضعف الطبقة الاجتماعية التى كانت تعتمد عليه اعتمادا رئيسيا .

ومن جانب آخر فإننا لو جارينا الذين يتباكون على الابتعاد عن أوروبا استعمارا وحضارة ويرجعون إلى ذلك كل أسباب ما أصابنا من تخلف وجمود ويلقون بالتبعة فى هذا على العثمانيين دون أن يذكروا لهم فضل الحماية من هذه الهجمة الصليبية الاستعمارية الشرسة وحفاظهم على استمرار مقومات الترابط والوحدة بين أقطار المشرق العربى بعد أن ظل إبان الحكم العثمانى وطنا واحدا دون حواجز، فإن لنا أن نعرض العديد من نماذج الشعوب التى تعاملت مع الأوروبيين - ولم يجدوا من يفرض عليهم عزلة - منذ مطلع العصور الحديثة وطوال الوجود العثمانى " المذموم " فى المشرق العربى .

وأول هذه النماذج القارة الإفريقية التى تعرضت - طوال أربعة قرون - لأسوأ صورة من صور الإستغلال والقهر من قبل الأوروبيين فى العصر الحديث فقد بدأت البرتغال بافتتاح صفحة للرق فى هذه القارة . وقد ربط الكتاب الغربيون

بين هذا الاتجاه وبين الدافع الدينى بصورة تبدو إنسانية، حيث بدأت هذه التجارة حين استطاع أحد الملاحين البرتغاليين أن يأسر عددا من المواطنين الإفريقيين ثم اصطحبهم معه لتعليمهم مبادئ الديانة المسيحية وحتى يعودوا لبلادهم ليسهموا فى نشر الدين المسيحى بين ذويهم من الأفارقة . ولكن سرعان ما تحولت المسألة إلى شراء الأفارقة أو خطفهم ثم بيعهم للعمل فى البرتغال، ثم اتسعت هذه المسألة على كل الساحة الأوروبية، وأصبحت لشبونة فى البداية من أكبر العواصم الممتلئة بأسواق النخاسة إلى أن نافستها غيرها من العواصم الأوروبية (٥٠) .

وقبل أن تتوغل الدول الأوروبية داخل القارة الإفريقية وتركز وجودها فى مراكز ساحلية بلغ عدد ما وصل إلى الممتلكات البريطانية من الرقيق الأفارقة فى ست سنوات فقط ١٠٨٩ - ١٠٩٥ هـ (١٦٨٠ - ١٦٨٦م) ما يقرب من مليونين ونصف، مع العلم بأن هذا العدد هو عدد ما وصل حيا وهو أقل من نصف العدد الذى تم جمعه قبل الترحيل نظرا لأن الأفارقة كانوا يتعرضون لأسوأ أنواع الرعاية حيث كانوا يجمعون فى (زرايب) وكان أغلبهم يموتون قبل وأثناء رحلات ترحيلهم فيلقى بمن يموت منهم فى البحار، وقدّر البعض عدد ما وصل حيا من الرقيق الأفارقة إلى المستعمرات الأوروبية فى قرن واحد بـ ٤٠ مليوناً فى حين يقدره البعض الآخر بما لا يقل عن مائة مليون (٥١) .

وحين أرادت بعض الشركات الأوروبية استثمار المنتجات الإفريقية داخل القارة الإفريقية استولت على العديد من الأراضي وأقامت فوقها مستعمرات كاملة للأوروبيين طردت منها الأفارقة أو حولتهم إلى رقيق، ونتج عن هذه السياسة ما يسمى بالاستعمار الاستيطاني الموجود فى جنوبى إفريقيا الآن فضلا عن اتباع سياسة التفرقة العنصرية التى ما زالت تعاني منها القارة الإفريقية حتى الآن .

أما فى القارة الآسيوية فقد سارع الاستعمار الأوروبي بالقضاء على الإمبراطورية الإسلامية فى الهند ثم تقسيمها إلى مراكز نفوذ بين البلدان الأوروبية، كما استطاع الهولنديون الاستيلاء على جزر الهند الشرقية فى أغلبها، ولعل من أسوأ الصور البارزة للاستعمار الأوروبى فى آسيا التنافس الذى دار بين الدول الأوروبية منذ القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى على إخضاع الصين وتحويل عدد كبير من الصينيين إلى رقيق . كما قامت الشركات البريطانية، مدعومة من حكومتها، بالترويج لتجارة الأفيون واستطاعت أن

تستولى بهذه السموم على أغلب موارد الشعب الصينى وإضعافه اقتصاديا إلى جانب تأثير هذه السموم، وتمكنت بريطانيا بهذا من السيطرة على الصين، ومعها الدول الاستعمارية، حتى الربع الأول من القرن العشرين حين نجح " تيان تسن " (ت ١٩٢٥م) " وشيان كاي شيك " من إحداث ثورة شاملة حررت الصين من الاستعمار الغربى وأسهمت فى انضمامه إلى المعسكر الشيوعى الشرقى (٥٢).

وفى القارة الأمريكية تمكن المستعمرون الإنجليز والفرنسيون من استيطانها بعد أن تمكنوا من القضاء على سكانها الأصليين من الهنود الحمر، وأصبح هؤلاء السكان من أصحاب البلاد أقلية ليس لها نصيب فى الإشتراك فى إدارة بلادهم أو حتى المشاركة فى تحديد مصير أنفسهم حتى تاريخنا المعاصر، وتمثل الدول الأمريكية المعاصرة نموذجا آخر من الاستعمار الاستيطاني (٥٣).

ولاشك أن هذه الأمثلة المحدودة تؤكد أن الاستعمار الغربى قد استخدم أساليب شرسة لا تتسم بالطابع الإنسانى فى علاقته مع الشعوب الأخرى، ولو قدر له أن يتمكن من استعمار الشرق العربى الإسلامى فى هذه الهجمة فإن نصيبه كان سيصبح على الأقل مماثلا لنصيب هذه الشعوب وإن كان سيزيد عليها بحكم الرصيد التاريخى من العداء الدينى الذى كان ملحوظا فى موقف الاستعمار فى كافة مراحل هذه الموجة الإستعمارية . وإذا كانت أوروبا المعاصرة قد بدت فى أعين الدارسين الشرقيين واحة من الأمان والرخاء والإنسانية والرقى العلمى فإن هذه المظاهر لم تبد جليلة إلا فى أعقاب الحروب الدامية العالمية الأولى والثانية التى كانت تعبر عن صراع المطامع بين بلدانها على الإستمرار فى قهر الشعوب الأخرى، كما أن هذه المظاهر بكل ما يحيطها من تقدم وتمدين ترجع فى أساسها إلى دماء الشعوب الأخرى التى ما زالت تعاني من جراء سياسة الاستغلال والقهر هذه وإن كانت قد تلاشت بأسلوبها القديم فى الغالب فإتباعها مستمرة وبأساليب جديدة يأتى فى مقدمتها الاستعمار الاقتصادى والفكرى، وكذلك إغراق الشعوب المطحونة فى مشاكل متعددة حتى تبعد بينها وبين سياسة التنمية كى تظل فى إطار التبعية والاستغلال . وبالتالي يمكن القول بأن المظاهر الإنسانية المفرطة فى بعض الأحيان التى تظهر فى أوروبا المعاصرة هى رد فعل لسياسة طويلة من اللاإنسانية، كما أنها إنسانية مبتورة لاقتصارها على مساندة جنس دون آخر وخضوعها لمبدأ المصلحة أكثر من التزامها بمفهوم ثابت للقيم الأخلاقية .

إن كثيرا من الدول التى استطاعت أن تبني نفسها من الداخل قد اتبعت سياسة العزلة عن السياسة الأوروبية وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية على الرغم من أنها وليدتها، والإتحاد السوفيتى والصين وغيرها، وقد لا يستطيع المشرق العربى أن يفرض عزلة جديدة على نفسه بحكم أنه بموقعه وخيراته على الأقل مازال مستهدفا من قبل الإستعمار الأوروبى بشكله الحديث . ولو أنه نجح فى هذه السياسة ونجا من فرض المشكلات الأوروبية فإنه يستطيع فى غضون مدة زمنية أن يشهد تنمية أوسع مما هو عليه الآن، لكن الاستعمار الغربى لن يتركه، ولعلنا نناجى العصر العثمانى مرة أخرى حيث أصبحت العزلة المذمومة فى عهده مطلبا غاليا وبعيد المنال فى عصرنا الحالى، لكن النزعة الإنهزامية لدى مفكرينا تجاه الحضارة الغربية بشكلها المطلق، وسلسلة الصراعات المحلية، ومحاولة كثير من الأنظمة السياسية العربية كسب ود الغرب بتطبيق قوالب سياسية لا تتفق فى إطارها مع مصالح شعوب المنطقة ولا تناسب واقعها، وكذلك وجود استعمار استيطانى آخر هو إسرائيل، كل هذا يجعل من المسعى إلى عزلة جديدة للتنمية والبناء أمرا صعب التحقيق .

المصادر

- (١) د . عبد العزيز الشناوى : أوربا فى مطلع العصور الحديثة، ص ٩ .
- (٢) هريبرت فيشر : أصول التاريخ الأوروبى الحديث . ت د . زينب راشد، ود . أحمد عبد الرحيم مصطفى ص ٧٩ .
- (٣) باتيكار : آسيا والسيطرة الغربية، ت : عبد العزيز توفيق جاويد ، دار للمعارف - القاهرة، سنة ١٩٦٢ م، ص ٢٧، ٢٨ .
- (٤) غسان الرمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر، السعودية، ٤٠٦ هـ - ص ٨٠ وما بعدها .
- (٥) حاول البعض، بقصد أو بغير قصد، إطلاق مصطلح الفتح على بعض التوسعات الإستعمارية مما جعل المصطلح يفقد معناه الإسلامى، كأن يصف البعض دخول محمد على للسودان أو الشام أو الجزيرة العربية بالفتح، أو حتى استثمار الدول الأوروبية لبعض مناطق فى آسيا وإفريقيا .
- (٦) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى ص ١٠٢ .
- (٧) د . رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ص ٣٧ د . ليلى عبد اللطيف : تاريخ مؤرخى مصر والشام فى العصر العثمانى ص ١٠ .
- (٨) د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية، ج ٣ ص ٦٩٨ د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى ص ٨٢ .
- (٩) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ١٤ : ٩ . د . شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ص ١٣٢ .
- (١٠) د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ص ٦٩٨ . د . أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ٨٧ . د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ١٥ .
- (١١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٨٢، ٨٣ .
- (١٢) د . أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ٧٩ د . بدر الدين الخصوصى : تاريخ الخليج العربى ص ١٤ .
- (١٣) د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ص ٦٩٨ .
- (١٤) قطب الدين النهروالى : أخبار مكة المشرفة ص ٢٨٤ . د . سعد زغلول عبد ربه : البرتغاليون والبحر الأحمر ص ٢٠٩ .
- (١٥) د . سعد زغلول : المرجع السابق ص ٢١٢ . د . جمال زكريا قاسم : الصراعات المحلية والدولية فى البحر الأحمر ص ٢٣٣ .

(١٦) أهدى الأسبان هذه المناطق لفرسان القديس يوحنا سنة ١٥٣٥ م وظلت بأيديهم حتى استردها العثمانيون سنة ٩٥٧ هـ ١٥٥١م، د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٧ .

(١٧) د . عبد الكريم غرابية : المرجع السابق ص ٣٦ .

(١٨) د . عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربي ١٥١٧ - ١٩٢٢م . ص ٥١ ؛ د . أحمد فؤاد متولى : الفتوح العثمانى ومصر، ص ٧٨ .

(١٩) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٢٠) ابن إياس (محمد بن أحمد) : بدائع الزهور، ج٤ ص ١٩٦ ؛ د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ٨٠ ، ٨٣ ؛ د . سعد زغلول عبد ربه : المرجع السابق ص ٢١٠ .

(٢١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٨٠ ؛ ابن إياس : المرجع السابق ص ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ .

(٢٢) د صلاح العقاد : المرجع السابق ص ١٧ ؛ بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ص ١٨ وكان هذا التحالف لأغراض سياسية مؤقتة سرعان ما انتهت وشارك الإيرانيون فى مقاومة للنفوذ الأوروبى .

(٢٣) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ١٧ .

(٢٤) د محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٠٦ ؛ د . أحمد فؤاد متولى : الفتوح العثمانى للشام

(٢٥) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٠٧ .

(٢٦) د . بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ص ٢٠ ويلاحظ أن القطيف كانت تعنى إقليم الأحساء كله، وقد عقدت هذه الإتفاقية سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥م .

(٢٧) د . صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٧٨ ومع ذلك ظل الصفويون متوجسين خيفة الأنطاع البرتغالية فى الخليج، كما كان البرتغاليون يتوقعون قيام الإيرانيين بإثارة المناعب لهم فى المنطقة، ولهذا وبدوا التحالف بينهم هزىلا ولأغراض كل منهما السياسية بصورة مؤقتة .

(٢٨) د . عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ص ٤٨ ، ٤٩ ؛ د . أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق ص ٤٠ .

(٢٩) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٧٠ ؛ د . أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق ص ٦٣ حيث يذكر أن السلطان سليم قد اعتبر إيواء الثائرين عليه تصرفا عدائيا من قبل المماليك .

- (٣٠) د . عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ص ٧٢ ، ٧٣ .
- (٣١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٨٣ .
- (٣٢) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٣ د . أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق ص ٨٢ .
- (٣٣) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ١١٢ د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٧٣ .
- (٣٤) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ١١٢ د . أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق ص ١٦ ، ١٧٦ . ويذكر أن سليم الأول قد استفزه عدم رد طومتابى على رسائله مما جعله يلجأ إلى التهديد فى رسائله الأخيرة .
- (٣٥) د . عمر عبد العزيز عمر : المرجع السابق ص ٨٠ .
- (٣٦) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٣٨ .
- (٣٧) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٣٠ .
- (٣٨) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٨٠ ، ٨٠ ، ويلاحظ بأن السلطان العثماني قد اعتبر موقفه تجاه كل من الصفويين والبرتغاليين جهادا ، على أن جهاده ضد الصفويين يرجع فى أغلبه لأسباب سياسية أكثر من كونه صراعا مذهبيا .
- (٣٩) د . أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق ص ١٢٤ . حيث يذكر أن السلطان سليم قد عقد مجلسا خاصا قبل فتح مصر للإستفسار عن شرعية ذلك فأجابته أعضاء المجلس بشرعية التحرك إلى مصر وشن حرب عليها لأن أهلها قطاع طرق ، والحرب والقتال معهم غزو وجهاد ، وقتلهم غاز ومرباط والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد .
- (٤٣) يراعى أن ذكر التركي كان سابقا لانصهار هذا العنصر فى عناصر للمجاهدين المسلمين التى صاحبت المرحلة الأولى فى بناء الدولة العثمانية .
- (٤٤) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى ، ص ١٤١ د . رأفت غنيمى الشيخ : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ٥٨ ، ٥٩ .
- (٤٥) د . عبد الكريم غرابية : تاريخ العرب الحديث ص ٢٥ .
- (٤٣) يراعى أن ذكر التركي كان سابقا لانصهار هذا العنصر فى عناصر للمجاهدين المسلمين التى صاحبت المرحلة الأولى فى بناء الدولة العثمانية .
- (٤٤) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى ، ص ١٤١ د . رأفت غنيمى الشيخ : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ٥٨ ، ٥٩ .
- (٤٥) د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق جـ ٢ ص ٧٣٤ .

- (٤٦) د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ص ٨٢٧ .
- (٤٧) المرجع السابق ص ٨٢٧ .
- (٤٨) : e , p . 3 marco , s imperial role in thered sea area, marston , t .
P . 1193 . 11511 . yemem and western world since
- (٤٩) د . جمال زكريا قاسم : الصراعات المحلية والدولية فى البحر الأحمر فى العصر
العثمانى ص ٢٤٣ .
- (٥٠) د . شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ص ١٣٩ .
- (٥١) د . شوقى الجمل : المرجع السابق ص ١٤١ . وزرايب هى أماكن تولد المواشى .
- (٥٢) باتيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ١٨ وما بعدها .
- (٥٣) د . رأفت غنيمى : أمريكا والعلاقات الدولية ص ٢٧ وما بعدها .

الفصل الثانى

الحركات السياسية فى المشرق العربى فى العصر العثمانى بين التمرد والإصلاح الدينى

- حركات التمرد بين الأطماع الشخصية والمساندة الاستعمارية
- الحركات الإصلاحية ذات الطابع الإسلامى .

أوحى كثير من الأنظمة السياسية القومية إلى مؤرخيها بضرورة تعميق الجذور القومية تاريخياً ووفقاً لمنظورها سواء أكان ذلك فى الإطار العربى العام أم فى الأطر الإقليمية المحلية المحدودة . وصدرت لهؤلاء المؤرخين العديد من الدراسات التى سعت لتحقيق هذا الهدف من خلال تطوير وتنشويه الأحداث التاريخية، وساندتها هذه الأنظمة على ذبوع هذه الأفكار وانتشارها من جانب وفى فرض أطر شديدة من الالتزام على أية محاولات تخالف هذا الاتجاه أو تنتقده من جانب آخر، فضلاً عن أطر الالتزام التى أحاطت بالأنظمة التى تتعلق بالناحية المنهجية بل وبالعملية التعليمية والثقافية الأمر الذى جعل هذه الاتجاهات المأجورة أو المنقولة أو التابعة - بوعى وبغير وعى - تصل إلى درجة كونها من البديهيات والمسلّمات .

وسبقت الإشارة إلى الدوافع التى جعلت هذه الأنظمة ومؤرخيها يعتبرون الوجود العثمانى فى المشرق العربى غزوا واحتلالا، وبالتالي فإن هؤلاء المؤرخين قد فسروا كافة حركات التمرد التى قامت فى المشرق العربى الإسلامى إبان الحكم العثمانى على أنها من قبيل العمل الوطنى وتعبيراً عن نمو الشعور القومى وبدايات اليقظة القومية والسعى للتحرر مما اعتبروه استعماراً، فبدت حركة على بك الكبير فى مصر رمزا من رموز اليقظة القومية وكذلك حركة ظاهر العمر وأحمد الجزار فى فلسطين وآل العظم فى الشام والمغنيون والشهابيون فى لبنان والقرمانيون فى ليبيا والحسينيون فى تونس والمماليك فى العراق وغير ذلك .

كما أن صياغة تاريخ العرب القومى بشكل عام قد جعل من كل هذه الحركات رمزا لليقظة القومية العربية، والتقت فى هذا مع توجهات المؤرخين الغربيين الذين اندفعوا إلى اتجاههم فى صياغة تاريخنا هادفين إثارة النعرة القومية لتمزيق وحدة الشعوب الإسلامية . بل إن هؤلاء المؤرخين أو كتاب التاريخ - قد فسروا الحركات الإصلاحية التى اعتمدت على المبادئ الإسلامية فى منهجها النظرى والحركى كالدعوة السلفية فى جزيرة العرب و الدعوة السنوسية فى ليبيا والدعوة المهدية فى السودان على أنها حركات قومية أعادت دور الريادة الإسلامى للعرب بعد أن ضعف النظام العثمانى - التركى - (١)، ولم يفتن أغلب هؤلاء إلى رفض الشريعة الإسلامية لأى إطار قومى من جهة، كما أن أيا من دعاة هذه الحركات قد تركز اعتراضه ضد العثمانيين ومن منطلق إيمانه بمبادئ

شريعته على فساد الإدارة وممارسة الحكم في حين لم يبد أي داعية رفضه للخلافة كنظام أساسي إسلامي أو سعيه لضرب الوحدة الإسلامية بين كافة الشعوب الإسلامية دون النظر إلى جنسية الخليفة أو مقر الخلافة، كما أن أياً من المتمردين أو المصلحين لم يسع إلى تغيير أساس الولاء لدولة الإسلام ولوحدة هويته (٢) .

ويمكن أن تقسم هذه الحركات في مجموعها إلى قسمين :
الأول : حركات تمرّد أو عصيان .
الثاني : حركات تصحيحية إصلاحية ذات طابع إسلامي .

أولاً : حركات التمرّد والعصيان

وتشمل حركة المغنيين والشهابيين في لبنان، وعلى بك الكبير في مصر، وآل العظم في الشام، وظاهر العمر وأحمد الجزار في فلسطين، والمماليك في العراق، والقرماتليين في ليبيا، والحسينيين في تونس . وبشكل عام يمكن إرجاع دوافع هذه الحركات إلى ثلاثة عوامل رئيسية تتمثل في الأطماع الشخصية ببعدها الاقتصادي والسياسي، والتحرير والمساندة لهذه الحركات من الدول الاستعمارية وافتقارها إلى المساندة الشعبية، وضعف أو إضعاف نظام الحكم العثماني .
وقبل أن نوضح هذه العوامل ينبغي أن نشير إلى بديهية أكدها أغلب المؤرخين وهي أن الشعور القومي في هذه الفترة كان غائباً تماماً وأن الإطار الإسلامي هو الذي كان مسيطراً وسائداً في كافة نواحي الحياة وسواء لدى الشعوب أو حتى لدى الصفوة من المغامرين أو أصحاب الطموحات السياسية .

أولاً : الأطماع الشخصية

لم تكن حركة المغنيين في ولاية طرابلس ومن بعدهم الشهابيين تستند إلى مبادئ واضحة في موقفهم المعادي للدولة العثمانية، فكان نجاحهم في بسط نفوذهم على الولاية أو خارجها يرجع إلى انتهازهم فرصة تشغال العثمانيين في مقاومة القوى الأوروبية، وقد دفعتهم أطماعهم إلى تخليهم عن المبادئ فادعى فخر الدين المعنى الثاني الإسلام لتقريب العناصر الإسلامية إليه، ثم تقنّع بقتاع المسيحية لكسب ود العناصر والقوى المسيحية وهو ما يصفه البعض بالحنكة

السياسية (٣) . وسلك الأمير " بشير الشهابي الثاني " الذي تولى سنة ١٢٠٩هـ — ١٧٩٥م نفس الأسلوب حيث استخدم الخديعة والحرب والمهادنة والهدايا، وادعى أمام الموارنة، وهو من الدروز، اعتناقه للمسيحية كي يكسب تأييدهم لأطماعه . (٤) .

ولم يكن " على بك الكبير " في مصر ينتمى إلى العرب أو إلى المصريين أو حتى إلى المسلمين، فقد جاء إلى مصر وعمره ثلاثة عشر عاماً كمملوك " لإبراهيم كتخدا "، وهو ابن قسيس رومى أرثوذكسى من الأناضول اسمه يوسف، اختطف وبيع في القاهرة كمملوك . وحين كبر تزوج من فتاة يونانية مسيحية اسمها " مريم " أظهرت الإسلام وظلت في الحقيقة محتفظة بدينها، ولهذا فإن على بك قد ظهر بأكثر من إسم يتماشى مع مراتب تطوره في خدمة سيده ثم مع أطماعه فعرف باسم "جن على" ثم باسم " بنو قبطان " ثم " على بك القازوغلى " ثم " على بك الكبير " (٥) .

ومع أنه قد أبدى مهارة وذكاء أسهمت في بروزه إلا أنه اتصف بعدد من الصفات الأخرى كالغدر والخيانة والخديعة وغير ذلك، ففي أعقاب وفاة سيده " إبراهيم كتخدا " ساعده ذكاؤه في أن يحل محله، وساعده كبير طائفة المماليك " القازدوغلية " " عبد الرحمن كاهيا " في تولي مشيخة البلد سنة ١١٧٤هـ - ١٧٦٠م، نكاية في شيخها " على بك الغزاوى " الذي كان على رأس قافلة الحج، وفور تولي على بك المشيخة أصدر فرماناً بنفى " عبد الرحمن كاهيا " إلى الحجاز، فخرج إلى منفاه في موكب حزين أثار غضب كل المصريين على شيخ البلد " على بك " (٦) .

وتبع ذلك استخدام على بك لأسلوب القتل والنفي والمطاردة ضد منافسيه مستعيناً برفاقه وأقرانه، وحين تمكن نفوذه وقضى على منافسيه بدأ ينقلب على أقرانه (٧) . وقد وصفه الجبرتي بأنه هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال وأنها من مبادئ ظهوره . ثم اتجه إلى القضاء على العربان في الداخل كالحبائبة في الوجه البحري والهواره في الوجه القبلي .

واشتطت به أطماعه إلى حد التطلع إلى باشوية مصر فأبدى تودداً وتقرباً إلى الدولة العثمانية، لكن السلطان العثماني لم يوافق على ذلك حتى لا يفتح الباب لصراع المماليك على هذا المنصب فيما بعد، ولما كان قد ورد إليه من تقارير عن على بك وكثيرين من مماليك مصر، فضايق على بك بهذا الرفض وانتهاز فرصة

قيام حرب بين روسيا والدولة العثمانية وطرده الوالي من منصبه وحبسه وأعلن توليه الباشوية (٨) . وحاول أن يحصل على اعتراف من السلطان العثماني بمنصبه فأرسل العديد من الهدايا ولكن السلطان ظل على رفضه، فأعلن على بك رفضه لأي باشا يعينه السلطان في ولاية مصر، وسك النقود باسمه، وطرده كل من أبدى ميلاً للعثمانيين (٩) .

وانتهز على بك فرصة أخرى ليزيد من أطماعه حين طلب منه السلطان العثماني التدخل لوقف الصراع على منصب شريف مكة فوجدها فرصة ساحة لضم الحجاز وطرده حاكم جدة المعين من قبل الدولة العثمانية (١٠) . كما انتهز فرصة الحرب الروسية العثمانية وسعى - من خلال تحالفه مع الروس ومع ظاهر العمر - إلى ضم بلاد الشام، وكاد أن يحقق ذلك لولا تمرد قائده " محمد بك أبو الذهب " الذي بدت أطماعه هو الآخر (١١) .

وظهرت أسرة آل العظم في بلاد الشام في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي بفعل عديد من العوامل أهمها ما ساد البلاد من فوضى بسبب الصراع بين العسكر واصطدام قوات الطامعين والمغامرين وضعف النواحي الاقتصادية . وعلى الرغم من إدراك الدولة العثمانية لحاجتها إلى عصبية قوية تقضى على هذه المظاهر وبالتالي تهيات الفرصة لآل العظم، إلا أن آل العظم قد عملوا لمصلحتهم أكثر من سعيهم لتأمين مصلحة الدولة العثمانية وظلوا يوسعون إمارتهم حتى اصطدموا بتحالف " على بك الكبير " و " ظاهر العمر " الذي قضى عليهم سنة ١١٨٢هـ - ١٧٧١م . ثم عادوا للولاية فترة وجيزة قضى عليهم بعدها " أحمد الجزار " وإلى عكا سنة ١٢٠٤هـ - ١٧٩٠م .

أما ظاهر العمر فهو عربي الأصل استطاع أن يحصل على التزام منطقة طبرية في فلسطين من باشا صيدا سنة ١١٤٧هـ - ١٧٣٣م، وأثبت قدرته على الإدارة فيها، ثم تطلع إلى التوسع فاستخدم أسلوب الملاطفة والمسالمة أحياناً والاحتياط والتهديد أحياناً أخرى حتى تمكن من ضم التزام صفد سنة ١١٥٣هـ - ١٧٣٩م (١٢) . ثم اصطدم مع بعض عناصر الشيعة " المتأولة " لرفضهم التنازل له عن الالتزام في بلادهم، واستخدم أسلوب الخديعة والمكر حتى أخذ بلادهم سنة ١١٥٦هـ - ١٧٤٢م واستصدر بها موافقة من باشا صيدا .

وحين استشعر ظاهر القوة تطلع إلى التزام مدينة عكا، وكان رفض باشا صيدا إعطاءها له نذيراً بالصدام مع الدولة العثمانية. فدخلها عنوة سنة

١١٥٨هـ - ١٧٤٤م، وطرد الباشا العثماني منها واتخذها عاصمة له، واتطلق منها ليستولي على الناصرة وحيفا . ودفعته رغبته في مزيد من التوسع إلى الصدام مع آل العظم في الشام، ومع باشا صيدا نفسه فهاجم صيدا واستولى عليها . وأعطاه السلطان العثماني فرماتاً بولاية صيدا وما جاورها للظروف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية، ولم يقف عند هذا الحد بل أخذ يتوسع في المناطق المجاورة حيث ضم القدس والخليل ويافا .

وقد كان ذلك الدور مستغزاً للدولة العثمانية وبخاصة أنها كانت في حالة حرب مع روسيا وفي حاجة إلى عون لا إلى تمرد، وأدرك ظاهر العمر أن العثمانيين لن يتركوا أمره دون رادع، فلم يجد أمامه، استعداداً لموقف الصدام مع الدولة العثمانية، إلا أن يتحالف مع متهم آخر هو علي بك الكبير في مصر . ومع أن علي بك قد أرسل جيشاً لنجدته إلا أن تمرد قائد الجيش محمد بك أبو الذهب على سيده وظهور أطماعه الشخصية، قد ساعدت القوات العثمانية على مواجهة ظاهر منفرداً فهزمته، وقتله أحد حراسه سنة ١١٨٩هـ - ١٧٧٥م، وبخاصة بعد أن أنهت الدولة حربها مع روسيا التي كانت تسالده .

وشهدت تونس تسلط أسرة " حسين بن علي " حيث تودّد حسين إلى أهل البلاد حتى نادوا به " بابا " على تونس سنة ١١١٩هـ - ١٧٠٥م، ثم أعلن تمرده على الدولة العثمانية سعياً لجعل حكمه وراثياً، وظلت أسرته محتفظة بالحكم حتى في ظل الاحتلال الفرنسي وحتى سنة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .

وفي ليبيا (برقه) شهد مطلع القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي حالة من الفوضى سمحت بظهور الكثيرين من الطامعين والمغامرين حتى نجح " أحمد القرماتلي " في الوصول إلى منصب والي طرابلس سنة ١١٢٥هـ - ١٧١١م . وقد حقق نجاحاً آخر في التخلص من منافسيه من جند الإنكشارية حيث أعد لهم مأدبة نبحهم بعدها كالتي قام بها محمد علي والي مصر بعد ذلك للمماليك . وقد استعان القرماتلي في البداية بأعيان طرابلس، ثم عاد وأهملهم بعد أن حقق أطماعه في الولاية والتخلص من خصومه .

ومن الملاحظ أن أغلب حركات التمرد في الولايات العربية قد ظهرت في القرن الثاني عشر الهجري القرن الثامن عشر الميلادي، ولا شك أن ذلك يرجع إلى سلسلة الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية ضد روسيا وعلى الساحة الأوروبية، وكذلك أطماع الصفويين الشيعة، وهو أمر أسهم في مزيد من انشغالها

وضعف قبضتها على هذه الولايات علاوة على تدهور إمكانياتها الاقتصادية، ويبدو ذلك جليا في تسليم الدولة في الغالب بسلطة المغامرين والاعتراف بهم .
كما يلاحظ كذلك أنه على الرغم من تحالف بعض الطامعين المتمردين مع بعضهم ضد دولة الخلافة أو ضد بعضهم إذا ما اصطدمت مصالحهم وأطماعهم إلا أنهم سرعان ما كانوا يصطدمون ببعضهم لينهى كل منهم الآخر، ويبدو هذا من صدام والى عكا " أحمد الجزار" مع " بشير الشهابي الثاني " و " على بك " ضد " محمد أبو الذهب " وآل العظم مع " ظاهر العمر"، وتشير هذه الظاهرة إلى أن أيا منهم لم يكن يتمتع برصيد شعبي ولا يعبر عن مطالب شعبية بقدر ما كانت تحركه مصالحه وأطماعه الشخصية، ولم يفلح في أن يوجد فئة ترتبط مصالحها بمصالحه فتؤيده .

ثانيا : دور الدول الأوروبية في مساندة حركات التمرد وتشجيع قيامها

أسهمت الصراعات بين الدول الاستعمارية الغربية في العودة إلى إحياء طرق التجارة القديمة عبر الأراضي الإسلامية، وبالتالي استعادت المنطقة العربية نسبة كبيرة من حيويتها التجارية التي كانت تحتلها قبل الوصول إلى طريق رأس الرجاء الصالح . ولكن إلى جانب ذلك ازدادت تطلعات هذه الدول لبسط نفوذها على المناطق المتحكمة في طرق التجارة، وشهدت المنطقة جهودا من تسابق هذه الدول وتنافسها وبخاصة بين إنجلترا وفرنسا، وأصبحت المنطقة ميدانا للصراع خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي .
وبصفة عامة فقد اتسمت سياسة الدول الغربية تجاه المنطقة العربية، وتجاه الدول العثمانية بشكل عام، بروح عدائية ذات طابع ديني، إلى جانب البعد الاقتصادي وهو عامل أساسي، لا تقل عن الروح التي سادت الصراع بين الشوق والغرب إبان الحروب الصليبية . وما كانت مساندة إحدى هاتين الدولتين للدولة العثمانية في حروبها مع روسيا أحيانا إلا حرصا منها - كل وفق سياسته ومصالحه - على إبعاد روسيا عن ميدان الصراع الاستعماري في حين كانتا تبديان تعاطفا مع روسيا إذا ما نجحت في اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية بعيدة عن البحار الدافئة التي كانت تعنى بالنسبة لهما المشاركة في الميدان الاستعماري الاقتصادي .

وبقدر غياب الوعي القومي إبان القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي الذي شهد أغلب حركات التمرد ضد الدولة العثمانية وأن المفهوم الإسلامي هو المفهوم الذي كان سائداً لدى جماهير المسلمين وفي المشرق العربي على وجه الخصوص، فإن هذه الحركات لم تكن تستند إلى تأييد شعبي في موقفها من دولة الخلافة . ومن هنا التقت في أطماعها ومصالحها السياسية والاقتصادية مع الأهداف الاقتصادية والسياسية الاستعمارية للدول الغربية، ولقيت منها المساندة على تحقيق هذه الأهداف التي كانت ترمى من قبل الدول الغربية إلى إضعاف العالم الإسلامي وتفتيته إلى قوميات متعددة يمكن تحقيق المصالح من خلالها، بل إن الكثير من هذه الحركات قد ووجهت بمقاومة شعبية من قبل شعوبها حين بدا أمام هذه الشعوب ما كانوا عليه من تحالف وتأييد ومناصرة للدول الاستعمارية ومعاداة لدولة الخلافة، ومثال ذلك ما حدث لحركة على بك الكبير في مصر حين اصطدم به قائده " محمد بك أبو الذهب " وفرّ إلى صعيد مصر، وأوضح أبو الذهب إلى الهواره، وغيرهم من المصريين، ما كان عليه سيده من عداوة مع خليفة المسلمين وتحالفه مع دولة كافرة في حالة حرب مع دولة الخلافة وهي روسيا، فاتضم إليه جمع من الهواره وجموع من المواطنين، وكان هذا أول اشتراك لعناصر محلية في هذه الحركات، وأعلنوا تصديهم لموقف على بك الأمر الذي أسهم في هزيمته وانتهاء حركته، فضلاً عما يوحى به هذا الصراع من بعد اقتصادي واجتماعي في المقام الثاني .

أما عن دور الدول الغربية في مساندة هذه الحركات فقد حصل - فخر الدين المعنى الثاني - على معونة من دوق تسكانيا في إيطاليا ومن كل من أسبانيا وفرنسا وفرسان القديس يوحنا، وأرسل فخر الدين العديد من الدروز لتلقى العلم في إيطاليا . كما قام بالاتصال بالشاه عباس الأول الصفوي والتنسيق بينه وبين الأوروبيين (١٣) . وإذا جاز أن نقبل تفسير البعض بأن الهدف من ذلك كان قاصراً على أهداف اقتصادية فإن التفسير الغالب من جانب الدول الأوروبية هو غلبة الأهداف الدينية والسياسية التي كانت تعبر عن العداوة للمسلمين ولدولة الخلافة العثمانية وبخاصة من أسبانيا وإيطاليا وفرسان القديس يوحنا التي لم يكن لها في تلك الفترة أهداف اقتصادية واضحة في المنطقة (١٤) .

وقد سمح فخر الدين ببناء العديد من الأديرة والكنائس وقام بتمويل عملية البناء بنفسه وهو أمر جعل أحد الرحالة الإنجليز الذي زار ولاية طرابلس

١٠٢٧هـ-١٦١٠م بأن يراه مسيحياً وأن إظهاره لإسلامه كان صورياً أمام العثمانيين في حين كان لا يبدو في سلوكه أى حرص على الشعائر الإسلامية، وهو أمر دعاه لأن يطلب من البابا أن يأمر مسيحيي لبنان من الموارنة بمعاونته (١٥) .

ووطد الأمير بشير الشهابي الثاني علاقته بفرنسا، والإكليروس الفرنسي الإيطالي، حتى جاء حكم والى مصر للشام فى عهد محمد على فضيق على المسلمين وسمح ببناء الأديرة والمدارس والإرساليات التبشيرية المسيحية الأمر الذى هيا لحدوث صراع بين الدروز والموارنة ونتج عنه مذابح بين المسلمين والنصارى سنة ١٢٧٦هـ-١٨٦٠م .

وقد لعبت فرنسا دوراً واضحاً فى حدوث هذه المذابح لتوجد مبرراً لتدخلها العسكرى فى ولاية طرابلس، ولولا الضغوط الاستعمارية لاستمر الاستعمار الفرنسى . لكن فرنسا حرصت على تمكين الموارنة المسيحيين من الحكم خلال فترة وجودها، وفرضت على الدولة العثمانية ضرورة تعيين حاكم مسيحى يساعده مجلس إدارى يمثل بقية الطوائف (١٦) . وما زالت فرنسا تمثل الحليف التقليدى لهذه الأقلية ومن منطلق دينى وسياسى حتى تاريخنا المعاصر (١٧) .

وقامت روسيا بالاتصال بكل من على بك الكبير فى مصر وظاهر العمر فى فلسطين أثناء حربها مع الدولة العثمانية، وقد دفعتهما أطامعهما الشخصية لسرعة الاستجابة لهذه الاتصالات وبخاصة بعد أن هزم الأسطول الروسى الأسطول العثمانى سنة ١١٨٤هـ-١٧٧٠م(١٨). وعقدت روسيا معهم بعض الاتفاقيات السرية ضمن الروس بمقتضاها أماكن لإمداد أسطولهم فى البحر المتوسط لقاء ما وعدت به من مساعدات مادية وعسكرية لعلى بك وحليفه ظاهر العمر . وقد وعد على بك وحليفه بإعطاء الروس بعض المدن العربية نظير مساعدتهم على تحقيق أطامعهم (١٩)، ولعل وهذا يؤكد الأبعاد الاقتصادية للدور الروسى والدول التى نافسته مثل إنجلترا وفرنسا .

على أن هدف الروس من هذه الاتفاقيات لم يكن قاصراً على هذا الهدف المحدود وإنما أرادوا أن يحرروا دولة الخلافة من مساعدات ولاتها فى الحرب وبخاصة والى مصر، وقد التقت أهداف الروس مع أطماع على بك وظاهر العمر فجهازا جيشاً بقيادة محمد بك أبو الذهب . وبمساعدة قائد الأسطول الروسى " الكسيس أورلوف " من البحر للسيطرة على بلاد الشام (٢٠)، وتمكن هذا

الجيش من احتلال الشام وطرد حاكمها العثماني (٢١)، إلا أن "أبو الذهب" قد عاد دون استكمال السيطرة على الشام منقلباً على سيده، ولا يستبعد أن يكون موقف أبو الذهب نابعا من ظهور أطماع شخصية له وجد أن الوقت مناسب لتحقيقها، وربما يكون العثمانيون قد اتصلوا به ووعدوه بالولاية إذا ما قضى على "على بك".

ولا شك أن نمو الدور الروسي الاقتصادي والسياسي في شرقي البحر المتوسط قد أثار قلق الإنجليز، ولا يستبعد أن يكونوا قد لعبوا دوراً في إثارة عصيان "محمد بك أبو الذهب" على "على بك". وكان "على بك" يدرك ما كان عليه الإنجليز من قوة في البحر، ولذلك قبل التفاهم معهم، وقامت مباحثات بينهما عن طريق "جيمس بروس" القنصل البريطاني في الجزائر، وأسفرت هذه المباحثات عن عقد اتفاقية بينهما سنة ١١٨٧هـ - ١٧٧٣م فتح بمقتضاها "على بك" مرفأ السويس للمراكب البريطانية التي تحمل بضائع من الهند إلى موانئ البحر الأحمر، وأصبح العلم البريطاني أول الأعلام الأوروبية التي ظهرت في البحر الأحمر بعد جهود العثمانيين في الحفاظ عليه كبحيرة إسلامية منذ بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي (٢٢).

وكان الإنجليز قد شجعوا "على بك" على القيام بحملة على الحجاز منتهزاً فرصة الصراع هناك على منصب الشريف، فقد شجعه "روزتي" على مشروعه الرامي إلى فتح البحر الأحمر للتجارة الأوربية القادمة من الشرق، وحين نجحت الحملة ١١٨٤هـ - ١٧٧٠م في الإستيلاء على الحجاز أوكل "على بك" إدارة جمارك جدة إلى "بلتازار" أحد إخوة "روزتي"، وأصبح للإنجليز نفوذ تجاري واضح وصل إلى حد مطالبة تجارهم بإنشاء خط مباشر بين الهند ومرفأ السويس وهو الأمر الذي استجاب له "على بك" مما جعل هؤلاء التجار ينشئون شركة كلكتا سنة ١١٨٧هـ - ١٧٧٣م للمتاجرة مع مصر (٢٣).

ومما يشير إلى حدوث اتصالات بين "محمد بك أبو الذهب" والإنجليز أن الإنجليز لم يتحركوا لنجدة "على بك" حين قضى عليه "أبو الذهب"، كما أن "أبو الذهب" لم يرفض سريان الاتفاقية التي كان قد عقدها معهم "على بك" وبالتالي لم يشكل خطراً على مصالحهم الاقتصادية.

كما ارتبط سقوط "ظاهر العمر" بانتهاء الحرب الروسية العثمانية وتوقيع اتفاقية "كتشك فينارجا" بينهما سنة ١١٨٨هـ - ١٧٧٤م، الأمر الذي يؤكد اعتماد

هؤلاء المتمردين على مساندة الدول الأجنبية في تحقيق أطماعهم الشخصية، وكذلك غلبة العوامل الاقتصادية على ما سواها في هذه الفترة .

وكان استمرار الأطماع الصفوية الاقتصادية والسياسية في العراق سبباً في تحولها إلى ميدان صراع بينهم وبين العثمانيين، وفي تهينة الظروف لظهور العديد من المغامرين والطامعين في حكمها وبخاصة بعد ظهور الولاة المماليك . وبعد أن تمكنت الدول الأوروبية من التسلل إليها وتكوين مراكز نفوذ لها حول أنهار العراق وبخاصة في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي استعان الكثيرون من هؤلاء الولاة بالدول الغربية وبخاصة إنجلترا التي كانت أكثر الدول الغربية نفوذاً في هذه المنطقة منذ أن أنشأت شركة الهند الشرقية وكالة لها بالبصرة سنة ١٠٥١هـ - ١٦٤٣م (٢٤) .

وقد استعان أشهر الولاة المماليك في العراق وهو سليمان باشا الكبير بالنفوذ البريطاني حيث ساعدته شركة الهند الشرقية البريطانية في تولى باشوية بغداد سنة ١١٩٤ - ١٢١٦هـ - ١٧٨٠ - ١٨٠٢م، كما أمدته بالسلاح والعتاد وأرسلت له مجموعة من المدربين العسكريين الإنجليز لتدريب جيشه، وفي مقابل ذلك قدم العديد من التسهيلات لهذه الشركة في مزاولة نشاط اقتصادي واسع داخل العراق، كما أبدى حرصاً ورعاية شديدة على نشاطها (٢٥) .

وقام داود باشا (١٢٣١ - ١٢٤٦هـ، ١٨١٦ - ١٨٣١م) بتوسيع دائرة اتصاله بالأوروبيين ففتح لهم ميدان النشاط التجاري بشكل زاد عن ذي قبل . وبخاصة بعد فتور العلاقة بينه وبين الإنجليز، وفتح إلى جانب ذلك الباب للراهبات الفرنسيات والإيطاليات لمزاولة نشاط تبشيري واسع داخل العراق، كما استعان بمدربين فرنسيين للإسهام في تدريب جيشه الذي كان يعده لمناوأة دولة الخلافة العثمانية، ولكن السلطان " محمود الثاني " تمكن من القضاء عليه (٢٦) .

ثالثاً : ضعف أو إضعاف نظام الحكم العثماني

تراكمت العديد من العوامل لتصيب النظام العام في الدولة العثمانية بحالة من التدهور والضعف، ولا شك أن هذه العوامل ترجع في المقام الأول إلى الدور الذي لعبته هذه الدولة على مسرح الأحداث الدولية أكثر مما ترجع إلى طبيعة النظام فيها كما يرى البعض، فقد نصبت هذه الدولة من نفسها القوة المدافعة عن العالم الإسلامي تجاه الغرب المسيحي، وفرض عليها هذا الدور مهام توسعية ثم دفاعية

فى عديد من الجهات حيث كان عليها الحفاظ على توسعاتها ومكاسبها على الساحة الأوروبية، ثم مقاومة الأطماع الصفوية فى إيران، وتمثل هذا الدور فى الوقوف أمام الأهداف الصليبية للبرتغالية تجاه المناطق المقدسة الإسلامية طوال القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى الأمر الذى أدى إلى إغلاقها للبحر الأحمر فى وجه السفن الأوروبية، وكذلك مقاومة دور فرسان القديس يوحنا المدعوم من الدول الأوروبية على ساحة البحر المتوسط، ومحاولة مساعدة بقايا مسلمى الأندلس، وفوق ذلك مقاومة الأطماع الروسية بعد أن اعتبرت روسيا نفسها وريثة للإمبراطورية البيزنطية (٢٧) .

وفى الوقت الذى كان الأمر يتطلب فيه من السلاطين العثمانيين الاحتفاظ بقوات عسكرية على كل هذه الجبهات، البحر المتوسط وبحر العرب والمنطقة المسماة بالقرن الإفريقى والجبهة العثمانية مع أوروبا والجبهة الشمالية مع روسيا والجبهة الشرقية مع الدولة الصفوية، أصيبت الدولة بتدهور اقتصادى شديد شمل أغلب ولاياتها بفعل تحول طريق التجارة بين الشرق والغرب إلى طريق رأس الرجاء الصالح، بل إن الأمر قد ازداد سوءا بالنسبة للعثمانيين بسبب الآثار الناجمة عن التدهور الاقتصادى حيث أسهم فى قيام العديد من حركات التمرد والعصيان الداخلية، وقد تطلب ذلك جهدا عسكريا من أجل مقاومة هذه الحركات، وترتب على ذلك بالطبع المزيد من النفقات سواء لتجهيز القوات العسكرية أو ما تطلبته بعض محاولات الإصلاح داخل هذه الولايات .

وترتب على توسع العثمانيين فى زيادة عدد من الجنود الإنكشارية لمواجهة هذه المهام، وهو أمر أدى إلى صيغ الدور العثمانى بالصبغة العسكرية، أن أصبحت هذه القوات من أبرز مراكز القوى التى قوضت الكثير من حركات الإصلاح، برغم الدور الذى لعبته هذه القوات فى توسيع رقعة الدولة وفرض مهابتها . واستغلت هذه القوات فرصة وجود بعض السلاطين الضعاف ليفرضوا نفوذًا وسيطرة على سياسة الدولة فأبدوا عدم الإكتراث بقوانينها، وتحكموا فى تعيين بعض السلاطين وكذلك فى وظيفة الصدر الأعظم و عزلهم وقتلهم فى بعض الفترات (٢٨)، ولم تغلج جهود كثيرين من السلاطين للحد من سطوتهم برغم القيام بتوزيع فيالقهم على الحدود كنوع من محاولة تمزيق قوتهم (٢٩) .

وعلى الرغم من وجود ارتباط وثيق بين فيالق الإنكشارية وبين الطريقة البكتاشية إلا أن إحساس بعض قادة الإنكشارية بجذورهم المسيحية التى سعت

لإثارتها عناصر أوروبية بينهم قد جعلهم يتحولون في بعض الأحيان إلى عامل هدم للنظام الإسلامي العثماني والسعى لتشيويه وتشويه القوانين التي ظلت على طابعها الإسلامي طوال للتاريخ العثماني، وكان ذلك الأمر وراء قيام السلطان مراد الثالث سنة ٩٨١هـ - ١٠٠٢هـ، ١٥٧٤-١٥٩٥م، بتجنيد أعداد وفيرة من المسلمين الأحرار (من أب وأم مسلمين) وإدخالهم في الفيلق الإنكشارية، وقد طالب المجندون المسلمون الجدد بإلغاء الحظر الذي كان مفروضا على جنود الإنكشارية بالزواج، ووافق السلطان على ذلك، مما أدى إلى انشغال الإنكشارية بالحياة العامة بدلا من التركيز على الحياة العسكرية، والانشغال بالعديد من الحرف والأعمال التجارية وإن كان ذلك قد جعلهم يستمرون كمصدر إضعاف للدولة حيث ضعف دورهم العسكري من جهة وفرضوا العديد من الالتزامات المالية التي زادت من إرهاب ميزانية الدولة من جهة أخرى حتى نجح السلطان محمود الثاني في القضاء عليهم سنة ١٢٣١هـ - ١٨١٦م (٣٠) .

ومن هنا لا يمكن أن نحمل العثمانيين وحدهم تبعة ما ألم بولاياتها، والولايات العربية على وجه الخصوص، من ضعف وتدهور. ولا ينبغي أن ننسى إلى دورهم في الحفاظ على مقومات الترابط والوحدة بين هذه الولايات لمجرد أنها احتفظت بقوات عسكرية عثمانية فيها (٣١)، وهو أمر طبيعي، ونفسر ذلك بأنه قد أثار الإحساس بالضعف وعدم القدرة على الحماية العسكرية لدى العناصر العربية بالارتباط بالخلافة العثمانية إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى .

كما أن حرص الدولة العثمانية على جمع الأموال الأميرية كان أمرا طبيعيا لا بحكم كونها دولة مهيمنة أو محتلة وإنما بحكم تطبيقها لقوانين مستمدة من الشريعة الإسلامية حرصت على الحفاظ عليها طوال مدة بقائها . وإذا كانت بعض التجاوزات في هذا الشأن قد تخللت الأسلوب العثماني وبفعل العديد من الظروف فإتنا لا ينبغي أن ننساق وراء السعى لتعميم ذلك على كل الفترة العثمانية، فعلى سبيل المثال إذا كان العثمانيون قد أخذوا بنظام الالتزام في مصر فإتهم لم يكونوا أول من أوجده على الساحة المصرية أو في بلاد الشام أو في غيرهما، كما أنهم لم يلجأوا إليه بشكل مسيء إلا في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي بسبب توالي الحروب التي خاضتها الدولة على الساحة الأوروبية وضد روسيا على وجه الخصوص .

ومما لا شك فيه أن هذه الظروف التي مرت بها الدولة قد أسهمت فى إهمالها للعديد من جوانب الإصلاح الداخلى مما أدى إلى المساعدة على قيام العديد من حركات التمرد والعصيان التى كانت نتيجة وسببا لضعف قبضتها على ولاياتها، وسمحت تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية فى هذه الولايات بظهور المغامرين والطامعين فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه أطماع الدول الاستعمارية بشكل مكثف فى المنطقة العربية، فشجعت الدول الاستعمارية هذه الأطماع بشكل تكتيكى يتناسب مع ظهور بعض الكوادر المحلية من أصحاب المصالح الاقتصادية والسياسية والذى لم يكن ظهورهم أو توجههم يتناسب مع ظروف ومصالح العالم الإسلامى ويدينون فيه لمن ساعدتهم وهي الدوائر الاستعمارية استكمالاً لهذا الهدف، وبعد أن تحقق هذا انفردت الدول الأوروبية بالبلاد الإسلامية الواحدة تلو الأخرى من خلال أصحاب المصالح فيها وهي مرحلة تعرف فى التاريخ باسم المسألة الشرقية التى سبقت مرحلة وقوع ولايات المشرق العربى تحت الاحتلال الأوروبى.

على أن هذه الفترة قد شهدت قدراً من دعم الظلم الاجتماعى من قبل المؤسسة العثمانية الحاكمة من خلال دعمها للإقطاع، وبدا الارتباط بين ذلك الدعم وبين اعتمادها على المبادئ الإسلامية، فكررت الصورة التى ثارت عليها أوروبا وهي ارتباط الدين بالظلم الاجتماعى مما كان أساساً يستوجب الثورة عليهما معا . وإذا جاز التفريق بين التعاليم الكنسية والمبادئ الإسلامية - وهذا واضح - فإن النظام العثمانى فى هذه الفترة قد قدم نموذجا لا يساعد على هذا التفريق فى بعض فترات وجوده التاريخية.

ثانيا : الحركات التصحيحية الإصلاحية الإسلامية

شهدت المنطقة العربية قيام ثورات أو دعوات تصحيحية إصلاحية ذات طابع إسلامى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى من أبرزها الدعوة السلفية فى جزيرة العرب التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والدعوة السنوسية فى برقة، والدعوة المهدية فى السودان .

ومع أن قيام هذه الدعوات قد واكب قيام بعض حركات التمرد والعصيان ضد الدولة العثمانية، وأن بعض هذه الدعوات قد اصطدم بدولة الخلافة وهى

الدعوة السلفية إلا أنه ليس من الصواب إضفاء الصفة القومية على أى من هذه الدعوات سبباً أو نتيجة وذلك لغياب الوعي القومى من جانب ولرفض المنهج الإسلامى الذى ارتكزت عليه هذه الدعوات لأى إطار قومى سواء فى فكر دعائهم أم فى مسيرتها التطبيقية من جانب آخر . بل إن مراحل كفاح الدعوة السلفية فى أعقاب النجاح الذى حققته لدخل الجزيرة العربية وخارجها كان يتمثل فى مقاومة الأطماع الشخصية التى دعمها الاستعمار الأوروبى والتى سعت لإرساء المنظور القومى فى المنطقة والذى يتمثل فى دور محمد على (٣٢). كما أن الزوايا السنوسية لم يقتصر انتشارها على المنطقة العربية بل شملت تركيا وفارس والهند، وكانت جميعها متصلة بالزوايا الأم فى واحة جغبوب على الحدود بين مصر وبرقه وبزعامة مؤسس الدعوة محمد ابن على السنوسى الجزائري المولد (٣٣) .

وعلى الرغم من ارتباط هذه الدعوات بعوامل بيئية محلية فى بداية ظهورها أو فى مراحل تطورها إلا أن الدعوة السلفية فى جزيرة العرب قد خرجت بمبادئها وأهدافها عن هذه الحدود وذلك لعاملين أساسيين أولهما وحدة العوامل البيئية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية - فى الغالب - فى المنطقة العربية والإسلامية وعدم قدرة العثمانيين على الإصلاح فى هذا الجانب، والعامل الثانى يتمثل فى نجاح قوات الدولة السعودية الأولى التى آمنت بهذه الدعوة وسعت لنصرتها فى السيطرة على منطقة الحجاز وبث الدعوة بين وفود الحجيج من المسلمين مما أدى إلى قيام بعضهم بنشر مبادئها فى بلاده . بل إن تأثر صاحب الدعوة السنوسية بمبادئ الشيخ محمد بن عبد الوهاب وإيمانه بها كانت دافعا لقيام دعوته ونجاحها، ولولا اعتماده على الزوايا الصوفية لأمكن القول بأن دعوته هى امتداد طبيعى للدعوة السلفية . وقد أصاب البعض فى وصف هذه الدعوات بأنها " جاءت ببعث دينى كان له أثر كبير فى أقطار عدة ساعد على حقن هذه الأقطار بمصل جديد للكفاح وعزم أقوى على جهاد ومقارعة الأوروبيين الغزاة " (٣٤) .

ولم تثر الدعوة السلفية فى مراحلها الأولى فى نجد حفيظة الدولة العثمانية أو غيرها من الدول الأوروبية التى استشرى نفوذها فى الخليج العربى وذلك لأن إقليم نجد الداخلى لم يكن تابعا للدولة العثمانية إلا من الناحية الإسمية، وظل الإقليم طوال فترة الوجود العثمانى تحكمه قبائله بطريقتهم التقليدية

للمتوارثة دون تدخل من الدولة فى شئون هذه القبائل وبخاصة أن النظام العام الذى اتبعته الدولة العثمانية فى كل ولاياتها هو ترك الأقاليم التابعة لها للقوى المحلية (٣٥) . واتجهت عنايتها إلى أطراف تلك الإقليم فى الحجاز والبحر الأحمر من ناحية الغرب وفى الإحساء وساحل الخليج العربى من الجهة الشرقية، وذلك لحماية المنطقة من غارات الدولة الأوروبية ولما تمثله من أهمية اقتصادية، وانصببت عنايتها على منطقة الحجاز التى كانت أساسا فى صلب دورها ووجودها بالصيغة الإسلامية وفى احتفاظ سلاطينها بمنصب الخلافة الذى أكسبهم شرعية ومهابة لدى كافة الشعوب الإسلامية، ولهذا أوقفت الأوقاف والصدقات والهبات على سكان الحرمين الشريفين . كما حظيت مكة والمدينة ببعض النواحي الإصلاحية دون باقى مناطق الجزيرة العربية الأمر الذى أسهم فى تخلفها وضعفها وجعلها مكانا مهيا لتقبل أية ثورة إصلاحية ومساندتها .

على أن تطور الدعوة السلفية ممثلا فى دور الدولة السعودية الأولى ووصولها إلى الحدود الشرقية فى الخليج العربى وانتشار مبادئها بين قبائل هذه المنطقة، كأهل قطر الذين استدعوا ممثلين عن الدولة السعودية سنة ١٢٠٦هـ — ١٧٩٢م . وكذلك أهل البريمي، وتحالف القواسم مع السعوديين سنة ١٢١٣هـ — ١٧٩٩م بعد اقتناعهم بدعوتهم، كان ذلك سببا فى توتر علاقة الدولة السعودية بالإنجليز، وبخاصة بعد أن أدى تحالف القواسم مع آل سعود إلى تقوية دورهم فى الجهاد البحرى ضد النفوذ الأوروبى، والإنجليزى على وجه الخصوص والذين وصفوا هذا الدور بالقرصنة، فى الخليج العربى (٣٦) .

وإذا كان نجاح أتباع الدعوة السلفية فى السيطرة على إقليم الحجاز بما فيه مكة المكرمة والمدينة المنورة سببا فى إثارة الدولة العثمانية عليهم حيث أدرك العثمانيون أن فقدهم للأماكن المقدسة سيفقدكم مكانتهم الإسلامية (٣٧)، يبعدها الدينى والاقتصادى، فإن السعوديين قد أبدوا حرصا على إظهار الولاء للخلافة العثمانية مع المطالبة بالقضاء على المظاهر المخالفة للشرع فور دخولهم الحجاز، فعندما دخل " سعود بن عبد العزيز " مكة المكرمة أرسل إلى السلطان " سليم الثالث " رسالة جاء فيها : " .. فقد دخلت مكة المكرمة فى اليوم الرابع من محرم عام ١٢١٨هـ والموافق ٢٥ إبريل سنة ١٨٠٣م .. وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم بعد ما هدمت ما هناك من أشياء وثنية وألغيت الضرائب إلا ما كان منها حقا، وثبت الوالى الذى وليته أنت طبقا للشرع، فعليك أن تمنع والى

دمشق والقاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هذا البلد المقدس فإن ذلك ليس من الدين في شيء وعليك رحمة الله وبركاته .. (٣٨) .

على أن الوجود السعودي على البحر الأحمر قد أثار بريطانيا في المقام الأول وبخاصة بعد أن بدت ملامح استعادة الطريق التجارى القديم عبر البحر الأحمر أهميته في القرن الثاني عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى، وقد بدأ ذلك واضحا في مساعى الإنجليز كرد فعل للنشاط الفرنسى على التفاهم مع على بك الكبير وعقد اتفاقية معه سنة ١١٨٨هـ - ١٧٧٣م، ثم عقد اتفاقية أخرى سنة ١١٩٠هـ - ١٧٧٥م، مع محمد بك أبو الذهب الذى خلف على بك فى الولاية على مصر لتأمين وصول تجارتها من الهند إلى مرفأ السويس عبر البحر الأحمر .

وإذا كانت الظروف قد دعت إلى تعطيل العمل بهاتين الاتفاقيتين وزيادة حجم النشاط الفرنسى بشنون البحر الأحمر فإن ذلك قد أثار تحفز بريطانيا وهو أمر بدأ واضحا فى تعقب القوات البريطانية للحملة الفرنسية سنة ١٢١٣هـ - ١٧٩٨م، والتي كان من أهم أهدافها ضرب المصالح البريطانية من خلال السيطرة على هذا الطريق، وكذلك فى سعيها لعقد اتفاقية مع سلطان لحج سنة ١٢١٧هـ - ١٨٠٢م بشأن منحها تسهيلات فى ميناء عدن المدخل الجنوبى لهذا البحر (٣٩) .

ولا شك أن المنهج الإسلامى الواضح الذى ميز أتباع الدعوة السلفية والذى فرض عليهم أن يسلكوا سياسة عدائية ضد النفوذ الاستعمارى قد جعل بريطانيا تستبعد إمكانية التفاهم معهم، ولهذا - ولعوامل أخرى سنوضحها - فإن الرغبة فى ضرب هذه القوة كان بهم الإنجليز قبل غيرهم من القوى وبخاصة الدولة العثمانية من جهة، ويحدد كذلك طبيعة الدور الذى لعبه " محمد على" فى المنطقة من جهة أخرى (٤٠) .

ومع ذلك فإن الدولة العثمانية لم تجد فى دور الدولة السعودية ما يحفزها على إعلان الحرب عليها وبخاصة أن الداعية " الشيخ محمد بن عبد الوهاب " وأتباعه لم يثبت عنهم أنهم دعوا إلى الخروج عن طاعة الخليفة ودولة الخلافة أو التشكيك فى شرعيتها (٤١) . ولم يعرف عنه دعوته لنفسه بهذا الأمر، وقد أكد ذلك فى إحدى رسائله حيث قال : " لا أكفر أحدا من المسلمين بذنوب ولا أخرجهم من دائرة الإسلام، وأرى الجهاد ماضيا مع كل إمام برا كان أو فاجرا، وأرى

وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين ما لم يؤمر بمعصية، ومن ولى الخلافة واجتمع عليه الناس ورضوا به وجبت طاعته " (٤٢) .

وكان من الممكن أمام ذلك أن تعتبر الدولة العثمانية أتباع الدعوة السلفية إمارة أو قوة تابعة لها لولا أن أتباع الدعوة أقدموا على التصدى للمظاهر للخارجة عن الشريعة الإسلامية التى كانت تصحب وفود الحجيج من مصر والشام والدولة العثمانية، وهو أمر كان يمثل ضروريات الإلتزام بمنهج الدعوة (٤٣)، إلى جانب إغلاقهم لزوايا الدراويش الصوفية الموجودة فى مكة والمدينة التى ازدادت منذ بداية العصر العثمانى، وهو أمر أوحى بآرائهم للنفوذ العثمانى للمساند لهذه المظاهر والذى لم يكن يعنى النفوذ السياسى العثمانى كما سبق للتوضيح (٤٤) .

ومع ذلك فإن الموقف المهاجم من قبل الدولة العثمانية للدولة السعودية قد اقتصر على سعيها لعودة نفوذها السياسى على منطقة الحجاز ثم بعد ذلك الإحساء وكانت مهاجمتها لمنهج دعوة التوحيد لا تعدو أن تكون مبررا لهذا الأمر (٤٥). على أن موقف الشريف غالب شريف مكة قد ساعد الدولة العثمانية فى موقفها المعادى للسعوديين حيث رأى فى سيطرة هم على الحجاز تهديدا لمركزه السياسى والاقتصادى بشكل لم يكن يسمح له بالتصرف الكامل - كما كانت عادة الأشراف - فيما يفد إليه باسم فقراء مكة والمدينة من أوقاف وصدقات وهبات وعطايا والذى كان الأشراف يستأثرون بنصيب كبير منه لأنفسهم (٤٦) . وعلى الرغم من تأمين السعوديين له - أى الشريف - على مركزه السياسى حيث أبقوه فى منصبه فى أعقاب دخولهم مكة سنة ١٢١٧هـ - ١٨٠٣م مقابل التزامه بتنفيذ مبادئ الدعوة إلا أن حرصه على مكنته الاقتصادية المرتبطة بنفوذه السياسى قد دعاه لإضمار العداء لهم، ومن هنا فإن عداؤه للدعوة السلفية كان من منطلق مصلحى وليس موقفا تملية المبادئ (٤٧) .

ويعد موقف الإنجليز العدائى من هذه الدعوة هو الموقف الرئيسى، فلم يكن بوسع الدولة العثمانية أن تصطدم مع الدولة السعودية صداما عسكريا مباشرا وذلك نظرا لما تحملته قواتها العسكرية فى الحروب مع روسيا . ثم محاولتها للدفاع عن مصر ضد الحملة الفرنسية التى قادها " نابليون بونابرت " سنة ١٢١٢هـ - ١٧٩٨م تلك الحملة التى أكدت عجز القوات العثمانية وضعفها عن القيام بمهمة الدفاع عن الأراضى التابعة لها . كما أن هذه الحملة قد أثار فى

نفس الوقت شعور المسلمين فى المنطقة ضد الفرنسيين، والأوروبيين بصفة عامة، مما وضع إحتمال تجمعهم حول القوة السلفية الإسلامية الجديدة .

على أن ما ينبغى ملاحظته هو أن قيام قوات "محمد على" - ولا نقول القوات المصرية - بمهاجمة الدولة السعودية لم يكن امتثالا منه لطلبات أو أوامر الدولة العثمانية (٤٨)، تلك الطلبات أو الأوامر التى مارس الإنجليز ضغوطا شديدة على السلطات العثمانية فى سبيل إصدارها وبخاصة بعد تحسن العلاقات الإنجليزية العثمانية منذ سنة ١٢٢٤هـ - ١٨٠٩م (٤٩)، ولتى اتخذ منها "محمد على" وحلفاؤه البريطانيون ذريعة لتدخلهم وستارا لطبيعة الدور الذى لعبوه فى المنطقة، حيث كان تعبيرا عن توافق أطماع "محمد على" وسياسته مع أبعاد السياسة الاستعمارية فى المنطقة العربية وبخاصة مع الإنجليز (٥٠)، فكان الإنجليز أول من هناؤا إبراهيم باشا بسقوط الدرعية (٥١)، كما أن إنجلترا كانت تخشى من تكوين وحدة سياسية إسلامية كبيرة فى المنطقة وهذا ما يبدو فى رسالة الحاكم البريطانى فى الهند إلى إبراهيم باشا والتى هناه فيها بالقضاء على الدولة السعودية حيث ذكر " أن الهزيمة والانهيار الكامل لدولة ما بعد ارتفاع غير عادى إلى درجة السمو أمر أدعى للسرور أن تتفردوا فخامتكم بإخضاعها " (٥٢) .

كما أن الرسائل المتبادلة بين الجانبين تؤكد وجود تنسيق بينهما، ولعل أهم الدلالات التى تؤكد ذلك توافق سقوط الدرعية فى يد " إبراهيم باشا " سنة ١٢٣٤هـ - ١٨١٩م، مع سقوط رأس الخيمة مقر قوة القواسم المتحالفة مع السعوديين فى يد الإنجليز سنة ١٢٣٤هـ - ١٨١٩م (٥٣) . وقد أرسل الحاكم العام الإنجليزى فى الهند إلى إبراهيم باشا يهنئه على نجاحه فى القضاء على الدولة السعودية، وعبر القنصل البريطانى فى القاهرة عن فرح بلاده لانهاية الدولة السعودية. أما " فرنسيس وarden " فقد عبر عن كره المسئولين البريطانيين للدولة السلفية فكتب يقول : " هكذا قامت وهكذا سقطت ويا ليتها لا تقوم مرة أخرى طائفة الوهابية تلك الطائفة الشاذة التى حمت وشجعت القرصنة البحرية فى الخليج والبحار الهندية بكل جرأة وبربرية (٥٤) .

أما الدعوة السنوسية فى برقة فقد ارتبط قيامها ودورها فى البداية بعوامل محلية تتمثل فيما شاب المجتمع من شوائب أكدت الابتعاد عن الشريعة الإسلامية لدرجة دعت بعض البدو لإقامة "كعبة" فى الجبل الأخضر على غرار البيت الحرام فى مكة المكرمة، وطالبوا الناس بالحج إليها، فضلا عن بعض

العادات التي كانت تشير إلى ضعف الالتزام بالتعاليم الإسلامية كأداء البنات وعدم صوم شهر رمضان وغير ذلك من الظواهر التي لعبت الظروف الاقتصادية فيها دورا واضحا والتي دعت إلى ضرورة وجوب دعوة للعودة للمنهج الإسلامي الصحيح كالتى قام بها السنوسى (٥٥) .

وعلى الرغم من ارتباط دور السنوسية بعوامل أخرى خارجية تتمثل فى الهجوم الاستعماري الفرنسي على الجزائر، بل ربما كانت فى رأى البعض رد فعل مباشر له (٥٦)، إلا أن ذلك الدور لم يصطدم مع دور دولة الخلافة العثمانية فى محاولة مقاومة الهجوم الاستعماري الغربي على المنطقة العربية بشكل عام ومنطقة البحر المتوسط بشكل خاص، بل كانت فى أغلب المراحل تأييدا له . ومع ذلك فقد تأثر صاحب الدعوة السنوسية بسقوط الجزائر، فاتهم الدولة العثمانية بالتقصير فى حماية الأقطار الإسلامية، ورأى أنها فى طريقها إلى التدهور، وأن من أهم الظواهر التى دعت إلى ذلك هو سيادة العناصر التركية واستبعاد العناصر العربية والإسلامية بشكل عام مما يشير إلى تسرب بعض الأفكار القومية . ووضع تصورا لما ينبغى أن تكون عليه الخلافة الإسلامية فى حالة سقوط الخلافة التى أصبحت تركية فرأى أن يكون الخليفة من قريش ومن سلالة النبی (صلى الله عليه وسلم) (٥٧) .

ومع ذلك أكد صاحب الدعوة السنوسية على ضرورة الارتباط وإظهار الولاء لدولة الخلافة العثمانية ولخليفة المسلمين فيها، ورأى أن معاداتها أو الخروج عليها أمر خاطيء وغير واجب. ولم يكن ذلك نابعا من خشية السنوسيين من الصدام مع العثمانيين كما حدث مع الدعوة السلفية كما يرى البعض حيث رفض السنوسيون الاستقلال عن دولة الخلافة فى أعقاب دخول الإيطاليين إلى طرابلس سنة ١٣٢٨هـ - ١٩١١م، كما أنهم لم يبدوا حرصا على ذلك بعد استكمال قوتهم فى مراحل تالية (٥٨) .

وتولى السنوسيون تحصيل الضرائب للدولة العثمانية، وأكد دعائها دوام ولائهم للسلطان العثماني، كما منحهم السلاطين إعفاء لأماكهم من الضرائب، وأيدوا دورهم فى التوسع لنشر الإسلام داخل القارة الإفريقية، وكذلك فى دعم حركة المقاومة ضد الدول الأوروبية فى البحر المتوسط .

وقد أثار دور السنوسية للدول الأوروبية التى خشيت على مصالحها الاقتصادية فى إفريقيا التى سعت لإثارة السلطان عبد الحميد الثانى عليها مما دعا

السلطان لإرسال وفد للوقوف على أحوال السنوسية وقوتها (٥٩)، لكن ذلك لم يؤد إلى انتهاء علاقة الود والتفاهم، بل إن السنوسية قد دعت إلى دعم سياسة عبد الحميد الإسلامية، وأعلنت معارضتها لدعاة الاتجاه القومي في تركيا، واستنكر السنوسيون ما أقدم عليه الاتحاديون من خلع السلطان عبد الحميد .

وفي أعقاب الحرب الطرابلسية سنة ١٣٢٨هـ - ١٩١١م والتي احتلت بعدها إيطاليا ليبيا وانسحاب القوات العثمانية أبدى السنوسيون اعتراضهم على انسحاب هذه القوات، كما رفضوا قبول الاستقلال الذي منحه لهم السلطان العثماني، ورفضوا كذلك قبول الدولة للصلح مع الإيطاليين (٦٠) .

أما عن الدعوة المهدية في السودان فتختلف ظروفها عن ظروف الدعوتين السابقتين، فالسودان لم يرتبط بدولة الخلافة العثمانية بشكل مباشر وإنما تعرض لاستعمار كان دافعه أطماع محمد علي والي مصر، ثم تعرض لاستعمار إنجليزي بعد وقوع مصر تحت الاحتلال الإنجليزي سنة ١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م، ولذلك فإن الدعوة المهدية تعد في الغالب حركة محلية بدت في قالب ديني لاستنادها إلى الطرق الصوفية، كما أن هذه الدعوة قد حظيت في البداية بمساندة - غير مباشرة - من السلطات البريطانية، حيث رأت بريطانيا فيها سبيلا يساعدها على التدخل في شئون السودان واحتلاله بعد ثبوت عجز القوات التابعة لوالي مصر، وكان ذلك يسهم في دعم نفوذ بريطانيا في منطقة القرن الإفريقي، وكذلك فإن دعوة المهدي بضرورة انتقال الخلافة إلى مكة المكرمة ونزعها من الأتراك يوافق أهداف الإنجليز في المنطقة . وقد أثار الإنجليز محاولة السلطان عبد الحميد التوفيق بين الدعوة المهدية والدعوة السنوسية للحفاظ على الوجود الإسلامي ومحاولة انتشاره داخل القارة الإفريقية، ولهذا استفاد الإنجليز من نزعة المهدي العدائية ضد الخلافة في البداية، ثم سعوا للقضاء عليه خشية انتشار الروح الإسلامية المساندة له والتي فاقت تصورهم وتحدث وجودهم في النهاية (٦١) .

المواش

- (١) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ص ١٠٥ .
- (٢) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط ص ١٠٩ .
- (٣) د . رأفت غنيمى الشيخ : دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ٦٥ .
- (٤) المرجع السابق ص ٦٧ .
- (٥) المرجع السابق ص ١٠٠ .
- (٦) د . عمر عبد العزيز : تاريخ لمشرق العربى ص ١٤٥ .
- (٧) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٠١ .
- (٨) الجبرتى : عجائب الآثا ر ، ج ١ ص ٣٩٩ .
- (٩) الجبرتى : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٧ ، د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٠١ .
- (١٠) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ١٤٤ .
- (١١) أرسل على بك رسالة إلى أهالى دمشق قبل شروع قواته فى دخولها استخدم فيها العمل الدينى لإثارة الناس ضد الوالى العثمانى عثمان بك دون أى إشارة إلى تمزده على السلطان العثمانى وهذا يؤكد ميادة العامل الدينى على غيره من العوامل د . عبد العزيز نوار : الوثائق السياسية، ص ١٣٦-١٣٧ .
- (١٢) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٧٧ .
- (١٣) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ١٦٩ .
- (١٤) د . أحمد عزت عبد الكريم : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ص ٧٥ .
- (١٥) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ١٧٦ ؛ د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ١٧٢ ، وعن استخدام دوق تسكانا لفخر الدين المعنى الثانى كورقة للضغط على الباب العالى أنظر : د . عبد العزيز نوار : وثائق سياسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧-١٩٢٠م، لبنان سنة ١٩٧٤م، ص ٥١ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ٧٤ حيث ورد نص مشروع عقد معاهدة بين الأمير فخر الدين المعنى الثانى وتسكانيا والبابوية أواخر سنة ١٦٣٤م .
- (١٦) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٦٩ .
- (١٧) برنارد لويس : المرجع السابق ص ٩٣ .
- (١٨) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٨٢ .

(١٩) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ١٤٨ ؛ وكانت هناك لتصالات بين ظاهر للعمو
وكل من فرنسا وفرنسا القديس يوحنا في مائطة : د . رأفت الشيوخ : المرجع السابق
ص ٨٠ .

(٢٠) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ص ١٦٥ .

(٢١) د . عبد الكريم غرابية : تاريخ العرب الحديث، ص ٥٣ .

(٢٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ١٩٥، ١٩٦ .

(٢٣) علي معتوق عبد الله القط : الحجاز في القرن الثامن عشر - رسالة ماجستير غير
منشورة - معهد للبحوث والدراسات العربية - القاهرة سنة ١٩٦٩م، ص ٥٠ - ٥٣ .

(٢٤) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٦٧ .

(٢٥) د . رأفت الشيوخ : المرجع السابق ص ٨٣، ٨٤ .

(٢٦) د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٦٩ .

(٢٧) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ١٦٤ .

(٢٨) د . عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية ج ١ ص ٤٩٨ .

(٢٩) المرجع السابق ص ٥٠٠ .

(٣٠) المرجع السابق ص ٥٥٢ .

(٣١) د . رأفت الشيوخ : المرجع السابق ص ٥٢ وما بعدها .

(٣٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١٠٤ وقد اعتبرها نقطة للوعى
القومى .

(٣٣) أنور الجندي : اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار منذ ظهورها إلى أوائل الحرب
العالمية الأولى - دار الاعتصام - القاهرة ١٩٧٨م، ص ٦٧، ٦٨ .

(٣٤) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط ص ١٥٤ .

(٣٥) د . رأفت الشيوخ : المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٣٦) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربى ص ٥٨، ٥٩، ٩٧ . د
سليمان الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد على التوسعية ص ٣٤ .

(٣٧) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ٢٦ .

(٣٨) د . فتحي حمدي طهوب : تاريخ البحرين السياسى، ص ٨٧ ؛ خير الدين الزركلى : شبه
الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز، ج ١، ص ٣٨ . ولعل في ذلك وغيره رد على
اتجاهات بعض كتبة التاريخ الذين يحاولون تصوير العلاقة بين الدولة العثمانية والدعوة
السلفية بالعداء الشديد، وكذلك تصوير الحركة السلفية في إطار نقطة قومية .

- (٣٩) د . فاروق أباطه : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١٨، ص ٧٣ .
- (٤٠) د . سليمان الغنام : المرجع السابق، ص ٢٦ ؛ وتتوافق الوثائق التي تشير إلى الرسائل المتبادلة بين محمد علي والباب العالي في التعبير عن مدى طاعة محمد علي للسلطان وإن كانت لا تحدد تفسيراً المحاولات محمد علي في نجد وساحل الخليج وتطلعاته في اليمن والتي أعقب انسحابه منها ودخول البريطانيين فيها، أنظر مجموعة الوثائق الخاصة بشبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي . د . عبد الرحيم عبد الرحمن .
- (٤١) أحمد فهد الشوابكة : الجامعة الإسلامية، ص ١٧، أشار يوسف كنج والى دمشق في رسالة منه إلى محمد علي بأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب يجسد السلطان على خلافته للمسلمين ونادى بنفسه خليفة شرعي، وجاء هذا في إطار تحفيزه على عمل عسكري ضد الدعوة السلفية بعد أن خشي تهديدها له في الشام في حين لم يثبت ذلك على أي من أتباع هذه الدعوة . وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث - تعليق د . عبد العزيز نوار - بيروت سنة ١٩٧٤، ص ١٨٤ .
- (٤٢) أحمد فهد الشوابكة : المرجع السابق ص ١٧ .
- (٤٣) محمد أنيب غالب : من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ص ١٠٩ .
- (٤٤) برنارد لويس : المرجع السابق ص ١٥٣؛ ولا تتفق مع ما أورده حول اتهام السعوديين للسلطان العثماني باغتصاب السلطة وأن الهجوم قد اقتصر على مسائل شرعية، كما لا تتفق مع جورج أنطونيوس في نفس الاتجاه أنظر : جورج أنطونيوس : البقطة العربية ص ٨٣ .
- (٤٥) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢١٦ .
- (٤٦) إبراهيم محمد الصبحي : الحجاز في القرن السابع عشر - رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٠٣ .
- (٤٧) محمد أنيب غالب : المرجع السابق ص ١٠٦، ١٠٧ . د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٣٩ . وقد التقى هذا البعد مع مصلحة العثمانيين الاقتصادية التي أصبحت غالبية على البعد الديني وتستعمله لهذه المصلحة، وبالنسبة كانت علاقة العثمانيين مع الإنجليز ومع محمد علي كلها علاقات تحكمها المصالح الاقتصادية .
- (٤٨) يذكر الدكتور محمد فؤاد شكرى أن محمد علي كان يرتاب في نوايا الباب العالي تجاهه في طلبهم محاربتة للدعوة السلفية وكان لا يزال متأثراً بحادث نقله إلى سالونيك ولهذا تعلل كثيراً في عدم الإقدام على مهاجمة الجزيرة العربية . ج ٢ ص ٩٩٠، ٩٩١ . وقد طلب محمد علي تأمينه في حالة هجوم أي دولة أجنبية على مصر في غياب جنده، ولم

يكن بوسع الباب العالي طمأنته على ذلك وهو أمر يؤكد أنه لم يخرج جنده إلا بعد أن
إطمأن بنفسه من الإنجليز .

(٤٩) د . سليمان القنام : المرجع السابق، ص ٢٨ .

(٥٠) جورج أنطونيوس : المرجع السابق، ص ٨٣ . ولا يستبعد مساعدة الفرستيين لمؤامرة
جمعت بين سليمان باشا والى الشام والمماليك في مصر ضد محمد علي وحلفاؤه
الإنجليز ومحاولة محمد علي التستر بكسب ود الباب العالي بهذه الحملة . د . عبد العزيز
نوار : الوثائق السياسية، ص ١٩٥ .

(٥١) د . بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي، ص ١٩٨ .

(٥٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات في تاريخ الحرب الحديث، ص ١٨٩ .

(٥٣) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربي، ص ١٩٧ ، وقد أثار تحالف محمد
علي مع الإنجليز مخاوف الدولة العثمانية في هذه المرحلة فكتب للسلطان العثماني إلى
محمد علي يقول : " إن من لوازم الحكمة عدم الاتخاذ بحيل الإنجليز إذ ليس قصدهم
من ذلك سوى إيجاد ذريعة للتسلط على تلك الجهات وأن مرماهم — كما هو مبين في
المذكرة التي قدمها سفير فرنسا — هو الاستيلاء على بعض تلك الجهات " وثائق عابدين
— وثيقة رقم ٢٧ محفوظة رقم ٢ لعام ١٢٣٥ هـ .

(٥٤) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ .

(٥٥) د . رأفت الشيوخ : المرجع السابق، ص ١٥٩ .

(٥٦) أنور الجندى : المرجع السابق، ص ٦٧ .

(٥٧) د . رأفت الشيوخ : المرجع السابق ص ١٨٤ .

(٥٨) المرجع السابق ص ١٨٤ .

(٥٩) تولت الدعوة جمع المال المستحق من الأهالي للدولة كي تبدو في صورة قريبة من دولة
للخلافة الأمر الذي يشير إلى أهمية البعد الاقتصادي سواء في موقف الدولة العثمانية أم
في موقف الدعوة نفسها .

(٦٠) المرجع السابق ص ١٨٨ .

(٦١) أحمد للشوابكة : المرجع السابق ص ١٩ .

الفصل الثالث

نشأة القوى السياسية في الخليج العربي بين البعد الإسلامي والإطار القومي

- الطابع الإسلامي للقوى السياسية على ساحل الخليج العربي .
- اليعاربة والبوسعيديون في عمان .
- القواسم .
- الدعوة السلفية في الخليج العربي .
- بنو خالد في الإحساء .
- هجرة العتوب وتكوين الكويت وقطر والبحرين .

الطابع الإسلامى للقوى السياسية على ساحل الخليج العربى :

يرجع كثير من المؤرخين من أصحاب المنظور القومى قيام الوحدات السياسية فى الخليج العربى إلى كونها تجمعات عشائرية وقبلية (١)، وينطوى هذا المنظور على إغفال - متعمد - لدور العامل الدينى فى نشأة هذه الكيانات وكذلك فى استمرارها حتى استقرارها فى النهاية .

ومع التسليم بأن التجمعات العشائرية أو القبلية قد ظهرت على السطح لهذه القوى، ولعبت دورا واضحا فى مراحل التكوين والاستقرار وما تخللها من أحداث سياسية وهو ما يركز عليه المؤرخون القوميون، إلا أن ما أحاط هذه العشائر أو القبائل من قوى وتجمعات من عناصر إسلامية مختلفة والتي كانت تمثل النسبة الأكبر، إلى جانب طبيعة الأهداف والدوافع التى استوجبت حدوث هذه التجمعات، يدعو إلى التأكيد بأنها تجمعات أو كيانات إسلامية أكثر من كونها تجمعات أو كيانات أو قوى ذات بعد قومى أو عرقى، وبالتالي يصبح من غير الموضوعية حصرها فى إطار قومى محدود حتى ولو كانت الظروف السياسية اللاحقة قد أسهمت فى ظهورها أو فى استمرارها فى هذا الإطار .

وتؤكد الدوافع الحقيقية التى ساعدت على تكوين هذه القوى صحة ما نرمى إليه من رجوح العامل الدينى على غيره من العوامل، ولعل أهم هذه الدوافع هو الجهاد ضد التدخل الأجنبى فى الخليج بعد تعرض الدولة العثمانية لعوامل الضعف الذى جعلها غير قادرة على القيام بمواصلة مقاومة التدخل، أو ربما جعلها تغيب عن الساحة الخليجية إلى ساحات أخرى استوجبت المزيد من الإهتمام . وقد أسهم هذا الغياب العثمانى إلى بروز قوى محلية لتتولى مهمة الجهاد كاليعاربة والبوسعيديون والقواسم وغيرهم (٢) .

كما أن هناك عامل آخر أسهم فى إستقطاب هذه القوى والكيانات إلى ساحل الخليج وهو العامل الإقتصادى الذى يرجع إلى عوامل جغرافية داخل الجزيرة العربية كالجفاف والجذب الذى عادة ما يؤدى إلى ضعف موارد البيئة الصحراوية أو المناطق الموازية المحيطة بها أو الموجودة على الساحل المقابل فى الخليج، وفى المقابل توفر أنشطة أكثر كسبا على ساحل الخليج كصيد الأسماك واللؤلؤ والإسفنج المستخرج وغير ذلك . إلى جانب عوامل سياسية تتصل بإهمال السلطات العثمانية أو غيرها للتنمية فى بعض المناطق الداخلية، وكذلك حدوث

بعض الصدمات والتنافس بين القوى المحلية التى أسهمت فى هجرة بعض العناصر إلى ساحل الخليج .

ومما لا شك فيه أن هذه العوامل مجتمعة لا تفرض تكون مجتمع نجمة وحدة العرق على ساحل الخليج بل عناصر تجمعها وحدة الهدف أو وحدة المصالح أو هما معا وهو ما يدعو لأن نرجح البعد الإسلامى كإطار لهذا التكوين أكثر من البعد القبلى أو العرقى وبحكم أن الجهاد الدينى أو الدوافع الإقتصادية يلتقيان فى كونهما جهاد لتقوية المجتمع والحفاظ عليه، وكذلك لأن هذه العوامل لا تفرض هجرة تجمعات قبلية كاملة بل تفرض هجرة العناصر أو الشرائح الضعيفة إقتصاديا أو المدفوعة للجهاد فيها، وأن تكون مصالح لهذه الشرائح على ساحل الخليج بعد هجرتها يفرض عليها مواصلة الدفاع عن مصالحها أو أهدافها وهذا أقرب إلى الإطار الإسلامى منه إلى الإطار القبلى .

ولا يتعرض هذا المفهوم للتغيير فى سبق العوامل الإقتصادية على عامل الجهاد فى فترة لاحقة حين لعب العامل الإقتصادى دورا رئيسيا فى تشكيل القوى السياسية الخليجية بعد أن نجح السياسيون الغربيون فى ربط مصالح بعض الفئات بمؤسساتهم الإقتصادية جعلتهم يرتبطون بالمصالح ويفضلون الأطر السياسية المحلية على البعد القومى العربى العام أو الدينى حماية لهذه المصالح .

على أن ذلك لا ينفى الطابع العربى لهذه التجمعات أو القوى الخليجية حيث أنه الطابع الحضارى الذى لازم البعد الإسلامى منذ ظهور الإسلام وحتى التاريخ الحديث، بل إن هذا الطابع هو المميز لحضارة الجانب الشرقى للخليج والجانب الغربى منه أيضا. فقد حافظت العناصر السكانية فى ضفتى الخليج على هذا الطابع العربى الحضارى فى العصور التى كان العامل الدينى هو العامل الأساسى فيها، ثم حدث بعض التحول النسبى لهذا الطابع فى أعقاب ظهور الطابع القومى المحلى والعوامل الإقتصادية والسياسية .

ولا نتفق مع الذين يحاولون تأكيد الطابع العربى للخليج من خلال البعد العرقى القومى المتمثل فى تتبع هجرة القبائل العربية إلى ساحل الخليج وجزر البحرين منذ العصور القديمة السابقة على الإسلام ذلك لأن العناصر الفارسية هى الأخرى كان لها تواجدها منذ مساندتها لحركة مقاومة الأحباش فى اليمن على يد سيف بن ذى يزن وقبلها، وكذلك منذ حملات قميبيز على الشام ومصر، فضلا عن استمرار الوجود الفارسى فى العراق وحكمهم للمناذرة العرب قبيل الإسلام

مباشرة، وربما يكون تأثير العناصر الفارسية أكثر رجوحاً بحكم سبق وقوة تأثير حضارتهم عما يمكن أن نسميه بالحضارة العربية التي لم تكن تعرف أى قدر من الشهرة والذيع والانتشار إلا مع قدوم الإسلام . ولهذا فإن تأكيد الطابع العربى للخليج من خلال البعد الحضارى الإسلامى أكثر قبولا وموضوعية من البعد العرقى القومى، كما أنه يخلق الطريق أمام الأطماع القومية والإقليمية، فضلاً عن توافقه مع الأحداث التاريخية .

اليعارية والبوسعيديون فى عمان :

لا يقتصر الأمر فى كون التجمعات أو الكيانات الخليجية ذات بعد إسلامي وليست قبلية أو عشائرية على الدوافع التى كانت وراء تكوينها فقط بل يتضح هذا البعد أيضاً فى مراحل وجودها وتكوينها منذ البداية كذلك، فتعود بداية تكوين أقدم هذه القوى وهى قوة اليعارية فى عمان إلى أتباع المذهب الأباضى حيث استقطبت هذه المنطقة بطبيعتها الجغرافية جموعاً من أتباع هذا المذهب الذين وفدوا إليها منذ القرن الأول الهجرى وبعده حيث وجدوا فيها ملاذاً بعيداً عن متابعة الحكومات المركزية فى دمشق ثم بغداد خلال مرحلتى الدولة الأموية والدولة العباسية وما بعد ذلك، وتحصّن هؤلاء بطبيعة المكان الذى تفصله صحراء الربع الخالى وساحل البحر الذى يمكن ارتياده إذا ما واجهوا هجوماً، وبالتالي فإن أساس تواجدهم يرجع إلى عوامل دينية لا إلى عوامل قومية عرقية قبلية .

وتخللت فترة وجود الأباضيين فى عمان فترات محدودة قاموا فيها بحكم أنفسهم كنتيجة للإضطرابات أو الإنقسامات التى كانت تتعرض لها الحكومة المركزية فى عاصمة الخلافة أو بسبب ضعف قبضتها على كافة مناطق الدولة الإسلامية، ولكن ذلك كان يتم دون إعلان أو حتى ميول للانفصال عن الدولة الإسلامية المركزية .

وكان النظام السياسى الذى التزم به الأباضيون فى حكمهم لأنفسهم يركز على أساس دينى مذهبى لا على أساس قبلى عرقى بالطبع وإن كانت بعض القبائل قد شاركت فى الحكم فى حدود منطقتها فكان من يختارونه لقيادتهم هو إمام تتوفر فيه شروط الفضيلة والتقوى، ولهم الحق فى عزله أو الثورة عليه إذا ما افتقد هذه الشروط أو بعضها، وهذا غير جائز أو معمول به فى النظام القبلى، كما أنهم لم يكونوا يشترطوا وجود الإمام بل يمكن الاستغناء عنه إذا ما كانت

الظروف غير ملائمة وهى التى يطلقون عليها فترات " الكتمان "، كما كان الخروج من ظروف " الكتمان " إلى مرحلة " الظهور " أمر كان يقرره المشايخ والقضاة فى اجتماع سرى بينهم (٣) .

ويعد قيام دولة اليعاربة إحدى مراحل الظهور لاتباع المذهب الأباضى فى عمان، ذلك المذهب الذى ساهم فى تكوين إطار إقليمى ثم قومى، فكما يشير المؤرخ العماني " السالمى " أن علماء الدين قد اتفقت كلمتهم على " أن ينصبوا لهم إماما يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فوَقعت خيرتهم على " ناصر بن مرشد " فرضى به الجميع وعقدوا عليه الإمامة بالرسنق (٤). وكان أول عمل قام به الإمام " ناصر بن مرشد " ١٠٣٣ - ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٢ - ١٦٤٩ م، وهو أول حكام اليعاربة، وبعد توحيد المنطقة، هو العمل على تطهير منطقة عمان من البرتغاليين أو الإيرانيين الذين كانوا يحاولون أن يحلوا محل البرتغاليين فى الخليج، ونجح الإمام ناصر وخليفته الإمام " سلطان بن سيف " ١٠٥٨ - ١٠٧٧ هـ / ١٦٤٩ - ١٦٦٨ م، فى طرد البرتغاليين من الخليج وتعقبهم إلى سواحل الهند وسواحل شرق إفريقيا (٥) .

واستطاع الأئمة فى عمان أن يمهّدوا لسيطرة تعتمد على العامل الدينى فى بعض مناطق شرق إفريقيا كانت مملوكة للاستعمار البرتغالى (٦)، فقد وصل أسطول المجاهدين المنطلقين من الساحل العماني فى عهد الإمام " سلطان بن سيف " إلى بمباى وحاصر مستعمرات البرتغاليين فيها، واستمر فى حصارها خمس سنوات حتى استولى على قلعتها ثم واصل سيطرته على بعض الجزر مثل زنجبار، فكانت أعماله هذه مقدمة لسيادة القوى المجاهدة المنطلقة من الساحل العماني وحكمهم لهذه المنطقة بعد ذلك (٧)، ولعل العامل الدينى قد لعب دورا هاما فى مساعدة وتبرير هذه التوجهات على الساحتين الهندية والإفريقية .

وخلفه ابنه " سيف بن سلطان " ١١٠ - ١١٢٦ هـ / ١٦٩٢ - ١٧١١ م، الذى واصل سياسة الجهاد ضد البرتغاليين على الساحل الإفريقى وعلى سواحل الهند مستعينا بالعامل الدينى أيضا، فكون لذلك أسطولا ضخما تمكن به من الإستيلاء على مجموعة من جزر الساحل الهندى مثل " بارسالور " و " ماتجلور " وضمها إلى سلطته .

على أن الحروب الأهلية قد سادت عمان فى أعقاب وفاة الإمام " سلطان بن سيف " الذى كان قد خلف أبيه، وفتحت هذه الصراعات الباب للتدخل الخارجى من

القوى الأوروبية أو الصفويين في إيران علاوة على الضعف الذي أصاب هذا الكيان السياسي الإسلامي الناشئ .

ولعل ما يمكن إدراكه هو أنه حين كانت الإمامة إطارا لاختيار الحاكم، وكان الجهاد هدفا لهذا الاختيار، ظهر هذا الكيان السياسي في صورة قوية ومهابة من كافة القوى الطامعة، وحين تدخلت الصراعات القبلية العرقية وطمعت في الحصول على المناصب السياسية، وتراجع الجهاد عن كونه هدفا أساسيا، فتح الباب على مصراعيه للتدخل الأجنبي الذي زاد من ضعف هذا الكيان السياسي .

دولة البوسعيد :

كان من نتيجة الحرب الأهلية والصراع على السلطة إتجاه الإمام " سيف بن سلطان الثاني" إلى الاستعانة بالصفويين في إيران وبعض عناصر المرتزقة بسبب فقدانه للتأثير على المواطنين والتفافهم حول إمام آخر هو " بلعرب بن حمير" ١١٤٨هـ - ١٧٣٣م، وتدخلت القوات الإيرانية بناء على طلب الإمام " سيف " ودخلت ميناء جلفار بعد أن هزمت قوات بلعرب، وانتهزت العناصر الإيرانية الفرصة وبسطت نفوذها على البلاد الأمر الذي أثار مخاوف الإمام سيف نفسه .

وفي أعقاب تعزيز الإيرانيين لقواتهم في عمان وبشكل زاد من حجم سيطرتهم عليها وأثار المزيد من مخاوف الإمام، سارع الإمام سيف بعقد صلح مع خصمه " بلعرب بن حمير" الذي تنازل له عن الإمامة (٨)، وسعى الإمام سيف إلى التقرب إلى الناس وإثارتهم ضد الوجود الإيراني، وبالفعل واصل المواطنون الهجوم على القوات الإيرانية حتى اضطرت في النهاية للإسحاب من ساحل عمان .

إلا أن عودة " سيف بن سلطان " إلى سياسة الإصراف عن شئون الرعية والإنغماس في حياته الخاصة قد دعت أهل البلاد للتمرد عليه وبايعوا إماما آخر هو " سلطان بن مرشد " ١١٥٣هـ - ١٧٣٨م، ولم يجد الإمام سيف أمامه سوى العودة للاستعانة بالإيرانيين مقابل الاعتراف بنفوذهم في صحار، وقدم الإيرانيون بقواتهم ثانية ١١٥٧هـ - ١٧٤٢م، وتهيأ الناس بزعامة الإمام " سلطان بن مرشد " للمقاومة، وظل " سيف بن سلطان " في الرستاق حتى مات، في حين قتل منافسه " سلطان بن مرشد " في الحرب ضد الإيرانيين ١١٥٨هـ - ١٧٤٣م، مما أتاح الفرصة لحاكم إقليم صحار " أحمد بن سعيد " لأن يظهر على الساحة السياسية،

واستطاع أن يجمع الأهالي حوله بعد مهادنة مؤقتة للإيرانيين، ثم أعلن الحرب عليهم حتى أجلاهم عن الساحل العماني، وكان هذا كفيلا بمباليغته إماما على البلاد وبداية حكم أسرة البوسعيد (٩) .

السلطان أحمد بن سعيد :

على الرغم من اختلاف الآراء حول اكتمال البيعة له إلا أنه بغض النظر عن ذلك واجه العديد من المشكلات الخارجية والداخلية، أما من حيث المشكلات الداخلية فحاول أن يتجنب أى إثارة من جانب اليعاربة الحكام السابقين فتقرب منهم بالمصاهرة . ثم حاول التقرب إلى عرب الغفارية فى الشمال حيث أطلق يدهم فى إقليم الظاهرة . ومع ذلك أئته الإضطرابات من مكنه حيث ثار أبناؤه عليه، وما إن مات حتى تجمعت الكلمة حول ابنه "سعيد" (١٠) .

سعيد بن أحمد :

لم يكن " سعيد بن أحمد " بأحسن حظ من والده حيث حاصرت الصراعات الداخلية الأسرية، فقد تمكن ابنه " حمد بن سعيد " من السيطرة على الساحل العماني والإفراد بحكم مسقط بين عامى ١١٩٤-١٢٠٧هـ / ١٧٧٩-١٧٩٣م، بعد تمكنه من تخليصها من حاكمها " محمد بن خلفان البوسعيدى"، وحتى بعد وفاة " حمد بن سعيد " ١٢٠٧هـ-١٧٩٣م، لم يتمكن والده من إستعادة السيطرة على مسقط وتوحيدها مع الداخل لتخاذه، وتمكن أخوه " سلطان بن أحمد " من السيطرة عليه وحكمه حتى ١٢١٨هـ - ١٨٠٤م .

وقد أسهمت هذه الثنائية فى الحكم إلى تسرب النفوذ الأجنبى إلى الساحل العماني، وبدأ الأمر بنفوذ بعض القوى الخليجية مثل إيران والدولة السعودية . وعبثا حاول أئمة البوسعديين وقف النفوذ الخارجى، بل كانت محاولاتهم للتخلص منه قد سمحت للنفوذ الأوروبى ممثلا فى الإنجليز والفرنسيين لأن يلعبوا دورا على الساحة السياسية العمانية .

القواسم :

بقدر ما كان الجهاد ضد البرتغاليين، وبسبب الفراغ العثماني، يعد الدافع الأساسى فى ظهور اليعاربة والبوسعديين فى عمان فإن الجهاد ضد الإنجليز ومن

نافسهم من الدول الأوروبية فى التدخل فى الخليج كالفرنسيين والهولنديين كان الدافع الأساسى لظهور القواسم فى الخليج العربى .

وينسب المؤرخون القوميون أصل القواسم إلى شيخهم " قاسم " الذى كان ينصب لنفسه خيمة عند " جلفار " كانت تراها السفن المارة فى الخليج وهو سبب تسمية مركزهم الرئيسى برأس الخيمة، إلا أن الباحثين لم يحددوا بدقة أصل القواسم هل هم من عرب الشمال الذين هاجروا من نجد كما ذهب المستر فرانسيس واردن ؟ ، أم هم من عرب الهولة HAEOLA الذين كانوا يقطنون الساحل الشرقى للخليج كما رأى المؤرخ الإنجليزى بادجر BADGER ؟ أم أنهم قدموا من جهة العراق كما ورد عند كيلي KELLY ؟.

ولم يجد المؤرخون أمامهم سوى التسليم بوجود القواسم كقوة سياسية بعد أن أدركوا أن الحسم فى قضية أصلهم أصبح أمرا صعبا لما يكتنفه من غموض بسبب تضارب الآراء . بل ولم يقف الأمر عند حد التسليم بوجودهم كقوة سياسية فى الخليج العربى خلال القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى قاصرا على الجذور أو الفترة الزمنية وإنما شمل المكان أيضا حيث تثبت المراجع وجودهم على جانبي الخليج حيث تواجدوا فى مدينة لنجة وجزيرة قشم وجزيرة لارك وغيرها من الجزر والمدن على الساحل الشرقى للخليج وكذلك فى رأس الخيمة والشارقة وساحل عمان على الساحل الغربى العربى (١١) .

والحقيقة أن الباحثين الأوروبيين هم الذين يعنون بربط القواسم وغيرهم من القوى التى تجمعت حول شاطئ الخليج بجذور عرقية قبلية، فضلا عن تفسيرهم لمقاومة القواسم وغيرها من القوى المحلية فى الخليج العربى للقوى الأوروبية بأنها قرصنة وهو الاتجاه الذى يدعو المؤرخين الأوروبيين لاستبعاد عامل الجهاد كأساس فى ظهور هذه القوى والسعى للبحث فى جذورهم أو فى أسباب أخرى لظهورهم .

لقد كان أول عمل للقواسم بعد توطيد وجودهم فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى - هو شن العديد من الهجمات على السفن الإنجليزية ومنافستهم فى التجارة، واستخدم الإنجليز القوة ضدهم سعيا للاستئثار بالنفوذ السياسى والتجارى . ولم تكن قوة القواسم فى البداية وخلال هذه الفترة قوة نظامية تستطيع الدخول فى معارك حاسمة مع القوة الإنجليزية فاعتمدوا فى جهادهم على الكر والفر وهو الأسلوب الذى وصفه الإنجليز بالقرصنة .

وإذا جاز هذا الوصف من المؤرخين الأوروبيين فهل يجوز أن يتبعهم المؤرخون المسلمون دون وعى أو تمحيص ؟ وهل كان على القواسم أن يباركوا التدخل الإستعماري حتى يتجنبوا هذه الإتهامات ؟ وهل يعد دفاعهم عن بلادهم من قبيل للقرصنة أم هو الجهاد ؟ وهل يعد أصحاب البلاد قرصنة والوافدون إليها لاستغلالها واستعمارها ونهبها متحضرون ؟ (١٢) .

كان القواسم قد سلكوا أسلوب المقاومة في مرحلة استقرارهم في ساحل عمان في النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي وكذلك في الفترة اللاحقة لإعلانهم الإستقلال ١١٥٤هـ - ١٧٤١م على أثر سقوط دولة اليعاربة والذي أعترف لهم به الإمام " أحمد بن سعيد " مؤسس دولة البوسعيد، واتخذوا من رأس الخيمة قاعدة لهم. عند ١١٧٩هـ - ١٧٦٥م في عهد زعيمهم " رحمة بن مطر القاسمي " (١٣) . وخلال هذه المرحلة تجنب القواسم - مضطرين - الاعتداء على السفن البريطانية باستثناء بعض الحوادث المحدودة التي حدثت ١٢١١هـ - ١٧٩٧م، والعام التالي، وقدم عنها زعيم القواسم " الشيخ صقر " اعتذارا للمقيم البريطاني في البصرة . إلا أن تحول عمليات القواسم من مجرد جهاد غير منتظم إلى جهاد علني منظم، وضد الإنجليز بالذات، قد جاء في أعقاب دخول مجاهدي الدعوة السلفية إلى بعض الأراضي في الساحل العماني ١٢١٤هـ - ١٧٩٩م، وبعد ارتباط القواسم بمبادئ الدعوة السلفية وحدوث تحالف بين الجانبين القاسمي والسعودي . فقد تعرضت السفن البريطانية للعديد من عمليات الجهاد خلال عامي ١٢١٩، ١٢٢٠هـ / ١٨٠٤، ١٨٠٥م، مما أدى إلى قيام بريطانيا بعمليات عسكرية ضدهم في نهاية ١٢٢٠هـ - ١٨٠٦م، أسفرت عن عقد إتفاقية في بندر عباس (١٤) . ثم تكرر الصدام بين الجانبين حتى ١٢٢٠هـ - ١٨١٩م، حيث عقدت بينهما إتفاقية على أثر دخول الإنجليز رأس الخيمة ودعمهم لدخول قوات والي مصر الدرعية المتحالفة مع القواسم (١٥) .

والجدير بالذكر أن الدور الذي تزعمه القواسم ضد الوجود الإنجليزي في الخليج العربي قد دفع بعض القوى والفصائل القبلية إلى الارتباط بهم والإضمام إلى صفوفهم مثل الخواطر الذين سكنوا رأس الخيمة وهم فروع من قبيلة النعيم، وبنى قتب الذين استقروا في الشارقة والعين وبعض مناطق الساحل العماني، وزعاب التي استوطنت منطقة أبو ظبي، والعلی التي استقرت في منطقة أم القوين، والشوحوح والحبوس والمزاريع وغيرها (١٦) . وكانت قوة القواسم

بهذا الخليط الذى جمع بين سواحل الخليج الشرقية والغربية وما فيها من شوائب وأجناس وعناصر لا يجمعها إلا دافع الجهاد تعبر عن إرادة شعوب المنطقة ضد الوجود الأوروبى فى المنطقة بأكملها .

وهناك تجمع آخر وهو تجمع بنى ياس الذى نزل فى جزيرة الظباء التى عرفت بأبى ظبى قد وفد من ساحل عمان، وأدى وجود الماء فى الجزيرة إلى توافد العديد من العشائر من الأماكن المجاورة . كما أن التجمعات الأخرى على ساحل الخليج كآل نعيم الذين وفدوا من الشام واستقروا فى عجمان وأم القيوين وغيرها واختلطوا ببعض سكانها من البوشاس والسودان والبومهير، كما اختلطوا بقبائل وفدت من صوب اليمن، وكل ذلك يشير إلى أنهم لم يكونوا يمثلون تجمعاً قبلياً أو عرقياً، فكان أول عمل قام به " الشيخ عبد الله أحمد بن راشد " حاكم أم القيوين هو إقامة سد لمنع السفن الإنجليزية من دخول موطنهم، وظل هذا السد قائماً حتى هدمه الإنجليز فى حملتهم ١٢٣٤هـ - ١٨١٩ م (١٧).

الدعوة السلفية فى الخليج العربى :

يرجع اتجاه أتباع الدعوة السلفية إلى الخليج العربى إلى دوافع دينية فى المقام الأول ذلك لأن القوى السياسية فى نجد بما فيها الدرعية - التى ناصرت هذه الدعوة - لم يكن لها أى توجه صوب ساحل الخليج قبل ظهور الدعوة السلفية . وكذلك فإن البعد الدينى المتمثل فى مبادئ هذه الدعوة هو الذى أسهم فى تكوين هذه القوة السياسية الناشئة فى الدرعية وليس الأطماع السياسية أو العلاقات القبلية حيث وجد بين أبناء القبيلة الواحدة من ناصر مبادئ هذه الدعوة ومن عاداها كذلك، وأصبح تجمع هذه القوة من المناصرين للدعوة بغض النظر عن إنتماءاتهم القبلية، أى أنها تكونت على أسس إسلامية لا أسس عرقية . وإذا كانت قوى المعارضة لأتباع هذه الدعوة فى نجد قد ظهرت فى شكل تكتلات قبلية فإن هذه التكتلات قد تمزقت بفعل انتشار مبادئ الدعوة بينهم، وكان هذا العامل هو السلاح الذى مكن أتباع الدعوة السلفية من زيادة نفوذهم فى الجزيرة العربية حتى نجحوا بهذا العامل فى توحيدها، أى أن البعد الدينى حكم نموها وتطورها منذ نشأتها كقوة سياسية.

ومن الطبيعى أن تكون مبادئ الدعوة محورا أساسيا فى علاقات الدولة السعودية بجيرانها فى الخليج العربى، فخلال الدولة السعودية مع بنى خالد فى

الإحساء لم يكن بقصد السيطرة على الإحساء والتوسع فيها في المقام الأول كما يتراءى للبعض وإنما حول مبادئ الدعوة التي عاهاها بنو خالد .

وكان تقاربهم مع القواسم يرجع إلى ارتباط القواسم بمبادئ الدعوة، فأصبح اتباع الدعوة السلفية ظهيرا قويا لدور القواسم في مواجهة الإنجليز وأطماعهم في الخليج (١٨). وأدرك الإنجليز أن لا يمكن السيطرة على سواحل الخليج إلا بوقف إمدادات الدرعية ودورها سواء مع رأس الخيمة مقر القواسم أم مع الساحل العماني .

وإذا كان الإنجليز قد تحاشوا الدخول في صراع مع قوات الدعوة السلفية إلا أن ضربهم للقواسم كان بمثابة تجاهل لارتباط القواسم بالدرعية بعد ارتباطهم بمبادئ الدعوة السلفية، لذلك اتبع دعاة الدرعية نفس الأسلوب تجاه الإنجليز وهو عدم الإعلان عن عداة مباشر معهم ولكن في نفس الوقت واصلوا مساعدة القواسم لاستعادة قوتهم بالشكل الذي مكنهم من العودة إلى النشاط المعادي للإنجليز ١٢٢٣هـ - ١٨٠٨م، والذي وصل إلى حد مطالبتهم لحكومة إنجلترا في بمباى بضرورة دفع رسوم لرأس الخيمة إذا أرادت إنجلترا مزاوله حرية التجارة في الخليج وهو الطلب الذي قبلته حكومة بمباى مؤقتا، ثم قامت بحملة عسكرية في العام التالي ١٢٢٤هـ - ١٨٠٩م بتأييد من حاكم مسقط حطمت خلالها ميناء رأس الخيمة وهاجمت ميناء شيناص السعودي على الرغم من الحرص على عدم التورط في صدام مباشر مع السلفيين .

وكان توافق موقف الدعوة السلفية المعارض للإنجليز في كل من الخليج العربي والبحر الأحمر قد أسهم في أن يلعب الإنجليز دورا في التوجه السياسي العثماني المعادي للدعوة السلفية، كما كان اتفاقهم - أي الإنجليز - مع والى مصر محمد على ودعاه - جزنيا - بالسلاح يشكل العامل الأساسي في توجيه حملاته العسكرية ضد الدعوة السلفية في الجزيرة العربية (١٩)، ولعب الإنجليز دورا في تغطية هذه الحملات بالقناعات العثمانى .

وبقدر ما كان استيلاء محمد على على الحجاز مرضيا للعثمانيين لارتباطه بهيبتهم الدينية فإن تقدمه نحو الدرعية كان متوافقا مع مصالح الإنجليز أكثر من غيرهم. وكان سقوط الدرعية يعنى ضعف ظهير القواسم بشكل هيا الفرصة للإنجليز لضرب رأس الخيمة وغيرها من ممتلكات القواسم في الخليج والاستيلاء عليها بعد أشهر قليلة من سقوط الدرعية . وسارع مندوب الإنجليز "سادلير"

للسفر من بومباي إلى مسقط ثم إلى الدرعية ليقيم التهنئة لإبراهيم باشا على سقوط الدرعية، وسلمه سيفاً كهدية على ذلك، وأعرب له إبراهيم باشا عن أسفه لعدم تسلمه خطط الإنجليز في وقت مبكر، وأنه كان على اتصال مع السيد سعيد في مسقط، وهو حليف الإنجليز، في أعقاب سقوط الدرعية حيث تلقى منه عرضاً بعمل مشترك ضد القواسم (٢٠).

وفي الوقت الذي عرض فيه المستر " سادلير " على إبراهيم باشا عرضاً مماثلاً، أو جدد العرض الذي طرحه " السيد سعيد " بالاتفاق مع السلطات البريطانية، وأرجأ إبراهيم باشا الرد على ذلك حتى يأخذ مشورة والده "محمد علي" في مصر، ولم يبد "محمد علي" في رده على ابنه موافقته حيث تخوف من زيادة تبديد قوته لصالح الإنجليز وحدهم، وفي نفس الوقت فإن حكومة الهند البريطانية أفادت مندوبيها " سادلير " بأن يرجىء هذا العرض خشية أن يؤدي العمل المشترك إلى زيادة نفوذ " محمد علي " في الخليج واكتفت السلطات البريطانية في هذا الصدد بمعاونة حاكم مسقط، وأعدت لحملة عسكرية ضد كل مواقع القواسم في الخليج على الساحل العربي والساحل الإيراني والجزر التابعة لهم، وتمكنت من ضرب رأس الخيمة بعد مقاومة عنيفة وبأسلة، وفرض الإنجليز اتفاقية سنة ١٢٣٥هـ - ١٨٢٠م قوضت نفوذ القواسم إلى حد كبير، فقد فرضوا عليهم صيغة وصفت الأعمال المعادية لهم بأنها من قبيل النهب والقرصنة وأنها منافية للإنسانية، وأن من يرتكبها يهدر دمه. كما فرضت الاتفاقية حق الإنجليز في مراقبة السفن التجارية واعتماد سجلاتها سواء في البحر أم في الموانئ، مع أحقية السفن العربية في الإتجار مع الموانئ الهندية الخاضعة للإنجليز وتحت مراقبتهم (٢١).

وقد قررت السلطات البريطانية ترك رأس الخيمة وإقامة قاعدة عسكرية لها في جزيرة قشم الملازمة في موقعها لدورهم العسكري في الخليج على أن تقوم بتحطيم الإستحكامات العسكرية في رأس الخيمة قبل تركها خشية استعمال القواسم لها ضدهم مستقبلاً، وسلمت المدينة للشيخ " سلطان بن صقر " مقابل تعهده بحق السفن الإنجليزية في تفتيش الموانئ ومراعاة حجم السفن الخاصة بالقواسم بعد ذلك . كما أن الإنجليز قد حاولوا إثارة الخصومة بين السلطات الإيرانية وسلطان مسقط حول تبعية جزيرة قشم حتى يمكنها التمكن، من خلال هذه الموازنات السياسية، من القوى الخليجية .

بنو خالد فى الإحساء :

تعد جماعات بنو خالد من أبرز الجماعات التى ظهرت فى الإحساء فى القرنين ١١، ١٢هـ / ١٧، ١٨م، وقد كانت عبارة عن تجمعات قبلية فى جانب منها، وكان نزوحها إلى الإحساء نتيجة لضعف الدور العثمانى فى الخليج . ومع أنهم قد تولوا حكم المنطقة ومقاومة الأطماع الأجنبية حولها إلا أنهم حافظوا على الارتباط بالسيادة العثمانية التى ترجع فى المقام الأول إلى الرابطة الدينية (٢٢). على أنهم قد ضموا شرائح شيعية ربطتهم بالجانب الإيرانى من الناحية المذهبية أو العرقية فى جانب منها، وكان لهذا أثره على وضعهم السياسى فى صلتهم بالدولة العثمانية، وكذلك فى أبعاد علاقتهم بالدعوة السلفية وموقف هذه الدعوة منهم، فضلا عن تأثير ذلك على تركيبتهم السكانية التى كانت أقرب إلى الدينية منها إلى القبلية .

وإلى جانب دور العامل الدينى فى نزوح بنى خالد إلى الإحساء وكذلك أثره على الانضواء - سياسيا - تحت السيادة العثمانية المعادية للدعوة السلفية فى البداية لعب هذا العامل دورا رئيسيا فى علاقتهم مع القوى التى برزت داخل الجزيرة العربية، فكان للتقارب بينهم وبين شيخ العينة "عثمان بن معمر" يرجع إلى اتصياحه لمطالبهم فى طرد " الشيخ محمد بن عبد الوهاب "، وكانت خصوصتهم مع آل سعود فى الدرعية ترجع إلى احتضاناتهم - أى آل سعود - لدعوة الشيخ ومناصرتها، وكان هذا العامل المتمثل فى معارضتهم للدعوة السلفية هو السبب فى انحسار نفوذهم ليحل محلهم أتباع الدعوة السلفية فى مساعيهم لتوحيد المنطقة ونشر مبادئ الدعوة (٢٣).

ومع أن تأثير العامل الدينى يأتى فى المقام الأول فإن ذلك لا ينفى أثر العامل الإقتصادى والذى يتمثل فى أهمية الطرق التجارية التى كانت تسلكها القوافل من مينائى العقير والقطيف إلى داخل نجد، إلى جانب وجود مناطق الغوص على اللؤلؤ مما جعلها محط أنظار القوى الداخلية .

على أن ما ينبغى مراعاته فى هذا الصدد هو أن مواطن الزراعة والنخيل على الساحل لم تكن قاصرة على الإحساء وكذلك مواطن الغوص والصيد وأيضا الموانئ التجارية فكانت متواجدة على طول الساحل الخليجى حتى البصرة، وبالتالي كان من الممكن تفادى الصدام بين بنى خالد والقوى الداخلية فى نجد إلى حد ما لو أن البعد الإقتصادى وحده كان السبب الرئيسى فى الصدام، كما أن هذا

البعد كان كفيلا بصدام بين هذه القوى والقواسم أو الكيانات السياسية الخليجية الأخرى كالكويت والبحرين وقطر وعمان وبقية إمارات الساحل العماني . وعلى ذلك فلا نتفق مع ما أورده ابن بشر في سبق العامل الإقتصادي على غيره من عوامل وإن كنا لا نستبعد تأثيره القوى الواضح في أبعاد العلاقات بين القوى السياسية الخليجية فضلا عن تأثيره على مراحل تكوينها أصلا.

هجرة العتوب وتكوين الكويت والبحرين وقطر :

يعتمد الباحثون عن الجذور التاريخية لتكوين الكويت والبحرين وقطر على بداية هجرة العتوب، ومع ذلك لا يلتقى أغلبهم على تحديد معنى أو توصيف العتوب، فمنهم من يشير إلى أنهم من بنى عتبة (٢٤)، ومنهم من يطلق عليهم العتوب أو العتوبيين استنادا إلى معاجم اللغة العربية ويفسر الأصل الثلاثي وهو " عتب " ويشير إلى أن معناه كثرة الترحال، وعلى ذلك فإن الباحثين لم يجدوا فرقا في هجرة العتوب بين إنتماءاتهم القبلية أو وصفهم اللغوي كرحالة ويستقر أغلبهم على تسميتهم بالعتوب (٢٥).

ومع أن أغلب الباحثين يربطون بين هجرة العتوب - أى الرحالة - وبين قبيلة عنزة إلا أن ذلك ليس أمرا دقيقا أو مؤكدا، فالكاتب الإنجليزي " ديكسون " الذى كان معتمدا بريطانيا لدى الكويت ١٣٥٧-١٣٧٩هـ/ ١٩٣٩-١٩٦٠م ذكر أن أمير الكويت " الشيخ عبد الله بن سالم الصباح " قد فسر له أصل العتوب بالبعد اللغوي وليس البعد القبلي، أى العتوب بمعنى الرحالة دون أن يربطها بقبيلة عنزة، وقد دعا ذلك التفسير بعض الباحثين فى تاريخ الكويت إلى القول بأن اشتقاق أسماء القبائل من الأفعال أمر مألوف فى شرقى الجزيرة العربية، وأن أغلبهم قبائل عربية شتى فى الأصل والنسب، وبالتالي فإن هجرة القبائل إلى ساحل الخليج لا ترجع فى أصلها إلى قبيلة بعينها (٢٦).

أما عن دوافع الهجرة فيرجعها الباحثون إلى أسباب إقتصادية بسبب القحط الكبير الذى ألم بالجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن ١١هـ - ١٧م، وأوائل القرن التالى، وأن هذا الجذب الشديد قد أضطر الكثير من القبائل للهجرة إلى شبه جزيرة قطر وأماكن أخرى على ساحل الخليج وهى مناطق كانت فى أغلبها خاضعة لسلطة بنى خالد، ثم عادت وهاجرت إلى الكويت التى كانت خاضعة

لنفس السلطة (٢٧)، ويرجعها - أى الهجرة - البعض الآخر إلى خلافت قبيلة وعشائرية أدت إلى هجرة بعض العشائر والقبائل إلى هذه المناطق (٢٨) .
والثابت من دوافع هذه الهجرة باختلاف آرائها أن البعد الاقتصادي هو الأرجح فى تبريرها، ومن الطبيعى أن البعد الاقتصادي لا يؤثر فى قبيلة بعينها حيث من الواضح أنه جذب عام أصاب شبه الجزيرة العربية، وبالتالي فإن الهجرة شملت كافة القبائل التى أضيرت بفعل هذا الجذب أو فروع منها، وعلى ذلك فإن العتوب كرحالة كانوا يمثلون خليطا قبليا قد تشكل عنزة نسبة واضحة فيه، لكنه مع ذلك كان قد فقد طابعه القبلى فاحتفظ بمصطلح العتوب - أى الرحالة وهى تسمية حركية وليست عشائرية - دون تسمية محددة لقبيلة بعينها (٢٩)، وأن انتماء الفئة التى تمكنت من الوصول إلى الحكم من عنزة كان الداعى الأساسى لتخصيص ذكرها دون غيرها وربما ربط الهجرة بها .

وأسهم الاختلاف فى رأى حول الجذور القبلية ودوافع الهجرة إلى عدم إمكانية تحديد الفترة الزمنية لهذه الهجرة، وأن الهجرة إلى هذه المناطق ربما تكون سابقة للهجرة التى قامت بها عشائر من عنزة فى النصف الثانى من القرن ١١ هـ ١٧ م أو لاحقة لها ، كما أن استقرار المهاجرين بشتى انتماءاتهم لم تستمر فى قطر طويلا حيث عادت وهاجرت منها إلى مناطق أخرى من بينها الكويت وبعض الجزر الإيرانية ومنطقة البصرة وبعض مواطن الساحل العماتى (٣٠)، وأنهم خلال هذه الفترة التى أمضوها فى قطر والتى يقدرها البعض بخمسين عاما قد تمكنوا من تعلم ركوب البحر، كما أنهم لم يهاجروا دفعة واحدة من قطر أو الإحساء إلى الكويت، وكذلك تفرقوا فى مختلف موانئ الخليج العربى .

ويمتد الغموض إلى صعوبة تحديد زمن بعينه لبداية تأسيس الكويت وهو مرتبط بالهجرة من قطر إليها، كما يمتد أيضا إلى تحديد معنى الكويت وهوية مؤسسه. ويعتمد الباحثون عن تأسيس الكويت على ظهور إسم القرين وهو تصغير لقرن أو كوت أى تل أو الأرض العالية أو القلعة والحصن على مقولة أهل العراق، أو مجموعة مساكن للفلاحين شبيه بالعزبة فى الريف المصرى، أو البيت الكبير على مقولة أهل البصرة (٣١) .

وكلمة " كوت " لم يرد ذكرها فى المراجع العربية فهى إما فارسية بمعنى القرية الزراعية مأخوذة من الكوة وهو تعريف يستبعد الموقع الجغرافى، وإما

برتغالية بمعنى الحصن أو القلعة التي شاعت في البصرة بعد دخول البرتغاليين إلى بعض أجزائها ثم شاعت بين أهل العراق، أو أنها هندية لوجود بلاد في الهند سميت بذلك مثل " قال قوت " أى " قلعة قال "، أو أنها ترجع إلى أصول بابلية وكلدانية وأشورية قديمة في العراق حيث ورد ذكر هذا الاسم في سفر الملوك في العهد القديم على أنه بالعراق وهو ما يرفضه البعض (٣٢).

أما عن تاريخ تأسيس الكويت فلا يحظى بتلاق بين الباحثين حيث يرى البعض أنها أسست حوالى سنة ١٠٩٧هـ - ١٦٨٨م، على يد براك بن عريعر (٣٣)، ويعتمد هؤلاء على ظهور القرين في خرائط الأوروبيين سواء عند الرحالة الدانمركي " نيبور " الذى ظهرت له خريطة ترجع إلى سنة ١١٧٩هـ - ١٧٦٥م، دون عليها اسم القرين مقرون بإسم الكويت، وكان " نيبور " قد أقام في بوشهر أو البصرة، وكذلك عند رحالة هولندى سابق على " نيبور " ظهرت له خريطة تعود إلى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى (٣٤)، ويرى المستر " فرانسيس واردن " أنها بنيت ١١٢٩هـ - ١٧١٦م، وهى السنة التى دخلت فيها ثلاث قبائل عربية إلى الساحل الخليجى وهى آل صباح والجلاهمة وآل خليفة، وسابره فى ذلك بعض المؤرخين سواء لأنهم اضطروا إلى ذلك بسبب غياب المصادر العربية أم لرغبتهم فى ربط التأسيس بهذه القبائل التى أصبحت حاکمة (٣٥)، فى حين يرفض البعض هذا التحديد لعدم دقته التاريخية (٣٦).

وعلى ذلك ينبغى الفصل بين تأسيس الكويت وبين ظهور آل الصباح كشيوخ لها سعوا لإظهار هويتهم السياسية . على أن آل الصباح قد ظهروا مع غيرهم من عتوب آل خليفة و الجلاهمة فى الكويت كتابعين لبنى خالد فى الإحساء منذ بداية القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى، وأنهم انفردوا بالسلطة بعد وفاة " سعدون بن محمد آل حميد " زعيم بنى خالد ١١٣٥هـ - ١٧٢٢م، وحدث خلاف بين أبنائه أدى إلى ضعف قبضتهم على هذه المناطق، ولم يتمكنوا من إستعادة دورهم فيها بسبب صراعهم مع أتباع الدعوة السلفية منذ منتصف ذلك القرن .

وقد ظهر أول حاكم من آل الصباح وهو " صباح بن جابر " ١١٧٠هـ - ١٧٥٦م، بعد أن تخلصت جماعته إلى حد كبير من نفوذ بنى خالد، ومن خلال إتفاق بين العتوب بأن يكون الحكم لآل الصباح وأن يتولى الجلاهمة أعمال البحر ويتولى بنو خليفة أمر التجارة (٣٧) . وحين لم يجد الخوالد بدا من إمكانية

استعادة سلطتهم على الكويت لصراعهم مع السلفيين اتصلوا بعبد الله بن الشيخ " صباح بن جابر " وعقدوا معه إتفاقا للصداقة وحسن الجوار مقابل الإعتراف لهم بحكم مستقل للكويت، وقبل به الشيخ " صباح بن جابر " مؤقتا ثم تخلص منه عندما نجح الموحدون فى القضاء على الخوالة نهائيا فى نهاية القرن ١٢هـ — ١٨م، (٣٨) . وكان هذا الإستقلال قد تعزز أثناء حكم الشيخ " عبد الله بن صباح " الذى نجح فى الحد من خطورة جماعة أخرى عرفت بالكعبيين شكلت بتهديدها للعتوب خطورة على موقعهم لكنهم استطاعوا أن يهزموهم فى معركة الرقة (٣٩).

ويرتبط تأسيس البحرين بهذه التطورات حيث هاجر آل خليفة الكويت فى أعقاب الصدام بين الكعبيين وآل صباح فى معركة الرقة، ولهذا يربط البعض أسباب هجرة آل خليفة بأنهم كانوا يفضلون تقارب العتوب والكعبيين من خلال المصاهرة حيث كان التقاؤهما يشكل قوة لكليهما وللعتوب بشكل رئيسى، وفى نفس الوقت كانوا يرون عدم قدرة العتوب على مواجهتهم، لكن آل صباح خالفوهم الرأى، وكان انتصار آل صباح سببا فى عزم آل خليفة على الهجرة .

على أن البعض يرى سطحية هذا السبب ويرجح دور العامل الاقتصادى فى ذلك حيث استطاع آل خليفة، الذين كانوا يتولون أمر التجارة، أن يحققوا قدرا من الثراء جعلهم يبحثون عن وسائل للاستئثار به وفى نفس الوقت يتولوا هم بأنفسهم قضايا الحكم والإدارة الكفيلة بتنمية ممتلكاتهم فتطلعوا إلى الهجرة، وقد هاجروا فعلا إلى الزبارة وهى منطقة فى شبه جزيرة فى الخليج متصلة بالداخل مع ساحل الأحساء وقريبة من الجزر التى عرفت بجزر البحرين، وبها اهتمام كبير بمصايد اللؤلؤ .

ويضيف البعض سببا آخر لهجرة آل خليفة وهو الصراع على السلطة السياسية بين العتوب وهو أمر يرتبط بالعامل الاقتصادى أيضا حيث أراد آل خليفة الوصول إلى السلطة السياسية بعد الشيخ "صباح بن جابر" لحماية مصالحهم التجارية ومن خلال مصاهرته، ولكن تعيين الشيخ لابنه عبد الله خلفا له قد قطع الطريق أمام تطلعاتهم فقرروا الهجرة إلى مكان يتولون فيه السلطة ويكون له أهمية إقتصادية كذلك، فكانت هجرتهم إلى الزبارة (٤٠) .

وكان أول حاكم من آل خليفة فى الزبارة هو " خليفة بن محمد "، وقد حاول الإتجاه فى هجرته إلى جزر البحرين فى البداية إلا أن حكامها تصدوا لهم

ومنعهم من ذلك فاتجهوا إلى الزبارة في المنطقة القريبة من هذه الجزر بحثاً عن موطن استقرار مناسب .

وحاول آل مسلم في شبه الجزيرة القطرية إخضاع آل خليفة في الزبارة لسلطانهم لكن آل خليفة لم يكونوا على استعداد لقبول سلطان غيرهم فذلك هو سبب هجرتهم، فأبدوا من الليونة في البداية لكنهم تهيأوا لصراع محتمل، فأقلموا الحصون والأسوار حول الزبارة في نفس الوقت الذي سعى فيه لزيادة بتمية مواردهم الاقتصادية .

وقد أسهم نمو الموارد الاقتصادية إلى زيادة الإقبال عليهم، فاستقبلت الزبارة وفوداً من الرحل سواء من داخل الجزيرة العربية كنتيجة للصراعات فيها أو لضعف مواردها الاقتصادية، أم من العراق والبصرة التي شهدت هي أخرى حلقات من الصراع الإيراني العثماني، وأدى ذلك إلى تأمين الدفاع عن الزبارة وكذلك التفكير في التوسع لاستيعاب هذه الأعداد وهو ما يدعو البعض لربطه بالوصول إلى جزيرة البحرين (٤١) .

كان على آل خليفة في الزبارة أن يتابعوا أبعاد العلاقات بين القوى السياسية في الخليج كي يتحسّنوا الفرص لتحقيق طموحاتهم السياسية والاقتصادية، فقد رأوا أن توسعهم في شبه الجزيرة القطرية مسألة صعبة وتحتاج إلى صراع طويل ومحفوف بالمخاطر، وحتى لو تحقق بعد هذا فإنهم سيحاربون قوات الدعوة السلفية التي قد تطيح بهم في توسعها . كما أنهم لم يكونوا يرغبون - وربما يستطيعون - الصدام مع بني خالد إذا أرادوا التوسع في أراضيهم . كما أن حكم بوشهر كانوا يتطلعون إلى زيادة نفوذهم أو السيطرة على جزر البحرين بعد أن زاد حجم التبادل التجاري بين هذه الجزر وبين آل خليفة في الزبارة - وكان هذا هو العامل الرئيسي في التطلع إلى البحرين من قبل آل خليفة - فتكررت اعتداءات حكام بوشهر على الزبارة حتى ١١٩٦هـ - ١٧٨٢م، في محاولة لحماية المصالح الاقتصادية .

على أن حكام بوشهر لم يكونوا يشكلون خطراً صعباً على تطلعات آل خليفة للبحرين، وكانوا مستعدون للدفاع عن مصالحهم التجارية فيها، وقد دعاهم هذا إلى دعم قدرتهم وخبرتهم البحرية بعد أن أدركوا قدومهم على صراع حتمي لتحقيق تطلعاتهم السياسية والاقتصادية في جزر البحرين، ولكي يناوؤا بأنفسهم

عن حلبة الصراع على الساحل العربى للخليج ويوجدوا فاصلا بحريا يؤمن هذه الطموحات والمصالح (٤٢) .

لما عن الأسباب المباشرة لدخول آل خليفة جزر البحرين فقد بدت ترد نذر الحرب بينهم وبين آل مذكور سكان هذه الجزر لحدوث نزاع بحرى بينهما، وقد توسعت دائرة الصراع حيث انضم عتوب آل الصباح فى الكويت ومعهم عتوب الجلاهمة إلى آل خليفة فى الزبارة، فى حين انضم للقواسم وهرمز إلى آل مذكور فى جزر البحرين، وبعد عدة معارك تمكن العتوب من الانتصار على خصومهم ودخول آل خليفة البحرين ١١٩٧هـ - ١٧٨٣م، وطرد حكامها من آل مذكور (٤٣) .

ولم يستقر آل خليفة فى البحرين حيث تعرضوا لهجوم من قبل سلطان عمان " سلطان بن أحمد " الذى كانت له تطلعات فى هذه للجزر ورثها عن أسلافه مما دفع آل خليفة إلى العودة إلى الزبارة ١٢١٣هـ - ١٧٩٩م، والاستجداء بالموحدين بعد أن عرضوا عليهم الإعراف بسلطانهم ودفع للزكاة لهم، وتمكنوا من العودة إلى جزر البحرين مستغلين خشية " سلطان بن أحمد " من الصدام مع الموحدين، مع الاحتفاظ بتواجدهم فى الزبارة (٤٤) .

إلا أن الصدام قد تحول بين الموحدين وعتوب البحرين فى أعقاب نجاح الموحدين فى إقصاء بنى خالد نهائيا عن ساحل الخليج، والهجوم على عتوب الكويت لمواقفهم السياسية خلال هذا الصراع، وقد اضطر آل خليفة لترك الزبارة والاستقرار فى جزر البحرين تجنباً لهذا الصدام (٤٥) .

ومن جهة أخرى فإن صدام العثمانيين مع عتوب الكويت وكذلك بين الموحدين والكويت قد أدى إلى استغلال الإنجليز للفرصة والتدخل إلى جانب الكويت ثم التدخل فى شئونها ثم فى شئون غيرها من خلال هذه الظروف التى صاحبت تشكيل القوى السياسية فى الخليج فى هذه الفترة حيث توافقت مصالح القوى السياسية الناشئة مع المصالح البريطانية وهذا الأمر بلا شك يرجع العامل الإقتصادى على ما سواه فى هذه الفترة .

وننتقل إلى تأسيس قطر على يد عتوب الجلاهمة الذين كانوا مازالوا فى الكويت مع آل صباح بعد هجرة آل خليفة إلى الزبارة . فقد كان الوضع الإقتصادى فى الكويت بعد هجرة آل خليفة لا يسمح باستمرار الجلاهمة الذين كانوا يتولون أمور البحر، ففضلوا اللحاق بآل خليفة فى الزبارة . وقد رحب بهم

آل خليفة في البداية، لكن الصراع كان حتميا بينهما للضرورات الاقتصادية وبالتالي السياسية المرتبطة بتطلعات كليهما، وعلى أثر حدوث هذا الصراع هلجر الجلاهمة إلى مناطق قريبة من الزبارة .

وأثناء استعداد آل خليفة لدخول جزر البحرين وصراعهم مع القوى السياسية الأخرى ساندتهم عتوب الجلاهمة ودخلوا معهم جزر البحرين، لكن الخلاف أيضا كان حتميا لتطلع كل منهما للمصالح الاقتصادية والسلطة السياسية . فعاد الصراع بينهما في عهد "رحمة بن جابر" زعيم عتوب الجلاهمة الذي كان قد قتل والده في الصراع السابق مع آل خليفة . ووصل حد الصراع بين الجانبين إلى حد الاستعانة من قبل عتوب الجلاهمة بإيران وإبراهيم باشا ابن والى مصر محمد على الذى كان يقود قوات أبيه في حملتهم ضد الدعوة السلفية وكذلك بسلاطين البوسعيد في عمان، وقد ظل هذا الصراع طوال النصف الأول من القرن ١٣هـ / ١٩م، حتى استقر عتوب الجلاهمة في شبة الجزيرة القطرية وفي إطار تغلغل النفوذ الإنجليزي والأجنبي في الخليج (٤٦) .

أثر العامل الإقتصادي في تشكيل القوى السياسية الخليجية :

وبشكل عام فإنه أمام هذه الآراء يجد الباحث نفسه أمام بعض الحقائق التى تستوجب الرصد والتحليل والتحديد، فالحقيقة الهامة أن القرن ١١هـ / ١٧م، قد شهد زيادة النفوذ الأوروبى بدءا من البرتغاليين فى الخليج العربى، كما شهد مقاومة من الدولة العثمانية شاركت فيها القوى المحلية بطابعها وتكوينها الإسلامى . وأن أواخر هذا القرن قد شهدت قدرا أكبر من مشاركة القوى المحلية على أثر توارى الدور العثمانى وظهور قوى أوروبية أخرى مثل إنجلترا وهولندا وفرنسا كانت تسعى للتنافس التجارى والسياسى على الساحة الخليجية، ومن خلال لعبة التنافس بين القوى المحلية سعت بعض الشرائح المحلية لتحقيق مصالح سياسية واقتصادية من جهة وأسهمت في جذب العديد من موجات الهجرة الداخلية إلى ساحل الخليج وبخاصة خلال فترات القحط والجذب من جهة أخرى .

وبقدر ما كان العامل الدينى يشكل العامل الهام والأساسى فى المرحلة الأولى لظهور القوى السياسية فى الخليج العربى على الساحة السياسية، وكذلك فى تشكيل عناصره السكانية حيث وفد إليه الراغبون فى الجهاد من كافة العناصر الإسلامية، فإن العامل الإقتصادى الذى نجح الأوروبيون فى إيجاده وتصدره على ما سواه من خلال توسيع رقعة الشرائح التى ترتبط مصالحها بمصالح الدول

الأوروبية الإقتصادية قد أسهم في فرض إطار قبلى قومى محلى على التركيبة السكانية في الخليج العربى .

ومع ذلك فإن القوى السياسية في الخليج العربى التى تشكلت خلال القرن ١١، ١٢هـ / ١٧، ١٨م، قد ظلت تحافظ على توجهها الإسلامى الذى كان يشكل حصانة لها من الأطماع والتغيرات بين الدول الأوروبية المتنافسة من أجل هذا الهدف . فقد حافظت الكويت مثلا على التبعية لوالى البصرة العثمانى بعد أن طلبت رسميا ذلك ١١٣١هـ - ١٧١٨م . وعلى ذلك فإن العامل الدينى قد لعب دورا أساسيا في ظهور الدور السياسى للخليج العربى في بداية العصور الحديثة وفى تركيبة سكانه إلى جانب العامل الإقتصادى .

ثم عاد العامل الإقتصادى ليتصدر طبيعة هذا الدور في ظل نزاحم النفوذ الأوروبى ولعب هذا العامل دورا رئيسيا في تشكيل القوى السياسية القومية مع دوام حفاظها على العامل الدينى الذى ظل يشكل الإطار الأساسى لمقومات الوجود السياسى لهذه القوى الخليجية العربية، لكن حرصها على مصالحها الإقتصادية قد دعاها لطرح مفهوم ثقافى إقليمى يستخدم البعد الدينى كأحد مقومات البناء السياسى المحلى دون أن يلعب دور مثيرا في صهر الحدود السياسية وتوحيد هذه القوى في كيان سياسى واحد .

الهوامش

- (١) د. بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي - ج ١ - ذات السلاسل - الكويت - ب . ت ، ص ٦٤ .
- (٢) د. محمد حسن العيدروس : دولة الإمارات العربية من الاستعمار إلى الاستقلال، ذات السلاسل، الكويت ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ص ٤١ ولا تتفق مع تحليلاته فهي كثير من الجوانب .
- (٣) د. جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقيا، ص ٨ وما بعدها . د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق، ص ٦٦ . د. فاروق عمر : الخليج العربي في العصور الإسلامية، دبي، دار القلم ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ص ١١٢ وما بعدها .
- (٤) السالمي : تحفة البيان بسيرة أهل عمان، ج ٢، ص ٣ والرسائل إحدى مدن الحجر الغربي .
- (٥) السالمي : المرجع السابق ص ٦٥ وما بعدها، د. جمال زكريا : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ص ١٠٨ .
- (٦) وصف السالمي سيرة الإمام ناصر بأنها مثل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وساق العديد من الروايات حول ذلك . المرجع السابق ص ١٧ .، وانظر أيضا حميد بن محمد بن رزيق بن بخيت : الفتح المبين في سيرة السادة البوسعديين
- (٧) د . د . عبد المنعم عامر، د . محمد مرسى عبد الله، عمان ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ص ٢٦٢ وما بعدها .
- (٧) د. جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ص ١٠٨ .
- (٨) السالمي : المرجع السابق - ٢ ص ١٤٨ .
- (٩) يشير السالمي إلى أن بداية بيعة أحمد بن سعيد كانت ١١٦٨ هـ / ١٧٥٣ م، في حين يرى البعض أنها كانت ١١٥٩ هـ / ١٧٤٤ م، مثل لوكهارت أو ١١٥٦ هـ / ١٧٤١ م، مثل بادجر، أو ١١٦٤ هـ / ١٧٤٩ م، مثل نيبور، لكن الجميع يلتقون عند كونه مؤسس أسرة البوسعيد، وانظر أيضا، حميد بن رزيق : الفتح المبين، ص ٢٩٥ .
- (١٠) تصارع أبناؤه سيف وسلطان وحاول أن يرضيهما بحكم بعض المناطق لكنهما ثارا عليه واعتقلا أخيهما الثالث سعيد مما دفعه للتدخل وإنقاذه من الاعتقال ثم مساندته حتى تمت له البيعة، وكان له ولد آخر يدعي قيس ارتضى بمنطقة كان يحكمها في البداية لكنه عاد

وشارك في الصراع بعد ذلك . وحول الدفاع عن السلطان أحمد بن سعيد أنظر : حميد بن رزيق : المرجع السابق ص ٣٦٣ .

(١١) د . محمد حسن العبدروس : التطورات السياسية في دولة الإمارات العربية المتحدة - ذات السلاسل للكويت سنة ١٩٨٣م ص ٣٠ .

(١٢) د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق ص ٩٢ .

(١٣) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ٩٧ ؛ د . سيد نوفل : الأوضاع السياسية في الخليج العربي ج ٢ ص ٥١ ، ٩٢ ويراعى تأثر د . صلاح العقاد بالمؤرخين الغربيين في وصفه القواسم بالقراصنة .

(١٤) كان الإنجليز قد حاصروا جزيرة قشم ورفعوا الحصار عندما بدأت المفاوضات التي إنتهت بالاتفاق بينهما على إقرار السلم في المنطقة وإحترام ممتلكات الجانبين، وتعهد القواسم بإعادة السفن البريطانية التي كانوا قد استولوا عليها وتعهدوا كذلك بمعاونة السفن التي تمر بموانئهم مقابل السماح لسفنهم بالتردد على موانئ الهند، وقد أضيف بند يقضى بأنه إذا أراد القواسم الخروج على هذا الإتفاق فعليهم إبلاغ السلطات البريطانية قبل ذلك بثلاثة أشهر، وبالطبع أستغرب البعض هذا البند وبروه بأنه يرجع إلى أن هذا الإتفاق قد تم دون الرجوع إلى الدولة السعودية حليفة القواسم، فإذا تعرض القواسم لضغط من الدرعية يفرض عليها نقض الإتفاق فعليها القيام بالإبلاغ . أنظر د . صلاح العقاد . التيارات السياسية في الخليج العربي ص ٩٥ .

(١٥) د . محمد حسن العبدروس : المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠ .

(١٦) لوريمر: دليل الخليج ج ٢ ص ٩٧٠

(١٧) د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق ص ٩٤ .

(١٨) د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق ص ٩٣ .

(١٩) كان الإنجليز في البداية لا يتقون في محمد علي ويساعدون المماليك لإبعاده لكن محمد علي نجح في إبعاد المماليك واضطر الإنجليز للتعامل معه بحذر لكنهم بعد ذلك أيده لتوافق المصالح بينهما ، ويبدو أن الفرنسيين كانوا وراء دفع والي الشام سليمان باشا للإتصال بالمماليك في مصر ضد محمد علي، لهذا طلب محمد علي من السلطان العثماني عزله قبل أن يقوم بمهمة مواجهة الدعوة السلفية وتعيين يوسف كينج مكانه . أنظر تعليق د . عبد العزيز نوار على لوثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث - بيروت سنة ١٩٧٤م ص ١٩٢ ، وثيقة من وثائق عابدين - مئة تركي ص ٧٤ بتاريخ ٢٥ شعبان سنة ١٢٢٥هـ / ٢٥ سبتمبر سنة ١٨١٠م، على أن صلة سليمان باشا بالفرنسيين من

خلال صلتهم بالشهابيين الدروز قد جعلته يضيق بالدعوة السلفية ويسعد بضرب محمد على لها . أنظر : المصدر السابق ص ١٩٨ .

(٢٠) لوريمر : دليل الخليج، ج ٢ ص ١٠١٣ .

(٢١) د . سيد نوفل : الخليج العربي، ج ٢ ص ٣٩٠-٣٩٨، د بدر الدين الخصوصي : تاريخ الخليج ص ٢٠٨ .

(٢٢) د . عبد الله سراج منسى : المواجهة العثمانية البريطانية في الخليج العربي ١٨٦٩ - ١٩١٤ م ط سنة ١٩٩٤ ص ١٠ .

(٢٣) شن أمير الخوالد عرير بن دجين آل حميدة عدة هجمات على الدرعية في مطلع القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، ورد عليه السعوديون بهجمات متتالية لم يتمكن سعود بن دجين من صدها ، وتمكن السعوديون من الدخول من خلال الخلافات الأسرية في بني خالد حتى استطاعوا القضاء عليهم في أواخر القرن الثاني عشر هـ/ الثامن عشر م . أنظر : أحمد مصطفى أبو حاكمه : تاريخ الكويت، ج ١ ق ١ ص ١٠٦، ١٠٧ . على أن لجوء الجانبين للصراع دون السعي للمصالحة أو الهدنة يرجع إلى عامل ديني أكثر من كونه عاملا سياسيا، فقد أنقلب على السعوديين العديد من أمراء بني خالد الذين نالوا مساعدة الدرعية في البداية مثل " زيد بن عريعر " و " براك بن عبد المحسن " أنظر ابن غنام : تاريخ نجد ج ٢ ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٢٤) عثمان بن سند البصري : سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد ص ١٨، وأخذ عنه كل من د . أحمد أبو حاكمه : المرجع السابق ص ٢١، د : بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق ص ٩٨ .

(٢٥) Dickson : kawait and her neighbours , pp 26 - 27

(٢٦) Dickson op . cit . pp . 26 & 27

ود . بدر الدين مصطفى أبو حاكمه : المرجع السابق ص ٢٢ .

(٢٧) د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق ص ٩٨، د . أحمد أبو حاكمه : المرجع السابق ص ٢٣ .

(٢٨) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ٣٢ .

(٢٩) د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق ص ٩٩ .

(٣٠) سيف نرزوق الشملان : من تاريخ الكويت، ط ٢، ١٤٠٦هـ — / ١٩٨٦ م ص ١٠٦، ١٠٧ .

(٣١) سيف مرزوق شملان : المرجع السابق ص ١٠٠، د . أحمد أبو حاكمة
المرجع السابق ص ٢٥ .

(٣٢) حسين خزعل : تاريخ الكويت السياسي، ج١، ص ١٩، سيف الشملان
المرجع السابق ص ١٠٠ والأخير الذى يستبعد الأصول للعراقية لمعنى الكويت .

(٣٣) القناعى - يوسف عيسى : صفحات من تاريخ الكويت ص ٥ - ٩ .

(٣٤) د . أحمد أبو حاكمة : المرجع السابق ص ١٨ .

(٣٥) د . بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٣٦) د . أحمد أبو حاكمة : المرجع السابق ص ١٨ .

(٣٧) د . بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٣٨) د . بدر الدين الخصوصى : الأهمية الإستراتيجية للكويت فى العصر الحديث، مجلة كلية
الآداب جامعة الكويت - العدد ٦ ديسمبر سنة ١٩٧٤ ص ٨ . (٣٩) للكعبون جماعة
عربية هاجرت من العراق إلى الساحل الإيراني فى الخليج فى منطقة شط العرب،
واستقرت فى الفلاجية فى منتصف القرن ١٨م، وتبدل ولاؤهم بين الإيرانيين تارة
والعثمانيين تارة أخرى وحاولوا خلال ذلك بسط سلطاتهم على بعض المناطق أو القسوى
فى الخليج العربى ومنها الكويت لكنهم هزموا فى معركة الرقة فترجعوا عن الكويت .

(٤٠) د . أحمد أبو حاكمة : المرجع السابق ص ٩٤، د . بدر الدين الخصوصى : دراسات فى
تاريخ الخليج العربى ١٠٧ .

(٤١) د . أحمد أبو حاكمة : تاريخ الكويت، ج١ ق ١ ص ١٨٨ .

(٤٢) د . بدر الدين الخصوصى : المرجع السابق ص ١١٠ .

(٤٣) تشير الروايات الكويتية إلى دور السفن الكويتية فى هذا الإنتصار فى حين تذكر الروايات
البحرينية مساعدة الجلامه والعشائر القطرية وإقتصار مساعدة الكويت على التأثير
المعنوى إلا فى النهاية فى إشتراك محدود .

(٤٤) كانت الكويت مركزا للصراع بين البعاربة الذين كانوا بها حتى طردهم الإيرانيون ثم لأحد
الموالين لإيران حتى استولى عليها آل خليفة، ومع التسليم بالطابع العربى لهذه الجزر
منذ القدم إلا أنه كان طابعا ترائيا حضاريا أكثر منه طابعا عرقيا أو قبيليا قوميا، وهو طابع
كانت إيران جزء منه ولم يقل منه إلا التحول القومى فى العصر الحديث . جون . س
ولينكسون: المرجع السابق ص ٦٤، ٦٥ .

- (٤٥) بـصـور البـعض نـلـاقـى مـصـالـح الـبرـيطـانـيـيـن الإـقـتـصـادـيـة مـع مـصـالـح آل خـلـيـفـة فـى الـبحـريـن
وما نـجـم عـن ذـلـك مـن حـمـايـة بـريـطـانـيـا لـلـبحـريـن لـحـمـايـة هـذـه المـصـالـح بـأنـه حـمـايـة مـن
الـقـرـصـنـة العـربـيـة فـى الخـليـج، ولـيـنـكـسـون : المـرجـع السـابـق ص ٦٦ .
- (٤٦) د . رآفـت غـنـيـمى الشـيـخ : إـمـارـة قـطـر قـبـيـل الحـرب العـالـمـيـة الأـولـى، مـجـلـة الـجـمـعيـة
التـارـيـخيـة المـصـريـة م ٢٧ سـنـة ١٩٨١م، ص ١٦٢ .

الفصل الرابع

دور محمد على باشا فى ظل الماسونية الفرنسية والحماية البريطانية

- الحملة الفرنسية ودوافعها الصليبية الماسونية
- الأطماع الإنجليزية وظهور محمد على .
- محمد على والنسب على ولاية مصر .
- محمد على بين الماسونية الفرنسية والحماية البريطانية .
- محمد على وضرب الاتجاه الإسلامى فى مصر وظلمه لشعبها .

لم تكن مصر فى أى من فترات تاريخها بمعزل عن المؤثرات والأحداث فى المنطقة المحيطة بها، ويرجع ذلك إلى موقعها الجغرافى كعامل أساسى إلى جانب عوامل أخرى حضارية واقتصادية وغيرها، بل إن الفترة التى كانت فيها مصر جزءاً منصهراً فى دولة الخلافة العثمانية لم تكن معزولة عزلة كاملة فى علاقاتها الخارجية وبخاصة مع الدول الأوروبية حيث استمرت بعض العمليات التجارية مع جنوة والبندقية وإن كانت بشكل محدود خلال القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى، كما جابها العديد من الرحالة الأوروبيين وكذلك بعض التجار خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين السابع عشر والثامن عشر للميلاد، وفى القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى كذلك كانت مصر مقصداً لمحاولات الدول الأوروبية المعادية للخلافة العثمانية لإثارة الطامعين من ولائها وإزكاء حركات التمرد على الخلافة لما تعيه هذه الدول من تأثير دور مصر على المنطقة سلباً أو إيجاباً، ومن هنا تصعب دراسة تطور الأحداث فى مصر بعيداً عن المؤثرات العامة فى المنطقة المحيطة بها بشكل عام .

فقد تعرضت مصر، والمنطقة المحيطة بها بالضرورة، منذ مطلع القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى لعدد من الهزات العنيفة التى تركت آثاراً بعيدة المدى على كافة الأوضاع الخارجية والداخلية ما زالت آثارها ممتدة حتى الآن . وتمثلت أولى دقات الخطر فى الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٢١٢-١٢١٥هـ، ١٧٩٨-١٨٠١م، حيث أسهمت فى تحويل المنطقة إلى منطقة صراع بين الدول الاستعمارية وبخاصة إنجلترا وفرنسا كان من آثارها وقوع شعوب المنطقة تحت استعمار الدولتين .

على أن الدور الأكثر خطورة من حيث آثاره ونتائجه التى امتدت حتى الآن هو دور والى مصر محمد على باشا (١)، فلم يكن هذا الدور دوراً قومياً فى ظل غياب الوعى القومى لدى شعوب المنطقة - على الأقل - طوال القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى، فى حين كان يفتقد هو إلى المقومات القومية التى تجعل منه حاكماً قومياً كالجنس واللغة وغير ذلك، ولم يكن دوراً إسلامياً بالطبع لمعاداته لدولة الخلافة الإسلامية وسعيه لإسقاطها، وضربه للقوة الإسلامية الصاعدة فى الجزيرة العربية والتى أعلنت تصديها للنفوذ الأوروبى فى المنطقة، وكبحه لجماع أتباع الاتجاه الإسلامى فى مصر والشام . وحتى لو سلمنا بأنه دور كانت تحركه الأطماع الشخصية فإن الدول الأوروبية وعلى رأسها

بريطانيا التي كانت تراقب الأمور في مصر عن كثب حرصاً على مصالحها الشرقية بعد الحملة الفرنسية لم تكن لتتركه يوماً واحداً في السلطة لو أنها أدركت تعارض ذلك الدور مع مصالحها، وبالتالي فإن استمراره وأبناءه في الحكم يشير إلى توافق دورهم ومصلحهم مع السياسة الاستعمارية، فما هي طبيعة ذلك الدور ؟ وما هي أهم النتائج التي ترتبت عليه ؟ .

الحملة الفرنسية ودوافعها الماسونية الصليبية

١٢١٢ - ١٢١٥ هـ / ١٧٩٨ - ١٨٠١ م

لم يكن قد مضى عقد كامل على قيام الثورة في فرنسا ١٢٠٣ هـ — ١٧٨٩ م، تلك الثورة التي تعد في نظر المؤرخين الأوروبيين، وكثير من مؤرخي الشرق بالتبعية، هي التي أرست دعائم الحرية وجعلت من فرنسا واحة تساند كل دعوة حرة وتحتضن كل مناد للحرية إلا واندفعت جيوش فرنسا — قاعدة الحرية — للاعتداء على حرية أهل الشرق . وقد اضطحب نابليون معه مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين في حملته هذه بلغ عددهم ١٢٢ عالماً أوزيد وهو عدد يزيد عن أضعاف العدد الذي اعتاد أن يصحبه في حملاته الأوروبية، وقد تأثر فكر هؤلاء العلماء في الغالب بالدور الفرنسي الذي كان يسعى لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية ويعادى حركات الإصلاح البروتستانتية منذ بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، ثم تأثروا في الفترة السابقة لقدهمهم إلى الشوق بأفكار روسو وفولتير ومونتسكيو أبرز مفكري الثورة الفرنسية والمعروفين بانتمائهم للمحافل الماسونية اليهودية من خلال مارفعوه من شعارات (الحرية — الإخاء — المساواة)، وهي أفكار واتجاهات تعادى في مجموعها الدين والأفكار المستمدة منه بشكل عام ، وبالتالي فإنه من السذاجة أن نقبل ما يروجه كتاب التاريخ من أن الهدف الرئيسي لهذه الحملة كان قاصراً على ضرب المصالح البريطانية في الشرق فمثل هذا الهدف لا يحتاج إلى هذا الحشد الهائل من العلماء (٢)، فكان إلى جانبه هدف إقامة إمبراطورية فرنسية في الشرق إرضاء لطموحات الطبقة البرجوازية فيها والتي تسلت إلى الحكم في أعقاب الثورة، وإرضاءً للكنيسة التي وإن كانت الثورة قد وجهت لها بعض الضربات بشكل قوٍض دورها داخل فرنسا عن ذي قبل إلا أنها ظلت لها تأثيرها الواسع والفعال على كثيرين من أبناء الشعب الفرنسي، فضلاً عن الدور الذي كانت تقوم به في

تدعيم النفوذ الفرنسى فى المستعمرات وكذلك فى الشرق الإسلامى . ومن هنا كانت أهداف الحملة خليطاً بين أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية ، أو بالأحرى غزو عسكرى وفكرى، ولهذا اصطحب نابليون فى حملته العسكرية هذا الحشد الهائل من العلماء .

ولا شك أن هؤلاء العلماء كانوا على دراية بطبيعة وأحوال أهل الشرق من خلال ما هو متوافر لديهم من معلومات، وما أمدّهم به الرحالة الفرنسيون الذين كثرت رحلاتهم خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، كما كانوا على صلة ببعض العناصر المملوكية فى مصر وكذلك بعض العناصر المسيحية واليهودية فيها، ودرسوا بعناية كافة الجوانب السياسية والفكرية والاقتصادية والاجتماعية وبأدق التفاصيل، ولهذا فإن كافة الجوانب الفكرية التى سعوا لترويجها فترة بقاء الحملة، وحتى بعد رحيلها، كانت مدروسة بعناية شديدة قبل قدوم الحملة ولم تكن مفاجئة (٣)، وحتى اكتشاف حجر رشيد الأثرى وفك رموز اللغة الهيروغليفية للمصريين القدماء فإنه إذا كان مفاجأة - وهو أمر ما زال يحتاج إلى بحث - فإن العناية بهذا الحدث والترويج له وما تبعه من فك رموز لغة الفراعنة واستخدامه كان أمراً مدروساً بعناية كذلك، وكان يدور فى إطار الأهداف الكلية لهذه الحملة المعن منها وغير المعن . ويشير المؤرخ المسلم " عبد الرحمن الجبرتى " الذى عاصر هذه الحملة إلى هذه الأمور فى معرض حديثه عن المعهد العلمى الذى أنشأه الفرنسيون فى حارة الناصرية . فيقول : " وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدوا الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليه وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر فى المعارف والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء ويتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار " (٤) . كان الفرنسيون - والغربيون بصفة عامة - يدركون أن السر فى قوة الشرقى المسلم يتمثل فى جانبين هامين الأول هو تمسكه بالدين والثانى فى وحدة بلادهم فى ظل حكومة إسلامية مطاعة مهابة، وقد أكد رجال الحملة الفرنسية إدراكهم لهذه العوامل حين أعلن نابليون وبعض رجاله إعترافهم للإسلام واحترام تعاليمه وزواجهم من مسلمات كى يتخذوا من ذلك ذريعة للتقرب للعوام املاً فى الاستقرار . وقد بدأ ذلك واضحاً فى المنشور الأول الذى أعلنه نابليون

على الشعب في مصر حيث ذكر: " أيها المصريون قد قيل لكم أنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصد قوه وقولوا للمفتريين أنني ما قصدت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم (٥). كما سعى رجال الحملة في نفس الوقت إلى زعزعة العامل الديني في نفوس المشايخ والعلماء المسلمين بعرض نماذج من الحضارة الغربية عليهم . أما العامل الثاني وهو الرامى إلى تمزيق وحدتهم فقد بدا واضحا في سعى الفرنسيين لتجنيد قوة مسلحة من بعض مسيحي مصر قادها المعلم يعقوب لمساعدة هم في ضرب الثورة الشعبية التي ضمت كل طوائف المصريين من مسلمين ومسيحيين تحت شعارات إسلامية، والوقوف أمام قوات الخلافة العثمانية الإسلامية التي جاءت لمقاومة الغزاة الفرنسيين ومساندة الموقف الشعبي المعادي لهم .

وبشكل عام فقد نجح الفرنسيون في إستثارة بعض العناصر المسيحية لمعاونة الحملة بمختلف الوسائل، واعتبر بعض الكتاب المسيحيين أن الفائدة التي جنتها مصر خلال سنى الحملة الثلاث أكثر من القرون الطويلة للحكم العثماني . والغريب أن هذا البعض من المفكرين قد أشادوا بدور " المعلم يعقوب " في تعاونه مع الفرنسيين ضد العثمانيين وشعب مصر واعتبروه تعاونوا يستحق بموجبه أن يقام له تمثال من ذهب في أكبر ميادين القاهرة ويكتب عليه أنه أول من نادى باستقلال مصر في العصر الحديث (٦) . وكان هذا الموقف الغريب معاديا لرغبة الأغلبية المسلمة والمسيحية، و بمفهوم الوحدة الوطنية فإن " المعلم يعقوب " يعد من أبرز الذين خرجوا على الاجماع الشعبي في بلاده، وعلى أية حال كانت هذه الحادثة بداية لما عرف في تاريخ مصرى باسم الفتنة الطائفية التي حاولت القوي الاستعمارية استخدامها ضد الانصهار الشعبي في مصر والذي يعبر عنه الكل الإسلامي الشامل لكل الفئات والطوائف والمذاهب والأجناس (٧) .

ومن بين الأمور المشوهة كذلك ما صوره بعض كتاب التاريخ من أن هزيمة القوات التي كانت في مصر أمام القوات الفرنسية بأنها هزيمة حضارة قديمة يمثلها المشايخ في معركة امبابه وغيرها وحضارة جديدة قوية تمثلها الجيوش الفرنسية (٨)، ولا شك أن ذلك التفسير مغلوط في أغلبه، كما أنه قصد به نشر عوامل الإحباط لدى الشرقى المسلم واهتزاز ثقته في قدرته وتاريخه، وإثبات عجز دولة الخلافة في الدفاع عنهم وهذا من بين الأمور التي سعت الحملة

للترويج لها، والدليل على ذلك أن الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون قد أوقعت العديد من الهزائم الساحقة بعدد من الجيوش على الساحة الأوروبية وبشكل زاد عما حققوه في الشرق، مع العلم بأن عنصر المفاجأة كان من أهم عوامل انتصارهم في الشرق حيث لم تتعرض مصر لهجوم عسكري من البحر منذ الحروب الصليبية، علاوة على أن الحملة كانت سرية فلم يتهايا أحد لمقاومتها. وبعد أن أحاط الخطر بالمصريين استطاعوا، ومعهم بعض الكوادر المدربة من المماليك، أن يهزموا البريطانيين في معركة الحماة سنة ١٢٢١هـ - ١٨٠٧م، كما أن القوات البريطانية لم تشأ الدخول في معركة برية ضد نابليون في مصر فهل كان ذلك لعجز حضارى؟ ومع ذلك فلا ننفي فارق التفوق في صناعة الأسلحة الذى ميز الجيوش الأوروبية والذى لولاه لما رجحت كفتها، والذى كان جزءا من التقدم المادى الذى شهدته أوروبا .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المصريين - وهم جزء من المشرق العربى الإسلامى - قد افتقدوا روح الجندية خلال فترة زمنية طويلة اعتمد فيها حكامهم على الجنود المرتزقة، وأهملوا إشراك العناصر المحلية، فقتلوا فيهم روح الجهاد والقتال وبالتالي قدرتهم على حماية أنفسهم . ولا ينبغي أن نلقى بتبعة هذا الأمر على العثمانيين وحدهم بل إنه يرجع إلى العصر العباسى الثانى، ويرجع فى مصر إلى العصر المملوكى، ولم يسع العثمانيون إلى تغيير ذلك وبخاصة فى فترات الضعف خشية أن يسهم ذلك فى دعم حركات التمرد المحلية. ومع التسليم بالآثار السلبية لهذا الجانب - البعيد كل البعد عن التعاليم الإسلامية - إلا أنه يلاحظ أن المصريين - شأنهم شأن غيرهم من الشعوب الإسلامية - قد ارتضوا، طوعا أو كرها، أن يحكمهم حاكم مسلم حتى ولو كان عبدا مملوكا، وكانت ثورتهم ضد بعض هؤلاء الحكام فى الغالب قاصرة على سلوكه أو سوء حكمه أكثر من اعتراضهم على وجوده فى الحكم، فى حين لم يرتضوا بأى حال من الأحوال حاكما غير مسلم وهو أمر يفسر ثوراتهم المتعاقبة على الفرنسيين فى السنوات الثلاث التى أمضوها فى مصر فى حين لم يسجل تاريخهم مثل هذا الكم من الثورات ضد أكثر الحكام المسلمين ظلما وهو أمر دعا البعض من كتاب التاريخ، وبعضهم غير مسلمين، لاتهامهم بالتواكل والسلبية .

وقد أكد نابليون هذه الحقيقة فى أحد منشوراته حيث ذكر فى معرض تودده للمصريين - قولوا للمفترين أننى ما قصدت إليكم إلا لأخلص حاكم من يد

الظالمين وأننى أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه
والقرآن العظيم " (٩) .

وعلى الرغم من كل وسائل التودد فقد أبدى المصريون عدم تقبلهم
للفرنسيين، وعبر الجبرتي عن هذه المشاعر حين اعتبر سنة الاحتلال الفرنسي
لمصر " أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل
الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المحن واختلاف الزمن وانعكس
المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدابير
وحصول التدمير، وعموم الخراب وتواتر السباب [وما كان ربك ليهلك القرى
بظلم وأهلها مصلحون] (١٠) . كما لم يتقبل المصريون كافة جوانب التغيير
الاجتماعى، فى حين أدرك بعض علمائهم ضرورة الاطلاع على بعض الجوانب
الفكرية التى لمسوا عجزهم فيها وفى إطار لا يتعارض مع عقيدتهم أو تقاليدهم .

وعلى ضوء ذلك يمكن تحديد الأسلوب الذى اتبعه علماء ورجال الحملة لتحقيق
هدفهم فى الغزو العسكرى والفكرى لمصر والشرق، ويتضح هذا الأسلوب فى
أمرين الأول هو سعيهم لإثارة العامل القومى الذى أدركوا فعاليته فى تمزيق
أوصال الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى أوروبا برغم نتائجه الإيجابية على
الكيانات الأوروبية وهو أمر يختلف فى ظروف الشرق لضعف إمكانياته
الاقتصادية والعلمية واختلاف منهج ونظرة الشرقى للدين بل واختلاف طبيعة
الإسلام عن المسيحية، وقد بدا هذا الأسلوب واضحا فى كافة منشورات الحملة
إلى الشعب المصرى . وكذلك فى عرضهم على العلماء تولى المناصب وإقامة
المجالس بعيدا عن دولة الخلافة، كما اتضح أيضا فى استغلالهم لاكتشاف حجر
رشيد وسعيهم لفك رموز لغة الفراعنة فهذه أمور لا تدخل فى اهتمامات حملة
عسكرية يقتصر هدفها على الاحتلال العسكرى . ويصور " عبد الرحمن الجبرتي " هذا
الاتجاه من خلال منشور من منشورات الحملة صدر فى أكتوبر سنة
١٢١٢هـ - ١٧٩٨م، فى السنة الأولى لدخول الفرنسيين مصر جاء فيه : " قطر
مصر هو المركز الوحيد، فى أنه أخصب البلاد . وكان يجلب إليه المتاجر من
البلاد البعيدة، وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا
أخذت عن أجداد أهل مصر الأول، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم فى
تملكه، فملكه أهل بابل وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن، إلا أن دولة الترك
شدت فى خرابه لأنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروقها فلذلك لم يبقوا بأيدي

الناس إلا القدر اليسير وصار الناس لأجل ذلك متخفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم . ثم إن طائفة الفرنساوية بعد ما تمهد أمرهم وبعد وصيتهم بقيامهم بأمور الحرب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه وإراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعة جهلا وغباوة " (١١) .

ويرتكز الأمر الثانى من أساليب الحملة على نشر الأفكار المعادية للدين الإسلامى ومحاولة زعزعة ثقة العامة والعلماء على وجه الخصوص فيه، ولقد بذلوا فى سبيل ذلك العديد من الأساليب التى تخرج عن أهداف حملة عسكرية أو اقتصادية أو سياسية . فلم يكن الأمر يحتاج إلى استجلاب أدوات معامل كيميائية، وعرضها بانتظام على جموع العلماء إلا لتحقيق أهداف أخرى غير هذه الأهداف، وكان الفرق واضحا بين نشر العلوم بقصد التثوير وبين استخدامها كوسيلة لإثبات ضعف المنهج الإسلامى (١٢)، وقد صور الجبرتى ذلك فقال : " وأغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئا فى كأس، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى، فغلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ماء الكاس، وصار حجرا أصفر قلبه على البرجات حجرا يابسا فأخذناه بأيدينا ونظرناه وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال، وضربه بالمطرقة بلطف — فخرج له صوت هائل كصوت الغربانة انزعجنا منه فضحكوا منا ... وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقة الطبايع، ومثل الفلكة المستديرة التى يدبرون بها الزجاجات، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقة أدنى شئ كثيف، ويظهر له صوت طقطقة، وإذا مسك علاقته شخص ولو خيطا لطيفا متصلا به، ولمس آخر الزجاجات الدائرة، أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعش جسمه، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيئا من ثيابه متصلا به حصل له ذلك، ولو كانوا ألفا أو أكثر، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا " (١٣) .

ولأجل تحقيق ذلك الهدف حاول الفرنسيون نشر بعض العادات الاجتماعية التى " استقبحها المصريون كاتفلات الرجال والنساء وتحللهم من المثل الأخلاقية كإباحة البغاء العلنى والمساعدة على سفور النساء واختلاطها بالرجال ودفع النساء لارتداء ما هو محرم من ملابس وركوبهن الخيل، وساعدوا على تحدى

الناس لأركان الدين الإسلامى كالجهر بالأكل والشرب فى رمضان وتعاطى المسكرات " . وقد عبر الجبرتى عن استهجان المصريين لهذه العادات بقوله : "إن رجال الحملة الفرنسية خالفوا النصارى والمسلمين ولم يتمسكوا من الأديان بدين، فتراهم دهرية معطلين، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون، ويقولون بقدّم العالم وتأثير العلوية والحوادث الكونية بالحركات الدورية ... وعقيدتهم السالكون فيها تحكيم العقل؟ ما تستحسنه النفوس بحب الشهوات " (١٤)، فهل كان فى ذلك ما يخدم أهداف الحملة أو حتى ماله صلة بإصلاح أو تنوير كما يدعى البعض ؟ . .

ولقد أدرك الفرنسيون عزوف المصريين بكل شرائحهم وفئاتهم وبخاصة المشايخ والعلماء عن تقبل هذه الأساليب، وتأكد لدى قادة وعلماء الحملة أن أهدافهم لن تتحقق إلا من خلال حاكم يحمل الهوية الإسلامية وترتبط مصالحه بمصالحهم ويمتلك من القوة ما يمكنه من تأكيد وجوده، ولا تكون له أخلاق المشايخ والعلماء، ويسلك أسلوب الاستبداد ليتمكن من فرض جوانب التغيير وتحقيق الأهداف التى لم تغلج الحملة فى فرضها وإن كانت قد بذرت بذورها الأولى، ويشير الجبرتى إلى ما يؤكد هذه الحقيقة حين تحدث عن علاقة نابليون بالعلماء الذين أشركهم فى الديوان الجديد الذى شكله، وكيف أنه كان يبحث فيهم عن ضالته فيقول : " طلب صارى عسكر بونايرته المشايخ فلما استقروا عنده نهض بونايرته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان، كل طيلسانة ثلاثة عروض، أبيض وأحمر وكحلى، فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى، فرمى به - أى الشيخ - إلى الأرض، واستعفى وتغير وانتقع لونه واحدا طبعه فقال الترجمان : يا مشايخ أنتم صرتم أحببا لصارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس، وصار لكم منزلة فى قلوبهم، فقالوا له قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا المسلمين، فاغتاظ لذلك وتكلم بلسانه، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوي : انه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك فلاطفه بقية الجماعة واستغفوه من ذلك أى من الرياسة " (١٥) .

وإذا كانت أهداف الفرنسيين فى الحاكم الذى يحمل الهوية الإسلامية قد تحققت - بعد معاداتهم المماليك وفشل التعاون مع المشايخ والعلماء المسلمين - بعد ذلك فى شخص "محمد على" فلا شك أن هناك حلقة مفقودة بين خروج

الفرنسيين من مصر سنة ١٢١٥هـ-١٨٠١م، وبين وصول "محمد على" إلى الولاية سنة ١٢١٩هـ-١٨٠٥م، لعب خلالها الفرنسيون دورا في ذلك من خلال المحافل الماسونية، ولعل من أهم الشواهد الدالة على ذلك اهتمام "محمد على" بإعادة تأسيس هذه المحافل في مصر وهي ما سنلقى عليه الضوء بعد ذلك، كما يفسر ذلك اعتماد "محمد على" على الفرنسيين في خطواته لتحديث المجتمع المصرى وتعاونهم معه فى هذا المجال وبشكل يحقق أهدافهم التى بدأوها أثناء الحملة برغم اقترابه فى الميدان السياسى من بريطانيا عدوتهم التقليدية، وقد أكد المؤرخ الإنجليزي "أرنولد توينبى" هذه الحقيقة بقوله: "إذا كان الاحتلال الفرنسى حدثا عابرا فلقد امتد بالجبرتى العمر ليشاهد "محمد على" يتعهد ويتولى ثورة اقتصادية اجتماعية رسم الفرنسيون خطوطها" (١٦).

أما عن أوضاع المماليك إبان الحملة، فلعل من بين العوامل التى ساعدت على تهيئة الظروف لظهور شخصية مثل "محمد على" فشل محاولات الفرنسيين فى تقريب عناصر مملوكية إليهم، فقد سبق أن عقدت فرنسا اتفاقية مع "مراد بك" أحد زعماء المماليك سنة ١٢٩١هـ-١٨٧٥م، كرد على اتجاه بريطانى مماثل مع بعض زعماء المماليك، تبعثها بعض الاتفاقيات مع كبير ملتزمى الجمارك وبعض مشايخ العربان لنقل المتاجر من السويس إلى القاهرة، وكان ذلك فى إطار منافسة فرنسا لبريطانيا فى البحر الأحمر. لكن فرنسا فوجئت بقوات "مراد بك" تنصدى لها فى حملتها على مصر (١٧)، وبرغم هزيمة "مراد بك" إلا أنه ظل يفقد مع غيره من المماليك حركات مقاومة ضد الفرنسيين مما جعل الفرنسيون يقفون موقفا معاديا من المماليك.

وتسجل منشورات الحملة فى مصر هذا الموقف العدائى ضد المماليك حيث ذكر نابليون فى أحد هذه المنشورات أنه جاء لينشر الفضائل وأنه "بين المماليك والعقل و الفضائل تضارب" (١٨)، وقد استمر موقف الحملة من المماليك حتى نجحت فى هز جذورهم وإسقاط ما كان لهم من هيبة شعبية (١٩). ومع أنه لا ينبغى أن نضفى على موقف المماليك فى تصديهم للفرنسيين الصفة الوطنية سواء لعدم وجود أو وضوح هذه الصفة فى ذلك الوقت أم لأن قتالهم للفرنسيين وللعثمانيين وكذلك اقتتالهم فيما بينهم كان يعبر عن أطماع شخصية تصارع عليها قادتهم، وهو استمرار للظاهرة التى بدا عليها المماليك فى مصر طوال القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى، إلا أنهم فى عدم قبولهم لتحقيق هذه

الأطماع من خلال السيادة الفرنسية وكذلك تبنيتهم لوجهة النظر الشعبية الراغبة في مقاومة الفرنسيين " الكفار " قد استحقوا تعاطف بعض العلماء والمشايخ معهم برغم ما لهم من رصيد ظالم انتقدوا بسببه، وكان الجبرتي واحدا من هؤلاء المشايخ الذين أبدوا تعاطفا وتأييدا لبعض قادة المماليك وبخاصة " محمد بك الألفى "، فقد لقبهم الجبرتي بالأمرء المصرية، وأشار إلى أحقيتهم للحكم . واتجه بعض كتاب التاريخ إلى اعتبار ذلك من المآخذ التي أخذت على الجبرتي، وفسروا إطناب الجبرتي في مدح " محمد بك الألفى " بوجود مصلحة بينهما وهو ما استدلوا عليه بهجوم الجبرتي على البرديسي عن الألفى (٢٠)، أو بأن لذلك ارتباطا بكره الجبرتي لمحمد على ولأن الألفى كان من أشد خصوم محمد على، وأن هذا الموقف دعا الجبرتي لأن يتغاضى عن اتصال الألفى بالإنجليز (٢١)، وفي الحقيقة فإن هذا الموقف من الجبرتي يشير إلى بعد إدراكه وحسن فهمه لتطور الأحداث السياسية الذي من الممكن أن يكون قد أدركه من الألفى نفسه، أو من انضمامه إلى الديوان الذي أنشأه الفرنسيون إبان الحملة، أو من ترده على المعهد العلمي الفرنسي والذي يدعونا لأن نشير إلى استفادته من علوم الغرب حيث لم يكن في هذا يعبر عن معارف بينية، فقد أدرك الجبرتي أن هدف الإنجليز ينحصر فقط في العداء للفرنسيين والسعي لإخراجهم من مصر. وفيه مساعدة للمسلمين بشكل غير مباشر، بقصد تأمين الطريق إلى الهند، فيقول : " وإذا تأمل العاقل في هذه القضية يرى فيها أعظم الاعتبارات والكرامة لدى الإسلام حيث سخر الطائفة الذين هم أعداء للملة هذه لدفع تلك الطائفة ومساعدة المسلمين عليهم، وذلك مصداق الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر " (٢٢) . ولم ير الجبرتي أن في نيتهم - أي الإنجليز - احتلال مصر، ولهذا فإنه قد أبدى أسفه على عدم نجاح جهود الألفى في الاتصال بهم (٢٣)، وكان هذا في تاريخه للأعوام السابقة لهجومهم على رشيد سنة ١٢٢١هـ - ١٨٠٧م، ولكن حين فشل الإنجليز في هجومهم على رشيد في حملة فريزر حمل عليهم الجبرتي حيث كان يتمنى نجاحهم نكاية في محمد على، ولكن في نفس الوقت أثنى على دور الأهالي في مقاومتهم، وأخذ على " محمد على " تخاذله في المقاومة (٢٤) . ويفسر بعض الكتاب اليساريين تقارب الجبرتي من بعض أمرء المماليك بأنه كان يدافع عن شريحة اجتماعية ينتمى إليها حيث كان يملك بعض الأراضي وغير ذلك، ولا شك أن هذا التفسير غير

صائب حيث كان من الأفضل للجبرتي لو أنه استدعاه الفرنسيون وسعوا لتقريبه وتأمينه وغيره من العلماء (٢٥)، لو أن ذلك الوضع كان من الممكن أن يدفعه للارتباط بمحمد على لا بمعاداته، وكذلك فإن معاداته لمحمد على كانت سابقة للإجراءات التي اتخذها محمد على والتي يمكن أن تكون قد سببت بعض الضرر للجبرتي، ولهذا فإن موقف الجبرتي من كل من محمد على أو المماليك يؤكد اتحيازه لمبادئه لا لمصالحه كما يرى هذا البعض (٢٦). كما أن مساندة الجبرتي لهذا الأمير أو غيره من بعض الأمراء المماليك ولموقفهم المعادي "للكفار" لم يمنعه من توجيه الانتقادات اللاذعة لبعضهم الآخر ممن وقفوا موقفا سياسيا معاكسا، أو بسبب سلوكهم المناقضي للعدل الذي شكل الميزان الواضح في أغلب أحكام الجبرتي (٢٧)، والذي دعاه لأن يعتبر الحملة الفرنسية كانت عقابا لهم (٢٨)، وقصاصا من ظلمهم واضطهادهم (٢٩)، وقد دفع الجبرتي ثمنا باهظا لهذا الموقف تجاه المماليك حيث قام أحد المماليك وهو محمد بك الدفتردار زوج ابنة محمد على بقتل ابنه خليل الأمر الذي ترك أثره على الجبرتي حيث فقد بصره وتوقف عن الكتابة وعاش منزويا إلى أن مات بعد هذا الحادث بقليل (٣٠).

الأنطباع الإنجليزى وظهور محمد على باشا :

سبقت الإشارة إلى أن الحملة الفرنسية قد أسهمت في دفع مصر والمنطقة العربية إلى دائرة صراع النفوذ الاستعماري وبخاصة بين إنجلترا وفرنسا . وكان خروج الفرنسيين من مصر سنة ١٢١٥هـ - ١٨٠١م، لا يعنى فشل كل أهداف الحملة بل اقتصر الفشل على الناحية السياسية فقط، في حين كان نجاح الإنجليز في طرد الفرنسيين يشير إلى زيادة اهتمامهم بالمنطقة لارتباطها بمصالحهم في الهند .

وكان من الطبيعي أمام ذلك أن تبدى بريطانيا اهتماما بمنطقتي البحر الأحمر والخليج العربي، إلى جانب متابعة تطور الأحداث في مصر عن كثب تأمينا للطريق الذي بدأ يستعيد أهميته منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجرى الثامن عشر للميلاد بسبب تقدم وسائل المواصلات والنقل كنتيجة لنمو الثورة الصناعية والنشاط التجارى عن ذى قبل (٣١) . ولهذا سارع الإنجليز بعقد اتفاقية مع سلطان لحج لمنحهم تسهيلات في ميناء عدن سنة ١٢١٦هـ - ١٨٠٢م، وفى نفس الوقت كانت بريطانيا قد عقدت اتفاقا مع "سلطان بن أحمد سلطان عمان

لمنحها الأولوية فى استخدام موانئ عمان فى مدخل الخليج العربى، لكن البريطانيين أدركوا أن الخطورة على وضعهم فى المنطقتين لا يأتى من فرنسا فقط، ولكن أصبحت تطورات القوى المحلية هى التى تشكل الخطر الأكبر وبخاصة إذا كانت هذه القوى معادية للنفوذ البريطانى . وكانت القوة المحلية الصاعدة التى تشكل هذه الخطورة على المصالح البريطانية هى الدولة السعودية الأولى التى امتد نفوذها على الخليج العربى والبحر الأحمر، بل إن انضواء قوة القواسم البحرية فى الخليج العربى لنفوذ الدولة السعودية قد خرج بهذه الدولة إلى حيز الدولة المؤثرة المهددة للنفوذ البريطانى (٣٢)، كما أن امتداد نفوذ السعوديين إلى جنوبى العراق قد أتاح لهم إمكانية التأثير على الطريق البرى بين أوروبا والشرق، وفوق هذا وذلك فإن الأسس الدينية التى كانت تركز عليها هذه الدولة قد قطع على بريطانيا إمكانية تطويعها أو عقد الاتفاقيات معها حيث كان العداء للنفوذ الأجنبى فى المنطقة من أهم أهداف هذه الدولة .

ولا شك أن هذه التطورات قد فرضت على بريطانيا ضرورة ترقب تطور الظروف الداخلية فى مصر مهما كلفها الأمر وذلك لما كانت تدركه من أن خروج مصر عن دائرة نفوذها يعنى التهديد الكامل لطريق تجارتها فى ظل النفوذ السعودى المتنامى على البحرين الأحمر والخليج العربى من الناحية الخارجية، وكذلك ما كانت تدركه من تأثير الفرنسيين إبان وجودهم فى مصر على إيجاد عناصر موالية لهم وضرب العناصر الموالية للإنجليز وبخاصة المماليك من الناحية الداخلية . وقد أدركت بريطانيا من خلال تطور الأحداث فى المنطقة أن الأمور تسير فى غير صالحها، ففى داخل مصر تقلص دور المماليك واهتزت مكانتهم بسبب قتالهم فيما بينهم وقتالهم مع القوة العثمانية، علاوة على دور الحملة الفرنسية التى قضت على ما بقى لهم من نفوذ وهزت ما بقى لهم من هيبة فى نفوس المصريين، وأسهم هذا فى انتقال السلطة والنفوذ للوالى العثمانى والحامية العثمانية، فى حين كانت الدولة السعودية تواصل توسيع دائرة نفوذها على الخليج العربى والبحر الأحمر .

ووجدت بريطانيا نفسها مدفوعة إلى استخدام القوة المسلحة فهاجم أسطولها القواسم فى رأس الخيمة سنة ١٢٢٠هـ - ١٨٠٦م، بحجة محاربة القرصنة (٣٣)، وهاجمت فى العام التالى رشيد سنة ١٢٢١هـ - ١٨٠٧م، فيما عرف بحملة فريزر فى محاولة لتمكين أتباعها فى مصر من المماليك من استعادة سيطرتهم على

الأوضاع الداخلية فيها . إلا أن بريطانيا أدركت بعد إخفاقها في الحملتين أنها لا تستطيع توفير القوة العسكرية اللازمة لتحقيق أهدافها وفرض نفوذها في هذه الظروف، حيث استطاع القواسم ومن خلفهم القوة السعودية استعادة سيطرتهم على مياه الخليج العربي والتحسب لأي هجوم آخر، وفي نفس الوقت وقفت عناصر مملوكية في مصر إلى جانب الأهالي وتصدت للحملة البريطانية على رشيد واستطاعوا أن يهزموا قوات الحملة في الحماة مما أدى إلى عودة قوات الحملة إلى الإسكندرية لتكون تحت حماية أساطيلهم، وتيقنت من أن الحملة الفرنسية قد أيقظت روحا عدائية في الأوساط المصرية ضد كل ما هو أوروبي " كافر " فلم يكن أمامهم سوى الاعتماد - الحذر - على عناصر محلية، وبخاصة إذا توافرت عوامل الثقة من قبلهم في هذه العناصر، وتمثل ذلك في شخص محمد علي (٣٤).

ومن جهة أخرى فقد توافرت العديد من الظروف لحدوث تقارب بريطاني عثماني أسفر عن عقد معاهدة بين الجانبين سنة ١٢٢٣هـ - ١٨٠٩م (٣٥)، حيث كانت بريطانيا تراقب النفوذ الروسي المتنامي على حساب الأراضي العثمانية وتوسعه فيها خلال سلسلة من الحروب في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، كما كانت بريطانيا تخشى نمو التقارب الفرنسي العثماني - بعد التوتر الذي ساد بينهما في أعقاب الحملة على مصر - في محاولة لزيادة نفوذها وامتيازاتها في المنطقة وضرب النفوذ البريطاني فيها، وفوق هذا وذاك فكان عداء الجانبين البريطاني وأولا والعثماني - بنسبة أقل - ثانيا للدولة السعودية يعد عاملا هاما سمح لبريطانيا بالاشتراك مع العثمانيين ببحث التدابير المشتركة لضرب النفوذ السعودي، وفي نفس الوقت يجعلها - أي بريطانيا - تتحاشى إثارة رعاياها المسلمين إذا ما اضطرت للدخول في حرب مباشرة مع الدولة السعودية. ولم يكن بحسبانهم - أي البريطانيين - أن محمد علي سيوفر عليهم ذلك الدور .

محمد علي والسطو على ولاية مصر

على الرغم من إعجاب العديد من الكتاب والمؤرخين في الشرق والغرب بالمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي لما اتصف به من الحيطة والموضوعية والدقة إلى حد كبير (٣٦)، إلا أن بعضهم - من العلمانيين - قد اعرض عن الالتزام برأيه

فى " محمد على " باشا التزاما بمنظور فكرى ليست له جذور محلية، فما هو رأى هذا المؤرخ المسلم الدقيق فى محمد على ؟

لقد وصف الجبرتي محمد على، ومن خلال مسيرة الأحداث وليس لخصومة أو عدااء شخصي (٣٧)، بأنه مخادع كذاب يحلف الأيمان الكاذبة، ظالم لا عهد له ولا ذمة، يضرر السوء واستخدام العنف والجور فى نفس الوقت الذى يعد فيه بالعدل، لا يخفف من عسفه وظلمه واستبداده استجداء شيخ . ولقد دعت هذه الصفات البعض بأن يصور محمد على بأنه مكيا فيلى، أو أنه تعلم على فكر مكيا فيلى (٣٨)، فقل له - أى لمحمد على - مرة أن مكيا فيلى ألف كتابا إسمه الأمير، فكلف أحد النصارى المحيطين به، وقد اعتاد أن يكون أغلب المحيطين به من النصارى واليهود، وإسمه أرتين بترجمه هذا الكتاب وأن يوافيه كل يوم بصفحة مترجمة، فلما وصل إلى الصفحة العاشرة توقف عن المواصله قائلا بأنه يمتلك من الحيل ما لم يخطر لمكيا فيلى على بال (٣٩) . وقد علق بعض الكتاب على ذلك بأن هذه الصفات هى التى رشحت " محمد على " لأن يصبح واليا على مصر، وأن اكتسابه لهذه الصفات قد جعله من أهم السياسيين الشرقيين الذين سلكوا درب السياسة بمفهومها الأوروبى، ولا شك أن " محمد على " قد تربي على هذه الصفات منذ صباه سواء لكون موطنه الأصلي البانيا أوروبية الموقع أم لأنها قد لفتتها - قبل غيرها - رياح التغيير ودخلتها الفلسفات الأوروبية بعد الضعف الذى ألم بدولة الخلافة العثمانية، كما أنه كان تاجرا وابن تاجر فنظر إلى كل شيء بمنظار الكسب والخسارة المادية دون أن يعبأ كثيرا بالقيم الأخلاقية التى تحظى باحترام الشرقى المسلم على الأقل فى شريعته التى يسعى للا التزام بها، والتى كانت ومازالت تشكل الوعاء الأساسى الذى يحدد ميزانه فى الحكم على الأحداث والأشخاص .

كيف وصل محمد على إلى الدولة ؟

عاشت مصر حالة من الفوضى والاضطراب فى أعقاب خروج الفرنسيين سنة ١٢١٥هـ - ١٨٠١م، فلم يصبح بمقدور أمراء المماليك أن يستعيدوا ما كان لهم من سطوة ونفوذ سواء لهزيمتهم أمام الفرنسيين أم للجهود التى بذلها الفرنسيون خلال مدة بقاء الحملة فى إضعافهم واجتثاث ما كان لهم من شعبية لدى المصريين من جذورها كما سبق التوضيح (٤٠) .

وأسهمت الحملة كذلك فى هز ثقة المصريين فى قدرة الدولة العثمانية على القيام بدورها التقليدي فى حمايتهم، وأصبحت الساحة مهيأة لظهور أى من المغامرين الطامعين فى السلطة .

على أن هناك عنصرا آخر قد أفرزته هذه الظروف يتمثل فى القوى الشعبية فى مصر حيث أيقظت الحملة روح الجهاد الإسلامى ضد المعتدين " الكفرة " فى صفوف المصريين، ولم يكن ذلك دليلا على اليقظة الوطنية أو القومية التى جلول الفرنسيون إشعالها كما يرى البعض ولكنه كان جهادا ضد عدو المسلمين، فكانت قياداتهم فى الجامع الأزهر وغيره من المساجد، وزعاماتهم تتمثل فى علماء الدين، لكن القلة التى ساندت الفرنسيين واندثرت برحيلهم فلا وزن لها فى مسيرة الأحداث .

وكان العثمانيون قد قرروا إحكام سيطرتهم على مصر من خلال الوالى دون أن يعودوا إلى سياسة الاستعانة بالمماليك فى الحكم، وقد أدى ذلك إلى إثارة مخاوف بريطانيا على مستقبل الأوضاع فى مصر وجعلها تفكر فى مساندة أحد أمراء المماليك وهو " محمد بك الأفقى " فى الوصول إلى الحكم، لكن بريطانيا وجدت أن استخدام القوة فى سبيل ذلك سيسىء إلى علاقتها بالدولة العثمانية الأمر الذى قد يؤدى إلى حدوث تقارب بينها وبين الروس أو الفرنسيين وخاصة أنها — أى بريطانيا — لم يكن من أهدافها فى ذلك الوقت السيطرة الدائمة على مصر (٤١)، وكانت تفضل سياسة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية فى هذه الفترة .

ووسط هذه الظروف التى هيات للعثمانيين إمكانية تنفيذ سياستهم تعين " خسرو باشا " واليا على مصر سنة ١٢١٦هـ - ١٨٠٢م، ولكن لم يمض على توليه سوى عام ونصف إلا وثار عليه الجند الأرنؤود (الألبان) واضطروه للهرب، وأصبحت القيادة بيد قائد هذه القوة وهو " طاهر باشا " الذى أعلن المشايخ اختياره قائمقاما ليحل محل الوالى المطرود، لكنه هو الآخر — أى طاهر باشا — لم يستمر سوى عشرين يوما وقتله أحد جنود الإنكشارية فى ٢٦ مايو سنة ١٢١٧هـ - ١٨٠٣م ليتيح الفرصة لتولى " محمد على " قيادة القوة الألبانية، ومع أن الوثائق لا توضح أسباب ثورة الجند الأرنؤود (الألبان) بالذات على الوالى " خسرو باشا " وإبعاده عن الولاية، وكذلك كيفية وأسباب اغتيال " طاهر باشا " قائد هذه القوة إلا أن الأمر لا ينبغى أن يفسر تفسيراً عفويا .

ومما يؤكد ما نرمى إليه أنه في أعقاب قيام الدولة العثمانية بتعيين والى جديد هو " أحمد باشا " أدرك " محمد على " أن الأمر بهذا قد يخرج من يده فأسرع بالتحالف مع " عثمان بك البرديسى " أحد زعماء المماليك والذي كان يميل إلى الفرنسيين، وطرد الوالى الجديد بعد يوم واحد فقط من توليه الولاية، كما هاجم وحليفه البرديسى " محمد بك الألفى " الذى كان على علم بصلته بالإنجليز . وتترك هذه الأحداث أيضا تساؤلات محيرة لماذا أطاح "محمد على" بالوالى العثمانى الجديد لو أنه لم يكن طامعا فى السلطة ؟ ولو سلمنا بطمعه فى السلطة فهذا يدعونا للتأكد من أن له دورا فى الأحداث السابقة التى بدأت بالثورة على الوالى السابق خسرو باشا، ومما يزيد هذا رأى صحة أن " محمد على " لم يتحالف مع " عثمان بك حسن " أحد زعماء المماليك الذى كان يرى ضرورة الارتباط بالدولة العثمانية وفضل التحالف مع أشد زعماء المماليك قربا من الفرنسيين وهو " عثمان بك البرديسى " وهو أمر يحتاج كذلك إلى تفسير ووضوح.

ولم يستمر التحالف بين " محمد على " والبرديسى سوى شهر واحد وابتعد عنه "محمد على" بعد ثورة أهالى القاهرة عليه لكثرة ما فرضه عليهم من الضرائب، ووجد " محمد على " أن الفرصة سانحة أمامه للتقرب إلى الأهالى والمشايخ والعلماء فانضم إليهم ضد البرديسى فكسب بذلك ودهم وتأييدهم، ومما لا شك فيه أن " محمد على " قد لعب دورا واضحا فى إثارة الأهالى على البرديسى بعد أن تحقق غرضه خلال الشهر الذى تحالف فيه معه فى طرد الوالى الجديد وإبعاد الألفى وقواته، فقد كان " محمد على " على صلة بالمشايخ والعلماء منذ قيامهم بتعيين قائده طاهر باشا قائمقاما فى أعقاب طرد " خسرو باشا "، كما أن الشهر الذى تحالف فيه البرديسى لم يكن كافيا لأن يفرض فيه البرديسى من الضرائب ما يثير الجماهير عليه، كما أن حماية جند "محمد على" لثورة الأهالى من رجال البرديسى بعد إعلانه المفاجيء بالانضمام إلى الأهالى قد أسهم فى اتساع هذه الثورة واستمرارها حتى خرج البرديسى وقواته من القاهرة .

لقد أدرك " محمد على " بعد أن نجح فى كسب ود المصريين أنه قريب من تحقيق أطماعه فى الولاية فهم القادرون على فرضه كما فرضوا قائده " طاهر باشا " من قبل، وأنه لم يبق أمامه سوى أن يتخلص من المماليك . وقد استغل ذكاه فى إقناع العلماء والمشايخ بالكتابة إلى السلطان لاختيار " خورشيد باشا " محافظ الإسكندرية واليا، وكان "محمد على" يرمى من ذلك إلى تأكيد صلته

بالعلماء من خلاله حرصه على دورهم فى اختيار الوالى، وكذلك من خلال تعففه أمامهم عن المنصب، وفى نفس الوقت إظهار ما له من فضل على الوالى الجديد فتصبح له اليد الطولى فى البلاد، وكذلك إقرار مبدأ الأخذ برأى المصريين أمام الباب العالى حتى يكون ذلك مقدمة لما يخطط له بعد ذلك .

وتفرغ " محمد على " بعد ذلك لإبعاد المماليك عن القاهرة ثم تعقبهم فى الصعيد حتى ضمن ضعف قدرتهم فى التأثير على الأحداث أو اتصالهم بالقوى الأوروبية التى قد يسهم تدخلها فى فشل ما خطط له .

وبعد أن حقق نجاحا إلى حد كبير فى هذا الأمر عاد مكشرا عن أنيابه للوالى " خورشيد باشا " الذى لعب دورا فى تعيينه، وازداد تقربا من العلماء وعلى رأسهم السيد " عمر مكرم " نقيب الأشراف، وأدرك الوالى " خورشيد باشا " أبعد ما يخطط له " محمد على "، فسعى إلى تقليل أظافره وإبعاده عن البلاد . ونجحت مساعيه لدى الباب العالى باستدعاء القوة الألبانية التى يقودها " محمد على " إلى الدولة العثمانية، وعادت القوة دون " محمد على " وقليل من الجند حيث أصر العلماء والمشايخ على بقاءه فى مصر . فجدد الوالى مساعيه لدى الباب العالى واستصدر فرماتا بتعيين " محمد على " واليا على جدة، لكن ذلك لم يكن يتفق وأطماع " محمد على " فرفض تنفيذ الفرمان - وفى هذا عصيان لأوامر السلطان - وظل محتما بسلطة المشايخ والعلماء (٤٢) .

ورد " محمد على " على ذلك بإثارة العلماء والمشايخ يساندتهم الأهالى على " خورشيد باشا "، ويصور الجبرتى كيف كان " محمد على " يتردد على " عمر مكرم " نهارا وليلا " يعاهده ويتعاقد معه سرا بل ويحلف له الأيمان الكاذبة على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم ولا يفعل أمرا إلا بمشورته ومشورة العلماء وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه - وهم قادرون على ذلك - فيتورط المخاطب - أى عمر مكرم - بذلك القول ويظن صحته وأن كل الوقائع زلاية " (٤٣) .

وتقدم العلماء إلى القاضى بشكوى ضد " خورشيد " فى سنة ١٢١٩هـ - ١٣ مايو سنة ١٨٠٥م، بعد أن خدعهم " محمد على " يشكون فيها من استغلاله وسوء تصرفات قواته، وفى اليوم التالى أسفر العلماء عن نواياهم وبشكل يؤكد دور " محمد على " فى تحريك الأحداث فأعلنوا عزلهم للوالى " خورشيد " باشا وتعيين محمد على " واليا مكانه . وبدأ " محمد على " فى دور الممثل البارع فى أداء

دوره حيث أظهر تعففه عن قبول المنصب قائلا : " أنا لا أصلح لذلك ولست من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة " . وقد علق " الجبرتي " على ذلك بأنه كان رياء ونفاقا من " محمد على " حتى يتمسك الحاضرون به ، وفعلوا قالوا جميعا مخدوعين قد اخترناك لذلك برأى الجميع والكافة ، والعبرة رضا أهل البلاد وجهروا بخلع " خورشيد باشا " من الولاية ، وقام السيد " عمر مكرم " والشيخ " الشرقاوى " بنقله خلة للولاية ، ثم حاصروا " خورشيد باشا " فى القلعة حتى اضطر للنزول على رغبتهم ووافاهم السلطان بفرمان تعيين محمد على واليا (٤٤) .

دور محمد على بين الماسونية الفرنسية والحماية البريطانية

لم يكن من السهل على شاب قليل الخبرة وقليل المعرفة بمصر وطبيعتها أن يصل إلى ما وصل إليه " محمد على " مهما كانت قدرته أو ذكاؤه إلا إذا كان يستند إلى قوة تخطط له وتعينه على تحقيق أهدافه وتسخره فى نفس الوقت لتحقيق أهدافها ، وبخاصة أنه كما ذكر عن نفسه " لا يصلح للولاية وليس من الوزراء ولا من الأمراء ولا من أكابر الدولة " وهذه صفات حقيقية له مهما كان غرضه من قولها ، ولهذا نجد أنفسنا أمام العديد من التساؤلات ، لماذا ثارت الفرقة الألبانية بالذات التى يحتل فيها هو الرجل الثانى دون بقية الفرق العثمانية وأبعدت " خسرو باشا " عن الولاية تحت دعوى تأخر رواتبهم ؟ ولماذا اندفع العلماء لتعيين قائد القوة الألبانية الثائرة " طاهر باشا " قائما ينوب عن الوالى المطرود ثم يقتل بعد عشرين يوما ؟ ولماذا يطرد الوالى الجديد " أحمد باشا " بعد توليه الولاية ثم ينقلب عليه ؟ وكيف استطاع " محمد على " أن يفى برواتب الجنود وبخاصة بعد استيلاء المماليك فى الصعيد على مخصصات الأهالى هناك ؟ ولماذا ؟ جوانب كثيرة يكتنفها الغموض !!!

وتشير كثير من الأدلة إلى أن هذه القوة الاقتصادية التخطيطية - التى لم تكن ظاهرة - هى الحركة الماسونية التى انبثقت فى مصر سنة ١٢١٢هـ - ١٧٩٨م ، على يد رجال الحملة الفرنسية حيث مهد لها نابليون ، ثم أسس خلفه كليبر ومعه مجموعة من ضباط الجيش الفرنسيين الماسونيين محفلا فى القاهرة سمي محفل إيزيس ، وأوجدوا له طريقة خاصة به هى الطريقة الممفيسية أو الطريقة الشرقية القديمة (٤٥) . وقد تمكن هذا المحفل من أن يضم إليه بعض الأعضاء من المصريين وإن كانوا قلة ، ثم انحل هذا المحفل رسميا فى

أعقاب اغتيال كليبر سنة ١٢١٩هـ - ١٨٠٠م، وظل أعضاؤه يعملون في الخفاء وبسرية تامة كطبيعة هذه الحركة حتى أعيد تأسيسه سنة ١٢٤٤هـ - ١٨٣٠م (٤٦) .

ويشير المنشور الأول الذي وزعه نابليون على المصريين إلى أنه قد سعى لنشر هذه الأفكار منذ بداية وصول الحملة فيذكر فيه " قولوا لهم - أي المصريين - أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط " (٤٧)، وكان من أهم الموضوعات التي أثارت الجبرتي في هذا المنشور هو ادعاء الفرنسيين بأنهم مسلمون ومحبون للإسلام، وأبدى تعجبه من تضمن المنشور لعبارة " لا إله إلا الله لا ولد له " حيث وجد في ذلك تناقضا مع ديانتهم المسيحية، وعلق على ذلك بقوله " كيف وأن الله خلق الناس بعضهم فوق بعض درجات " " بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه " إن في ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون إلى الملل الثلاث، ومخالفون لهم بل وبجميع الملل، موافقون للمسلمين في ذكر التسمية ونفي الولد والشريك، ومخالفون لهم في عدم الإتيان بالشهادتين وصحة الرسالة، ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعطومة من الدين بالضرورة، وموافقون للنصارى في غالب أقوالهم وأفعالهم، ومخالفون لهم في القول بالتثليث وجدد الرسالة أيضا ورفض ديانتهم وقتل القسس، وهدم الكنائس، وموافقون لليهود في التوحيد، فإن التوحيد لا يقوله اليهود بالتثليث، وإنما هم مجسمة مخالفون لهم في ديانتهم، والذي تحرر من عقائدهم أنهم لا يتفقون على دين، ولا يتفقون على ملة فكل واحد منهم ينحو دينا يخترعه بتحسين عقله ومنهم الباقي على نصرانيته المتكتم لها، وفيهم فرق من اليهود الحقيقيين، ولكن كل ذي دين فهو سائر مصر عليه، موافق للجمهور في ضلالهم المصريين عليه (٤٨)، ولا نتفق مع من يرجع ذلك إلى أثر الفكر العلماني الذي ساد فرنسا بعد الثورة بل إن مبدأ المساواة بين الأديان - لا إنكارها - هو أساس في الفكر الماسوني (٤٩) .

وقد أبدى العلماء المصريون تخوفهم من هذا الاتجاه برغم عدم فهمهم له أو إدراكهم لطبيعته أو لأبعاده (٥٠)، فحينما وضع نابليون طيلساتة موشاة بعلم الثورة الفرنسية المثلث (حرية - إخاء - مساواة) على كتف الشيخ الشرقاوى ألقى بها الشيخ على الأرض رافضا ارتدائها (٥١)، كما رفض المشايخ كذلك وضع علامة " الجوكار " على صدورهم وهي علامة يقال لها الوردية (٥٢) . ولا

شك أن العلم والعلامة " الجوكار والوردة " هى إشارة ماسونية تشير إلى تأثير الحركة الماسونية على الثورة الفرنسية وكذلك تعبير عن تأثر قادة الحملة الفرنسية بفكر هذه الحركة .

ويبدو تأثرهم بفكر هذه الحركة كذلك وسعيهم لنشره بين المصريين فيما حاولوا فرضه من العادات التى استهجنتها المصريون كاللبقاء والسفور وتشجيع النساء من الحرافيش ونساء الهوى على ارتكاب المحرمات بشكل علنى واضح(٥٣)، حيث يعد هذا الأمر من بين أساليب انتشار الماسونية (٥٤) .

وتوحى بعض الدلائل إلى أن الفرنسيين قد نجحوا فى ضم بعض المصريين من المشايخ والعلماء من بينهم الشيخ حسن العطار إلى المحفل الماسونى الذى أسسه كليبر سنة ١٢١٤هـ - ١٨٠٠م، فبعد أن هرب الشيخ "حسن العطار " إلى الصعيد فى أعقاب قدوم الحملة كغيره من العلماء ثم عاد إلى القاهرة على أثر دعوة الفرنسيين للعلماء اتصل على الفور برجال الحملة ونقل عنهم علومهم، وفى نفس الوقت تولى تعليمهم اللغة العربية (٥٥)، وقد اندمج إلى حد كبير فى علومهم، وكثيراً ما تغزل فى أشعاره بأصدقائه منهم (٥٦)، ولقد دعت هذه الأمور أن يوصف العطار بأنه من دعاة التجديد (٥٧) . وقد توثقت صلة الشيخ العطار بمحمد على بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التى يعتمد عليها " محمد على " فى خطواته التجديدية فى مصر وهو أمر يشير إلى وجود صلة بين " محمد على " والمحفل الماسونى المصرى الذى تأسس إبان الحملة الفرنسية (٥٨) .

كما أن تطور الأحداث يشير إلى تشبع "محمد على" بالأفكار الماسونية التى كان مهياً لها بحكم تكوينه الطبيعى، فينقل عن "محمد على" قوله وهو يفاوض الفرنسيين على مسألة احتلال الجزائر : " ثقوا أن قراري .. لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفوننى وتعلمون أننى متحرر من هذه الاعتبارات التى يتقيد بها قومي قد تقولون أن مواطنى حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها " (٥٩) .

وقد شهد عصر " محمد على " تأسيس أكبر محفل ماسونى فى مصر فقد أنشأ الماسون الإيطاليون محفلاً بالإسكندرية سنة ١٢٤٦هـ - ١٨٣٠م على الطريقة الاسكتلندية، وذكر البعض أنه لم يكن محفلاً ماسونياً بل كريونارياً وأن العامة قد خلطوا بينهما لوجود بعض السمات المشتركة كالسرية التامة واستخدام الرموز ووحدة التعارف بين أعضائها بواسطة إشارات ولمسات، لكنهما يختلفان من حيث التكوين والوسائل الخاصة بتحقيق الأهداف حيث أن الماسونية متدرجة فى تطبيق

أهدافها في حين أن الكربونارية تلجأ إلى أسلوب الثورة الفجائية (٦٠) .. وكان أول محفل ماسونى أنشأه الإيطاليون سنة ١٢٦٥هـ - ١٨٤٩م ثم تلاه العديد من المحافل التى أنشأوها فى مصر (٦١) .

أما الفرنسيون الماسون فقد أسسوا محفلهم الأول من كوادى المحفل المؤسس إبان الحملة سنة ١٢٥٤هـ - ١٨٤٥م، فى القاهرة ، وتبعه محفل آخر لهم فى الإسكندرية سنة ١٢٦١هـ - ١٨٤٥م تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسى وضم العديد من أبناء مصر إلى جانب العناصر الأجنبية، وكان منهم الأمير حليم بن محمد على وكذلك الأمير عبد القادر الجزائرى (٦٢) .

محمد على يتصل بالبريطانيين ويطلب حمايتهم

بعد أن وطد " محمد على " أقدامه فى مصر إلى حد ما من خلال اطمئنائه لمساندة القوى الشعبية وابتعاد المماليك عن القاهرة إلى الصعيد لم يكن يثير قلقه سوى أبعاد صراع النفوذ البريطانى الفرنسى على مصر . وكانت فرنسا قد نجحت فى إحداث وقعة بين بريطانيا والعثمانيين سنة ١٢٢٠هـ - ١٨٠٦م، ولم تستطع بريطانيا أن تحاصر أبعاد هذه الأزمة بأسلوب دبلوماسى مما دعاها لأن تستخدم القوة العسكرية، فأرسلت حملة عسكرية بحرية لتهاجم المضائق العثمانية فى فبراير سنة ١٢٢١هـ - ١٨٠٧م، وأتبعها فى الشهر التالى بحملة أخرى على مصر هى حملة " فريزر " كى تحتل الإسكندرية تحسبا لعودة الفرنسيين إليها مرة أخرى، ولمحاولة تمكين الزعماء المماليك الموالين لها مثل " محمد بك الألفى من استعادة نفوذهم فى حكم مصر (٦٣)، لكنها أخفقت فى احتلال رشيد بعد هزيمتها أمام الأهالى فى معركة الحماد، ووجدت أن المماليك بمن فيهم حليفها الألفى، لم يعودوا قادرين على السيطرة على الموقف الداخلى ولهذا استقروا بعض الوقت فى الإسكندرية لتكشف ما تسفر عنه الأوضاع .

وعلى الرغم من أن " محمد على " كان موجودا فى الصعيد أثناء حملة فريزر ليحارب المماليك ويمنعهم من الاتصال بالإنجليز كى تتاح له وحده فرصة الاتصال بهم، وأنه أبدى تخاذلا شديدا فى عدم اشتراك أى من قواته فى مقاومة الإنجليز فى معركة الحماد، إلا أنه قد استثمر انتصار الأهالى لحسابه وجعله مقدمة أرسلت له فرصة القيام بمفاوضة الإنجليز وهو أمر سجله عليه الجبرتى فقال : " وليت

العامّة شكروا على ذلك أو نسب إليهم فعل بل نسب كل ذلك للبasha وعساكره وجوزيت العامّة بضد الجزاء بعد ذلك " (٦٤) .

وتؤكد هذه المواقف أن محمد على لم يكن يريد مقاومة الإنجليز أو حربهم وإنما كان يريد التفاوض معهم والتوفيق بين أطماعه ونفوذهم ومصالحهم الأمر الذي دعاه لمحاربة المماليك في الصعيد دون أن يأبه بهجوم أجنبي على البلاد (٦٥)، بل إنه ربما كان يتوقع هجوم الإنجليز بعد علمه بحملتهم على المضائق العثمانية وأن هدفهم من الهجوم هو تمكين الأتقى أو غيره من المماليك من الاتصال بهم، وحتى لا يجدوا أمامهم سوى مفاوضته هو .

وعلى أية حال لم يضع " محمد على " وقتاً حيث أرسل رسله للتفاوض مع الإنجليز في أعقاب معركة الحماة مباشرة، واستمرت المفاوضات بينهما أربعة أشهر أكد فيها " محمد على " جديته ورغبته المخلصة في الارتباط بهم بل وطلب وضع نفسه تحت حمايتهم، وهو ما يؤكد تقرير فريزر الذي تولى التفاوض معه، الأمر الذي أدى - بعد اقتناعهم بذلك - إلى تخليهم عن أصدقائهم من المماليك، وقد تضمن التقرير الذي أعده قائد الحملة فريزر الذي تفاوض مع رسل " محمد على " والذي أرسله إلى الجنرال مور سنة ١٢٢١هـ - ١٦ أكتوبر ١٨٠٧م، أهم جوانب هذه المفاوضات فقد جاء فيه : " أرجو أن تسمحوا لي بأن أبسط لكم ليكون ... موضع نظركم فحوى محادثة جرت بين باشا مصر والميجور جنرال " شريروك " والكابتن " فيلوز " أثناء قيامهما بمهمتهما لدى سموه، ولدى ما يجعلنى أعتقد أن هذه المحادثة، ومن اتصالات خاصة كثيرة أخرى كانت له معه، بأنه جاد وصادق فيما يقترحه . لقد أبدى " محمد على " باشا والى مصر رغبته فى أن يضع نفسه تحت الحماية البريطانية، ووعدها بإبلاغ مقترحاته إلى الرؤساء فى قيادة القوات البريطانية كي يقوم هؤلاء بإبلاغها إلى الحكومة الإنجليزية للنظر فيها، ويتعهد محمد على من جانبه بمنع الفرنسيين والأتراك أو أى جيش تابع لدولة أخرى من الدخول إلى الإسكندرية من طريق البحر وبعد الاحتفاظ بالإسكندرية كصديق وحليف لبريطانيا العظمى ولكنه لا مناص له من انتظار أن تعاونه إنجلترا بقواتها البحرية إذا وقع هجوم عليه من جهة البحر لأنه لا يملك سفناً حربية، ويوافق محمد على باشا فى الوقت نفسه على تزويد كل السفن البريطانية التى تقف على بعد من الإسكندرية بما قد تحتاج إليه من ماء النيل عند إعطائها إشارة يصير الاتفاق عليها (٦٦) .

وقد علق القنصل الفرنسي دروفتي على ما بلغه من معلومات حول الاتفاق بين محمد علي والإنجليز الذي هو من نوع معاهدة بأن "مثل هذه المعاهدة عند إبرامها سوف تحقق الأغراض التي توخاها الإنجليز من إرسال حملتهم على مصر إن لم يفق أثرها من هذه الناحية كل ما كان يتوقعه هؤلاء من إرسال هذه الحملة " (٦٧) .

ولم يشأ الإنجليز الإعلان عن كل ما احتوته بنود هذه الاتفاقية في أعقاب توقيعها وإخلائهم الإسكندرية وتسليمها إلى باشا مصر حيث رأت بريطانيا ضرورة التريث في ذلك لما تحتويه من إعلان العداء الواضح للدولة العثمانية لمساندتها لحاكم يريد الاستقلال عنها في وقت كانت الدبلوماسية الإنجليزية قد اتجهت في طريق رأب الصدع مع دولة الخلافة، ولبدء التخطيط معها، ومع الحليف الجديد على رسم سياسة جديدة تمكن بريطانيا من بسط نفوذها على المنطقة بأكملها (٦٨) .

سياسة محمد علي الظالمة ضد شعب مصر

بعد أن نجح محمد علي في الاستعانة بالزعامة الشعبية الممثلة في المشايخ وعلماء الدين في مصالحته مع المماليك حتى تهيأت الفرصة أمامه لتنفيذ مخططة ليغدر بالمماليك في القلعة سنة ١٢٢٥هـ - ١٨١١م، راح يخطط لكيفية التخلص من هؤلاء العلماء والمشايخ حتى يخلو له الأمر ويصبح حاكما مطلقا لا تحد سلطته سلطة أو تحاسبه فئة، فبدأ بإشاعة الفرقة بينهم وضرب بعضهم ببعض حتى ساد الفساد بينهم (٦٩)، وقد صور الجبرتي ذلك بقوله : " لقد سادهم التكالب على سفاسف الأمور وفراغ الأعين، والتطلع للأكل في ولائم الأغنياء والفقراء والمعاقبة عليها إن لم يدعو إليها " (٧٠) .

ولعل أهم عمل قام به "محمد علي" لضرب الزعامة الإسلامية في مصر هو ضمه للأوقاف، التي كانت موقوفة على الأزهر لينفق منها على التعليم والمشايخ، إلى ملكية الدولة، فقد مكّنه هذا من تحقيق هدفه في تفويض دور التعليم الديني وإحكام السيطرة على المشايخ والقائمين على التعليم من رجال الأزهر بعد أن فقدوا قدرتهم على معارضته (٧١) .

وقد أحاط "محمد علي" نفسه ببطانة ومساعدين من نصارى الأروام والأرمن وكتبة من الأقباط النصارى واليهود، واستجلب لنفسه ممالك جعلهم حكاما للأقاليم

وكان فى كل ذلك مستغفرا لجموع المسلمين المصريين ومعبرا عن عدم الاهتمام أو الاكتراث بهم وبخاصة أن هؤلاء المساعدين قد أعانوه على سياسته الاستبدادية بين الفلاحين (٧٢)، ويصور الجبرتى ذلك بقوله : " فتح بابيه للنصارى من الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم، كما أنه كان يحب السيطرة والتسلط ولا يأنس لمن يعارضه " (٧٣) .

وسلك محمد على ومعاونوه من غير المسلمين سياسة تتسم بالظلم والقهر والاستعباد ضد جموع الشعب المصرى فجمع حجج الأرض من الفلاحين وفرض عليهم السخرة أو دفع ضريبة بديلة وحرم عليهم أن يأكلوا شيئا من كد أيديهم وأبطل التجارة، وزاد فى أسعار المعاش أضعافا مضاعفة، وفرض الضرائب التى لا يطيقون دفعها، وجعل كل نشاط اقتصادى يؤول إليه، ونقم على الناس (٧٤)، وأرجع الجبرتى ذلك إلى ما يتسم به " محمد على " من داء الحسد والشرة والطمع والتطلع لما فى أيدي الناس وأرزاقهم (٧٥) . وأرجعها مؤرخون آخرون إلى احتقار محمد على للمصريين جميعا (٧٦)، وقد نتج عن هذه السياسة كرهه الفلاحين الشديد لمحمد على وأعدائه وهروبهم من الأراضى الزراعية، وترك قراهم فرارا من هذه السياسة الظالمة، وأعرضوا عن الاشتراك فى جيشه، فقد بلغ عدد الفلاحين الفارين فى عام واحد هو عام ١٢٤٦هـ ١٨٣١م، ستة آلاف فلاح (٧٧)، ومما زاد من كره الفلاحين لمحمد على الضرائب المتزايدة التى فرضها عليهم مما دفعهم إلى الهروب من القرى، وعجزت قرى كاملة عن دفع الضرائب، وبدلا من أن يخفف محمد على من قسوته على الفلاحين لجأ إلى نظام جديد ليحكم قبضته عليهم ويجبرهم على دفع الضرائب وهو " نظام العهد " الذى أصدره فى سنة ١٢٥٥هـ مارس ١٨٤٠م وكان هذا النظام - وهو أشد قسوة من نظام الالتزام - يقضى بمنح شخص من موظفى محمد على أو ضباطه الذين حققوا غنى فى خدمته بأن يأخذوا القرى التى عجزت عن سداد الضرائب مقابل جزء من أرض القرية يزرعها المتعهد لحسابه أو جزء من المحصول، وأن يعمل الفلاحون كعمال يومية على أن تعود الأرض لأصحابها عندما يكونوا قادرين على سداد الضرائب، وقد بلغت مساحة الأرض التى خضعت لهذا النظام ١.٢٠٥.٥٩٩ فدان . كما أن أغلب هذه للمساحة لم تعد إلى أصحابها، وتحولت ملكيتها إلى المتعهدين فى عهد سعيد باشا، فقد تحول ٢٣٥ فدان من مجموع أراضى قرية نزلة الفلاحين بالمنيا البالغ جملة ملكيتها ٥٠٠ فدان إلى " كامل باشا " زوج ابنة

" محمد على " والمتعهد على القرية سنة ١٢٦٢هـ - ١٨٤٧م وتحولت باقى الأرض فى القرية إلى " يوسف عبد الشهيد " المتعهد الآخر (٧٨) .

وقد أسهمت هذه السياسة المستبدة الظالمة إلى قيام بعض الثورات فى ريف مصر ضد " محمد على " فتزعّم " الشيخ أحمد " فى قرية السليمية فى قنا ثورة كبيرة حيث جمع حوله أربعين ألف فلاح وسيطر بهم على المنطقة وعين حكامها وجمع ضرائبها وأعلن عصيانه على الحكومة، واستمرت الثورة قرابة الشهرين حتى ضربها محمد على بقواته العسكرية. وقامت ثورة أخرى أشد قوة بعد ذلك بعامين بزعامة رجل عرف باسم " الوزير " حيث قام بطرد موظفى محمد على وكبر شأنه حتى قضى عليه محمد على ونزحه وذبح معه حوالى ألف فلاح . وقامت ثورة أخرى فى المنوفية قضى عليها " محمد على " (٧٩) وقد أدى ذلك إلى إصدار محمد على لقانون الفلاحة سنة ١٢٤٥هـ - ١٨٣٠م، والذي يقضى بمحاكمة وضرب الفلاحين الذين لا يمثلون لأوامر الحكومة (٨٠) .

وبشكل عام فإن أخطر ما قام به محمد على فى مصر هو قضاؤه على الأسر والعصبيات ولم يدع فيها رأسا يستتر فيه ضمير أنا، وكانت معاناة الشعب المصري فى عصره أشد قسوة من أسوأ حكام المماليك (٨١) .

أما فى المدن وبخاصة فى القاهرة فيذكر الجبرتى أن محمد على حين كلف الناس بتعميرها " اجتمع على الناس عشرة أشياء من الرزائل وهى السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل والمهانة وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الأعداء وتعطيل معاشهم وأجرة الحمام " (٨٢) . ولا شك أن فى ذلك تصويرا دقيقا من مؤرخ معاصر لسياسة النظام التى اتبعها محمد على مع سكان القاهرة والمماتلة لنفس سياسته مع الفلاحين فى الريف المصرى نتج عنها مزيد من الكره فى نفوس المصريين تجاهه . وقد صور الجبرتى نموذجا يدل فى ذلك حين تحدث عن زواج ابنة محمد على من أحد مماليكه وهو " محمد بك الدفتردار " فى سنة ١٢٢٩هـ - ١٨١٤م، وهو الذى اتهم بقتل " خليل ابن الجبرتى " بعد ذلك، فيروى الجبرتى كيف أمر محمد على شخصا اسمه " محمد أغا " أن يخلى داره حتى تسكن فيه ابنته، وكيف أمر الباشا بهدم المصاطب الواقعة فى طريق الزفة، وكيف تحمل نساء الأمراء المصريين المنكوبين ما يزيد عن طاقتهم فى تقديم النقوط والنقادم والهدايا. وكانت ابنة الباشا ترد الهدايا التى لا تجدها كافية مما أدى إلى أن يصبح أغلب الأمراء مجردين مديونين، ويعقب على ذلك بأن الله قد

أظهر غضبه يوم الزفاف حيث حاصرت الأمطار الزفة واضطر الكثيرون لتركها وتلطخت ثياب من اضطر للبقاء فيها بالطين " (٨٣) .

وفى الوقت الذى اتسمت فيه سياسة محمد على بالظلم والاستبداد ضد أبناء مصر من الفلاحين والحضر قرب إليه الأجانب سواء الذين كانوا موجودين من قبل داخل مصر أم من استجلبهم من أوروبا للاستعانة بهم فى سياسته بشكل عام (٨٤) .

فقد كان عدد الأجانب فى مصر بضع آلاف قليلة فى نهاية القرن الثمانى عشر الهجرى الثامن عشر للميلاد، ولكن " محمد على " استجلب منهم الكثير، فبلغ عدد من استعان بهم من الأجانب سنة ١٢٤٦هـ - ١٨٣٣م، خمسة آلاف، وزاد إلى (٦١٥٠) بعد ذلك بعشر سنوات سنة ١٢٥٦هـ - ١٨٤٣م، وهو عدد يوازى حوالى مجموع الأجانب الذين وجدوا فى مصر قبل عهده (٨٥) .

ولم تكن استعانة محمد على بالأجانب قاصرة على معونته فى برامج تحديث مرافق البلاد أى لأغراض بناء السدود والجسور والقناطر وشق الطرق والمصارف وبناء الجيش والأسطول والزراعة والصناعة، بل شملت خطط هؤلاء الأوروبيين وأهدافهم المعادية فى أغلبها للاتجاه الإسلامى كأتباع سان سيمون من الفرنسيين الذين سعوا لنشر آرائهم (٨٦) .

كما أن استجلاب محمد على للأجانب لم يقتصر على العناصر التى تحقق نفعا عاما فى مصر وإنما فتح الباب لهم على مصراعيه فدخلت عناصر لا خلق لها من طلاب الثراء الذين سلخوا أساليب قدرة فى التعامل من غش ونصب واحتيال لدرجة أزعجت "محمد على " نفسه مما دعاه لأن يكتب إلى " باغوص باشا " رسالة سنة ١٢٤٤هـ - ١٨٢٩م يذكر فيها : " بالنسبة لتكاثر وجود طوائف الأفرنج فى مصر بلا صفة ولا كسب ولا مأوى، فقد تذاكر مع قنصلى إنجلترا وفرنسا الموجودين عنده فى شأن هؤلاء واستصوب تبليغ عموم القناصل بإعادة من لا كسب له ولا صفة ولا مأوى منهم "، ثم طلب بعد ذلك سرعة اتخاذ موقف لإتقاد الحكومة من شروهم (٨٧) .

لكن أطماع محمد على المدعومة بمساندة أوروبية دعتة إلى عدم اتباع سياسة حاسمة مع الأجانب داخل مصر، بل بالعكس كان يحسن معاملتهم ويتلطف معهم (٨٨)، فزاد عددهم وزاد دورهم وتأثيرهم على المجتمع المصرى . ولعل من أهم الأسباب التى ساعدت على زيادة دورهم السلبي إلى جانب زيادة حجمهم

وبالتالى تأثيرهم فى كافة الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وأن القوى الاجتماعية التى كان من الممكن أن تقوم بدور فعال فى مقاومتهم قد قضى عليها محمد علي بنظامه الاقتصادى والسياسى فسمح ذلك بفتح الباب للسماسة والمغامرين الأجانب الذين تسارعوا لنهب اقتصاد البلاد وبمساعدة سلطات بلادهم على حساب الفلاحين وجموع الكادحين المصريين (٨٩). أما العامل الثانى الذى جعل دور الأجانب يزداد تأثيرا وقوة داخل مصر هو اتفاقية لندن سنة ١٢٥٥هـ - ١٨٤٠م التى أقرت فيها إنجلترا وفرنسا باستقلاله بمصر مما أدى إلى زيادة خضوعه لهم والارتقاء فى أوضاعهم . واضطر أن يرضى الطرف عما يفعله الأجانب داخل مصر ففتح لهم الباب على مصراعيه، وارتبط بالعديد منهم بصداقات وقربهم منه (٩٠) . وازداد نفوذ قناصل الدول ودورهم فى الدفاع عن مواطنيهم بل وعن أى مواطن مقابل مبلغ من المال، وأصبح لكل دولة غربية قائمة بمن تشملهم الحماية، ومكن الأجانب لأنفسهم لا ضد أهالي البلاد فقط بل ضد سلطة الدولة كذلك (٩١) .

وكان من أهم الأساليب التى سيطر من خلالها الأجانب على مقدرات البلاد بمعونة محمد علي سيطرتهم على التجارة الداخلية فى المدن بعد أن سمح لهم محمد علي بالسكن فى مناطق التجارة كالموسكى والأزبكية (٩٢)، ووفر لهم التسهيلات الكثيرة وحماهم من أية قيود.

ومن جهة أخرى فقد سمح لهم - دون موافقة دولة الخلافة - بامتلاك الأراضى الزراعية ورهنها، بل وأعطاهم مساحات زراعية من قبيل المنح، فقد منح ألف فدان من أبغادية محله كيل والجردات بالبحيرة إلى " توسيجه " فنصل دولة الروم (اليونان) سنة ١٢٥٣هـ - ١٨٣٨م، ومائتان فدان من أبغادية قـبريط بالغربية " لروستى " فنصل تسكانيا، وخمسة عشر فداناً من المعمور جهة وراق الحضر إلى " اصطفتانى حنا " سنة ١٢٥٤هـ - ١٨٣٩م من بينها تسعة أفدنة حدائق، كما منح أراضى بناء مساحة فدانين بضواحي مصر القديمة " لألكسان " ومنح فنصل الروم (اليونان) منزلين مساحتهما (٢٥٠٠) نراع لإقامة مخبز ومنزلين سنة ١٢٥١هـ - ١٨٣٦م (٩٣) .

وإذا كان بعض كتاب التاريخ قد رأى أنه لا ينبغى تعميم الأحكام على عصر محمد علي من خلال فترة حكمه الأولى التى صورها الجبرتنى من منظور إسلامى - حيث تعد هذه الفترة فترة إعداد لما قام به محمد علي من إصلاحات فى الفترة

اللاحقة من حكمه كبناء للقناطر والسدود وشق الترع وتشيد المنشآت والاهتمام بالتعليم وبناء الجيش وغير ذلك، فمما لاشك فيه أن المصريين لم يستفيدوا استفادة تذكر من كل هذه الأعمال التي بنوها بالسخرة، وكان المستفيد الأول، إلى جانب محمد على، الدول الأوروبية، حيث فتح الباب على مصراعيه للتجار الأوروبيين لدخول مصر والسيطرة على الحياة الاقتصادية فيها . وأصبحت مصر هي المزرعة التي تعتمد عليها أسواق أوروبا في المنتجات الزراعية، وارتبطت مصر - من خلاله - بذلك ارتباطا وثيقا بأوروبا تجارة وحضارة . وأصبح اعتماد طبقة التجار الناشئة في مصر اعتمادا على الأسواق الأوروبية وبشكل جعلها تتأثر بأى دور يقوم به الأوروبيون من الناحية الاقتصادية وبالتالي السياسية (٩٤)، إلى جانب تمكين دعاة الثقافة الأوروبية من السيطرة على الحياة الفكرية بعد أن شل دعاة الاتجاه الإسلامى (٩٥) . وأوقف مناهج التعليم القائمة على الدين تنفيذا لسياسة نابليون الماسونية، وهو أمر أكدته المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينى فى قوله : " كان محمد على ديكتاتورا أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة فى مصر " (٩٦) .

وحتى لو جارينا للقائلين بأن الإصلاح أنوم من صاحبه وأن استمرار هذه المنشآت قد أفاد شعب مصر على المدى البعيد، إلا أن الإصلاح ليس إصلاحا ماديا فقط، وقد حقق الاستعمار الأوروبى هدفه فى الاستفادة من هذه المنشآت حتى منتصف القرن العشرين (٩٧) . أما شعب مصر فقد خيم عليه اليأس ودفع ثمنها يفوق حجم كل إصلاح وهو تحطيم هويته الحضارية التى صقلتها الإسلام والتى ميزت دوره خلال العصور القبطية والإسلامية والتاريخية بشكل عام (٩٨) .

ولقد علق أحد المؤرخين على ذلك العصر بقوله بأن سياسة الاحتكار التى اتبعها محمد على فى مصر كانت أفتك سلاح أضعف الفردية المصرية والشخصية الوطنية، ولا يمكن لقومية أن تقوم على أجساد عجاف ولا أرواح يستبد بها حكم فينكر عليها حق الوجود (٩٩)، وعلق مؤرخ آخر بأن صراعه أى محمد على من أجل الاستقلال لم يكن صراعا من أجل استقلال مصر، بل كان من أجل ضمان ملك وراثى لأبنائه من بعده (١٠٠) .

على أن أخطر اتجاه رعاه محمد على هو الاتجاه إلى الدعوة القومية فى ظل سياسة التضييق التى مارسها على دعاة الفكر الإسلامى من العلماء والمشايخ فكان هذا الاتجاه مسيرا لمساغيه الرامية إلى الاستقلال بمصر وبالتالي إبعادها

عن الارتباط بدولة الخلافة الإسلامية (١٠١)، وقد لقي في اتجاهه هذا عونا من المحافل الماسونية التي يعتبر هذا الاتجاه من صلب أهدافها، ومن أبرز الذين علونوه في هذا الاتجاه " الشيخ حسن العطار " سنة ١١٢٠ - ١٢٥٠هـ - ١٧٧٦ - ١٨٣٥م، الذي تشير الدلائل على انضمامه للمحفل الماسوني المصري، فقد كان العطار يرى أن البلاد " لا بد أن تتغير أحوالها ويتحدد بها من المعارف ما ليس فيها "، وكانت وجهته في هذا التغيير هو الاتجاه إلى الثقافة الأوروبية بعد أن عجز - في رأيه - للمشايخ والعلماء عن مواصلة جهود المسلمين الأوائل (١٠٢) .

وتبع العطار في اتجاهه تلميذه رفاعة الطهطاوى سنة ١٢١٥ - ١٢٨٩هـ - ١٨٠١ - ١٨٧٣م، حيث ابتعثه محمد على إلى فرنسا خمس سنوات سنة ١٢٤١ - ١٢٤٦هـ - ١٨٢٦ - ١٨٣١م، عاد بعدها لينشر ما يزكى الفكرة القومية وغيرها من الأفكار الاجتماعية التي عايشها في فرنسا والتي لم تكن تتلاءم مع أوضاع المجتمع المرتبط بالفكر الإسلامي، وقد بدت هذه الأفكار في العديد من القصائد التي نظمها وكذلك الكتب التي ترجمها بعد توليه الإشراف على مدرسة الألسن (١٠٣) .

وكان اتجاه الطهطاوى يميل إلى الوطنية القريبة من القومية المتعصبة دون أن يحاول دمجها بالفكر الإسلامي على الرغم من محاولاته حشد العديد من الأدلة المستمدة من كتاب مسلمين لتدعيم أفكاره، كما أنه في أغلب ما طرحه من أفكار قد أكد بأنه قد تأثر بتيارات الفكر الأوروبي من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بشكل فاق تأثره بالفكر الإسلامي، حيث أبدى في عديد من جوانب فكره، وفي كافة مراحل حياته، إعجابه بأفكار الحرية والمساواة وضرورة الاعتماد على العقل، وهي نفس الآراء التي أثارها نابليون إبان الحملة الفرنسية، والتي أكدت مدى تأثر الطهطاوى بأراء مونتسكيو، كما أشارت إلى تشبع الطهطاوى هو الآخر بالفكر الماسوني، ولم يربط بين هذه الأفكار وبين أصولها الإسلامية (١٠٤) .

وتبع الطهطاوى كثيرون ممن واصلوا الدعوة إلى القومية وإلى ضرورة الاتجاه الكامل إلى الحضارة الغربية من أمثال " على مبارك " و " إبراهيم أدهم " و " صالح مجدى " و " محمد عثمان جلال " و " عبد الله أبو السعود " و " عبد الله فكرى " وغيرهم، وواصل الجميع هجومهم على التيار الإسلامي من كافة الجوانب، وتعد أخطر دعوة تبناها بعض من هؤلاء، ونقلوها من فرنسا، وهي

الدعوة إلى سيادة اللهجة العامية لتحل محل اللغة العربية، وعندما لم تلق هذه الدعوة قبولا من بعض المفكرين استخدمت اللغة العربية الفصحى لإثارة النعرة القومية العربية وهو تيار حمله المفكرون الشوام، والذين كانوا في أغلبهم من النصارى، إلى مصر واستخدموه في تدعيم اتجاههم الرامى إلى ضرب فكرة الجامعة الإسلامية والسعى لفصل العرب عن دولة الخلافة الإسلامية .

المواضيع

(١) نتفق في هذا مع اتجاه الدكتور سليمان الغنام الذي يعتبر من أسبق من نبه إلى طبيعة هذا الدور في كتابه القيم "قراءة جديدة في سياسة محمد علي باشا التوسعية"، وإن كنا نأخذ عليه معالجته للموضوع من بعد إقليمي أكثر من كونه بعدا إسلاميا .

(٢) د . سليمان الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية، ص ١٢، ويصف الدكتور محمد محمد حسين الثورة الفرنسية في شعارها بأنها يهودية لأن - هذا الشعار من وضع مجمع بورد الماسوني : حصوننا مهددة من داخلها، ص ٨٣. ونظّر أيضا : صالح بن عبد الله العبود : فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام - دار طيبة - الرياض سنة ١٤٠١هـ، ص ٨٦، وقد أثار وليام غازي كار في كتابه أحجار على رقعة الشطرنج تأكيد النواب الفرنسيين في مجلس النواب المنعقد سنة ١٩٠٤م أن الثورة الفرنسية من صنع الماسونية وهو أمر يعلنونه عل الملأ ..

(٣) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربي ص ٩٩ .

(٤) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج ٣ ص ١٢٠ . وقد نقلنا عن الجبرتي دون تصحيح الأخطاء النحوية .

(٥) د . إبراهيم أحمد العدوي : الصراع الفكري بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث كما صورته الجبرتي، بحث مقدم في ندوة الجبرتي ص ٨٣ .

(٦) د . لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث . الخلفية التاريخية، ج ١ ص ١٨٠ - ١٨٨، أحمد فهد الشوابكة : الجامعة الإسلامية ص ١٦٣ .

(٧) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٣، وقد منح الفرنسيون المعلم يعقوب لقب جنرال وجهزوه بالسلاح هو ومن جمعهم من النصاري واستخدموه ضد الجيش المملوكي والجيش العثماني الذي جاء لإنقاذ مصر من الاحتلال الفرنسي، وضد الإرادة الشعبية الثائرة ضد الوجود الفرنسي، ويلقبه بعض النصاري في هذا الموقف الخائن بأنه كان بطل للاستقلال .
أنظر : د . سليمان نسيم : الأقباط والتعليم في مصر الحديثة - منشورات الكنيسة المصرية - د . ت ص ٥٧ .

(٨) الجبرتي : عجائب الآثار ج ٣ ص ٦ .

(٩) د . إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص ٨٣ . وكانت رسالة نابليون إلى شريف مكة الشريف غالب في ١٣ ربيع أول ١٢١٣هـ / ٢٥ أغسطس ١٧٩٨م تسير في نفس خط التودد للمسلمين حيث ذكر فيها أن فرنسا صديق وفي للمسلمين وأنه سيكون حاميا للكعبة المقدسة

وهذا شرف كبير له، ورد عليه الشريف غالب بالتقدير وطلب الأمور .هـ- نق وترجمتها
محفوظة بدون - وثائق عابدين بحر برا . ولعل ذلك بوضوح غلبة العوامل الاقتصادية على غيرها
من العوامل في هذا الموقف .

(١٠) الجبرتي : عجائب الآثار ج٣ ص ١

(١١) الجبرتي : عجائب الآثار ج٣ ص ٢٣، وقد عز على بعض المؤرخين غياب الوعي
القومي فاستدل عليه من منشورات نابليون وأطلق عليه الشخصية المصرية، أنظر : د .

يونان لبيب رزق : الجبرتي والشخصية المصرية ص ١٢٤ .

(١٢) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٣ .

(١٣) د . إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص ٨٥ .

(١٤) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : الجبرتي مؤرخا، ص ٣٧ .، وقد اعتبر بعض الكتاب هذه
المظاهر المحدودة ظاهرة تدل على حرية المرأة، د . حكمت أبو زيد : المجتمع القاهري
على عهد الحملة الفرنسية كما صورته الجبرتي ص ١٦٤ .

(١٥) د . إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص ٨٤ .

(١٦) أنولاد تونيبى : عبد الرحمن الجبرتي وعصره ص ١٣ .

(١٧) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات في تاريخ العرب الحديث ص ١٩٦ .، د . محمد
أنيس : المرجع السابق ص ١٩١ .

(١٨) د . إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص ٨٣ .، على أن موقف المماليك المعادى
للفرنسيين لا تحكمه الأبعاد الوطنية أو الدينية في دعمهم للسلطة العثمانية بل يرجع إلى
حرصهم على مصالحهم الاقتصادية في ظل حكم إسمى للعثمانيين يسمح لهم بحرية
التحكم وهو أمر لم يكن ليتحقق في ظل السيادة الفرنسية .

(١٩) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٦ .

(٢٠) الجبرتي : عجائب الآثار ج٤ ص ٢٧، ٤٣، ٤٦ .

(٢١) د . جمال زكريا قاسم : عبد الرحمن الجبرتي : سيرة وتقييم ص ٦١ .

(٢٢) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : الجبرتي مؤرخا ص ٤٠، د . مصطفى رمضان :
مخطوطة من تأليف الجبرتي ص ٢٤٥ .

(٢٣) زار الألفى لندن سنة ١٨٠٢م، سنة ١٨٠٤م لإبداء الولاء لهم . د . سليمان الغنام :
المرجع السابق ص ١٦ .

(٢٤) د . محمود حلمي مصطفى : الجبرتي ومعاصروه من أمراء المماليك ص ٣٠٥

(٢٥) د . جمال زكريا : المرجع السابق ص ٥٦ .

(٢٦) صلاح عيسى : منهج عبد الرحمن الجبرتي فى رؤية الظواهر التاريخية ص ١٣٩ وما بعدها .

(٢٧) الجبرتي : عجائب الآثار، جـ ٢ ص ٩٣، جـ ٣ ص ١٩٢، جـ ٤ ص ١٨٨ .

(٢٨) د . محمود حلمي : المرجع السابق ص ٢٩٧ .

(٢٩) المرجع السابق ص ٣٠٥ .

(٣٠) المرجع السابق ص ٣٠٧ .

(٣١) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٤ .

(٣٢) د . فائق حمدى طهوب : تاريخ البحرين السياسى - ذات السلاسل - الكويت سنة ١٩٨٣، ص ٨٧ وما بعدها .

(٣٣) ما زال بعض كتبه التاريخ يعتبر القواسم قراصنة فى كل مرلحل ظهورهم التاريخى دون دراية بتطور دورهم فى مقاومة النفوذ الأجنبى، ومثل هؤلاء لا يستوجبون فيما كتبوه أى عناية .

(٣٤) د . محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ - ١٨١١) - القاهرة سنة ١٩٥٨م جـ ٣ ص ٨٥٧ .

(٣٥) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣٦) د . محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ص ٢٨، ٢٧، د . لبللى عبد اللطيف : تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى ص ٢١٢ .

(٣٧) يرى البعض أن الجبرتي قد تأثر فى موقفه من محمد على بأمرين أولهما تأثر الجبرتي بإجراءات محمد على تجاه أراضى الالتزام، والثانى دور محمد على فى قتل ابن الجبرتي . ولكن الجبرتي لم يضر من إجراءات محمد على . كما أن رأيه فى محمد على كان سابقا لقتل ابنه . أنظر : د . أحمد عزت عبد الكريم : الجبرتي مؤرخ مصرى على مفرق الطرق ص ٢٧، د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص ٨٨ .

(٣٨) ورد فى البروتوكول الأول من بروتوكولات حكماء صهيون، وهو ما يلتقى مع ما جاء فى كتاب الأمير لميكاflu - أن السياسة لا تتفق مع الأخلاق فى شيء، ولحاكم المقيد بالأخلاق ليس سياسى بارع، وهو لذلك غير راسخ على عرشه، لابد لطالب الحكم من الانتجاع إلى المكر والرياء فإن الشرائل الإنسانية العظيمة من الإخلاص والأمانة تصير رذائل فى السياسة، وأنها تبلغ فى زعزعة العرش أعظم ما يبلغه أشد الخصوم أنظر : محمد خليفه للتونسي : بروتوكولات حكماء صهيون، ط ٧، دار الكاتب للنشر والتوزيع .

(٣٩) أحمد خاكي : الجبرتي ومحمد على، ضمن مجموعة بحوث الجبرتي القاهرة سنة ١٩٧٦، ص ٣٧٦، ٣٨١، ٣٨٢.

(٤٠) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٩٩ .

(٤١) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٠٠ .

(٤٢) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٠٣ .

(٤٣) أحمد خاكي : المرجع السابق ص ٣٨١ .

(٤٤) سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٧ .

(٤٥) حسين عمر حماده : الماسونية والماسونيون في الوطن العربي - دار قتيبة - دمشق -

ب - ت ص ٣١٥، مجلة المجتمع الكويتية : حقائق في وثائق، النشاط الماسوني في مصر، حلقة ٤ في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٨٣م العدد (٦٤٥) بقلم : العقيد محمد كامل إبراهيم . والماسونية منظمة سرية خفية لم تتضح هويتها أو تاريخها برغم كثرة الكتابات عنها، لكنها تتخفى وراء أهداف تبدو نبيلة في مقاصدها كدعوتهم للخير والمحبة والسلام والتعايش السلمى في حرية وإخاء ومساواة تحت ظل حكومة عالمية موحدة بعيدة عن التعصب، وقد ظهرت حديثا أسماء متعددة كالروتارى والليونز وغيرها، ومن بين الذين ذكروا تاريخها أشاروا إلى أنها ترجع إلى الحكم البابلى . وأرجعها آخرون إلى نشأة الحركة النقابية في أواخر العصور الوسطى في أوروبا، لكن المتفق عليه بين كل من تناولوها هو صلتها باليهودية كديانة ثم بالحركة الصهيونية . وبالتالي تحولت أغراضها إلى سياسية دون أن يكون ذلك أمرا مغلنا . وقد ارتبط الفكر الماسوني بالفكر الليبرالى وبخاصة في إنجلترا، وبفكر الطبقة الوسطى في مرحلة نشوء وتطور الرأسمالية . واهتمت المحافل الفرنسية منذ بدايتها بالأمور السياسية والدينية، وسلكت أسلوب العمل الخفى حتى تستطيع أن تسيطر على كافة الأمور . على أن اهتمامها بالنواحي الدينية ليس إيجابيا بل ترى أن كافة الأديان هي العدو الحقيقى للبشرية وأنه لا بد من العمل على إبادتها . أنظر : د . عبد لصبور مرزوق : الغزو الفكرى، أهدافه ووسائله، ط ٣ رابطة العالم الإسلامى ص ٩٢، ٩٣ (ب . ت) .

(٤٦) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٦، أبو الفدا - محمد عزت محمد عارف - نهاية اليهود، جدة سنة ١٤١٠ هـ ص ١٣٢،

(٤٧) د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص ٨٣ . وحول الأسس والجوانب البراقة لهذه الحركة . انظر: أبو إسلام أحمد عبد الله : الروتارى - شرح في جدار . دار الاعتصام القاهرة سنة ١٩٨٨م ص ٣٧، ٣٨ .

(٤٨) د. صلاح العقاد : الجبرتي والفرنسيين، بحث ضمن مجموعة دراسات الجبرتي ص ٣١٣ .

(٤٩) المرجع السابق .

(٥٠) تعجب الجبرتي من ادعائهم الإسلام ثم قيامهم بالعبث بالأمكن المقدسة أنظر : عجائب الآثار : ج٣ أحداث سنة ١٢١٣ هـ، ج٣، ص ٢٦ .

(٥١) د. صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٢٠ .

(٥٢) د . إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص ٨٥ .

(٥٣) الجبرتي : عجائب الآثار ج٣ ص ١٦١ .

(٥٤) عبد الجبار الزيدى : الماسونية تحت الأضواء - بيروت سنة ١٩٨٨م، ص ٣٣ .

(٥٥) د . إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص ٨٥ .

(٥٦) د. صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣١٦ .

(٥٧) د. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٥٨) أصبح اسم " محمد علي " رمزا من رموز الماسونية، ولما لأحد محافل الإسكندرية، وعن صلة " محمد علي " باليهود انظر محمد علي الزغبى : الماسونية فى العراق : مؤسسة الرسالة، بيروت سنة ١٩٨٨م ص ٣٠٠ ولا شك أن هذا الارتباط هو الذى وفو لمحمد علي وسائل القدرة المادية لتنفيذ مؤامراته فى علاقاته وفى حل مشكلات الجند والاتفاق عندما خرجت القوات العثمانية وظل هو وحده فى مصر وكذلك فى استقطاب العناصر المحلية وغير ذلك الأمر الذى يرجع العامل الاقتصادى على غيره من العوامل فى توجيه الأحداث والمسيطرين عليها، وقد ذكر البعض كيف أن العناصر الماسونية كانت تمارس الإجرام فى المدن المصرية بالقتل وغيره، ثم تجد من محافلها الماسونية للحماية والمأوى والعون : أنظر د . على شلش : المرجع السابق ص ٢٢٢ .

J . M . Landau : prolegamena to a study of secret societies In modern Egypt , p . 139 .

(٥٩) د. سليمان الغنام : المرجع السابق ص ٨٤ .

(٦٠) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٧ .

(٦١) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٨ .

(٦٢) المرجع السابق ص ٢١٩، وقد انتشرت المحافل الماسونية فى بعض المدن الداخلية على يد الفرنسيين مثل بور سعيد والسويس والإسماعيلية .

(٦٣) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٠٨ .

(٦٤) الجبرتي : عجائب الآثار، ج٤ ص ٥٨ .

- (٦٥) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٨ .
- (٦٦) د . محمد فؤاد شكرى : مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ - ١٨١١م) - القاهرة سنة ١٩٥٨م ج ٢ ص ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٨ ، ١٩ .
- (٦٧) د . محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ج ٢ ص ٨٢٦ وما بعدها ، د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٨ .
- (٦٨) آثار هذا التقارب بين محمد على والإنجليز مخاوف الفرنسيين وهو أمر دعاهم إلى احتمال تغيير سياستهم مع محمد على وبدا هذا فى اتصالهم بسليمان باشا والى الشام لمعاودة الاتصال بالمماليك أعداء محمد على فى مصر سعيا لعرقلته مساعيه فى الاعداد لحملة على الجزيرة العربية التى كانت تسير فى صالح السياسة الإنجليزية، مع مراعاة أن سليمان باشا كان على صلة بالإنجليز قبل ذلك لنفس الغرض، وقد أدى ذلك إلى مطالبة محمد على السلطان العثمانى بإبعاد سليمان باشا من الولاية وتعيين يوسف كنج مكانه . الوثائق السياسية للبنان - د . نوار : ص ١٧٩ وما بعدها .
- (٦٩) د . عمر عبد العزيز : تاريخ الشرق العربى، ص ٣٢٤ .
- (٧٠) الجبرتى : عجائب الآثار ج ٤، ص ٦٩ .
- (٧١) أحمد خاكي : الجبرتى ومحمد على، ص ٣٩١، شولش : مصر للمصريين، ت : د . رؤوف عباس، ص ٤٤ .
- (٧٢) د . جمال زكريا قاسم : المرجع السابق، ص ٦٣، أحمد خاكي : المرجع السابق : ص ٣٦٣ .
- (٧٣) الجبرتى : عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٥٠، نقلا عن د . جمال زكريا : المرجع السابق، ص ٦٢ .
- (٧٤) أحمد خاكي : المرجع السابق، ص ٣٩١ ، ٣٩٤، بلغت المساحة التى استولى عليها " محمد على " (٣٣٤ ، ٢٨٦) فدان، وكانت أغلب هذه الأساليب قد تمت بعد سنة ١٨٤٠ أى بعد استقرار أسرة محمد على فى مصر بعد اتفاقية لندن . د . على بركات : ص ٣٤٣، وكان السلطان العثمانى قد سمح لمحمد على بامتلاك (١٥٠) ألف فدان، وخصص لكل واحد من أبنائه (٣٠) ألف فدان وكان أعضاء أسرته يملكون سنة ١٨٤٥م (٦٧٧) ألف فدان، أنظر : شولش : المرجع السابق، ص ٣٠ .
- (٧٥) الجبرتى : المرجع السابق، ج ٤، ص ١٥٠ .

(٧٦) ك . أبير : التجديد والرجعية وإمبراطورية محمد على، ت : مكى حبيب المؤمن: مجلة المؤرخ العربى - العدد ١٨ لسنة ١٩٨١م، ص ٢٠٥ . وسبق أن أشرنا إلى أن محمد على " كان ينظر إلى المصريين على أنهم " حمير وثيران " د . سليمان الغنام : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٧٧) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق، ص ٣٤٦ .

(٧٨) استعنا فى هذا الجانب بدراسة للدكتور على بركات : حركة المطالبة بالأرض فى الثورة العربية ضمن مجموعة أبحاث بعنوان - " مصر للمصريين "، ص ٢٤٤ .

(٧٩) د . بير : تـ . عبد الخالق لاشين : دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة، ص ٢٢٠ - وما بعدها .

(٨٠) المرجع السابق .

(٨١) د . طلعت إسماعيل : محمد شريف باشا، ص ٢١، ٢٢ .

(٨٢) أحمد خاكى : المرجع السابق، ص ٣٩١ . نقلاً عن الجبرتى .

(٨٣) المرجع السابق، ص ٣٨٥، ويذكر شولش أن سياسة " محمد على " كانت نقضى بعدم منح المصريين وظائف كبرى فى الجيش أو الخدمة المدنية .

(٨٤) بدأت استعانتته بالأجانب منذ سنة ١٢٣١هـ - ١٨١٦م واستعان بهم فى صناعات كثيرة، لكن فتح الباب لهم قد جعل الأمر يسمح بدخول عناصر كثيرة غير صالحة باعتراف محمد على نفسه، د . جوزيف حجار : أوروبا مصير الشرق العربى، ت : بطرس الحلاق وماجد نعمة، بيروت سنة ١٩٧٦ م، ص ١٦ .

(٨٥) يرى البعض أن عدد الأجانب فى مصر حتى نهاية القرن الثامن عشر لم يزد عن عدة

مئات، انظر : ج . ببير . ت : د . عبد الخالق لاشين : المرجع السابق، ص ٤١٠، ٤١١ .

ويذكر نفس المرجع أن عدد الأجانب فى عصر محمد على قد بلغ عشرة آلاف - نصفهم من اليونانيين وألفين من الإيطاليين . ويذكر البعض أن عددهم فى نهاية القرن الثامن عشر قد بلغ حوالى سبعة آلاف منها خمسة آلاف من اليونانيين وألفين من الأرمن، ولكن صاحب الدراسة قد أبدى شكوكه فى هذا العدد لعدم وجود وثائق واضحة حول ذلك انظر : د . عبد الرحيم عبد الرحمن : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر .

ط ٢ - مذبولى ص ١٤٨، وانظر أيضا : د . نبيل عبد الحميد سيد أحمد : الزحف الإمبريالى على مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . الأهرام - القاهرة سنة

(٨٦) د. نبيل عبد الحميد : المرجع السابق، ص ١٠، وكانت الجالية الفرنسية في مصر لها دور يلقى أى جالية وصاحبة النفوذ الأقوى في عصر محمد علي، محمد نور عارف : تاريخ غزو رأس المال الأجنبي لمصر (١٨٥٤ - ١٨٨٢)، رسالة دكتوراه غير منشورة، بكلية الآداب - جامعة المنيا، سنة ١٩٨٠م، ص ٧٠، وعن استعانة إبراهيم ابن محمد علي بالأجانب في حداثته الخاصة أنظر : د. أحمد الحته : جهود إبراهيم باشا في خدمة الزراعة والصناعة والتجارة ضمن كتاب عن إبراهيم باشا - الجمعية التاريخية المصرية سنة ١٩٤٨ م ص ٩١ .

(٨٧) د. علي بركات : المرجع السابق ص ٢٤٦ .

(٨٨) د. نبيل عبد الحميد : المرجع السابق .

(٨٩) د. علي بركات : المرجع السابق، ص ٢٤٧ .

(٩٠) عن صداقات محمد علي للأجانب من نصارى ويهود أنظر : د. محمد فؤاد شكرى : بناء دولة مصر محمد علي - القاهرة عام ١٩٤٨م، ص ٢٢، ٢٣، لنفس المؤلف : مصر والسودان - القاهرة عام ١٩٦٣م، ص ٤٩ .

(٩١) د. علي بركات : المرجع السابق، ص ٣٥٠ .

(٩٢) د. علي بركات : المرجع السابق، ص ٣٦٠ .

(٩٣) د. علي بركات : المرجع السابق، ص ٣٥٢ . وأشار إلى أن دولة الخلافة لم تسمح بامتلاك الأجانب العقارات إلا سنة ١٨٦٧ م (أى بعد عصر محمد علي) واشترطت خضوعهم للوائح والقوانين التى تطبق على الرعايا المحليين أما محمد علي فقد أعطى الأجانب حق الرهن فى تشريع صدر فى ١٨٤٦م وهو أمر فاق حقوق الفلاحين . نفس المرجع، ص ٢٤٢ .

(٩٤) تعرض جيش محمد علي فى الشام لخيانة بعض العناصر الأجنبية التى عملت معه زمنا طويلا واتضمت لجيوش الأوروبيين المعادية له مما أسهم فى هزيمته وتوقيعه على اتفاقية لندن سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤١م، واتسحابه من بلاد الشام . أنظر د. جوزيف حجاز : أوروبا ومصير الشرق العربى ص ٢٠٨ . ولعل ذلك يشير إلى أثر العامل الدينى من جهة وكذلك تأثير المحافل الماسونية من جهة أخرى .

(٩٥) د. عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٢٢، ٣٢٣، د. أحمد عزت عبد الكريم

: المرجع السابق ص ٢٤٨ .

(٩٦) أرنولد تويني : عبد الرحمن الجبرتي وعصره ص ١٤ .

- (٩٧) حول دور بريطانيا في تحطيم الصناعة في مصر . وكذلك آثار معاهدة بالطليمان بين بريطانيا وتركيا سنة ١٨٣٨م، أنظر : د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٢٥٠ .
- (٩٨) عن الأحوال الشخصية للفلاحين وتطبيق نظام السخرة أنظر : د . أحمد عزت عبد الكريم : المرجع السابق ص ٢٤٨ .
- (٩٩) أحمد خاكي : المرجع السابق ص ٣٩٤ .
- (١٠٠) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٢٣ ، د . مكي شبكه : تاريخ شعوب وادي النيل ص ٥٥٨ حيث يذكر كيف قتل محمد علي الروح الشعبية .
- (١٠١) د . محمد فوزي شكرى : مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ - ١٨١١، ج ٣ ص ١٢٣٢ وما بعده، د . مكي شبكه : تاريخ شعوب وادي النيل ص ٥٥٨ .
- (١٠٢) د . زكريا سليمان بيومي : التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين، دراسة في فكر الشيخ محمد عبده ص ٢ .
- (١٠٣) المرجع السابق ص ٢٣ .
- (١٠٤) د . زكريا سليمان : المرجع السابق ص ٢٤ ، ٢٥ . وأصحح هنا بعض ما سبق أن توصلت له في هذا الكتاب حيث لم يحاول الطهطاوى أن يربط بين هذه الأفكار وجذورها الإسلامية كالحرية والعدل والمساواة وغيرها، وكذلك الأساس العقلى في الفكر الإسلامى.

الفصل الخامس

محمد على يقضى على القوى الإسلامية
فى المشرق العربى
ويهيىء المنطقة للاستعمار الغربى

- محمد على والاتجاه الإسلامى فى الجزيرة العربية .
- محمد على والقوى الإسلامية فى الخليج العربى .
- محمد على والاتجاه الإسلامى فى الشام .
- محمد على يفتح الطريق لفرنسا لاحتلال الجزائر .
- نتائج سياسة محمد على فى عدن وجنوب الجزيرة العربية .

إذا كان اتفاق " محمد على " مع البريطانيين قد أسهم في إزالة القلق الذى كان يحيط به تجاه الأوضاع الخارجية فإنه إلى جانب ذلك قد أكد النية العدائية له تجاه الدولة العثمانية، حيث تضمن تقرير فريزر طلبه للحماية من أى هجوم خارجى سواء من الفرنسيين أم من الأتراك .

ولم تكن هذه هى الإشارة الأولى التى توضح موقف "محمد على" العدائى للسلطان العثمانى بل سبقت الإشارة إلى رفضه تنفيذ فرمان الذى أصدره السلطان بتعيينه والياً على جدة حين اختلف مع والى مصر " خورشيد باشا "، هذا بخلاف دوره فى التآمر على ولاية السلطان " خسرو باشا " و " أحمد باشا " ثم " خورشيد باشا " لتهينة الولاية لنفسه .

وكان " محمد على " - تساعده بريطانيا - قد وجد غطاء لدوره فى مهاجمة القوة الإسلامية فى الجزيرة العربية وهو ما ادّعاها أنه ينفذ أوامر السلطان العثمانى منتهزاً فرصة الخلاف بين الدولة العثمانية والدولة السعودية الذى كان من الممكن أن ينهى دوره بدخول الحجاز فقط، لو افترضنا أن لذلك الدور ضرورة، لكنه لم يستطع أن يجد أى غطاء لدوره فى ضرب القوى الإسلامية الأخرى فى الشام ومصر والخلافة نفسها، فبدأ فى صورة المعادى لدولة الخلافة بعد أن اتكشفت أطماعه .

ولما كان الدين الإسلامى يمثل أهم مقومات الترابط والصمود لشعوب المنطقة ويشكل أهم ملامح هويتها، فإن دور محمد على بهذا يتمثل فى تنفيذ السياسة المعادية للمنطقة ببعدها الماسونى الصليبي الاستعمارى والتى نتج عنها تحطيم هويتها وبالتالي تهينتها لسيطرة الاستعمار الغربى، فسيطر الفرنسيون على الجزائر ثم تونس فى نفس الوقت الذى وجه فيه قوته إلى الشام والدولة العثمانية، كما سيطر الإنجليز على مداخل البحر الأحمر، وبالاتفاق أو التنسيق استولوا على كثير من مناطق الخليج العربى والتى ظلت مستعصية عليهم قبل أن يهاجم هو الجزيرة العربية. ثم أسهمت سياسته فى النهاية لتسليم مصر للاستعمار البريطانى تلك السياسة التى يصفها البعض من أصحاب المنظور المادى والعلمانى بالنهضة والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة، ولكن لكونها لم تقم على أكتاف أهل البلاد أو لتحقيق مصالحهم سرعان ما كانت سبباً فى وقوعهم تحت الاحتلال .

محمد علي وضرب الاتجاه الإسلامي في الجزيرة العربية :

سبقت الإشارة إلى أن الخلاف الذي قام بين الدولة السعودية والدولة العثمانية لم يصل إلى حد العداء الذي يستوجب إعلان الحرب، فلم يطلب أتباع الدعوة للسلفية الخلافة أو حتى يبدو اعتراضهم على التبعية لها . ولكن الخلاف قد اتحصر في أمرين أساسيين الأول هو مطالبة السلفيين بضرورة التزام وفود الحج بمنهج الإسلام والإقلاع عن كل ما فيه خروج عليه من وجهة نظرهم، والأمر الثاني هو شعور الدولة العثمانية بالحرَج والضعف أمام سيطرة السلفيين على المدن المقدسة في الحجاز حيث أدركوا أن في ذلك إسقاط لهيبتهم ولمكانتهم السياسية .

وتؤكد رسالة سعود بن عبد العزيز إلى السلطان سليم الثالث فور دخوله مكة المكرمة حرص أتباع هذه الدعوة على الولاء لدولة الخلافة — كما سبقت الإشارة — وأن الخلاف هو فيما رأوه من خروج محمل الحج الوافد من دمشق والقاهرة في رأي أتباع الدعوة على مبادئ الشريعة الإسلامية (١).

ويشير الجبرتي إلى ما ينفي شعور العداء بين الجانبين في ذكر في أخبار يوم ٩ رجب ١٢٢١هـ ٢٢ سبتمبر ١٨٠٦م، أن مندوب السلطان كتخدا القبودان حين وصل ومعه مرسوم استمرار محمد علي واليا علي مصر ذكر أن السلطان طلب منه " طلوع الحج ولوازم الحرمين الشريفين ووصول العلاف إلى أربابها على النسق القديم " (٢) . وقد أرسل السلطان مندوباً آخر في الشهر التالي ليؤكد نفس المطالب . وأشار في نفس الوقت إلى موقف الدعاة السلفيين من وفود الحج حيث ذكر مطالبهم من " عبد الله باشا " أمير الحج الشامي في محرم سنة ١٢٢٢هـ ٩ إبريل ١٨٠٧م، ألا يأتوا إلا على الشرط الذي اشترطوه عليهم وهو " أن يأتى بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مخالفاً للشرع. فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حج ولم يتركوا مناكيرهم " (٣) . كما ذكر موقفاً مماثلاً من موكب الحج المصري (٤) .

واقصر مرسوم السلطان العثماني القاضي بطلب الحرب مع السعوديين من محمد علي، وبدافع من رسائل شريف جدة وكذلك بوحي وتشجيع من الإنجليز، على " استخلاص الحرمين والوصية بالرعية والتجار " (٥). وتكرر نفس الطلب بعد ذلك مجدداً الاقتصار على تخليص الحرمين الشريفين . وفي أعقاب نجاح

القوات العسكرية فى الاستيلاء على بلاد الحجاز، بعد أن هزمت وأخفقت عدة مرات أمام الدعاة السلفيين، أرسل السلطان محمود الثانى مرسوماً إلى مصر يقرأ فى المساجد باستعادته للحرمين الشريفين (٦)، وهو أمر يوحى بأن السلطان العثمانى ليس له هدف آخر سوى عودة الحجاز للسيادة العثمانية . وكان من الممكن أن تنتهى هذه الحرب إلى هذا الحد فقد سيطرت قوات " محمد على " على مدن الحجاز، وعيّن " محمد على " شريفاً جديداً على الحجاز التى اضطر للسفر إليها وقام بطرد " الشريف غالب " الذى ساند قواته وساعدها على دخول الحجاز (٧)، كما أن قادة الدعوة السلفية السعوديين قد عرضوا عليه الصلح، لكن " محمد على " وضع شروطاً صعبة التحقيق لقبول الصلح، وكذلك ضمن رده على طلب الصلح تهديداً يرويه الجبرتى فيقول : "وأما الصلح فلا ناباه بشروط وهو أن يدفع لنا كل ما صرفناه على العساكر من أول ابتداء الحرب إلى وقت تاريخه، وأن يأتى بكل ما أخذه واستلمه من الجواهر والذخائر التى كانت بالحجرة الشريفة، وكذلك ثمن ما استهلك منها وأن يأتى بعد ذلك ويتلاقى معى وأتعاهد معه ويتم صلحنا بعد ذلك وإن أبى ذلك ولم يأت .. فنحن ذاهبون إليه " (٧) .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحرب لم تكن بين قوات يدين طرفاها بالإسلام، كما لم تكن حرباً عربية عربية كما يحاول البعض أن يصفها (٨)، بل إن هذه الحرب كانت بين قوة إسلامية ليست لها أية أطماع سياسية ولكنها أبدت غيرة وحرصاً على العودة إلى المبادئ الأساسية للدين الإسلامى وهى القوة السعودية، كما أبدت حماساً شديداً فى دفع خطر المستعمرين " الكفار " عن الديار الإسلامية، أما القوة التى حاربتها والمرسلة من قبل والى مصر — والتى لم تكن مصرية بأى صورة من الصور — فأغلبها من الأرناؤود وبعض الأتراك والنصارى (٩)، وبعض الضباط الفرنسيين (١٠). ولا يحمل أغلب قادتها من الإسلام سوى الاسم، ويصور الجبرتى طبيعة هذه القوة من خلال تعليق من وصفه بالصلاح والورع — وهو شاهد عيان — على هزيمة هذه القوات فى البداية أمام أتباع الدعوة السلفية فيقول : " أين لنا النصر .. وأكثر عساكرنا على غير الملة !، وفيهم من لا يتدين بدين، ولا ينتحل مذهباً، وصحبتنا صنابق المسكرات ولا يسمع فى عرضينا أذان ولا تقام به فريضة، لا يخطر فى بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين . والقوم (يقصد السلفيون) إذا دخل الوقت أنن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع و خضوع . وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائم، أذن المؤذن وصلوا

صلاة الخوف فتتقدم طائفة الحرب وتتأخر الأخرى للصلاة ... وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته . وينادون في معسكرهم هلموا إلى حرب المشركين، المحلقين للذقون المستبشرين الزنا واللواط الشاربين الخمر، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غلغا غير مختونين، ولما وصلوا بدرا واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف وبها خيار الناس وبها أهل العلم الصلحاء نهبوهم وأخذوا " نساؤهم " وبناتهم وأولادهم وكتبهم " (١١) .

وإذا كان محمد على قد وجد غطاء لهذه المرحلة من الحرب ضد هذه القوة الإسلامية والتي انتهت باستيلائه على الحجاز وهو الغطاء العثماني، فإن إعلان السلطان العثماني لاكتفائه بعودة الحرمين الشريفين، إلى جاتب طلب السلفيين للصالح وفرضه لشروط لا يستطيع السعوديون الوفاء بها ثم يلحقها بتهديد واضح، كلا العاملين قد أسهما في توضيح طبيعة الدور الذي كان يقوم به محمد على، فمهاجمة الدرعية لم تكن مطلبا ملحا أو ضروريا للدولة العثمانية، بلى إن ظهوره بمظهر المطيع لأوامر السلطان العثماني في المرحلة الأولى من الحوب كان ستارا لحقيقة أهدافه بعد أن أكد من قبل عدم حرصه على هذه الطاعة . ومن هنا فإن الهدف الحقيقي من هذه الحرب في كل مراحلها كان لخدمة أطماعه التوسعية في إطار تسمح به أهداف السياسة البريطانية في المنطقة، بعد أن أصبحت الدولة السعودية تشكل خطرا بالغا على الوجود البريطاني في المنطقة بأسرها سواء في البحر الأحمر أم في الخليج العربي أم في وصولها إلى الطريق البري عبر العراق، وأصبحت بريطانيا تحس بتهديد حقيقي لمصالحها في الشرق . ولهذا فإن وصف هذه الحملة بأنها حملة استعمارية تحت غطاء إسلامي يعد وصفا حقيقيا (١٢) .

وإذا كان العثمانيون قد أثاروا غضب وعداء الدولة السعودية بقتلهم للأمير " عبد الله بن سعود " الذي أسره "محمد على" وأرسله إلى السلطان إلا أن ذلك لم يسهم في ظهور أي نبرة قومية تثير الروح العربية وتبدى الكره للترك لدى السعوديين الذين ظلوا على تمسكهم بالإسلام، واتحصر الأثر لهذه الواقعة وغيرها في الإطار السياسي .

ولهذا فإنه ليس من الموضوعية القول بأن الدعوة السلفية قد أثارت مشاعر العرب القومية ضد السيطرة التركية أو أنها كانت تعبيرا عنها، أو أنها أسهمت في إظهار الفكرة العربية القومية، فالدعوة السلفية دعوة إسلامية في كل مبادئها سعت

للإنتصار لهذه المبادئ فى كافة مراحل تطورها سواء فى توجيهها نحو الشرق فى الخليج أم فى الاتجاه إلى البحر الأحمر حيث كانوا فى كل هذه المراحل دعاة ولم يكونوا محاربين أو غزاه، بل إن حربها ضد أطماع " محمد على " كانت جهادا - بالبعد الإسلامى - أمام الأطماع الشخصية والتوجهات القومية التى حاول الاستعمار أن يفرضها سعيًا لتفتيت الدولة الإسلامية الواحدة، ومحاولة لتكوين وإرساء دعائم قوة إسلامية تسهم فى تجديد وإحياء دولة الخلافة العثمانية فى محاولة للتصدى للهجمة الصليبية الاستعمارية التى كان " محمد على " من أهم أعوانها وكان دوره من أهم وسائلها .

كما أن هذه القوة الإسلامية الجديدة لم تكن تمثل تجمعًا قبليًا، فهناك من ناصرها إيمانًا بمبادئها وهناك من لم يؤمن بهذه المبادئ، بل ناصبها العداء سواء من الدرعية أو من العيينة فى نجد وبنو خالد فى الإحساء وغير ذلك . كما أن أتباعها حين اتجهوا إلى الحجاز آمن بمبادئ دعوتهم الكثير من وفود الحجيج الذين يمثلون انتماءات متعددة من الشعوب الإسلامية، وانضم الكثير منهم إلى صفوف الجهاد فيها، ولهذا فهى دعوة إسلامية سواء فى مبادئها أم فى أتباعها وكذلك فى زعامتها وفى دورها التاريخى .

محمد على والقوى الإسلامية فى الخليج

الطابع الإسلامى للقوى السياسية على ساحل الخليج العربى

يرجع كثير من المؤرخين من أصحاب المنظور القومى قيام الوحدات السياسية فى الخليج العربى إلى كونها تجمعات عشائرية وقبلية (١٣)، وينطوى هذا المنظور على إغفال - متعمد - لدور العامل الدينى فى نشأة هذه الكيانات، وكذلك فى استمرارها حتى استقرارها فى النهاية .

ومع التسليم بأن التجمعات العشائرية أو القبلية قد ظهرت على السطح لهذه القوى، ولعبت دورًا واضحًا فى مراحل التكوين والاستقرار وما تخللها من أحداث سياسية وهو ما يركز عليه المؤرخون القوميون، إلا أن ما أحاط هذه العشائر أو القبائل من قوى وتجمعات من عناصر إسلامية مختلفة والتى كانت تمثل النسبة الأكبر، إلى جانب طبيعة الأهداف والدوافع التى استوجبت تكون هذه التجمعات، يدعو إلى التأكيد بأنها تجمعات أو كيانات إسلامية أكثر من كونها تجمعات أو كيانات أو قوى ذات بعد قومى أو عرقى، وبالتالي يصبح من غير الموضوعية

حصرها في إطار قومي محدود حتى ولو كانت الظروف السياسية اللاحقة قد أسهمت في ظهورها أو في استمرارها في هذا الإطار .

وتؤكد الدوافع الحقيقية التي ساعدت على تكوين هذه القوى صحة ما نرمى إليه من رجوح العامل الديني على غيره من العوامل، ولعل أهم هذه الدوافع هو الجهاد ضد التدخل الأوروبي في الخليج بعد تعرض الدولة العثمانية لعوامل الضعف الذي جعلها غير قادرة على القيام بمواصلة مقاومة هذا التدخل، أو ربما جعلها تغيب عن الساحة الخليجية إلى ساحات أخرى استبجبت المزيد من الاهتمام، وقد أسهم هذا الغياب العثماني في بروز قوى محلية تتولى مهمة الجهاد كاليعاربة والبوسعيديون والقواسم وغيرهم (١٤) .

كما أن هناك عامل آخر قد أسهم في استقطاب هذه القوى والكيانات إلى ساحل الخليج وهو العامل الاقتصادي الذي يرجع إلى عوامل جغرافية داخل الجزيرة العربية كالجفاف وضعف الموارد الاقتصادية في هذه المنطقة الصحراوية، أو توفر أنشطة أكثر كسبا على ساحل الخليج كصيد الأسماك واللؤلؤ وغير ذلك، ومما لا شك فيه أن كلا العاملين، الجهاد أو العامل الاقتصادي، لا يفرض وجود تجمع قبلي بل تجمع إسلامي، وإذا كان ذلك يبدو جليا في عامل الجهاد فإنه لا ينفق في العامل الاقتصادي حيث أن السعي لتأمين المصالح الاقتصادية أو الدفاع عنها درب من دروب الجهاد كجزء من الدفاع عن الدين والوطن . ولا يقتصر الأمر في كون هذه التجمعات أو الكيانات إسلامية وليست قبلية أو عشائرية على الدوافع التي كانت وراء تكوينها فقط بل يتضح هذا البعد في مراحل وجودها وتكوينها منذ البداية كذلك فتعود بداية تكوين أقدم هذه القوى وهي قوة اليعاربة في عمان إلى أتباع المذهب الأباضي حيث استقطبت هذه المنطقة بطبيعتها الجغرافية جموعا من أتباع هذا المذهب الذين وفدوا إليها منذ القرن الأول الهجري وبعده حيث وجدوا فيها ملاذا بعيدا عن متابعة الحكومات المركزية في دمشق ثم بغداد خلال مرحلتى الدولة الأموية والدولة العباسية وما بعد ذلك، وتحصن هؤلاء بطبيعة المكان الذي تفصله صحراء الربع الخالي وسواحل البحر الذي يمكن ارتياده إذا ما ولجها هجوما، وبالتالي فإن أساس تواجدهم يرجع إلى عوامل دينية لا إلى عوامل قومية عرقية.

وتخللت فترة وجود الأباضيين في عمان فترات محدودة قاموا فيها بحكم أنفسهم كنتيجة للاضطرابات أو الانقسامات التي كانت تتعرض لها الحكومة

المركزية أو بسبب ضعف قبضتها على كافة مناطق الدولة الإسلامية ولكن دون إعلان أو حتى ميول للانفصال عن الدولة الإسلامية المركزية .

وكان النظام السياسى الذى التزم به الأباضيون فى حكمهم لأنفسهم يركز على أساس دينى مذهبى لا على أساس قبلى عرقى بالطبع، فكان من يختارونه لقيادتهم هو إمام تتوفر فيه شروط الفضيلة والنقوى، ولهم الحق فى عزلة أو الثورة عليه إذا ما افتقد هذه الشروط أو بعضها، وهذا غير جائز أو معمول به فى النظام القبلى، كما أنهم لم يكونوا يشترطوا وجود الإمام بل يمكن الاستغناء عنه إذا ما كانت الظروف غير ملائمة وهى التى يطلقون عليها فترات "الكتمان"، كما كان الخروج من ظروف "الكتمان" إلى مرحلة "الظهور" أمر كان يقرره المشايخ والقضاة فى اجتماع سرى بينهم (١٥) .

ويعد قيام قوة اليعاربة إحدى مراحل "الظهور" لاتباع المذهب الأباضى فى عمان، فكما يشير المؤرخ العماني "السالمى" أن علماء الدين قد اتفقت كلمتهم على "أن ينصبوا لهم إماما يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فوَقعت خيرتهم على "ناصر بن مرشد" فرضى به الجميع وعقدوا عليه الإمامة بالرساق (١٦) .

وكان أول عمل يقوم به الإمام "ناصر بن مرشد" سنة ١٠٣١هـ - ١٠٥٦هـ - ١٦٢٤ - ١٦٤٩م، وهو أول حكام اليعاربة، وبعد توحيدة المنطقة، هو العمل على تطهير منطقة عمان من البرتغاليين أو الإيرانيين الذين كانوا يحاولون أن يحلوا محل البرتغاليين فى الخليج . ونجح الشيخ ناصر، وخليفته "الشيخ سلطان بن سيف" سنة ١٠٥٦ - ١٠٥٧هـ - ١٦٤٩ - ١٦٦٨م، فى طرد البرتغاليين من الخليج وتعبهم إلى سواحل الهند وسواحل شرق إفريقيا (١٧)، واستطاع أنمة عمان أن يمهّدوا للسيطرة الإسلامية على بعض مناطق شرق إفريقيا كانت مملوكة للبرتغاليين .

وسارت أسرة البوسعيد - بعد اليعاربة - على نفس النهج فى البناء السياسى وتولت دور الجهاد ضد القوى الأوروبية فى الخليج . وإذا كانت الصراعات والمنافسات حول الإمامة وغنائم التوسع قد تسببت فى أن يدب الضعف فى هذه القوى وبالتالي وجدت التدخلات والمنافسات الاستعمارية سيبلها إلى المنطقة فإن هذا لا ينفى البعد الإسلامى لهذه القوى سواء من حيث التكوين الأساسى أو من حيث الدوافع الحقيقية لهذا التكوين فى البداية على الأقل .

وبقدر ما كان الجهاد ضد البرتغاليين، وبسبب الفراغ العثماني، يعد الدافع الأساسي في ظهور البعارة والبوسعيديين في عمان فإن الجهاد ضد الإنجليز، ومن ينافسهم من الدول الأوروبية في التدخل في الخليج، كان الدافع الأساسي لظهور القواسم في رأس الخيمة .

وينسب المؤرخون القوميون أصل القواسم إلى شيخهم " قاسم " الذي كان ينصب لنفسه خيمة عند " جلفار " كانت تراها السفن المارة في الخليج وهو سبب تسميتهم للمكان برأس الخيمة . إلا أن الباحثين لم يحددوا بدقة أصل القواسم هل هم من عرب الشمال الذين هاجروا من نجد كما ذهب " المستر فرانسيس واردن " ؟، أم هم من عرب الهولة (Hawala) الذين يقطنون الساحل الشرقي للخليج كما رأى المؤرخ الإنجليزي (بادجر Badger) ؟، أم أنهم قادمون من العراق كما ورد عند كيلي (Kelly) ؟ .

والحقيقة أن الباحثين الأوروبيين هم الذين يعنون بربط القواسم وغيرهم من القوى التي تجمعت حول شاطئ الخليج بجنود عربية قبلية عرقية، فضلاً عن أنهم قد اعتبروا مقاومة هذه القوى للوجود الأوروبي نوعاً من أنواع القرصنة في حين أن تجمع القواسم، وغيرهم من القوى على شاطئ الخليج (١٨)، لم يكن له من دافع سوى الجهاد ضد الأجانب في المقام الأول، ثم العامل الاقتصادي الذي يعد نوعاً من أنواع الجهاد في المقام الثاني كما سبقت الإشارة .

فقد كان أول عمل قام به القواسم بعد توطيد وجودهم في أواخر القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلادي هو شن الهجمات على السفن الإنجليزية ومنافستهم في التجارة لدرجة جعلت الإنجليز يتهاون لاستخدام القوة ضدهم . ويفسر المؤرخون الأوروبيون موقف القواسم من الإنجليز باتهامهم بالقرصنة والقيام بأعمال السلب والنهب، وإذا كان بعض المؤرخين أو كتاب التاريخ العرب قد تبعوهم في هذا فإن ذلك قد أدى إلى تساؤل البعض بتعجب : هل كان على القواسم كي يتجنبوا هذه الاتهامات أن يقفوا مكتوفين ويباركوا التدخل الاستعماري في بلادهم ؟ وهل يعد دورهم في الدفاع عن أراضيهم ومصالحهم قرصنة أم هو الجهاد بعينه ؟ وإذا جاز للمؤرخ الأوروبي أن يتهم القواسم بالقرصنة فهل يجوز اتباعهم دون وعي أو تمحيص ؟ (١٩) .

وكان القواسم قد سلكوا أسلوب المقاومة الذي وصف القرصنة في مرحلة استقرارهم في ساحل عمان في النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري

الثامن عشر الميلادي، وكذلك فى الفترة اللاحقة لإعلانهم الاستقلال ١١٥٤هـ-١٧٤١م، على أثر سقوط دولة اليعاربة والذي اعترف لهم به " أحمد بن سعيد " مؤسس دولة البوسعيد، واتخذوا من رأس الخيمة قاعدة لهم من ١١٧٩هـ-١٧٦٥م، فى عهد زعيمهم رحمة بن مطر القاسمى (٢٠) .

وخلال هذه المرحلة تجنب القواسم - مضطرين - الاعتداء على السفن البريطانية باستثناء بعض الحوادث المحدودة التى حدثت عام ١٢٩٢هـ - ١٧٩٧م، والعام التالى، وقدم عنهما زعيم القواسم " الشيخ صقر " اعتذارا للمقيم البريطانى فى البصرة . إلا أن تحول عمليات القواسم من مجرد جهاد غير منظم إلى جهاد على ومنظم، وضد الإنجليز بالذات، قد جاء فى أعقاب دخول مجاهدى الدعوة السلفية إلى الأراضى العمانية عام ١٢١٤هـ - ١٧٩٩م، وارتباط القواسم بمبادئ الدعوة السلفية . فقد تعرضت السفن البريطانية للعديد من عمليات الجهاد خلال عامى ١٢١٩هـ - ١٢٢٠هـ (١٨٠٤-١٨٠٥م) مما أدى إلى قيام بريطانيا بعملية عسكرية ضدهم فى نهاية عم ١٢٢٠هـ - ١٨٠٦م، أسفرت عن عقد اتفاقية بينهما. ومع أن الإنجليز قد تحاشوا الدخول فى صراع حربى مع قوات الدعوة السلفية إلا أن ضربهم للقواسم كان بمثابة تجاهل لارتباط القواسم بالدرعية، لذلك اتبع دعاة الدرعية نفس الأسلوب تجاه الإنجليز وهو عدم الإعلان عن عداء مباشر معهم ولكن فى نفس الوقت واصلوا مساعدة القواسم لاستعادة قوتهم بالشكل الذى مكنهم من العودة إلى النشاط المعادى للإنجليز عام ١٢٢٣هـ - ١٨٠٩م، والذي وصل إلى حد مطالبتهم لحكومة إنجلترا فى بمباى بضرورة دفع رسوم لرأس الخيمة إذا أرادت إنجلترا مزاولة حرية التجارة فى الخليج وهو الطلب الذى قبلته حكومة بمباى مؤقتا، ثم قامت بحملة عسكرية فى العام التالى ١٢٢٤هـ - ١٨٠٩م، بتأييد من حاكم مسقط حطمت خلالها ميناء رأس الخيمة وهاجمت ميناء شيناص السعودى على الرغم من الحرص على عدم التورط فى صدام مع السلفيين .

وإذا كان الإنجليز قد استغلوا الخلاف بين القوى الخليجية فنبغى الإشارة إلى أن خلاف أتباع الدعوة السلفية مع حكومة مسقط كان خلافا دينيا قائما على عدم تقبل السلفيين لمبادئ المذهب الأباضى، فيذكر أحد الرحالة الإنجليز وهو " جيمس مودير " ما جاء فى رسالة " الأمير سعود " إلى حاكم بمباى " أن سبب الخصومات المتواصلة بينى وبين من يدعون أنفسهم مسلمون هو زيغهم عن كتاب الله ورفضهم الامتنال لتبليهم محمد صلى الله عليه وسلم (٢١) .

وهناك تجمع آخر وهو تجمع " بنى ياس " الذى نزل فى جزيرة الظباء التى عرفت بأبى ظبى وافدا من ساحل عمان، كما أدى وجود الماء فى الجزيرة إلى توافد العديد من العشائر من الأماكن المجاورة . وكذلك فإن التجمعات الأخرى على ساحل الخليج " كآل نعيم " الذين وفدوا من الشام واستقروا فى " عجمان " وأم القوين " وغيرها اختلطوا ببعض سكانها من البوشاش والسودان والبومهير، كما اختلطوا بقبائل وفدت من صوب اليمن، كل ذلك يشير إلى أنهم لم يكونوا يمثلون تجمعا قبليا أو عرقيا . وكان أول عمل قام به " الشيخ عبد الله بن أحمد بن راشد " حاكم " أم القوين " هو إقامة سد لمنع السفن الإنجليزية من دخول موطنهم، وظل هذا السد قائما حتى هدمه الإنجليز فى حملتهم سنة ١٢٣٤هـ - ١٨١٩م (٢٢) .

أما جماعات " بنى خالد " التى تعد من أبرز الجماعات التى ظهرت فى الإحساء فى القرنين ١١، ١٢هـ - ١٧، ١٨م، فمع أنها كانت تجمعات قبلية فى الغالب إلا أن نزوحها إلى الإحساء كان نتيجة لضعف القوة العثمانية فى الخليج، ومع أنهم قد تولوا حكم المنطقة ومقاومة الأطماع الأجنبية حولها إلا أنهم حافظوا على الارتباط بالسيادة العثمانية التى ترجع فى المقام الأول إلى الرابطة الدينية (٢٣) .

وإلى جانب دور العامل الدينى فى نزوح " بنى خالد " إلى الإحساء وكذلك أثره فى الانضواء تحت السيادة العثمانية لعب هذا العامل دورا رئيسيا فى علاقتهم مع القوى التى برزت داخل الجزيرة العربية، فكان التقارب بينهم وبين شيخ العيينة " عثمان بن معمر " يرجع إلى انصياعه لمطالبهم فى طرد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكانت خصومتهم مع آل سعود فى الدرعية ترجع إلى احتضانهم - أى آل سعود - لدعوة الشيخ ومناصرتها، وكان هذا العامل المتمثل فى معارضتهم للدعوة السلفية هو السبب فى انحسار نفوذهم ليحل محلهم أتباع الدعوة السلفية فى مساعيهم لتوحيد المنطقة .

وكانت التجمعات القبلية التى اتجهت إلى الكويت وقطر والبحرين من داخل الجزيرة العربية قد اندفعت إلى هذه الأماكن لغياب العثمانيين ولعوامل جغرافية داخل الجزيرة أو لعوامل اقتصادية، وظلت تحافظ على توجهها الإسلامى سواء فى المشاركة فى مقاومة التدخل الأجنبى فى البداية أو الاقتراب من الدولة العثمانية (٢٤) . كما أن ارتباط مصالحهم الاقتصادية بالعراق قد دعاهم لطلب انضمامهم للوالى العثمانى فى البصرة سنة ١١٣١هـ - ١٧١٨م، وصارت الكويت تابعة تبعية

إسمية للبصرة، وكذلك " بنو خالد " فى الإحساء، وإمام عمان وشيوخ البحرين (٢٥) . ولذلك فإن العامل الدينى لم يكن مجرد عنصر أو مقوم من مقومات التكوين القومى لهذه القوى بل كان الإطار الأساسى الذى انصبت فيه بقية مقومات هذا التكوين . على أن هذا الأمر كان قاصرا على الفترة الأولى لظهور هذه القوى وانصهارها فى إطار الجهاد، ثم عاد العامل الاقتصادى ليلعب الدور الأساسى فى تشكيلها كقوى سياسية بعد أن تلاقت مصالح القوى الاستعمارية مع توجهات أصحاب المصالح فى هذه الكيانات الأمر الذى أسفر عن عقد الاتفاقيات التى حددت أبعاد هذه القوى ومستقبلها فى تشكيلها السياسى وكذلك فى إطارها القومى المحلى الذى جاء نتيجة لذلك بعيدا عن بعضها البعض أو عن ارتباطها بالدولة العثمانية ذات السيادة الشرعية .

موقف محمد على من القوى الإسلامية فى الخليج :

سبقت الإشارة إلى التنسيق بين دور محمد على فى الجزيرة العربية ضد الدعوة السلفية وبين الدور الإنجليزى فى الخليج وهو ما أكدته التقارير والرسائل المتبادلة بين الجانبين فى أعقاب سقوط الدرعية فى أواخر سنة ١٢٣٣هـ - ١٨١٨م، وسقوط رأس الخيمة فى أوائل سنة ١٢٣٤هـ - ١٨١٩م. وكان بعض القادة الإنجليز يفكرون فى دعوة إبراهيم باشا لعمل مشترك ضد القواسم فى رأس الخيمة، إلا أن هذه الفكرة قد رفضت لعدم رغبة الإنجليز فى إخضاع ساحل الخليج أو جزء منه لقوات تابعة لحاكم مصر (٢٦) . فيذكر "لوريمر" أن " سادلر" كلف بالاتفاق مع إبراهيم باشا على أن يشن هجوما برياً على رأس الخيمة فى حين تقوم القوات البريطانية بمهاجمتها من البحر (٢٧) ولم يكن بوسع الإنجليز أن يوقعوا معاهدة يملوا فيها شروطهم على أمراء رأس الخيمة وغيرها إلا بعد أن فقدوا - أى القواسم - مساندة السلفيين وهو الدور الذى كان نتيجة لدور والى مصر (٢٨) . وأدرك الإنجليز جدوى سياستهم فى اتصياح محمد على لتحذيراتهم المتعددة ألا تكون له أطماع فى الخليج، فقد ذكر " كيلى" أنه طلب من " سادلر" أن يؤكد لإبراهيم باشا أن بريطانيا لن تقدم له مساعدات ضد السعوديين إلا إذا احترام حقوق دويلات الخليج (٢٩) . كما أن الدولة العثمانية حين أدركت بعد ذلك طبيعة دور " محمد على" ومخططه الرامى إلى تقويض الوجود العثمانى فى المشرق العربى سعت من خلال سلطاتها فى العراق لاستقطاب القبائل فى نجد وسط الجزيرة العربية وإثارة القلاقل أمام جيش محمد على، وحدث تقارب عثمانى قام به على

رضا باشا مع الأمير السعودي فيصل بن تركي وغيره من أمراء ومشايخ شبه الجزيرة للتصدي لأطماع محمد علي وطبيعة دوره (٣٠).

وعلى أية حال فقد أسهم انسحاب قوات " محمد علي " إلى ترك الميدان لبريطانيا لتبسط نفوذها على إمارات الخليج، واتبعت سياسة تقسيم هذه المنطقة إلى ولايات ومراكز وإمارات صغيرة، وفرضت عليها معاهدة السلم العامة في ربيع أول ١٢٤٥هـ - ٨ يناير ١٨٢٠م، وكانت جزءا من مخطط إنجليزى يرمى إلى تفتيت وحدة الدولة العثمانية (٣١)، وفى نفس الوقت الوقوف أمام قيام قوة جديدة وبخاصة إذا كانت ذات طابع إسلامى أو حتى ذات طابع إقليمي كقوة محمد علي.

على أن ما حدث فى أعقاب انسحاب قوات " محمد علي " لم يكن فى حسبانته أو فى حسبان حلفائه البريطانيين حيث تمكن أتباع الدعوة السلفية بزعامة الإمام " تركى بن عبد الله " من استعادة السيطرة على نجد والإحساء ولم يفت فى عضد البيت السعودي ما حدث من خلاف أدى إلى مقتل " الإمام تركى " على يد ابن أخته " مشارى بن عبد الرحمن " إذ سرعان ما استعاد ابنه الإمام " فيصل بن تركى " زمام الأمور وانتقم لمقتل أبيه (٣٢).

ولم يكن فى استطاعة الإنجليز القيام بعمل عسكري داخل الجزيرة ضد السلفيين، كما أنهم كانوا يدركون عدم جدوى أية محاولة للاتصال بهم، وفى نفس الوقت كان من الصعب عليهم أن يستكملوا مخططهم فى تحقيق السيطرة والنفوذ أو استمرارهم فى الخليج إذا لم يتنبهوا لتنامي دور السلفيين فى المنطقة .

كما كان محمد علي قد فتح جبهة نجد والخليج فى نفس الوقت، ولهذا لعب الإنجليز دورا واضحا فى توقيع صلح " كوناية " سنة ١٢٤٨هـ - ١٨٣٣م، بينه وبين الدولة العثمانية فى الشام لكى يعاود دوره فى الجزيرة والخليج .

ولم تكن حملة محمد علي التالية على أتباع الدعوة السلفية تنعم بقناع زائف كسابقتها وهو الدفاع عن المقدسات باسم دولة الخلافة حيث كان الحجاز تابعا له، كما أن الدولة العثمانية نفسها كانت قد تقربت من السلفيين وكافة القوى فى الخليج والجزيرة ضد دور محمد علي بعد أن تكشف لها أبعاد ذلك الدور، فلتصلت بقبائل عسير لإثارتهم ضد الخطوط الخلفية لقوات محمد علي، وقد وصل نبا هذه الاتصالات إلى خورشيد قائد هذه القوات (٣٣) .

إلا أن ما وصلت إليه قوات محمد علي من قوة وما حققته من تدريب فى ميادين كثيرة قد جعله يوازن بين أطماعه الشخصية فى توسيع الأراضى التى

بحكمها وأطماع الإنجليز وهو الأمر الذى أدى إلى وجود حذر شديد لدى الساسة الإنجليز تجاه تحركاته مع الاستفادة منها قدر الإمكان، ولهذا لم يشكل الإنجليز أى عائق لوصول قوات محمد على إلى ساحل الخليج (٣٤)، ولكن فى نفس الوقت تلقى " بالمرستون " وزير خارجية بريطانيا العديد من التقارير من القاهرة وبغداد والخليج لمتابعة تحركات قوات محمد على للوقوف على نوايا الحقيقة بعد أن علم بإمكانية تقدم قواته بين الشام والخليج لدخول العراق والحلول مكان العثمانيين مما يجعل الوجود البريطانى فى المنطقة ومصالحها الهندية فى قبضة محمد على .

ولهذا أرسل " بالمرستون " إلى " كامبل " القنصل العام البريطانى فى القاهرة فى ١٢٥٣هـ ٨ ديسمبر ١٨٣٨م، وطالبه بأن يبلغ محمد على، بنوع من الصداقة، أن الحكومة البريطانية ستأسف لرؤية أية خطوات من جانبه تشير إلى وجود نية لديه لمد سلطته صوب بغداد، ثم عاد وطلب من كامبل مخاطبته بلهجة أشد على أثر تلقيه لتقرير آخر وإبلاغه بأن الحكومة البريطانية لا يمكنها أن تغض الطرف عن تنفيذ مثل هذه النوايا، وأبلغ محمد على " كامبل " مطمئنا بأنه لا يفكر فى مد سلطته نحو منطقة الخليج (٣٥)، فلصالح من كانت جهوده اللاحقة فى الخليج ؟.

وحين شرع قائد قوات محمد على فى الخليج وهو " خورشيد " فى السيطرة على البحرين طلب من أخيه عباس، الذى كان محل أبيه محمد على فى الحكم لوجوده - أى محمد على - فى السودان، أن يرسل إليه سفينتين حربيتين حيث كان يصعب نقل المون العسكرية عن طريق داخل الجزيرة، أو البصرة والكويت، ووافق " عباس " مبدئيا، ثم عاد وعدل عن موافقته بسبب رفض الإنجليز لإرسال سفن من جدة إلى الخليج وطلب منه " خورشيد " ألا يعرض نفسه لمثل هذا الأمر (٣٦) .

وتشير الوثائق إلى أن كل مساعى محمد على تجاه البحرين كانت بغرض إبعادها عن الارتباط بالدولة العثمانية من جهة وبخاصة بعد أن أبدى شيوخها قبولا لتبعيةهم للدولة العلية الأمر الذى أثار الإنجليز (٣٧)، وكذلك السعى لإنهاء أى صفة من صفات التبعية والارتباط بين البحرين والإحساء التى كانت فى يد السلفيين، أو بشكل واضح باتباع الدعوة السلفية .

وفى أعقاب الاتفاق الذى تم بين " خورشيد " وشيخ البحرين والذى تضمن قطع الصلة بين البحرين والدولة العثمانية والسلفيين فى نجد تهياً البريطانيون للسيطرة على البحرين، فأوفد " خورشيد " مبعوثاً إلى جزيرة " خارج " التى كانت مركز تجمع القوات البريطانية وهو " محمد أفندى رفعت " الذى تولى المفاوضات مع شيوخ البحرين ووصل معهم إلى الاتفاق وذلك لإطلاع المقيم البريطانى فى الجزيرة بفحوى الاتفاق كرد على تحذير ذلك المقيم " هنيل " لخورشيد " لعدم إحاطته بأبعاد الاتفاق، وأوفد " هنيل " مبعوثاً إلى شيخ البحرين للتأكد من صحة ما أبلغه به " خورشيد " (٣٨) .

ويبدو جلياً سياسة الحذر التى كانت بريطانيا تحيط بها دور محمد على فى المنطقة، كما يبدو أن هذا الدور لم يكن بعيداً بالشكل المثير للقلق عن دائرة التنسيق مع دور بريطانيا ومصالحها، فقد رد " خورشيد " على الرسالة التى كان قد بعث بها " هنيل " إليه فى ١٢٥٤هـ - ٢٨ فبراير ١٨٣٩م، وأبلغه فيها بأن الحكومة البريطانية ستنظر بقلق إلى أى محاولة من جانبه لغزو البحرين، فذكر " خورشيد " فى رده بأنه " يأسف لتحذير " هنيل " وأنه ما كان له أن يهتم لهذه الدرجة بالبحرين طالما أنه استولى عليها باسم محمد على ولكى لا تستخدم ملجأ للموحدين " وطالما أنها كانت لا تزال تابعة لنجد ومن ثم ليس لأى دولة أخرى حق فيها - يقصد الدولة العثمانية بالطبع -، فى الوقت الذى كانت تنظر فيه السلطات البريطانية المسئولة إلى أى محاولة من جانب محمد على لامتلاك جزيرة البحرين بالقوة بمثابة إعطاء الإنجليز حق القيام باحتلالها أو مساعدة سلطان مسقط فى مشروع مماثل (٣٩) .

وعلى الفور بدأ وزير خارجية بريطانيا " بالمرستون " فى النظر فى تنفيذ الفكرة التى كانت تختمر فى ذهنه من قبل وهى غزو البحرين، بعد أن هيا له محمد على الطريق، فطلب من حكومة الهند البريطانية التعرف على موارد البحرين ليقف على ما يمكن أن يعود على بريطانيا من غزوها، وأوضحت له التقارير قيمة هذه الموارد، فقدرت قيمة لآنها بحوالى ٣٥٠ ألف ريال بالإضافة إلى النخيل وسبائك الذهب وبعض الموارد الأخرى، وقدرت الصادرات بحوالى ٨٠٠ ألف ريال سوياً، وكانت الموارد من الأرز والأقمشة والتوابل من الهند بحوالى ٦٠٠ ألف ريال سنوياً، وكان يعاد تصدير ثلاثة أرباع هذه السلع إلى جهات أخرى فى الخليج، وقدّر الإنجليز دخلهم إذا ضموا البحرين بحوالى ٣٠ ألف روبية سنوياً (٤٠) .

وبدا " هنيل " فى اتباع سياسة ترمى إلى ضم البحرين وفض اتفاقها مع محمد على بالأسلوب التفاوضى، ولكن هذه السياسة لم تجد قبولا من جانب البحرين، حيث كان قبول البحرين لحماية الإنجليز من قبل بسبب خشيتهم من جيش محمد على، ولكن بعد الاتفاق مع " خورشيد " فإن الظروف قد تغيرت، وبدأ " هنيل " يلوح بالتهديد ويطلب تمزيق الاتفاق الذى تم بين شيخ البحرين ومحمد على، وبدأ العامل الدينى واضحا فى موقف شيخ البحرين الذى أصر على رفض تهديد " هنيل " وفى رده على هذا التهديد حيث ذكره " إن كنتم تشترعون فى الحرب قوة واقتدارا فإننا سنبدل كل ما فى وسعنا فى سبيل حماية ملكنا وأهلنا وعيالنا وديننا وليحصل بعد ذلك ما يحصل"، وهذا الرد يدعو إلى عدم قبول ما ذكره " لوريمر" من أن شيخ البحرين عاد وعرض على المقيم البريطانى بإمكانية نقضه للاتفاق مع " خورشيد " إذا قدمت السلطات البريطانية وعدا صريحا بحمايته، وبأن يكون تابعا للحكومة البريطانية، وأنه رفض كتابة هذه الاقتراحات خوفا من تسربها إلى والى مصر .

وتؤكد الوثائق المصرية دور العامل الدينى فى حفاظ شيخ البحرين على اتفاقه مع محمد على، ورفضه تهديد الإنجليز فذكرت أن شيخ البحرين أبلغ مبعوث " خورشيد " الشيخ شافعى " شيخ بنى حجر شفويا : " ما دمت على قيد الحياة فأتى لا أستسلم للإنجليز وأنهم منذ ثلاثين سنة وهم يحتالون علينا وسأبدل جميع مالى وقوتى إننى فى الثماتين وقد بلغت آخر العمر فلأن نموت جميعا أولى من أن نكون رعية للكفار وأفضل شىء وأشرفه أن لا نرى ذلك اليوم (٤١) .

وأدرك الإنجليز أن محمد على قد بدأ يفكر فى الخروج عن إطار الاتفاق معهم والعمل لحسابه بعد أن حقق جيشه نجاحا كبيرا لدرجة أوحى إلى شيوخ الخليج بأن الإنجليز لن يكون بوسعهم ملاقة هذا الجيش براء، وقد بدا هذا الأمر فى الاحتجاج الذى قدمه " هنيل " لشيخ البحرين فى نهاية مباحثاته معه حيث ذكر عن الاتفاق بين البحرين و محمد على أن ذلك " خلافا محضا للقول المتأتى من جناب محمد على باشا فى جواب مطلب أمناء الدولة العلية الإنجليزية فيما أظهره لـه من عدم رضاهم بحركات " خورشيد " باشا بطوارف بنادر العرب المتصل بخليج فارس هذا ليكون معلوما " (٤٢) .

وازداد قلق الإنجليز بعد قيام " خورشيد " بإرسال مندوب عنه هو " سعد بن مطلق " إلى إمارات الساحل العمانى طلبا لارتباطهم به واتفاقهم معه على غرار ما

حدث مع شيخ البحرين، وسارع " هنيل " بتتبع دور، سعد بن مطلق " الذى حقق نجاحا فى البداية، واستخدم " هنيل " التلويح بالتهديد تارة والإسراف فى الوعود تارة أخرى مع مشايخ إمارات حتى تمكن من الاتفاق معهم على رفضهم الانضواء لنفوذ " خورشيد "، وبدأ الأمر ينذر بمواجهة محتملة بين الإنجليز وقوات محمد على فى الخليج .

وعلى الرغم من الاتفاقات التى تمت بين " هنيل " وشيوخ الساحل العماني إلا أنه لم يكن مطمئنا لإمكانية احترامها وأن توقيعتها كان من قبيل المناورة الدبلوماسية ولكن هؤلاء الشيوخ أقرب إلى التفاهم مع " خورشيد " الذى بدأ يثير العامل الدينى فى نفوسهم، وكان هذا سر نجاحه، وأن محمد على لو حققت قواته نجاحا على جبهة الشام فقد يغريه هذا على التركيز على الخليج، وبالتالي فإن النفوذ البريطاني فى الخليج قد يتعرض كلفة للخطر، وتزايد هذا الإحساس من قبل الإنجليز لاتجاه نشاط محمد على إلى واحة البريمي ثم إلى مسقط والكويت بل والعراق، وبدأ الأمر لديهم بوضوح أن المسألة أصبحت تتعلق بكامل وجودهم فى الخليج بأسره .

وكانت قوات محمد على قد حققت انتصارا على القوات العثمانية فى بلاد الشام، فبدأ الموقف أمام الإنجليز أكثر تأزما، ولم يكن بوسعهم القيام بعمل حاسم فى الخليج ضد قوات محمد على وبخاصة بعد أن تطلب موقفهم فى الصين الاستعانة بأغلب قطع أسطولهم الحزبى فى الهند فيما عرف بحرب الأفيون الأولى التى انتهت بمعاهدة " نانكنج " سنة ١٢٥٧هـ - ١٨٤٢م، كما أن استنثارهم بالنفوذ فى الخليج دون بقية الدول الأوروبية الأخرى قد استبعد فكرة الاستعانة بجهود هذه الدول فى وقف دور محمد على فيه . ولهذا لم يكن أمامهم سوى القيام بعمل أوربى جماعى على جبهة الشام، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بجيش محمد على، وعقدت اتفاقية فى الإسكندرية فى سنة ١٢٥٥هـ - نوفمبر وديسمبر ١٨٤٠م أقر فيها محمد على بالتنازل عن ملكيته فى الشام والجزيرة العربية والخليج والحجاز وجزيرة كريت .

وأعقب هذا الاتفاق انسحاب قوات " خورشيد " من الخليج، وترتب على ذلك عودة حكومة الموحدين فى نجد بزعامه " فيصل تركى"، وتمكن العثمانيون المتحالفون معهم من دخول الإحساء، ولكن فى نفس الوقت تهيأت الظروف

لبريطانيا لتحقيق أهدافها وزيادة نفوذها في بقية إمارات الخليج من خلال اتفاقيات حماية (٤٣) .

محمد علي والقوى الإسلامية في الشام

حققت السياسة البريطانية نجاحا في دفع محمد علي للإشتراك في ضرب الثورة اليونانية تحت غطاء مساندة السلطان العثماني في حين كان الهدف الأساسي منها هو الوقوف أمام النفوذ الروسي ومنعه من التسرب إلى سواحل البحر المتوسط من خلال مساندة الروس للثورة اليونانية، وانتهى الموقف بعقد اتفاقية بين بريطانيا وروسيا سنة ١٢٤١هـ - ١٨٢٦م تقضى بالألا يكون للروس نفوذ أو قاعدة على البلاد الواقعة على البحر المتوسط (٤٤)، واستطاع الروس أن يعوضوا ذلك بمكاسب هائلة تمثلت في زيادة نفوذهم في الدولة العثمانية إلى درجة كبيرة أقرت بها الدولة العثمانية في معاهدة " أدنة " سنة ١٢٤٤هـ - ١٨٢٩م، كنتيجة لهزيمتها أمام القوات الروسية (٤٥) .

ومع أن هذا الوضع الذي أصبحت عليه روسيا في الدولة العثمانية قد أثار قلق البريطانيين، والفرنسيين كذلك، إلا أن بريطانيا لم تكن تريد أن تتخذ موقفا إيجابيا مباشرا حيث كانت تدرك أن إعلانها الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية ضد الأطماع الروسية سيكون لصالح روسيا في هذه الظروف (٤٦) .

واتجهت أنظار البريطانيين، والفرنسيين أيضا، إلى قيام محمد علي مرة أخرى بالتصدي للنفوذ الروسي المتزايد بتوجيه جيشه إلى الشام ثم الأناضول وتحت نفس الغطاء وهو الوقوف إلى جانب دولة الخلافة، وقد لقي هذا الأمر استجابة - بل ترحيبا - من جانب محمد علي سواء لكونه كان ما زال يأمل تحقيق أطماعه التوسعية، وأن الشام قد تسمح له بها السياسة البريطانية نظير دوره السابق معها، أم سعيًا منه لتنفيذ أهداف أصدقائه البريطانيين .

ومما يدعم وجهة النظر هذه أن البريطانيين قد عارضوا بشدة شروع محمد علي في تنفيذ العرض الفرنسي بغزوه الجزائر لحسابهم قبل هجومه على الشام بعام واحد، وهددوه بالهجوم على أسطوله وجيشه إذا هو أقدم على مثل هذه العملية الأمر الذي دعاه إلى التراجع عن التنفيذ على الرغم من أنه كان قد عقد اتفاقية بهذا الخصوص مع الفرنسيين، وهو أمر يدعو للقول - بل الجزم - بأنه ما كان له أن يشرع في توجيه جيشه إلى الشام بدون موافقة بريطانيا، ومن هنا

يمكن إدراك السبب الحقيقي لاتجاه محمد على للشام والذي يتمثل فى الوقوف أمام النفوذ الروسى فى الأراضى العثمانية .

على أن بريطانيا لم تنشأ أن تعلن عن اتفاقها مع والى مصر حتى لا يكون فى ذلك إقرار منها بتقسيم الدولة العثمانية فتتخذ منه روسيا ذريعة لمزيد من التدخل الذى قد يجر إلى حرب ومواجهة (٤٧)، كما أنها - أى بريطانيا - كانت ترى أن الدولة العثمانية، وليس والى مصر، هى التى ينبغى أن تظل حاجزا أمام التوغل الروسى صوب البحر المتوسط (٤٨) .

وعلى أية حال فقد حاول محمد على أن يخفى حقيقة دوره وأن يتذرع بأسباب سطحية يبرر بها أمام الباب العالى هجومه على بلاد الشام مثل إيواء "عبد الله باشا" والى عكا لسنة ألف من المصريين الفارين هربا من التجنيد فى جيشه خلال سنة ١٢٤٦هـ - ١٨٣١م فقط ورفضه إعانتهم، وكذلك قيام "عبد الله باشا" بعمليات ابتزاز للتجار التابعين للباشا . وكتب محمد على إلى الباب العالى يبلغه بقيامه بمهاجمة "عبد الله باشا" لهذا السبب، ورد عليه الصدر الأعظم بما يشير إلى مدى الضعف الذى كانت عليه الدولة العلية وعدم قدرتها على التصدى لمحمد على فقال : "إن شكوى بعض التجار لا يمكن أن تسوغ تحكيم الحسام وإشعال النار والحرب، وأن ما ينشعب من نزاع بين الباشوات المتجاورين لا يمكن أن يسوى بإشهار السيف بل بتدخل الباب العالى" (٤٩) .

ولم تكن مثل هذه الخطابات لتؤثر على ما عزم عليه محمد على - أو دفع له - من احتلال الشام، فزحف جيشه وعلى رأسه ابنه "إبراهيم باشا" قبل أن يصله رد الصدر الأعظم، وعالونه "بشير الشهابى الثانى" الذى كان يعيش فى كنفه منذ خروجه من لبنان، ومع أن مساندة "بشير الشهابى" لجيش "إبراهيم باشا" كانت سببا فى ثورة الدروز بزعماء أسرة جنبلاط التى تولت الزعامة بعد خروج الشهابيين إلا أن وقوف الموارنة "المسيحيين" ضدهم لم تكن دوافعه هى مساندة الأمير بشير فقط بل ويرجع فى حقيقة الأمر إلى الدور الفرنسى الذى دعاهم لتأييد جيش "إبراهيم باشا"، وأمدوهم بالسلاح مما أدى إلى هروب بعض الزعامات الدرزية واتضمامهم إلى الجيش العثمانى الزاحف لملاقاة جيش والى مصر (٥٠) . ومن الأمور التى تؤكد ذلك إعلان نصارى بلاد الشام، إلى جانب الموارنة، بأن "إبراهيم باشا" صديق لهم، وأبدوا استعدادا تاما لمساعدته، كما أن "إبراهيم باشا" قد ألغى كافة القيود المفروضة على النصارى واليهود فقط فى كل بلد سيطر

عليه تحت دعوى المساواة والحرية (٥١)، وهى أمور تشير إلى تأثير المحفل الماسونى عليه ودور هذا المحفل - التابع لفرنسا - فى دعم أطماعه وأبيه (٥٢) .

وعلى الرغم من أن جيش إبراهيم باشا قد تمكن من هزيمة الجيش العثمانى واستطاع أن يستكمل سيطرته على الشام إلا أن العثمانيين، ومعهم الإنجليز الذين خشوا زيادة النفوذ الفرنسى، قد تمكنوا من إثارة الأهالى ضد إبراهيم باشا مستغلين العديد من العوامل سواء أكانت عوامل دينية، بعد أن ضيق إبراهيم باشا الخناق على المسلمين فى حين منح حريات واسعة للنصارى واليهود، أم عوامل سياسية واقتصادية بدت فى حرص الأقطاعيين على أوضاعهم ومصالحهم بعد الإجراءات التى اتخذها إبراهيم باشا للتقليل من دور هذه الأوضاع وضرب هذه المصالح، وانتهى الأمر بعقد اتفاقية لندن سنة ١٢٥٥هـ - ١٨٤٠م التى حددت الوجود العسكرى - لوالى مصر - فى الشام بحياة محمد على (٥٣) .

ولم يكن هدف محمد على من القضاء على النظام الإقطاعى فى الشام هو إتاحة الفرصة لنمو النظام الرأسمالى وما يصحبه من نمو الأفكار القومية لكن هدفه كان قاصرا على القضاء على الزعامات الإقطاعية المعارضة لوجوده واستمرار حكمه وحرمانها من مصادر قوتها وهى ثروتها، فى حين كان الفرنسيون يقصدون من وراء مساعدتهم له فى هذا الاتجاه توسيع السوق التجارية لهم اقتصاديا وزيادة نفوذهم سياسيا إلى جانب تحقيق أهدافهم الفكرية الرامية إلى إشعال الدعوة إلى القومية التى تنمو فى ظل سوق اقتصادى موحد فى المجتمع الرأسمالى وفى إطار علمانى، وهى أهداف لا يمكن تحقيقها فى ظل سيادة النظام الإقطاعى لكونه " يتحكم فى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي يحول دون ظهور الحركات القومية، فالإقطاع من شأنه تفتيت المجتمع إلى وحدات منعزلة أو شبه منعزلة فكريا واجتماعيا واقتصاديا ويحول دون الانسجام التام والنماذج بين أجزاء المجتمع ويحول دون نمو مقومات التوحيد الموجودة كاللغة والتاريخ وقد يضعف منها ويقيم فى وجهها العقبات ويحرمها من النمو والإزدهار" (٥٤) .

ومع أن مراحل احتلال قوات محمد على للشام قد أكلت اتجاهه المعادى للمسلمين والمساند للنصارى واليهود، وكذلك ما أحدثه من تقسيمات إدارية جديدة

لصالحهم، إلا أن سياسته العدائية ضد الاتجاه الإسلامى فى الشام والتى تركت أثرا بعيد المدى على الحركة الفكرية والثقافية قد تجلت فى الناحية التعليمية .

وقد يبدو الهجوم على نشر التعليم والتوسع فيه، وهو ما قام به " إبراهيم باشا " فى الشام، أمرا مذموما ورجعيا ومتخلفا، لكن الأسلوب الذى تمت به هذه السياسة كان أسلوبا مغرضا قصد به هدم التعليم القائم على الدين الإسلامى من جهة، وأنه لم يتح الفرصة لاتباع الاتجاه الإسلامى أو يسمح لهم بفرصة كالتى سمح بها للنصارى واليهود فى القيام بدورهم - المغرض - فى مجال التعليم من جهة أخرى، وقد أدى هذا إلى أن تصور البعض أن هذه الأقليات التابعة للغرب هى التى حملت لواء التعليم فى هذه الفترة، كما أن ذلك يوحى بأن الذين تعرضوا للاضطهاد هم المسلمون وليس غيرهم كما يرى البعض (٥٥) .

وعلى عكس ما يرى البعض أيضا فقد سلك العثمانيون مسلكا عادلا مع غير المسلمين من الأقليات الطائفية وبخاصة فى بلاد الشام، فقد سمح الحكم العثمانى بوجود بعض البعثات التبشيرية الفرنسية منذ مطلع القرن الحادى عشر الهجرى السابغ عشر الميلادى، وأتاح لها فرصة إقامة عدد من المدارس والمعاهد فى أماكن متفرقة، لكنه حدد مجال عملها فى إطار رعاية الطوائف المسيحية دون غيرها، كما سمح بعدد قليل من البعثات الأمريكية لكنه حصر جهودها داخل بيروت فقط (٥٦) .

وبقدر ما كان محمد على وابنه إبراهيم منفذين للأهداف البريطانية على الصعيد السياسى كانا منفذين كذلك للأهداف الفرنسية على الصعيد الثقافى فى بلاد الشام، سواء لتأثير المحافل الماسونية الفرنسية عليهما أم تحقيقا لأطماع محمد على التوسعية فى الشام التى تؤيدها فرنسا بعد أن أبدت بريطانيا معارضتها فى ذلك . فما إن نجحت قوات إبراهيم باشا فى السيطرة على بلاد الشام سنة ١٢٤٨هـ - ١٨٣٣م، إلا وبدأ فى تنفيذ الأهداف الفرنسية، ففتح الباب على مصراعيه لدخول البعثات التبشيرية الفرنسية والأمريكية، وألغى كافة القوانين الاستثنائية وجميع ما كان يسرى على النصارى وحدهم، ويعتبر بعض الكتاب أن عام ١٢٤٩هـ - ١٨٣٤م، عام تحول تاريخى حيث عاد اليسوعيون، وتوسعت البعثات الأمريكية، وتم نقل مطبعة الإرسالية الأمريكية من مالطة إلى بيروت، وأسست مدرسة للبنات فى بيروت على يد " إيلى سميث " وزوجته (٥٧)، وزودت بعض الأديرة بمطابع أخرى فى إطار حرص الدول الأوروبية على حصر المطابع

فى يد المسيحيين فقط (٥٨)، حتى تتمكن من تحقيق أهدافها فى ظل عجز المسلمين عن امتلاك وسيلة التعبير عن آرائهم أو نشر أفكارهم فى هذا المجال (٥٩).

ويذكر "جورج أنطونيوس" أن دخول "إبراهيم باشا" إلى الشام يعد نقطة تحول لدور المبشرين، وأنه لولا تأييده لهم "لبقيت عقولهم مشلولة وأفكارهم آسنة"، فقد تمكنت كلية "عين طورة" التى أعيد افتتاحها - والتى ما زالت قائمة حتى الآن - من القيام بدور كبير فى تكوين كوادر من الكتاب والمفكرين. وفى نفس الوقت طبق سياسة تعليمية بين المسلمين كان الهدف منها إقناظ الوعي القومى بينهم، واستدعى أحد الفرنسيين من مصر وهو "كلوت بك" (٦٠)، ليشرف على تطبيق هذه السياسة بعد أن اكتسب خبرة تطبيقها فى مصر، ووضع تحت يده مطبعة كاملة لنشر الكتب العربية لتعينه فى تحقيق هدفه، وتمكن بكل هذه الأساليب - تشاركه الإرساليات التبشيرية ورجال الكهنوت فى الأديرة - من أن يقلب أساليب التربية والتعليم فى مدى سنوات قليلة، ويحقق أهداف المحافل الماسونية الفرنسية على حساب الاتجاه الإسلامى الذى ظل سائدا طوال الحكم العثمانى، وقد أرجع "جورج أنطونيوس" ثورة المسلمين على هذه السياسة المعادية لهم من كل جوانبها إلى تعصبهم وجهلهم بمعانى الوطنية (٦١).

وبشكل عام فقد ترتب على دور محمد على فى المنطقة بأسرها أن تنبهرت الدول الأوروبية إلى مدى الضعف الذى أصبحت عليه الدولة العثمانية، وبالتالي استعداها لتقسيم أراضيها حينما تنهأ الظروف السياسية، واتجهت العديد من الآراء فى أوروبا للدعوة لسرعة حدوث هذا التقسيم، ولم يكن جانب التوسع وحده هو الدافع وراء هذه الدعوة بل كان جانب العداء للإسلام والشعوب الإسلامية من العوامل البارزة وراءها، وهو أمر تؤكد الاتصالات الدبلوماسية فى أوروبا فى هذه الفترة. فقد أرسل "شاتوبريان" رئيس وزراء فرنسا رسالة عن طريق سفيره فى روما إلى قيصر روسيا للتفاهم حول تقسيم المقاطعة العثمانية الأوروبية قال فيها: "إذا أردتم - أى القيصر - الذهاب إلى القسطنطينية فقوموا مع الدول المسيحية بتقسيم عادل لتركيا الأوروبية، أما الدول التى ليست فى موقع يسمح لها بالتوسع جهة الشرق فتحصل على تعويضات فى مناطق أخرى"، كما وقعت إنجلترا مع روسيا بروتوكول فى سان بطرسبرج سنة ١٢٤٠هـ - ١٨٢٥م، قبل الطرفان بمقتضاه مبدأ التدخل الأوروبى فى الإمبراطورية العثمانية (٦٢).

وفى أعقاب هزيمة الجيوش العثمانية أمام جيش محمد على فى الشام والأناضول اضطرت للدولة العثمانية للاستجداد بروسيا بعد أن لمست أن محمد على يحظى بتأييد البريطانيين والفرنسيين، عقدت معاهدة " اتكياراسكله سى " سنة ١٢٤٨هـ - ١٨٣٣م، فى أعقاب هدنة كوتاهية، وكانت المعاهدة بمثابة تحالف دفاعى بين روسيا والعثمانيين، مما أدى إلى مسارعة كل من بريطانيا وفرنسا بالتصدي لمحمد على خشية المزيد من التدخل الروسى، وفرضت عليه اتفاقية لندن سنة ١٢٥٥هـ - ١٨٤٠م (٦٣) . وقد ترتب على هذه الأحداث إجهاض محاولة الإصلاح الجادة التى حاول السلطان " محمود الثانى " أن يقوم بها فى الدولة العثمانية والتى كانت تتم فى إطار إسلامى (٦٤)، مع فتح الباب للاستفادة من الأساليب الأوروبية الحديثة، واضطرت الدولة العثمانية لقبول وصاية الدول الأوروبية فى مقابل حمايتها من أطماع محمد على (٦٥) .

ولعل فى توضيح أبعاد الدور الذى لعبه محمد على ما ينفى ما يحاول البعض أن يسنده إليه وهو محاولة إقامة دولة - أو وحدة - عربية، فقد نفى أغلب المؤرخين وجود أى تفكير عربى لدى محمد على لكونه من أصل ألبانى ولا يعرف العربية (٦٦)، كما أجمع كثيرون من المؤرخين على غياب الوعى القومى فى هذه الفترة (٦٧)، بل إن أحد المؤرخين قد ذكر بوضوح أن محمد على لم يكن صادقاً فى عواطفه نحو العرب ولم يكن يتحدث لغتهم، كما أنه كان يستهين بمواهبهم وخصائصهم، وكان يرمى إلى أن يكون " صحبه من الأتراك والألبان هم عماد السلطة وصرح الحكم فى إمبراطوريته المقبلة وأن يكون العرب هم الرعية " (٦٨) .

بل إنه، بدور العمالة الذى لعبه لصالح الأوروبيين وضد مصالح شعوب المنطقة، قد حطم محاولة جادة لوحدة الشعوب الإسلامية من الأناضول إلى بحر العرب ومن الخليج إلى البحر الأحمر التى كادت أن تتحقق على يد الدولة السعودية الأولى (٦٩)، بل ربما كانت قد توافقت مع محاولة الإصلاح الإسلامية العثمانية وكان فى ذلك إحياء قوة الخلافة الإسلامية، وهى حقيقة لا يروى للمؤرخين العلمانيين والماركسيين وغير المسلمين ذكرها أو طرحها كبديل لما ي طرحونه حول محمد على لما توحى به من أفكار إسلامية حول الماضى والحاضر والمستقبل .

وهكذا استطاع محمد على أن يقوم بما لم يستطع الاستعمار الغربى أن يقوم به بشكل مباشر فى العمل على تحطيم الهوية الإسلامية التى كانت أساسا فى صمود الشرق الإسلامى ضد الموجات المعادية عبر مراحل تاريخية طويلة، وتسبب نتيجة لذلك فى توسيع الهوية الحضارية بين الشرق والغرب، وهى المناخ اللازم لإقامة المؤسسات المعادية للدين الإسلامى وللمسلمين من محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس نجحت فى بذر بذور القومية العرقية، وبث الأفكار المعادية لمصالح الاقتصاد، ومنح امتيازات واسعة للأوروبيين واليهود، وهى أمور لم تكن تمثل مصالح شعوب المنطقة أو تعبر عن رغباتها . وتنافست مع سياسة الاحتكار والظلم التى مارسها فى ضياع موارد شعوب المنطقة دون أن يجنى أبنائها أية فائدة، وأسهم كل هذا فى تهينة المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية، وما زالت المنطقة تعاني من آثار تلك السياسة حتى تاريخنا المعاصر .

على أن هناك جانب خطير يتعلق بنتائج سياسة محمد على فى فلسطين حيث أتاحت هذه السياسة الفرصة لليهود بوضع تصورات لسياسة استعمارية، ففي سنة ١٢٤٤هـ - ١٨٣٩م قام " السير موسى مونتيفور " اليهودى البريطانى بزيارة لفلسطين، ثم اتجه إلى مصر والتقى بمحمد على لإجراء مشاورات حول تحقيق مشروع توطين اليهود فى فلسطين وذلك من خلال استئجار عدد من القرى بين المائة والمائتين لمدة خمسين عاما لزراعتها على أن يدفع ضريبة الأرض التى يستغلها، وأنه فى حالة نجاحه فى عقد هذه الاتفاقية يعهد لشركة إنجليزية بتولى هذا الدور مقابل تشجيعها لعودة اليهود إلى فلسطين . وبالفعل نجح "مونتيفور" فى لقاء محمد على فى الإسكندرية وعرض عليه هذا رأى إلى جانب بعض الآراء الأخرى كباشاء بنك تسليف زراعى وغير ذلك، ولقيت هذه الأمور أذانا صاغية من محمد على ولكن دون اتفاق على شىء محدد من جانب محمد على بسبب تردى الأوضاع السياسية حول سيادته على المنطقة ودور الدولة الأجنبية وأولها إنجلترا التى كان " مونتيفور " أحد رعاياها (٧٠) .

وقد تطورت هذه المسألة بحيث ساندتها الكثير من الدول الأوروبية خلاصا من اليهود، وكونها كانت تعنى من وجهة النظر البريطانية تحقيق مصلحة خاصة بنظرة بريطانيا للمسألة الشرقية تتمثل فى السعى لاستعمار استيطاني فى المنطقة العربية . وظلت المساعي فى هذا الصدد قائمة حتى بعد معاهدة لندن التى أبعدت سلطة والى مصر عن فلسطين وعودتها الى السيادة العثمانية . وعلى الرغم من

المساعي البريطانية واليهودية عبر القناة الماسونية فى الدولة العثمانية التى كان يمثلها مصطفى رشيد باشا الذى وصل إلى منصب المصدر الأعظم و الذى نجح فى إصدار دستور جديد إلا أن وجود المؤسسات التقليدية ذات البعد الإسلامى فى العاصمة العثمانية قد أدت إلى رفض الباب العالى لمثل هذه المخططات (٧١) .

كما رفض الباب العالى مشروعا آخر يسمى مشروع القدس كان يرمى إلى بناء كنيسة إنجيلكانية فى القدس إلى جانب المشروع اليهودى فيها، على أن هذا المشروع الأخير لم يحظ بتلقى وجهات النظر الأوروبية التى ربطت بينه وبين المرامى البريطانية وزيادة النفوذ على حسابها فى المنطقة، وطرح الأوروبيون مشروعات دينية وسياسية أخرى كان من شأنها النظر فى تدويل القدس (٧٢) .

محمد على يفتح الطريق لفرنسا لاحتلال الجزائر

الطابع الإسلامى للمغرب العربى :

على الرغم من الضعف الذى ألم بالمسلمين فى شمال إفريقيا كجزء من الضعف الذى أصابهم فى بلاد الأندلس خلال عصرى المرابطين والموحدين، وسواء أكان ذلك بفعل النظام الإقطاعى الذى كان سائدا فيها أم بفعل ضعف العلوم وعدم الاهتمام بالمعرفة كنتيجة لهذا النظام، إلا أن هؤلاء المسلمين قد استيقظوا على صيحات إخوانهم الفارين أو المطرودين من الأندلس حيث أدركوا من خلالهم قدوم الخطر الصليبي الجديد، فأحيوا فيهم روح الجهاد سواء لملاقاة الخطر الخارجى القادم أم لمقاومة المنتفعين من الإقطاعيين المتستترين خلف بعض المفاهيم الدينية .

ومع أن الكثيرين من المسلمين قد التفتوا حول نداء الجهاد إلا أن شرائح المنتفعين المسيطرين على النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت تمثل الثغرة الحقيقية فى صفوف المجاهدين والتى نفذ منها الأسباب والبرتغاليون وتمكنوا من السيطرة على بعض المراكز الساحلية .

على أن ما ينبغى توضيحه هو أن الصياغات القومية للتاريخ قد حاولت أن تضيف صبغة قومية على هذه الفترة حيث اعتبرها البعض بداية لنشر الوعى القومى العربى فى حين أن البعد القومى لم يكن موجودا حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى بعد احتلال الفرنسيين للجزائر

ووضعها داخل حدود سياسية كجزء من مساعي حكومة الثورة الفرنسية الماسونية في إثارة النعرة القومية بين الشعوب على غرار ما سعت إليه في مصر إبان حملتها عليها في نهاية القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي .

وبشكل عام فإنه يصعب - بل يستحيل - لتحديد أو التمييز العرقي أو القومي لشعب شمال إفريقيا منذ أن اعتنق الإسلام وتدمج فيه (٧٣)، فقد شارك في مواكب الجهاد واستقبل أفواج المسلمين من دعاة وعلماء وحتى الفارين من الخوارج كالأباضية والصفرية وأصحاب المذاهب الفقهية والسياسية، وخرجت منه وفود شاركت في الأحداث السياسية منذ البداية وللحج وزيارة المناطق المقدسة، واستقر العديد منهم في مصر والشام والحجاز والعراق والأندلس وصقلية وجزر الأربخيل والأناضول وحتى مشرق العالم الإسلامي، واستقبل الهجرات الوافدة من الأندلس وجزر البحر المتوسط والذين أقبلوا على الإسلام من أهل أوروبا ثم تعرضوا لعقاب الطرد، وأصبح بعد فترة زمنية جزءا من لكل الإسلامي الذي امتد منه ومعه إلى إفريقيا السمراء . ولهذا فإنه من غير اللصواب أن تحدد الهوية القومية لأي إقليم من أقاليم المغرب الإسلامي بعيدا عن الإطار الإسلامي سواء قبل الهجوم الاستعماري في القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي أم حتى بعده حيث ظل الإسلام يمثل العامل الأول والأقوى في مراحل مقاومة الاستعمار وحتى الاستقلال، وظلت الثقافة الإسلامية تمثل للصوت المعبر عن هذه المقاومة وأساس التميز لهذه الشعوب تاريخا وحضارة، وأصبح من غير الموضوعي التحدث عن العرب والبربر أو أي بعد عرقي وغير ذلك من التقسيمات العرقية التي يقصد بها ومن خلالها تمزيق هذا التاريخ وهذه الحضارة .

وإذا كانت هناك بعض الحدود قد ظهرت من خلال انقسام القوى السياسية في مطلع العصور الحديثة كجزء من التقسيم الإداري إبان العصر العثماني فإن هذه الحدود لم تكن قائمة على أسس عرقية أو قومية كما كانت كذلك خلال الفترات التي تسبقتها بعض القوى السياسية المحلية حيث كانت تزيد أو تنقص مع زيادة قوة السلطة السياسية الحاكمة أو ضعفها، كما أن هذه القوى كانت تحكم باسم الدين ولا تستند إلى شعور قومي أو جنسي . " فبنى مرين " في المغرب مثلا حين دب بينهم الضعف انتقل فرع منشق منهم ليكون دولة الحفصيين في تونس، كما كان يطلق على الجزائر المعاصرة المغرب الأوسط، وكذلك فإن تسمية الجزائر قد استمدت من مدينة الجزائر لا من تسمية قومية، وتسمية المغرب ترجع إلى عوامل

جغرافية مستمدة من موقعه فى أقصى الغرب وليس إلى عوامل قومية، كما أن تسمية عاصمته بالرباط دلالة على أن المنطقة قد ظلت لفترة طويلة المكان الذى رابط فيه المجاهدون المسلمون .

كذلك فإن حركة الجهاد البحرى التى ظهرت منذ أواخر القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى قد جمعت فى صفوفها كل المسلمين، فقياداتها المتمثلة فى " عروج " و " خير الدين " كانت من جزر الأرخيبيل العثمانية، والمجاهدون كانوا خليطا يجمع بقايا المسلمين الفارين من الأندلس، والمسلمون من أهل المنطقة، ومجاهدون جاعوا من الأراضى العثمانية، ومن تجار ودعاة غرب إفريقيا .

و " السعديون " فى مراكش كانوا من البيت النبوى الشريف حيث يرجع نسبهم إلى " الحسين بن على "، وتبعتهم أسرة " الأشراف العلويين " التى ترجع إلى نفس النسب، وبشكل عام فلم يكن لأى منهم عبر كل هذه المراحل، وخلال كافة الأحداث من هوية سوى الهوية الإسلامية.

وعلى الرغم من محاولة بعض المؤرخين الأوروبيين ومن تبعهم لرصد بعض الملامح المميزة لعناصر السكان الأصليين ممن يطلق عليهم البربر إلا أن نسبة كبيرة من هذه العناصر اختلطت - بعد إسلامها - فى عناصر المسلمين جنسا وثقافة، وأصبحت اللغة البربرية القديمة لغة تعامل أو حديث فى مواطن محدودة، وخاضعة للغة العربية حتى كادت تصبح إحدى لهجاتها، وارتضت هذه العناصر المنصهرة أن تكون اللغة العربية - عن إيمان - لغتهم الثقافية الوحيدة (٧٤)، وفى المقابل لم يتمسكوا بلغتهم أو يحاولوا كتابتها كدلالة من دلالات انصهارهم فى الإسلام دينا وثقافة، وكان من دلالات هذا الانصهار أيضا الفشل الذى لقيه الفرنسيون فى مساعيهم لإثارة النعرة القومية لدى عناصر البربر القبلية بسبب إدراك هذه العناصر لعدم وجود هوية جنسية لها ولما أبدت من بداية إسلامها من حرص على الانخراط فى الثقافة الإسلامية العربية، وقد لعبت الطرق الصوفية كالدرقاوية " و " التيجانية " دورا بارزا فى هذا المجال (٧٥) .

أبعاد العلاقة بين القوى المحلية المغربية ودولة الخلافة العثمانية .

فى الوقت الذى لم يبد فيه العثمانيون حرصا على مد نفوذهم السياسى إلى شمال إفريقيا بذلت شعوب هذه المنطقة من المسلمين مساعيهم للارتباط بالدولة

العثمانية، ومع أن السبب الأساسي في ذلك راجع إلى اشتداد حدة الصراع بين المسيحيين والمسلمين في حوض البحر المتوسط الغربى إلا أن توجه شعوب المنطقة إلى العثمانيين لدعم جهادهم، وإستجابة العثمانيين لهذا المطلب بشكل إيجابى وسريع يشير إلى طبيعة الهوية الإسلامية في الجانبين معا (٧٦)، وكذلك يسهم فى دحض رأى القائل برغبة العثمانيين فى تكوين إمبراطورية واسعة كهدف لتوجههم إلى الشرق فى محاولة للتقليل من الدافع الدينى كدافع أساسى لهذا التوجه .

ولعل من أبرز الأمور التى ترجم فيها العثمانيون صدق توجههم الإسلامى هو عدم ربطهم بين دعمهم للجهاد فى هذه المنطقة وبين رغبتهم فى تحقيق أى نفوذ سياسى، فكان انضمام ولايات المغرب إلى العثمانيين عن طوعية ورغبة، وكان إضفاء الألقاب العثمانية عل الحكام المحليين فى هذه الولايات مثل بكر بك (أى رئيس البكوات) وغيرها يأتى استجابة لرغباتهم، ولهذا فإن تغيير الأوضاع السياسية فى هذه الولايات كنتيجة لثوراتهم على بعض الحكام لم يغير من طبيعة ولاء الحكام الدائم لدولة الخلافة، بل كان ضعف هذا الولاء أحيانا من أسباب دعم هذه الثورات من قبل القوى الشعبية المسلمة .

وكان حرص هؤلاء الولاة وتنافسهم على نيل رضاء الخليفة العثمانى وإرسالهم بعض قواتهم العسكرية لمشاركة دولة الخلافة فى حروبها، دون أن تكون دولة الخلافة تمتلك أى عامل من عوامل الضغط أو التأثير عليهم سوى الرباط الدينى يعد دليلا هاما على غلبة الهوية الإسلامية .

وعلى صعيد آخر ينبغى الإشارة إلى الدور الذى لعبته الطرق الصوفية فى أبعاد العلاقة بين دولة الخلافة العثمانية وبين هذه المنطقة، فطى الرغم من أن دولة الخلافة قد هيات الظروف الكاملة لتطور وانتشار العديد من الطرق الصوفية فى العالم الإسلامى، وهو أمر يرجع إلى طبيعة إسلام العثمانيين فى البداية والذى كان على يد الطرق الصوفية - كما سبقت الإشارة - وأن ذلك قد فرض ارتباط هذه الطرق بنظام الدولة، وعلى الرغم من أن هذه الطرق قد لعبت دورا واضحا فى إبراز الهوية الإسلامية لشعوب هذه المنطقة من خلال دورها فى صهر كافة العناصر تحت لوائها وكذلك من خلال دورها فى الجهاد ضد الهجوم الصليبي الغربى، إلا أن الخلاف بين هذه الطرق فى المنهج أو فى الأسلوب قد أسهم فى أن تلعب دورا معاكسا لهذا الاجتاد فى علاقة الدولة العثمانية بالقوى الإسلامية فى

شمال إفريقيا . فقد أدى اختلاف الطرق الموجودة في شمال إفريقيا " كالدركاوية " و " التيجانية " مع الطرق العثمانية التي كان من أشهرها الجلاية والبكتاشية، وكذلك مع منهج السلطة العثمانية المحدود، إلى تزعمها لبعض الحركات المناوئة للسلطة العثمانية وبخاصة في ولاية الجزائر، الأمر الذي دعا البعض لأن يربط بين دور هذه الطرق وبين النزعة الوطنية (٧٨) . على أن هذا التفسير لا ينبغي أن يوضع في إطار تجسيد للبعد القومي سواء لكون هذه الطرق - مهما كان الأمر - ذات بعد إسلامي من جهة أو لأنها كانت منتشرة بين التجمعات القبلية التي تخطت حدود ولاية الجزائر أو حتى ولايات المغرب من جهة أخرى .

أما من حيث القوى التي ظهرت في المنطقة والتي بدت في قالب الاستقلال عن الإدارة العثمانية كالحسينيين في تونس فعلى الرغم من أن "حسين على" مؤسس هذه الأسرة قد استأثر بالحكم له ولأسرته وبشكل يدعو إل إلحاقه بصقوف المتمردين عل سلطة الدولة للعثمانية إلا أن طبيعة العلاقة التي كانت بين الدولة العثمانية وبين ولايات الشمال الإفريقي بصفة عامة والتي خلت من التدخل المباشر في شئونها أو فرض أسلوب معين في الإدارة، وكذلك استناد مؤسس هذه الأسرة على طائفة الاكتشارية العثمانية (٧٩)، إلى جانب تولى هذه الأسرة دورا بارزا في الجهاد ضد النفوذ الأجنبي وفي نفس الوقت الحرص على الارتباط بالدولة العلية وفي إطار الحرص على استمرار نفوذها ووحدتها (٨٠)، كلها أمور لا تدعو إلى إعتبار دور هذه الأسرة تعبيرا عن النضج القومي في البداية على الأقل، وفي الفترة التي لم يكن فيها هذا العامل قد تبلور حتى بعد خضوع تونس للاحتلال الفرنسي سنة ١٢٩٨هـ - ١٨٨١م .

التشكيك الأوروبي في حركات الجهاد :

دأب المؤرخون الأوروبيون على التشكيك في حركات الجهاد الإسلامية بشكل عام وفي منطقة الشمال الإفريقي بالتبعية، وتركزت محاور التشكيك في جانبين الأول في أصل المجاهدين للبارزين مثل خير الدين وعروج وكذلك حسين بن علي والثاني في وصف دورهم بالقرصنة .

أما من حيث التشكيك في أصل الأخوين " عروج " و " خير الدين " فقد أكد المؤرخون أنهما ينتميان إلى أسرة مسلمة، وأن انتماء أمهما إلى مسلمي الأندلس هو الذي دفعهما لأن يوجها نشاطهما إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط (٨١) .

وأنهما ليسا من أصل نصراني يوناني كما ورد عند بعض المؤرخين الأوروبيين (٨٢) .

كما أن لجوء هذين الأخوين إلى أسلوب الكر والفر في الجهاد البحري والذي وصف بالقرصنة إنما يرجع إلى عدم قدرتهما على الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الأسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، وكان أسلوبهما أشبه بالكمائن البحرية ضد سفن خصومهم لمنع الصادرات والواردات أو الإستيلاء عليها بقصد الإضرار بعُدوهم، وكانت حركتهما فسي عموماً رد فعل لأعمال القرصنة الأوروبية التي صبغت عملها ضد القوى الإسلامية بالأبعاد الدينية (٨٣) .

كما حاول المؤرخون الأوروبيون التشكيك في أصل مؤسس الأسرة الحسينية " حسين علي " الذي تولى دور الجهاد ضد الأطماع الأوروبية في تونس (٨٤)، فذكروا أنه يرجع إلى أصل نصراني يوناني باعتبار أنه من طائفة الانكشارية التي هي في الأصل تطور لضريبة الغلمان النصاري . علي أن عناصر هذه الطائفة لم يكونوا في مجموعهم من العناصر النصرانية، بل أن ما حصلت عليه هذه الطائفة من امتيازات مادية ومركز مرموق في الدولة العثمانية قد دعا البعض من المسلمين للإقبال علي إلحاق أبنائهم بها، كما أن التربية الإسلامية التي كان يتلقاها أبناء هذه الطائفة من الصغر لا تدعو إلي التشكيك في ارتباطهم بالإسلام وجهادهم في سبيله، وما كان لهم أن يحققوا نجاحاً في ارتباط المجاهدين وعموم أهل المنطقة بهم لولا هذا الارتباط الذي يعد أساساً للفخر وليس عاملاً للتشكيك (٨٥) .

البعد الديني للأطماع الفرنسية في الجزائر :

يعود تطلع فرنسا لولاية الجزائر إلى بدايات ارتباط هذه الولاية بالدولة العثمانية حيث لم يكن الفرنسيون يكتفون بسماع الدولة العلية لهم بامتلاك حصن القالة، وهو حصن على سواحل الجزائر ظل وجودهم فيه محل رفض أهل المنطقة، وحق إنشاء المخازن فيه (٨٦)، بل إن " شارل العاشر " ملك فرنسا كان قد اقترح سنة ٩٧٩هـ - ١٥٧٢م، على حكومة الباب العالي التنازل لهم عن ولاية الجزائر كلها مقابل جزية وهو الأمر الذي لم توافق عليه الآستانة، وتأزمت علاقة أهل هذه الولاية بفرنسا على أثر قتل فرنسا لوفد منهم ذهب ليتفاوض بشأن

الحصن مبررين ذلك باعتداء سفن في سواحل الجزائر على سفينة فرنسية، وحاولت فرنسا التوحد لإعادة علاقاتها التجارية بعد فشل أسلوب العنف وعقدوا معاهدة سنة ١٠٣٥ هـ - ١٦٢٨ م، ولكن فرنسا سرعان ما عادت إلى أسلوب العنف وهاجمت ميناء " جيجل " في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي الأمر الذي أشعل روح المقاومة ضدهم في الولاية بمساعدة العثمانيين، ووصلت المقاومة إلى حد مهاجمة سواحل فرنسا الجنوبية وأسر الكثير من أهلها كرد على أعمال مماثلة من قبل الفرنسيين .

ووصلت نيابة الجزائر من القوة البحرية إلى حد تقارب الإنجليز معها في إطار التنافس بينهم وبين الفرنسيين في البحر المتوسط، كما أن الدولة العثمانية قد استخدمت هذه القوة كوسيلة من وسائل الضغط على الفرنسيين في مطلع القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي .

وحين طافت بذهن " نابليون " فكرة الإستيلاء على شمال إفريقيا كله أرسل أحد مسلوليه لدراسة أحوال الجزائر على وجه الخصوص وهو " بوتان " الذي رسم له خطة حربية لدخول الجزائر، ولكنه لم يوافق على فكرة إمكانية إثارة النعرة القومية لدى عناصر العرب ضد حكامهم من الترك مؤكدا تضامن الجانبين وسيادة النظرة الإسلامية للدينية لكنه طرح إمكانية استمالة بعض رجال الطرق الصوفية (٨٧) .

وتبلورت النزعة الدينية الأوروبية حول الجزائر في مؤتمر فيينا سنة ١٢٢٩ هـ - ١٨١٤ م، حين طالب فرسان الصليب المالطيين بإعادة الجزيرة إليهم أو منحهم قواعد متقدمة في البحر المتوسط للوقوف أمام ما أسموه بالقرصنة الإسلامية وبخاصة في الجزائر وتخليص الأسرى المسيحيين، وتجاوب المؤتمر مع هذا المطلب ومن منظور ديني متعصب حيث كان من بين قرارات المؤتمر ضرورة قيام أوروبا بعمل جماعي ضد " القراصنة " في المغرب لأن فرسان مالطة لا يستطيعون القيام بهذه المهمة وحدهم، ورأت بريطانيا أن الدولة العثمانية لن تعارض هذا العمل لأن فيه إعادة لسيادتها على هذه المنطقة بعد إبعاد زعماء هذه المنطقة .

وحاولت بريطانيا أن تنوب عن أوروبا المسيحية في القيام بعمل عسكري صليبي ضد الجزائر وهو أمر أثار حفيظة الفرنسيين، فقاموا بحملة سنة ١٢٣١ هـ - ١٨١٦ م، حققت نجاحا محدودا . وأمام مواصلة الجزائريين للمقاومة

ورفض الشروط التي أرادها البريطانيون حاول الأوروبيون تكوين حلف جماعي لا يسمح بانفراد البريطانيين وحدهم حيث كانت روسيا تترجم الحلف المقدس ضد دولة الخلافة العثمانية، وكانت فرنسا ترى أن أمر التدخل ينبغي أن يكون قاصرا على دول البحر المتوسط ومن منظور ديني، فقد عبر " شاتوبريان " أحد أعضاء مجلس النواب الفرنسي عن ذلك بقوله : " لقد كان الفرنسيون هم أول الصليبيين فليكونوا الآن آخرهم " (٨٨)، ومع أن الخلاف بين الدول الأوروبية قد جعلها تتحفظ ضد تدخل بعضها البعض سياسيا إلا أن الروح الصليبية المعادية للمسلمين كانت الروح السائدة بين كل هذه الدول، وقد أدى إحساس الدولة العثمانية بهذه الروح أن ساعدت حكومة الداي في الجزائر بثلاث سفن حربية تحسبا لما تعده الدول الأوروبية .

دور محمد علي في التمهيد لاحتلال الجزائر :

في الوقت الذي كان يستعد فيه حكام ولاية الجزائر ومن خلفهم الدولة العثمانية لمقاومة المخططات الصليبية الأوروبية الرامية إلى الإعتداء عليهم أو لاحتلالهم، طرحت على الساحة فكرة إمكانية قيام " محمد علي " بعمل عسكري ضد هذه الولاية لصالح فرنسا . فقد أرسل قنصل فرنسا في مصر " دروفتي " بتقرير إلى رئيس وزرائه " بولينياك " تضمن اقتراحا بتدخل محمد علي في الجزائر . وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين حول ماهية هذا الاقتراح هل كان نابعا من محمد علي نفسه كما ذكر المؤرخون الفرنسيون أم من " دروفتي " بناء على توصية من بعض رجال حكومته، فإن الثابت أن الفرنسيين هم الذين سعوا لإقناع محمد علي بفكرة التدخل، وأن قبول محمد علي لها كان بمثابة تأكيد للارتباط بفرنسا وسعيه لكسب ودها وفي نفس الوقت محاولة لتحقيق أطماعه الشخصية في التوسع، كما أن الفرنسيين كانوا ينظرون إلى دوره في المحاولة باعتباره عميلا لهم (٨٩) .

ومن السذاجة قبول تفسير البعض لدور محمد علي الذي تخطى مرحلة الاقتراح إلى حد عقد اتفاقية مع القنصل الفرنسي بأنه كان محاولة لإبعاد الاحتلال عن دولة عربية، فالجزائر حتى ذلك الوقت لم تكن دولة ولكنها كانت ولاية عثمانية وأن اتفاهه على أمر كهذا مع دولة أجنبية ينم عن عدم اكترائه بوحدة الدولة الإسلامية أو اكترائه بها ومسايرته للمخطط الصليبي الرامي إلى تمزيقها،

كما أن مساعدة دولة أو ولاية ضد هجوم أجنبي لا يكون باحتلالها بل كان مد يد المساعدة لها كما فعلت الدولة العثمانية، ولعل في هذا الموقف وقربه من موقفه في نوارين البحرية سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م، تحت قناع مساعدة السلطان ضد ثورة المورة والبلقان ما يدعم ما سبق أن توصلنا إليه في طبيعة دور محمد على في المنطقة (٩٠) .

وبشكل عام فإن الإتفاق قد تضمن قيام محمد على بحمله عسكرية بريّة حتى الجزائر، يقوم بعدها محمد على بضم هذه المناطق إلى نفوذه، باسم السلطان، ويدفع جزيتها لدولة الخلافة، وفي نفس الوقت يضمن لفرنسا كل ما تتطلب من امتيازات اقتصادية وعسكرية في الجزائر دون أن تتحمل أية أعباء في هذه الحملة .

وفي الوقت الذي نظرت فيه فرنسا إلى هذا الاتفاق بجدية لتحقيق أهدافها في الجزائر، وكذلك تحويل اتجاه محمد على عن الشام الذي كانت تسعى لزيادة نفوذها فيه، بدت معارضة بريطانيا لامتداد نفوذ محمد على إلى هذه المنطقة متفقة في ذلك مع الباب العالي وهو أمر أدركه محمد على من البداية، ويبدو أن ذلك هو الذي أثناه مبدئياً عن السعي لتنفيذ الاتفاق مع فرنسا وليس حرصه على عدم إثارة الرأي العام الإسلامي كما يرى البعض .

فحين أدرك محمد على عزم بريطانيا على مواصلة المعارضة لهذا المشروع حتى لو أدى الأمر إلى استخدام القوة التقى بالقتل البريطاني في مصر وأبلغه بوجود خلافات بينه وبين فرنسا حول هذا الاتفاق، وأنه يود " لو وثقت بريطانيا به لأن من مصلحتها الاعتماد عليه في مواجهة الخطر الروسي" (٩١) . وأبدى، نتيجة لذلك العديد من التحفظات وعدم القبول للاتفاق الذي أعده رئيس وزراء فرنسا بعد إحداث تعديلات على اتفاق " دروفتي" وكان من شأن هذه التحفظات رفض المشروع نهائياً .

احتلال فرنسا للجزائر :

لم تكن معارضة قيام محمد على بدور عسكري في شمال إفريقيا قاصرة على دور بريطانيا والباب العالي وكذلك حكومة " مترنخ " في النمسا المعروفة بتحفظها، لكن المعارضة نمت داخل الدوائر الفرنسية نفسها حيث تراءى للمحافظين الفرنسيين أن محمد على لا ينبغي أن يشارك في دور فرنسا الذي

يحاول بضربه للمسلمين أن ينتصر للكنيسة الكاثوليكية، وكانت هذه النزعة وراء نظرة بعض السياسيين الفرنسيين لمحمد على بأنه مهما كان عميلا لهم إلا أنه يستوجب النظر إليه باحتقار باعتباره شرقيا لا يزيد عن الداي فى الجزائر وباعتباره متخلفا وكافرا، وقد عبرت بعض الصحف الفرنسية عن هذه النزعة وأيدت هذا الاتجاه مفضلة قيام فرنسا بعمل عسكري مباشر .

وقد تجلت الروح الصليبية بشكل عام وبأسلوب أكثر حدة فى سياسة فرنسا تجاه الجزائر، ولقيت سياسة العسكريين للتوسعيين الراغبين فى تعويض الخسائر الاستعمارية بعد الحروب النابليونية فى هذه الروح ما يدعم توجهها لإعادة فكرة التوسع على حساب الأراضي الإسلامية فى شمال أفريقيا، فطرحت فكرة زعامة فرنسا للدول الكاثوليكية . فقد نص بيان لمجلس الوزراء الفرنسى فى عصر " شارل العاشر " ١٢٣٩ - ١٢٤٥ هـ - ١٨٢٤ - ١٨٣٠ م، على ما يؤكد هذه النزعة فذكر : " لقد أرادت العناية الإلهية أن تثار حمية جلالكم بشدة فى شخص قتلكم على يد ألد أعداء المسيحية، ولعله لم يكن من باب الصدفة أن يدعى ابن لويس التقى لكى ينتقم للدين وللإنسانية، ولإهانتة الشخصية فى نفس الوقت.. وربما يساعدنا الحظ بهذه المناسبة لننشر المدنية بين السكان الأصليين وتدخلهم فى النصرانية . وقد وصف أحد المؤرخين الفرنسيين احتلال فرنسا للجزائر بأنه " أول إسفين دق فى ظهر الإسلام " (٩٢) .

ولعب اليهود دورا واضحا فى احتلال فرنسا للجزائر سواء من خلال انتماء مجموعة العسكريين الفرنسيين للمحافل الماسونية التى تخضع لتأثير وتوجيه اليهود، أم من خلال مشاركتهم المباشرة فى هذه الأحداث، فقد استقر فى الجزائر منذ أواخر القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى بعض التجار اليهود الذين اشتهر منهم " بيت بكرى " الذى كان يقوم بأعمال الوساطة التجارية (٩٣) . وكان بعض الدايات فى الجزائر يقوم باقتراض بعض الأموال من العناصر اليهودية لتمويل بعض النواحي التجارية، واستغلت العناصر اليهودية هذه الثقة التجارية ليقوموا بعض الدايات فى ديون لدى التجار الفرنسيين بضمانهم، ثم سرعان ما نقلوا نشاطهم إلى فرنسا، ودخلت حقوق الدايات لدى الفرنسيين واليهود فى لعبة السياسة مما عرضها للضياع والمساومة، فكانت من بين أهم أسباب الأزمة بين فرنسا ودايات الجزائر (٩٤) .

وبشكل عام فإن هذه العوامل مجتمعة قد دعت مجلس الوزراء الفرنسي لاتخاذ قرار فى نهاية سنة ١٢٤٥هـ - يناير ١٨٣٠م، بإرسال حملة لتفرض شروط فرنسا على الجزائر، وتم إرسالها بالفعل، ولم يحالف التوفيق أهل الجزائر فى المقاومة فقبلوا شروط فرنسا، ولكن فرنسا لم تحترم أى تعهد تعهدت به وبخاصة ما يخص احترامها للشعائر الدينية حيث حول المسجد الكبير فى الجزائر إلى كندرائية (٩٥)، وكذلك قيامها بمصادرة أملاك المسلمين من أهل البلاد .

نتائج سياسة محمد على فى عدن وجنوب الجزيرة العربية :

على الرغم من توافق دور محمد على فى الجزيرة العربية فى البداية مع السياسة الإنجليزية التى كانت تسعى إلى إضعاف الدعوة السلفية المسائدة للقواسم من جهة والمثيرة للمشاعر الدينية المعادية للأجانب فى المنطقة والتى كانت ذات أبعاد سلبية على مصالحهم فى المنطقة بشكل عام من جهة ثانية، إلا أن محمد على كان يدرك طبيعة تغير السياسة الإنجليزية وإمكانية تهديدها له عندما يتوافق ذلك مع مصالحها. لذلك انتهز فرصة وجود قواته فى الجزيرة العربية وأرسل حملة عسكرية إلى اليمن سنة ١٢٣٤هـ - ١٨١٩م . ومع أن ذلك لم يكن مثيرا للإنجليز لانشغالهم فى دعم وجودهم فى الخليج العربى بعد دخولهم رأس الخيمة كنتيجة لدخول قواته الدرعية، وكذلك بعدم تأثر مراكزهم التجارية فى موانئ اليمن إلا أنها ظلت تتابع الموقف عن كثب . وكان محمد على يدرك أن وجوده فى جنوب البحر الأحمر سيكون أمرا له تأثيره على السياسة الإنجليزية التى كانت تحافظ على الطريق إلى الهند، وبالتالي يضمن عدم تقلبها ضده أو معارضتها لطموحه السياسى إذا كثرت أوراقه التى كانت هذه من بينها. على أنه ربط هذا الدور بتشجيع الإنجليز على فتح الطريق التجارى إلى السويس ولينشط دورهم التجارى فى موانئ البحر الأحمر (٩٦) .

وعلى الرغم من أن هذه الخطوة فى دخول قوات محمد على اليمن كانت بعلم الباب العالى العثمانى ولصالح نفوذه إلا أن السلطة العثمانية حذرت محمد على من أبعاد الدور البريطانى الذى سيجرب عليها (٩٧)، فقد تضمنت مذكرة الباب العالى إلى " محمد على " أنه لا يجوز إئتمان الدول الأجنبية أو الإعتماد على أقوالهم " (٩٨) .

وتابعت بريطانيا هذه المسألة بترقب وحذر، وانتهزت أول فرصة تمثلت في حدوث إهانة للمقيم البريطاني في ميناء المخا وأرسلت أسطولها لدعم نفوذه وتأكيد هيئته، هذا في الظاهر ولكن الحقيقة هي دعم نفوذها في هذا الممر الحيوي، وأجبرت إمام اليمن في أعقاب قصفها للميناء ونتيجة له على التوقيع على اتفاقية تقضى باحترام حقوق المقيم الإنجليزي سنة ١٢٣٦هـ - ١٨٢١م (٩٩) .

على أن هذا العمل الذي قامت به بريطانيا قد تم في إطار اعتراف البريطانيين بتبعية المخا واليمن عامة لوالى مصر، فقد أرسل "وليم روس" مبعوث حكومة الهند البريطانية للسلطات اليمنية المحلية إلى "هنرى سولت" قنصل بريطانيا في مصر مذكرة يبلغه فيها بإبلاغ والى مصر ذلك، وكان ذلك تعبيراً عن تفوق مركز محمد على اليمن (١٠٠)، وكذلك عدم رغبة بريطانيا في هذه الفترة في فقدان تعاون محمد على على ساحة الخليج العربى والجزيرة العربية .

على أن محمد على قد أرسل قوات عسكرية سيطرت على موانئ اليمن وأبعدت المسؤولين العثمانيين أثناء صدامه معهم فى الشام سنة ١٢٤٨هـ - ١٨٣٣م . وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت وراء دفع محمد على للصدام مع العثمانيين فى الشام للتمهيد بدفعه لصد أى هجوم روسى، إلا أن دوره فى اليمن قد أثار مخاوفهم . وقد ازدادت هذه المخاوف بسبب إبلاغ المبشرين النصارى للسلطات البريطانية بعزم محمد على على الدخول فى اليمن والمناطق المجاورة لها حيث أدركت الأبعاد الخطيرة على مصالحها من أبعاد هذا المشروع (١٠١) .

وسارع الإنجليز إلى اتخاذ التدابير الكفيلة بمحاصرة دور محمد على فى الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية، فقد انتهزوا فرصة إرسال محمد على لحملة بزعامه "خورشيد باشا" لمحاصرة قوات الموحدين بزعامه "فيصل بن تركى" فى دلم وهى الحملة التى انتهت باستسلام الموحدين، وأرسلوا قواتهم البحرية لدعم نفوذهم فى الخليج وأنهار العراق أمام تزايد نفوذ قوات محمد على وبخاصة بعد فوز هذه القوات على القوة العثمانية فى معركة نزيب فى ١٢٥٤هـ - ١٨٣٩م، ووجهوا إنذاراً إلى والى مصر بضرورة تراجعها عن أهدافه فى الخليج والمتمثلة فى الزحف على العراق بعد السيطرة على الإحساء (١٠٢) .

وفى نفس الوقت واصل الإنجليز سياستهم ضد محمد على فى جنوب الجزيرة العربية حيث حملت السلطات البريطانية شيخ عدن على تقديم أرضه لها

مقابل مبلغ بسيط جدا قدره ١٥٠٠ جنيه، واستندت على ذلك العقد المصطنع ضد دور " محمد علي " في المنطقة وأرسلوا له إنذارا بالحرب إذا حدث ذلك (١٠٣) . وعلى صعيد آخر سعت بريطانيا لتفويض دور محمد علي في الشام وفي إطار إدعائها سياسة التقرب من الباب العالي العثماني ضد أطماع والى مصر وكذلك الأطماع الروسية، وأرسلت قواتها لتعزيز نفوذها في أنهار العراق وشمال الخليج، وفي نفس الوقت أرسلت حملة عسكرية استولت على ميناء عدن ١٢٥٤هـ - ١٨٣٩م (١٠٤) .

وفي أعقاب معاهدة لندن سنة ١٢٥٦هـ - ١٨٤١م التي أقرت خروج قوات والى مصر من الجزيرة العربية بما فيها شمال اليمن سلم محمد علي المناطق الداخلية مثل تهامة لحاكم شمال اليمن لتكون بذلك تابعة للدولة العلية وكذلك الموالي التي كانت في يده مثل المخا والحديدة . ونجح الإنجليز في جعل ميناء عدن هو الميناء الرئيسي لقطاع سياسة للتضييق على الموالي، إلى جانب سوء إدارة الموالي الأخرى على عكس عدن، وأدى ذلك إلى هجرة التجار إلى ميناء عدن. على أن التجار كانوا في أغلبهم من جنسيات مختلفة صوماليين وألبانيين وأتراك وغير ذلك، وبالتالي فقد ربطت بينهم المصالح المرتبطة بالبريطانيين وانفصلوا إلى حد كبير عن الشمال اليمني من حيث البعد الاقتصادي والاجتماعي، وهذا أمر يؤكد أثر البعد الاقتصادي في تشكيل القوى السياسية العربية .

الموايش

- (١) د . شوقي ضيف : فصول من الشعر ونقده - القاهرة - سنة ١٩٧١م ص ٢٧٨ إلى ص ٢٨٠ . وحول هذه القضية أنظر : د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر؛ د . نفوسة زكريا : تاريخ الدعوة الي العالمية وآثارها في مصر .
- (٢) محمد أديب غالب : من أخبار الحجاز ونجد ص ١١٠ .
- (٣) المرجع السابق ص ١١١ .
- (٤) المرجع السابق ص ١١١ ، ١١٢ .
- (٥) المرجع السابق ص ١١٤ (الجبرتي - أخبار يوم ٢٣ شوال سنة ١٢٢٢هـ - ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٠٧ م)
- (٦) محمد أديب غالب : المرجع السابق ص ١٤٥ عن أخبار الجبرتي في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٨هـ (٢٥ يونية سنة ١٨١٣م)، ويراعى أن والى الشام سليمان باشا مما جعلى محمد على يطلب من السلطان العثماني عزله وتعيين يوسف كنج والى دمشق بدله كشرط لمحاربة الدعوة السلفية، ولكن بعد نجاح محمد على فى الاتصال بالإنجليز واتجاه حملته العسكرية إلى الجزيرة العربية كان سليمان باشا حليف الدروز والإنجليز من أهم المهنيين بذلك . وثائق سياسية من تاريخ لبنان ص ١٩٨ . ويقال أن السبب فى طرد الشريف غالب يرجع إلى عدم تعاونه من قبل مع أحد البريطانيين بشأن عقد اتفاقية تجارية، كما أنه كان يعتقد أن الهدف من الحملة هو العودة للعثمانيين ولهذا كان استمراره معوقا للبريطانيين ومحمد على . د . سليمان الغنام : ص ٢١، وعن عرض عبد الله بن سعود الصلح على محمد على أنظر : محفظة ٢ بحرياً - وثيقة - بدون - صورة مكتبة عربية من عبد الله بن سعود إلى محمد على .
- (٧) الجبرتي : عجائب الآثار، أخبار يوم آخر العقدة سنة ١٢٢٨هـ (النصف الثانى من نوفمبر سنة ١٨١٣م) . أديب غالب : ص ١٤٩ .
- (٨) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٠٩ .
- (٩) حرص محمد على فى تكوين الجيش ألا تدخله عناصر مصرية واستبدل المرتزقة الأجانب بعناصر سودانية ومن غيرهم من الأفارقة، أنظر : د . تمام همام تمام : الرقيق والجنديّة فى نظر محمد على، مجلة الجمعية التاريخية المصرية - م ٢٧ لسنة ١٩٨١م ص ١٣٤ .
- (١٠) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية ص ٢٣٣ . د . جوزيف حجار : أوروبا ومصير الشرق العربى، د . بطرس الحلاق وماجد نعمة بيروت ١٩٧٦م ص ٦

- (١١) الجبرتي : عجائب الآثار - ١٠ محرم سنة ١٢٢٧هـ (٢٥ يناير سنة ١٨١٢م)، نقلًا عن : محمد أنيب غالب : المرجع السابق ص ١٣٤، ١٣٥ . ويلاحظ أننا لم نغير في حديث الجبرتي ونقلناه بأخطائه النحوية .
- (١٢) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٥ .
- (١٣) د . بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي - ج ١ - ذات السلاسل - الكويت - ب . ت ، ص ٦٤ .
- (١٤) ونعارض هنا بعض ما ورد في كتاب د . محمد حسن العيدروس : دولة الإمارات العربية من الاستعمار إلى الاستقلال (١٤٠٩ - ١٩٨٩) - ذات السلاسل - الكويت، ص ٤١ والتي استعان فيها بكتابات الدكتور جمال زكريا قاسم .
- (١٥) د . جمال زكريا قاسم : دولة بو سعيد في عمان وشرق أفريقيا، ص ٨ وما بعدها، د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق، ص ٦٦ .
- (١٦) السالمي : تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، ج ٢، ص ٣ .
- (١٧) السالمي : المرجع السابق، ص ٦٥، وما بعدها، د . جمال زكريا : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، ص ١٠٨ .
- (١٨) يعد تحالف العشائر الصغيرة التي استقطبتها المنطقة مع القواسم دليلا على عدم وجود تكتلات أو قوى قبلية كبيرة، ومن أبرز هذه العشائر آل علي وآل زعاب والحبوس والمطاريش والخواطر وغيرها، د . محمد حسن العيدروس : المرجع السابق، ص ٤٥ .
- (١٩) د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق . ص ٩٢ .
- (٢٠) د . صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي، ص ٩٧، د . سيد نوفل : الأوضاع السياسية في الخليج العربي، ج ٢، ص ٥١، ٩٢، ويراعى تأثر د . صلاح العقاد بالأفكار الغربية في وصفه القواسم بالقرصنة .
- (٢١) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : في تاريخ العرب الحديث، ص ١٨٦ .
- (٢٢) د . بدر الدين الخصوصي : المرجع السابق، ص ٩٤ .
- (٢٣) د . عبد الله سراج منسى : للمواجهة العثمانية البريطانية في الخليج العربي ١٨٦٩ - ١٩١٤ - ١٩٩٤، ص ١٠ .
- (٢٤) د . عبد الله سراج منسى : المرجع السابق ص ٩٠ .
- (٢٥) المرجع السابق : ص ١١ - ١٣ .
- (٢٦) بدر الدين عباس : المرجع السابق، ص ٢٠٠ .

- (٢٧) د . فائق حمدي طهوب : المرجع السابق، ص ٩٢ .
- (٢٨) عن شروط المعاهدة، أنظر : د . صلاح العقاد، للمرجع السابق، ص ١٠٥، ١٠٦،
د . سيد نوفل : المرجع السابق، الكتاب الثاني، ط ٢ - للقاهرة ١٩٧٢م، ص ١٦٧ .
- (٢٩) محمد حسن العيدروس : دولة الإمارات العربية المتحدة من الاستعمار إلى الاستقلال -
ذات السلاسل - الكويت سنة ١٩٨٩م، ص ٨٩ - وما بعدها؛ د . فائق حمدي طهوب :
المرجع السابق، ص ٩١، وقد أكد دور بريطانيا المساند لمحمد علي ضد الدعوى السلفية .
- (٣٠) د . بدر الدين عباس : للمرجع السابق، ص ١٢٩ .
- (٣١) د . فائق طهوب : المرجع السابق، ص ٩٧، ٩٨ .
- (٣٢) عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد، ح ٢، ص ٥٠ .
- (٣٣) د . بدر الدين عباس : للمرجع السابق، ص ١٢٩ .
- (٣٤) تقرير " كامبل " القنصل البريطاني في القاهرة إلى وزير خارجيته بالمرستون في
Correspondence Re (Persian) Gulf, Vol, 64 I060 Of ١٨٣٨/١١/٢٤
1839. Part Vi Chap Xliv, No. 369
(35) Correspondence Re (Persian) Gulf, Vol, 64 I060 Of 1839. Part Vi
Chap Xliv, No. 369
- (٣٦) د . عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث، ص ٢١٨ .
- (٣٧) د . عبد الله سراج منسى : المرجع السابق، ص ١٣ .
- (٣٨) د . بدر الدين عباس : المرجع السابق، ص ١٥٢ .
- (٣٩) د . بدر الدين عباس : المرجع السابق، ص ١٥٢ هامش (١) . ولعل رد خورشيد يوضح
طبيعة دوره وكيف أنه مال لصالح الإنجليز أو على الأكل لا يخرج عن دائرة التنسيق
بينهما .
- (٤٠) المرجع السابق .
- (٤١) محفظة ٢٦٧ عابدين - من ميرميران خورشيد إلى سني الهمم الباشمعاون الخديوى -
من نرمدة في ٣ شعبان ١٢٥٥هـ، نقلا عن د . بدر الدين عباس : المرجع السابق،
ص ١٥٦، هامش (١) .
- (٤٢) الوثيقة السابقة الملحق المرفق بها العربى، ١٣٧ حمراء فى ١٣ ربيع ثانى
١٢٥٥هـ .
- (٤٣) د . جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ١٨٤٠ - ١٩١٤، ص ٦٩، د . محمد حسن
العيدروس : المرجع السابق، ص ١١٣ وما بعدها
- (٤٤) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ٧٠، ٧١ .

- (٤٥) المرجع السابق ص ٨٠ .
- (٤٦) المرجع السابق ص ٩٢ .
- (٤٧) د . محمد عبد الرحمن برج : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ص ٤٣ .
- (٤٨) المرجع السابق .
- (٤٩) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٤٦ .
- (٥٠) د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٤٨ .
- (٥١) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٤٦ .
- (٥٢) أحمد فهد الشوابكة : الجامعة الإسلامية ص ١٠١ ، ومما أعطاه إبراهيم باشا من امتيازات للنصارى فتح محلات علنية لبيع الخمر فى دمشق والساح بحمل الصليبان وشرب الخمر فى الشارع .
- (٥٣) اتضمت فرنسا إلى جانب بريطانيا والدولة العثمانية فى الضغط على محمد على لقبول شروط الاتفاقية بعد أن هاجمت روسيا الدولة العثمانية . وكانت بريطانيا تهدف فى إشارة القوى الداخلية ضد جيش إبراهيم عدم إتاحة الفرصة لاستقرار وجود قوة والى مصرى ،
أنظر : عبد العزيز محمد عوض : الإدارة العثمانية فى ولاية سورية ١٨٦٤ ، ١٩١٤ م - دار المعارف - مصر سنة ١٩٦٩ م ص ٣٢٥ حيث يتناول دور محمد على فى فتح الشام
للممثل القنصلى الأجنبى وأثر ذلك على موقف الدول الأوروبية فى التأثير على الطوائف .
- (٥٤) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٦٢ .
- (٥٥) ذكر بعض كتاب التاريخ أن المبشرين هم الذين كانوا يعاونون من الاضطهاد ، أنظر :
د . عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات فى تاريخ العرب ص ١١٢ .
- (٥٦) جورج أنطونيوس : بقظة للعرب ص ٩٧ .
- (٥٧) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ٩٧ ، د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١١٢ .
- (٥٨) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٠٠ ، ١٠١ .
- (٥٩) عن دور بعض هذه المدارس فى إثارة الطائفية والولاءات المتعارضة أنظر : د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٤١٧ .
- (٦٠) أطلق إسم " كلوت بك " على أحد شوارع القاهرة ، وتركز فى هذا الشارع وجود دور البغاء الرسمية فى مصر التى أنشأها الاحتلال البريطانى . وما زال هذا الشارع يحمل نفس الإسم حتى الآن ، كرمز للدلالة على الآثار الأخلاقية للأوربيين فى مصر .

- (٦١) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ٩٥، ١٠٢، ١٠٣ ونكر أحد الكتاب أن دافع رجال الكهنوت المحليين من هذه السياسة هو حفظ الذات وحب للخير، أنظر : د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١١٣ .
- (٦٢) د. زكريا سليمان : للتيارات السياسية والاجتماعية بين المجدين والمحافظين ص ١٧ .
- (٦٣) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ٩٢، بيير رنوفان : تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٧-١٩١٤ م، ت : د . جلال يحيى : ص ١٣١، د . جوزيف حجار : أوروبا ومصير الشرق العربي، تـ : بطرس الحلاق وماجد نعمة - بيروت سنة ١٩٧٦م ص ٧ .
- (٦٤) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٦ . د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٦٦ .
- (٦٥) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ص ٢٠ .
- (٦٦) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٦٥ .
- (٦٧) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ٩٣ .
- (٦٨) المرجع السابق ص ٨٩ .
- (٦٩) د . سليمان الغنام : المرجع السابق ص ١٢٤ .
- (٧٠) د . جوزيف حجار : المرجع السابق ص ٢٣٢، ٢٣٣ .
- (٧١) المرجع السابق ص ٢٤١ .
- (٧٢) المرجع السابق ص ٢٤٤ - ٢٥٠ .
- (٧٣) د. جلال يحيى : المغرب الكبير - العصور الحديثة، ص ٢٩
- (٧٤) د . صلاح العقاد : المغرب العربي - القاهرة، ١٩٦٩، ط ٣، ص ١٠ .
- (٧٥) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١١، ٣٢ . وقد أشار إلى أن الكتاب الفرنسيين، والأوربيين بشكل عام، هم الذين أطلقوا مصطلح البربر على هذه الولايات في إطار دورهم في إثارة النعرة القومية .
- (٧٦) بدأت أول هذه المساعدات في إرسال السلطان سليم الأول ألفين من جنود الإنكشارية لغروج وخير الدين وإصداره أمرا لرعاياه بالتطوع للجهاد في جيشهما . د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٢١ .
- (٧٧) المرجع السابق، ص ٣٢ .
- (٧٨) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٣٣ .

(٧٩) د . جلال يحيى : المغرب الكبير (٣) للعصور الحديثة سنة ١٩٦٦م، ص ٥٦ حيث ذكر أن حسين على من أصل أرناؤوطي وأنه أحد ضباط الانتشارية، كما حافظت هذه الأسرة على طابعها العثماني .

(٨٠) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٣٥ . وذكر أن من أهم جوانب هذا الحرص هو جعل المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي في الدولة على الرغم من أن المذهب المالكي هو الذي كان سائدا . . .

(٨١) د . زكريا سليمان : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، عالم المعرفة - جدة سنة ١٤١١هـ، ص ٧٨، وما بعدها .

(٨٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية، ص ٩٥ .، وكان كل ما هو مضيء يحتكره أصحاب الأصل الأوروبي فقط .

(٨٣) حول طبيعة القرصنة أنظر : أحمد توفيق مني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا سنة ١٤٩٢ - ١٧٩٢، ط ٢ - الجزائر ١٩٧٦، ص ٧٢، وما بعدها، وعن الصبغة الصليبية للعدوان الأوروبي، ص ٧٥ .

(٨٤) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٣٤ .

(٨٥) لمزيد من التفاصيل أنظر : د . عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية - ج ٢، ص ٧١٠.

(٨٦) يراعى أن استخدام مسمى الجزائر يشير إليها باعتبارها ولاية عثمانية .

(٨٧) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٤٩، ويصعب التمييز بين هذه العناصر، عربي أو تركي أو بربري، لكنها تعبير عن مساعي الاستعمار لزرع الشقاق بين أتباع الهوية الواحدة .

(٨٨) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٨٢ .

(٨٩) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٩٢ .

(٩٠) د . جلال يحيى : المرجع السابق، ص ١٠٤ .

(٩١) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٩٣، ٩٤ . د . جلال يحيى : المرجع السابق، ص ١٠٦ .

(٩٢) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٨٦ .

(٩٣) الاسم الكامل لصاحب بيت بكري ميشيل كوهين بكري المعروف بابن زاهوت وكان صاحب تجارة في أوروبا ثم فتح مركزا له في الجزائر واتضم إليه إخوته الثلاثة

وابنه داود وصهره نافثالي بوشناق المعروف باسم يوحنا، انظر أبو القاسم سعد الله :
محاضرات في تاريخ الجزائر - للقاهرة سنة ١٩٧٦ ص ١٤ .

(٩٤) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ٨٩ . د . جلال يحيى : المرجع السابق،
ص ٩٩ .. ولمزيد من التفاصيل حول دور اليهود في الأزمة المالية .

(٩٥) د . صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٠٢ .

(٩٦) د . أحمد عزت عبد الكريم : سياسة مصر واستراتيجيتها في البحر الأحمر على عهد
الحملة الفرنسية ومحمد علي، ندوة البحر الأحمر - جامعة عين شمس ص ٣٤٢ .

(٩٧) د . جوزيف حجار : المرجع السابق ص ٢٢ .

(٩٨) وثائق عابدين : دفتر ٤ معية تركي في ١٣ رمضان سنة ١٢٣٦هـ - ص ٦٣، ومخفظة
٦ معية سنية في ذي الحجة سنة ١٢٣٦هـ .

(٩٩) د . عبد العزيز نوار : التأثير الاستراتيجي المتبادل بين منطقتي البحر الأحمر والخليج
العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ندوة البحر الأحمر ص ٣٤٩ .

(١٠٠) د . فاروق أبانظة : التنافس الدولي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن
التاسع عشر، ندوة البحر الأحمر ص ٣٧١ .

(١٠١) د . جوزيف حجاز : المرجع السابق ص ٢٤ .

(١٠٢) وثائق عابدين دفتر ٢١٢ في ٢٧ محرم سنة ١٢٥١هـ .

(١٠٣) د . جوزيف حجاز : المرجع السابق ص ١١٢ .

(١٠٤) د . عبد العزيز نوار : المرجع السابق ص ٣٥٤، ٣٥٥، وعلى الرغم من أن الحملة
البريطانية كانت بسبب هذه الأحداث في المقام الأول إلا أن دخول الأمريكيين كمنافسين

تجارين للإنجليز في اليمن قد شكل سببا هاما آخر في التعجيل باستيلاء بريطانيا على
عدن، د . فاروق أبانظة : المرجع السابق ص ٣٧٩ .

الفصل السادس

المخطط الماسوني الصليبي وانتشار الفكرة القومية فى العالم الإسلامى

- الماسونية
- المحافل الماسونية فى عاصمة الخلافة العثمانية
- انتماء الجمعيات القومية التركية إلى المحافل الماسونية
- التحالف الماسوني الصليبي ودفع الاتجاه القومي فى المشرق العربى
- الماسونية فى مصر، نشأتها ومساندتها لدور محمد على
- الماسونية فى الشام
- التحالف الماسوني الصليبي وراء فكرة القومية العربية
- مسئولية النصارى والدول الأوروبية عن أحداث ١٨٦٠م فى الشام
- التحالف النصراني اليهودي وقيام الجمعيات الماسونية فى الشام

الحركة الماسونية - أهدافها ووسائلها

للمسونية أو البناء الحر أو حركة البنائين الأحرار من أقدم المنظمات أو الجمعيات السرية في العالم التي مازالت قائمة، وهي مشتقة من كلمة "ماسون" التي تعنى بالفرنسية والإنجليزية "البناء" أو "المعمار" وتضاف إليها عادة كلمة "فرى" الإنجليزية بمعنى "حر" أو "فرانك ماسون" وكان هذا الاسم ينطق في العصر العثماني بمعنى "فرمسون"، وعرفت في العراق والشام بمعنى "فرمصون" (١).

والمحفل هو المكان الذي تمارس فيه هذه الجمعية طقوسها وممارساتها، والطريقة التي تدار بها اجتماعات فروعها المحلية. وعلى الرغم من تعدد الأبحاث التي تناولت نشأتها وأهدافها إلا أن جانباً منها مازال يكتنفه الغموض، فلا يوجد اتفاق حول نشأتها أو حول غاياتها الحقيقية. ويرجع بعض الباحثين أصلها إلى إثنتي عشر نظرية، لكن الأكثر قبولاً وعقلانية منها حسبما رجح بعض الباحثين هو ارتباطها بالجمعية الرومانية وجماعة البنائين في القرون الوسطى التي بدأت في إنجلترا ثم انتقلت منها إلى بعض بلدان شرق أوروبا (٢).

ويتفق عديد من الباحثين على أن عدد المنتمين إلى هذه المحافل حالياً بستة ملايين تقريباً منهم أربعة ملايين في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، ومليون في الجزر البريطانية، والمليون الباقي موزع على أنحاء العالم، ويرجح أن يكون هذا العدد قد ازداد كثيراً وبخاصة بعد انتشار محافل ماسونية بأسماء أخرى كالليونز والروتاري، وفي ظل التعمية والتخفي والسرية التي تحيط بهذه الجمعيات وفي ظل الإعلام الموجه الذي لا يسعى لكشفها وتوضيح طبيعتها أهدافها بعد أن سيطر أعضاؤها على كل وسائل الإعلام في كثير من بلدان العالم.

وتقدر الثروة التي تمتلكها هذه المحافل في بريطانيا وحدها في سبعينات هذا القرن بحوالى عشرين مليون جنيه إسترليني، وتزيد عن مائة مليون في الولايات المتحدة الأمريكية في نفس الفترة ومعها محافلها في بقية بلدان العالم، وهذه الثروة المتزايدة مسخرة لتحقيق أهدافها واتساع تأثيرها. والأهداف المعلنة لهذه المحافل تشير إلى حبها للخير والإنسانية والسعي لرفقيها وتقديمها من خلال التعاون والتآزر واتخاذ كافة الأسس المادية والمعنوية

للتعامل الاجتماعي والفكرى للإنسانية، وتطبيق مبادئ هامة كاللتسامح واحترام الغير وحرية الضمير والبعد عن التعصب الديني والمذهبي (٣) .

على أننا في بحث تاريخي كهذا سنكتفي بمجرد الإشارة إلى ارتباط المحافل الماسونية باليهود وبالحركة الصهيونية وبالتالي بعلاقتها بالدين والسياسة على غير ما يعن عنها في مبادئها، فتذكر نشرة المحفل الأعظم الفرنسي سنة ١٣٠٤هـ - ١٨٨٦م " كنا ندعى بأنه لا علاقة لنا مع الدين والسياسة هل كان هذا خداعاً منا ؟ لا أظن، ولكننا خشية مطاردة قوى البوليس والقواتين كنا نضطر إلى إخفاء مقاصدنا وغاياتنا ... نعم نحن نشغل بالسياسة وبالسياسة فقط في محافلنا ... لا بل بالسياسة العليا " (٤) .

وتشير مضابط المجلس الماسوني الأكبر الفرنسي سنة (١٣١٤هـ - ١٨٩٧م، إلى أنه " لا يقبل المتدينون في المحافل الماسونية لأن الذي ينخرط في المحافل يجب أن يكون حراً والماسوني الحقيقي لا يكون متديناً (٥) . كما توضح تعليمات هذه المحافل أنه " بوسع الماسوني أن يكون مواطناً على أن يكون ماسونياً قبل كل شيء وفي وسعه بعد ذلك أن يكون موظفاً أو نائباً أو عيناً و رئيس جمهورية، وعليه أن يستلهم الأفكار الماسونية، ومهما علت مكانته الاجتماعية فإنه يستوحى مفاهيمه من المحفل الماسوني لا من مكانته (٦) . ويجب على الماسونيين الذين بيدهم زمام الأمور أن يأتوا بالماسونيين إلى دست الحكم وأن يقربوهم من كراسيه وأن يكثروا من عددهم فيه " (٧) . وعن نشاط هذه المحافل دعت نشرة الشرق الأعظم الفرنسي سنة ١٣٤١هـ - ١٩٢٣م إلى أنه في سبيل دعم النظام الجمهوري فعلى الماسونية أن تتفق مع الذين لا يدعون إلى الدين أمثال الاشتراكيين والديمقراطيين ودعاة حقوق الإنسان والجمعيات المتحررة الأخرى، وعليها أن تشترك في المجالات الأخرى للعمل كالجامعات الشعبية والمدارس السياسية والمؤسسات الأخرى (٨) .

وأوحت للتعاليم الماسونية إلى الماسونيين بالتسرب إلى الجمعيات الدينية وغيرها بل والأكثر من ذلك أشارت عليهم تأسيس مثل هذه الجمعيات على أن لا تشتمل منها أية راحة حقيقية للدين، وكانت التعليمات الموجهة في هذا المجال والموجهة إلى الماسونيين " عليكم أن تلموا شمل قطيعكم أينما كنتم، حتى في المعابد الصغيرة، وعليكم أن تولوا أمورها السذج من رجال الدين

ولتطعموا - خفية - نوى القلوب الكبيرة من الرجال بقطرات من سموكم، وبغية التفرقة بين الفرد وأسرته والاقتراب من الأمور المحرمة لأنها تفضل " الثروة " فى المقامى على القيام بتبعات الأسرة، وأمثال هؤلاء من الممكن إقناعهم بالدرجات والرتب الماسونية، ويجب أن يلقن هؤلاء بصورة عريضة متاعب الحياة اليومية، وعليكم أن تنتزعوا أمثال هؤلاء من بين أطفالهم وزوجاتهم ونقذفوا بهم إلى ملاذ الحياة البهيمية (٩) .

وأهم الميلين التى رأى مؤتمر الشرق الأعظم الفرنسى سنة ١٣٤١هـ - ١٩٣٢م، أنها المرتع الكفيل بنمو الماسونية وزيادة نشاطها نحو أهدافها الجمعيات والنوادي الرياضية والفرق أو المؤسسات التى تهتم بالموسيقى وما يتفرع عنها (١٠) وتسعى الحركة الماسونية من خلال كل هذا إلى الاستيلاء على العالم عن طريق بث أفكارها، وأن تجعل سير الأمور حسب مشيئتها دون أن تلقى فى طريقها مقاومة من أحد، وعلى الماسونيين أن يقاتلوا فى الصفوف الأولى لمناهضة الأديان والقوميات والتقاليد (١١) .

والهدف البعيد لهذه الحركة هو تأسيس جمهورية ديمقراطية عالمية خفية وفقا للبيان الماسونى المؤرخ فى سنة ١١٥٩هـ - ١٧٤٤م، وبالتالى جمهورية خفية يسيطر عليها اليهود بحكم سيطرتهم على هذه الحركة (١٢) .

على أن هناك حقائق جديرة بالتسجيل فى مثل هذا الموضوع الشائك وهو أن كثيرا من الأبحاث التى تناولته قد تأثرت إلى حد كبير بتصور سابق عن الحركة سواء بعدائها للديانات وغير ذلك أم بالجوانب البراقة والنشاط الإنسانى الذى تزاوله أو تتخفى وراءه، كما أن أحدا من الباحثين لا يستطيع القطع بإمامه بكل جوانبها أو أسرارها، وبالتالى فإن إصدار أحكام قاطعة حولها يكون نسبيا فى دقته، وإن كان الحكم على نوعية المنتمين إليها أو تقويم نشاطهم واتجاهاتهم، إلى جانب ما تم التعرف عليه من أسلوبها ومنهجها وجانب كبير من أسرارها يوضح كثيرا من جوانبها وأهدافها .

كما أن التناقض والتباين بين الباحثين الذين تناولوها بين قدح أو مدح قد أسهم فى تبديد حيرة الباحثين من أصحاب الرؤية المسبقة حيث يجد كل بغيته فى القدح أو المدح فى حين ظلت الحيرة تكتنف طريق الأبحاث التى تنشذ الحيدة والموضوعية إلى حد كبير. لكن الشئ الثابت فى أساليب هذه الحركة هو الاعتماد على العوامل الاقتصادية فى تنفيذ أهدافها سواء على مستوى الأفراد أو مستوى

المجتمع أو على مستوى العلاقات بين المجتمعات، وهى بهذا الأسلوب قد استطاعت رغم صغر حجمها وقلة عدد المنتمين إليها أن تنفذ إلى كل شئ، وأن تجعل ما عدا ذلك من عوامل تتراجع إلى حد كبير، علاوة على أساليب أخرى تخدم هذا الهدف .

وعلى ذلك يرجع انتشارها فى العالم الإسلامى بعد أن تهيأت الظروف لرواج العوامل الاقتصادية على العوامل الدينية أو حتى القومية، وقد زاد تسيدتها بعد نجاحها فى السيطرة على أغلب وسائل التأثير وبفعل هيمنة العوامل الاقتصادية . وقد أسهم ذلك فى تغلغلها فى المصالح والمؤسسات والهيئات الحكومية وغير الحكومية فى كثير من بلدان المشرق العربى، وأصبحت عناصرها بمثابة عناصر استخبارات وتجسس للمشاركة فى منظومة تسعى لتحقيق هدف الحكومة العالمية للادينية الواحدة أو ما يعرف بالعلومة .

انتشار الفكرة القومية فى العالم الإسلامى

من الأمور التى تدعو للغرابة اتجاه الباحثين إلى دراسة انتشار الفكرة القومية فى البلاد الإسلامية فى ظل تجزئة للأجناس الإسلامية حيث أن ذلك أمر يدعم مسبقاً الاتجاه إلى تعميق هذه الفكرة حتى قبل أن توجد أو تصبح ذات ملامح بارزة لها تأثيرها فى الميدان الثقافى ثم الميدان السياسى وهو أمر لم يكن وارداً حين رصد هذه الفكرة، كأن تدرس القومية التركية أو العربية كل على حدة فى وقت لم تبرز فيه الخصائص المميزة أو التحديد الدقيق لمن هو تركى أو من هو عربى وبخاصة بعد مرور فترة تاريخية امتزج فيها الجانبان، ولم يكن أى منهما يستطيع أن يحدد هويته بشكل واضح برغم مكان ميلاده، فالرصيد الثقافى بينهم كان رصيذاً واحداً، وعدم وجود قيود على حرية التنقل والاستقرار أدى إلى انصهار شديد بين كافة رعايا الدولة، وابتعد بهذا المؤرخون العلمانيون عن الصواب والموضوعية فى تحديد أبعاد الحركة التاريخية وبخاصة أنهم قد اتبعوا منهج دراسة التاريخ من منظور الصفوة والمشاهير، وبعد بهم عن تصوير حقيقة الاتجاهات الشعبية وتحديد أهدافها وميولها وحياتها، فبدأ التاريخ المدون من أتباع هذه المدرسة مزوراً وملففاً .

وحتى إيران التى أسهم اعتناقها للمذهب الشيعى وصراعها السياسى مع الجزء السنى من العالم الإسلامى بقيادة العثمانيين فى أن تبرز فيها ملامح

القومية مبكرة فإنها ظلت - وما زالت - تحتفظ بجسور دينية وثقافية بالعالم الإسلامي في شرقها وغربها لم تكن تجعل عودة التصاقها بهذا العالم أمراً مستحيلاً على الأقل في نظر المجتمع الغربي، وهو أمر يفسر أسباب حرص المؤرخين الغربيين - والمؤرخين العلمانيين في بلادنا بالتبعية - على تعميق الجذور القومية في إيران كجزء من مخططهم في العالم الإسلامي كله حتى يحققوا أهدافهم في فصل القوى الرئيسية في العالم الإسلامي (إيران - تركيا - العرب) كمرحلة أولى . ثم إثارة الفتن الطائفية والعرقية من خلال الأقليات وكذلك القوميات المحلية المحددة كمرحلة ثانية .

ومع أن العداء بين الكنيسة الأوروبية والشرق الإسلامي يعود إلى جذور تاريخية قديمة إلا أن المحافل الماسونية التي تدعّم موقفها في فرنسا بالذات بعد قيام ثورتها كانت أسبق من الكنيسة في القيام بهذا الدور، وإن كانت قد استعانت بجهود الكنيسة في إثارة الأقليات المسيحية في الشرق الإسلامي على الرغم من الاختلاف في المذهب واستغلاله لتحقيق هدفها في تمزيق الدولة الإسلامية . ففي باريس كانت المحافل الماسونية التي كانت وراء حركة الترجمة الموسّعة للعديد من الكتب الفرنسية المعدة لتحقيق الهدف إعداداً جيداً ومسبقاً ومخططاً إلى اللغات التركية والعربية والفارسية، وفي باريس كانت جمعيات الدعوة القومية العربية والتركية على السواء . ولم تستطع فرنسا أن تتخفى طويلاً في مساندتها لهذه الاتجاهات تحت قناع الحرية ومساندة دعائها حيث خرجت حملتها بقيادة نابليون بونابرت إلى مصر، وتبعتها بحملة احتلت على أثرها الجزائر في حين وقفت مدافعة عن استقلال أقاليم البلقان، وأكدت بهذا وبعيد من المواقف المشابهة، أن الحرية المنشودة قاصرة على الشعوب الأوروبية وأن العداء الشديد موجّه للشعوب الإسلامية.

وإذا كانت هذه المحافل قد خضعت في البلاد الاستعمارية لسياسة هذه البلاد إلا أنها استطاعت أن تتسرب لتهيمن على صانعي القرار السياسي من خلال العناصر اليهودية ذات التأثير الاقتصادي، وتمكنت سياسة اليهود في هذه المحافل من أن تجد سبيلاً مقبولاً حتى لدى بعض الكارهين لليهود في هذه البلدان وهو مساعدتهم حتى تتخلص منهم في إنشاء وطن قومي لهم ملتقين في ذلك مع النزعة الصهيونية ومن خلال التوافق مع الأهداف الاستعمارية بكل أبعادها

المحافل الماسونية فى عاصمة الخلافة العثمانية

تعود نشأة المحافل الماسونية فى الدولة العثمانية إلى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى فى عهد السلطان سليم الثالث، وقد بدا ذلك من خلال احتفال الجالية الفرنسية فى العاصمة العثمانية بذكرى الثورة الفرنسية سنة ١٢٠٧هـ - ١٧٩٣م ، حيث تليت وثيقة حقوق الإنسان، وشرب المحتفلون " الخمر نخب الجمهورية الفرنسية ونخب السلطان سليم الثالث أيضاً ونخب أصدقاء الحرية والأخوة العالمية " ومع أن هذه الأفكار لم تؤثر فى البداية فى المجتمع العثمانى المسلم إلا أن ابتعاد هذه الأفكار عن الارتباط بالدين المسيحى قد سمح لها بفتح قنوات ثقافية وسط بعض المثقفين من المسلمين الذين بهروا بشعارها (حرية ومساواة وإخاء) وهى شعارات الحركة الماسونية (١٣) .

ويبدو أن مثل هذه الأفكار قد أخذت فى طريقها السلطان العثمانى سليم الثالث نفسه، فقد وطّد صلته بالأوروبيين، وبخاصة الفرنسيين، فاستقى العديد من المعلومات السياسية وغيرها من قادة فرنسيين كى تعينه على تطبيق خطته الإصلاحية، واعتقد أن فرنسا هى أرقى دول الفرنجة (١٤) وقد تولى سليم السلطنة فى نفس العام الذى قامت فيه الثورة الفرنسية ١٢١٤هـ - ١٧٨٩م، ورأى مصير لويس السادس عشر الذى ظل يرأسه مدة طويلة.

ولم يكن هذا دافعه إلى الإصلاح فقط حتى يتقى مثل هذه النهاية بل إن أحوال الإمبراطورية العثمانية التى كانت تسير فى طريق التدهور، وتوصية والده بضرورة إصلاحها، كلها كانت دوافع أقتعته - وهو فى سن الشباب - على ضرورة السير فى اتجاه الإصلاح .

ويذكر الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أن الثورة الفرنسية قد وفّرت - من خلال حملة نابليون بونابرت على مصر - نموذجاً فرنسياً للاقتباس عن الغرب، وهو - فى رأينا - النموذج الماسونى الذى اتبعه " محمد على " . كما أن تقلّبات الثورة الفرنسية جعلت الآستانة تغص بعدد كبير من الفرنسيين الذين نشروا أفكاراً جديدة عن الحرية، وقدموا المساعدة العسكرية للعثمانيين، ورغم تذبذب النفوذ الفرنسى صعوداً وهبوطاً، إلا أن أفكاراً غير تقليدية أخذت تنتشر لدى بعض شباب العثمانيين، بل فى الباب العالى والقصر (١٥) . ولم تكن هذه الأفكار إلا الحركة الماسونية التى بدأت توطّد أقدامها فى عاصمة الخلافة الإسلامية .

وعرفت هذه الأفكار الخبيثة من خلال الحكام الذين وقعوا فريسة لها وهم سليم الثالث فى الآستانة ومحمد على فى مصر وعثمان باشا فى البلقان، طريقها إلى الانتشار من خلال حركة ترجمة واسعة كانت فى بدايتها حكومية الطابع، وقد نقلت العديد من الكتب الفرنسية إلى العربية والتركية، وأسهمت فى خلق جيل جديد من المثقفين فى العالم الإسلامى يتبنى أفكارها ويروج لها، ويعتبرونها الأساس الذى لا بديل عنه إلى الإصلاح والتقدم. وزاد من حجم وكيف هذا الاتجاه البعثات العلمية التى أرسلها هؤلاء الحكام إلى فرنسا حيث عاد المبتعثون متشبعين بالاتجاه العلمانى المقترن بالدعوة إلى القومية (١٦).

وقد توارت - إلى حد ما - الحركة الماسونية فى تركيا فى بداية عهد السلطان محمود الثانى (١٢٢٢ - ١٢٤٣هـ) وذلك بسبب الثورات الدينية التى قامت ضد سليم الثالث ثم قتله، إلا أنها سرعان ما عالت لتمارس نشاطها حيث نجحت فى أن تضم العديد من المثقفين والعسكريين والسياسيين الأتراك إلى صفوفها كان من أبرزهم " مصطفى رشيد باشا " الذى وصل إلى منصب وزير الخارجية فى أواخر عهد السلطان محمود الثانى.

وكان مصطفى رشيد سفيراً للدولة العثمانية فى لندن وباريس وتعلم اللغة الفرنسية، وأبدى من خلال ما قرأه بالفرنسية سعيه لمسيرة الإصلاح على نمط غربى علمانى ملحد وهو نفس الخط الذى سلكه محمد على الذى كان رشيد يحبه ويغبطه على حب الأوروبيين له، وكان أول عمل يقوم به فى هذا السبيل، والذى ساعده عليه صغر سن السلطان الجديد عبد المجيد، حيث لم يكن يتعدى السادسة عشر عند توليه السلطة، هو " خط شريف جلخانة " الذى يعتبر بمثابة دستور ينظم خطوات الإصلاح المنشود. فلم يكن هذا الدستور مستمداً من الشريعة الإسلامية (١٧)، بل سار على هدى كثير من الدساتير الأوروبية وبخاصة الفرنسية التى كانت بعيدة عن معالجة مصالح المسلمين والعثمانيين بشكل خاص.

وقد استغل رشيد باشا صغر سن السلطان وعدم خبرته، وساعدته الأزمات التى كانت تحيط بالدولة وبخاصة الخارجية، فلم يجد أمام هذه الظروف عناء فى إقناع السلطان الشاب بمنهجه الإصلاحى. وحاول أن يستحوذ على رضا السلطان ودعمه، فعقد حفلاً أرضى فيه غرور الشباب فى الظاهر ولكنه قصد به دعم خطته وأحاطه بالقوات العسكرية، وسمح لبطريركى الكنيستين اليونانية

والأرمنية وكبير حاخامات اليهود بحضور الحفل وقدم مصطفى رشيد - خط شريف جلاتة - على أنه من السلطان، ثم قدمه للصدر الأعظم وفي حضور شيخ الإسلام، فأقر ذلك الخط أو الدستور في هذا الحفل المديبر (١٨) وكان أبرز ما تضمنه ذلك الدستور هو الإعلان عن المساواة بين جميع رعايا الدولة وتوفير الإخاء بين الجميع على أسس غربية لا إسلامية، وهو أمر اعتبره بعض الأوروبيين بمثابة - العهد الأعظم - بالنسبة للعثمانيين (١٩) .

ولم يلق - الخط الشريف - أو الدستور الذي سادته مصطفى رشيد وقلة من المحيطين به ترحيباً أو تأييداً من الرأي العام العثماني المسلم لعموم ما تضمنه وليس بشأن المساواة - المقررة في المبادئ والتشريعات الإسلامية أصلاً - فأعلن علماء الدين تكفيرهم لرشيد باشا، واعتبروا الخط الشريف منافياً للقرآن الكريم في مجمله، ورأوا أن ذلك وبغض النظر عن النواحي الدينية سيؤدي إلى إثارة للقلق بين رعايا السلطان (٢٠) وكان هذا الهدف بالفعل هو ما خططت له الحركة الماسونية وهو إثارة الشعور القومي لدى الشعوب المسيحية في البلقان، سواء أكان رشيد باشا قد تنبه له أم لا، وذلك على الرغم من انضمام بعض رجال الدين المسيحيين إلى الاتجاه الإسلامي المعارض للدستور الجديد .

ومع أن هذه المعارضة لرشيد باشا ودستوره قد نجحت في إقصائه سنة ١٢٥٦هـ - ١٨٤١م إلا أنه عاد بعد أربع سنوات سنة ١٢٦٠هـ - ١٨٤٥م ، تساتده مجموعة من أعضاء المحافل الماسونية الذين ركزوا على السير في طريق التحول العثماني، وإفساح المجال لتدعيم الدعوة إلى القومية الطورانية، وتدريب عناصر عسكرية من الولايات تكون قادرة على مساندة هذه الدعوة في الولايات في الوقت المناسب وليكتمل مخطط تمزيق الإمبراطورية الإسلامية، وتم تجنيد عناصر ماسونية مسيحية ويهودية لهذا الغرض تحول بعضها ظاهرياً إلى الإسلام مثل الكونت قسطنطين بورزيسكى الذي تسمى باسم " مصطفى جلال الدين باشا " وهو مسيحي من أصل بولندي، ودخل إلى الدولة العثمانية بعد فشل ثورة ١٢٦٣هـ - ١٨٤٨م، وانضم إلى المحفل الماسوني، ومارس نشاطاً كبيراً في نشر الفكرة الطورانية (٢١) .

وهكذا استطاعت المحافل الماسونية من خلال انتشارها في دولة الخلافة الإسلامية أن تبت أفكارها من خلال عناصر مجتدة ومدربة تحركها أطماعها

الشخصية، وبغض النظر عن إدراكها لحقيقية الدور الذي تلعبه أم لا، أن تسهم في المرحلة الأولى في تمزيق دولة الخلافة الإسلامية، ففي وقت واحد كان دور محمد على في مصر والمنطقة العربية، وعثمان باشا في البلقان، وإصلاحات تنحو إلى العلمانية يتبناها بعض السلاطين العثمانيين ودعاة الطورانية والتحديث الذين تحولوا من المسيحية واليهودية إلى الإسلام إسمًا حتى يكتمل المخطط المنشود . وتؤكد بروتوكولات حكماء صهيون هذا المخطط حيث ورد - في البروتوكول الخامس عشر - سنعمل كل ما في وسعنا على منع المؤامرات التي تدبر ضدها حين نصل إلى السلطة متولين إليها بعدد من الانقلابات السياسية المفاجئة التي سننظمها بحيث تحدث في وقت واحد في جميع الأقطار، وإلى أن يأتي الوقت الذي نصل فيه إلى السلطة سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونية الأحرار في جميع أنحاء العالم " (٢٢) .

انتماء الجمعيات القومية التركية إلى المحافل الماسونية :

يتفق أغلب المؤرخين على أن ظهور الدعوة إلى القومية التركية يرجع إلى حركة تركيا الفتاة التي تأسست في عهد السلطان عبد العزيز ١٢٧٨-١٢٩٣هـ ١٨٦١-١٨٧٦م، أو قبله بسنوات قليلة (٢٣)، وقد اتخذت في البداية من باريس ولندن مقرا لها حوالي سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦٠م، ثم انتقلت بعد ذلك إلى جزيرة سالونيك وتسمت باسم الاتحاد والترقي. ويبرر المؤرخون نشأتها خارج تركيا بأنه يرجع إلى استبداد السلاطين دون أن يبحثوا عن الأسباب الحقيقية في ذلك. والتي ترجع - في رأينا - إلى انتماءات مؤسسيها وطبيعية مبادئها.

أما عن انتماءات مؤسسيها فيذكر أحد المستشرقين أنهم كانوا " خليطا من الأتراك واليهود وعناصر عثمانية من أجناس أخرى " (٢٤)، والحقيقة أن العناصر التركية التي شاركت في هذه الجمعيات كانت في أغلبها من اليهود الذين استوطنوا جزيرة سالونيك بعد خروجهم من الأندلس، ثم تحولوا في أغلبهم إلى الإسلام ظاهريا، وهم من يطلق عليهم اسم يهود الدونمة، وقد استمر ارتباط هذه العناصر باليهود أكثر من ارتباطهم بالدولة العثمانية بعد تحولهم إلى الإسلام، وشاركوا العناصر اليهودية في العمل على تحقيق أهدافهم في تمزيق الإمبراطورية العثمانية، ومن الدلائل التي تؤكد هذه الحقيقة ما قاله رئيس دولة

إسرائيل " إسحاق بن زفى " فى كتاب له بعنوان " الدونمة " صدر فى ١٩٥٧م ذكر فيه " أن يهودا كثيرين، وكثيرين جدا يعيشون بين الشعوب بطبيعتين إحداهما ظاهرة وهى اعتناق دين الشعب الذى يعيشون فيه اعتناقاً جماعياً وظاهرياً، والثانية باطنية وهى إخلاص عميق لليهودية " (٢٥) وفى تعريفه للدونمة ذكر أنها طائفة مسلمة يهودية لا تزال منذ زعمت الإسلام تعيش فى تركيا بوجه مسلم، وهذا ما ساعدها على التداخل فى شؤون تركيا السياسية والاقتصادية والتربوية والتوجيه الفكرى (٢٦) ولم تمتزج هذه العناصر بالعناصر الإسلامية سوى من الناحية الظاهرية فى حين ظلت تحافظ على استمرار يهوديتها وفقاً لتعاليم ثابتة ومتوارثة يحفظونها بينهم ويواصلون الالتزام بها، ويوضح رئيس دولة إسرائيل فى مؤلفه هذه التعاليم فىقول : " لا تتزاجوا إلا فيما بينكم ولا تأخذوا من عادات الآخرين إلا الظاهر، ينبغى أن نعنى عيونهم عن الحقيقة، ونحافظ على الاسم المزدوج " (٢٧)، وكان من أبرز هذه العناصر فى الجمعية أنور وطلعت وجمال وجاويد وخالدة أديب ثم مصطفى كمال الذى عرف بعد ذلك بأتاتورك.

أما العنصر الأخير الذى تكونت منه جمعية الاتحاد والترقى فكان من بعض النصارى والمسلمين من العرب، وهم جميعاً من أعضاء المحافل الماسونية من أمثال خليل غاتم وهو عربى مسيحى من بيروت ونائب فى مجلس المبعوثان، وأنشأ جريدة أسماها " تركيا الفتاة " وكذلك " أحمد رضا " الذى أصدر مجلة "المشورة " (٢٨) أما عن أهداف الجمعية فقد تعددت بتعدد عناصر تكوينها، وبالقطع كان هدفها الرئيسى هو تحقيق الأطماع اليهودية التى تشكل العنصر الغالب فيها والذى يتركز فى الهجرة إلى فلسطين، ورأت أن ذلك لن يتحقق إلا بالسيطرة على مقاليد الأمور فى الحكومة التركية، وهو ما يسميه أحد المستشرقين إقامة حكومة صالحة للدولة على أساس انصهار الأجناس كلها (٢٩)، وبشكل يمكنهم من تغيير القوانين التى تعوق تحقيقهم لهذا الهدف، إلى جانب بعض الأهداف التى تسهم فى توجيه الدولة إلى الاتجاه العلمانى وهى الأهداف التى كان يرمى إليها دستور سنة ١٢٩٢هـ - ١٨٧٦م الذى أعده مدحت باشا. وحين تنبه السلطان عبد الحميد لأبعاد هذه الجمعية وحقيقة أهدافها المنافية للاتجاه الإسلامى، اتخذ العديد من التدابير لمحاصرة نشاطها، فتحولت إلى جمعية سرية (٣٠)، واتخذت مقرها سالونيك حيث الأغلبية اليهودية إلى

جانب الحماية الأوروبية، ورأت أن كل أهدافها عرضة للتجمع أو الفشل إذا ما استمرت هذه السياسة، فجعلت هدفها هو السعى لخلع أو قتل السلطان عبد الحميد، واتهمته بالاستبداد والرجعية، وهى تهم التصفقت باسمه وشاعت بين كثيرين من المؤرخين باختلاف منظورهم (٣١)، وتناقلها كثيرون من كتاب التاريخ - بوعى أو بغير وعى - حتى جعلوها من البديهيات والمسلمات نظرا لامتلاك الماسون لوسائل النشر والتأثير.

ويؤكد بعض المؤرخين صلة الحركة القومية التركية بشكل عام وجمعية الاتحاد والترقى بشكل خاص بالحركة الماسونية، فيذكر الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أن بعض الشباب العثماني الذي تلقى تعليمه فى أوروبا قد أسسوا جمعية " شباب العثمانيين " سنة ١٢٨١هـ - ١٨٦٥م، والتي - كانت تسئلهم أفكار الكاربونارى الإيطاليين "، ومن أعضائها نامق كمال والأمير مصطفى فاضل الأخ غير الشقيق للخديوى إسماعيل حاكم مصر (٣٢)، وأن " نامق كمال ورفاقه قد حاولوا نشر أفكارهم عن طريق تربية الرأى العام على نمط ما كان يجرى فى أوروبا الغربية " (٣٣)، قد وقف هذا الفريق من الشباب ضد السلطان عبد العزيز حين أراد أن يستعيد السلطة بيده ويقوى مركزه مستعينا ببعض المحافظين المسلمين، وساندتهم أحد أعضاء المحفل الماسوني وهو مدحت باشا فى اتجاههم الرامى إلى إثارة الفلاقل ضد السلطان وتعيين ولى العهد الأمير مراد الذى كان هو الآخر منتميا لهذه المحافل (٣٤).

وتؤكد الوثائق البريطانية ارتباط جمعية تركيا الفتاة أو الاتحاد والترقى بالمحافل الماسونية، فقد ورد فى رسالة السفير البريطانى " جيرارد لاوثر " إلى وزير خارجيته " هاردينغ " فى سنة ١٣٢٧هـ - ٢٩ مايو ١٩١٠م، أن " عماتونيل قوة صو " وهو يهودى من سالونيك، ويمثلها فى مجلس المبعوثان العثماني، أسس بالتعاون مع الماسونية الإيطالية محفلا فى سالونيك سماه محفل ماسيدونيا ريزورتا، ويبدو أن " قوة صو " أقتع رجال تركيا الفتاة ضباط ومدنيين بالانتماء إلى الماسونية، وهدفه من ذلك فرض النفوذ اليهودى غير المستساغ على الأوضاع الجديدة فى تركيا، وإن كان يتظاهر بأنه إنما يريد مساعدة رجال تركيا الفتاة فى تضليل جواسيس السلطان عبد الحميد، ومنحهم الأمن فى محفله الماسونى، لأن المحفل الذى ينعقد فى بيت أجنبى يتمتع بالحصانة الممنوحة للأجانب فى الدولة العثمانية ضد الملاحقة والتفتيش ويظهر أن المخططين

لحركة تركيا الفتاة كانوا بالدرجة الأولى من اليهود، وكانت شعارات أعضاء تركيا الفتاة الحرية والعدالة والإخاء من ابتكار الماسونيين الإيطاليين، وكانت ألوان علم الحركة الأحمر والأبيض هي نفس ألوان علم الماسونية الإيطالية، وبعد مدة قصيرة من انقلاب ١٣٢٥هـ - ١٩٠٨م، وحالما انتقلت جمعية الاتحاد والترقي إلى القسطنطينية - استانبول - أصبح معروفًا أن عددا كبيرا من قادتها كانوا ماسونيين، وأخذ " قوة صو - يلعب فيها دورا كبيرا، ومن ذلك نجاحه في السيطرة على فرع جمعية الاتحاد والترقي في البلقان . وقد لوحظ أن اليهود المحليين والأجانب على اختلاف انتماءاتهم كانوا متحمسين للعهد الجديد، ومع أن جمعية الاتحاد والترقي تظاهرت كذبا وزيفا بتحويل نفسها من جمعية ثورية سرية إلى حزب سياسي وجمعية اجتماعية ذات نظام داخلي مغلق، إلا أنه لوحظ في الوقت نفسه أن المحافل الماسونية أخذت تظهر بكثرة، كما ينبثق الفطر من باطن الأرض، في جميع المدن الرئيسية والصغرى في مقدونيا والعاصمة كذلك. ولا يحتاج المرء إلى كثير من التجري والتحقيق ليعلم أن سرية المحافل الماسونية قد استخدمت جزئيا لإخفاء الإجراءات الداخلية للجمعية، التي أعلنت أنها لم تعد سرية، ويبدو أن جمعية الاتحاد والترقي مازالت تقوم بدعاية سرية، ويبدو أن ذوي المناصب المهمة وغيرهم من الموظفين قد أفهموا أن مناصبهم وترقياتهم، وبالتالي موارد رزقهم تتوقف على دخولهم في المحافل الماسونية حيث يصبحون أخوة، وقد دخل في الماسونية معظم نواب جمعية الاتحاد والترقي في مجلس المبعوثان والأعيان، وأصبحوا أعضاء في المحفل الماسوني، الدستور، والذي كان من كبار رؤسائه طلعت بك وزير الداخلية وجاويد بك وزير المالية (٣٥) .

ولعل هذه الوثيقة ترد على ما ذهب إليه كل من الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى والدكتور محمد أنيس في أن المحافل الماسونية لم تلعب دورا رئيسيا في الثورة بحكم أن الكثيرين من أعضاء تركيا الفتاة كانوا يقيمون في المناطق الريفية الداخلية التي لم تشهد نشاطا ماسونيا، وأن التنظيم الذي ساعد المحافل الماسونية تمثل في الطريقة الجكناشية الصوفية (٣٦)، فمع أننا لا ننكر الدور الذي لعبته هذه الطريقة في مساندة الحركة الماسونية في الدعوة للقومية التركية المناهضة لاتجاه السلطان عبد الحميد إلا أننا نؤكد انتماء الكثيرين من مشايخ

هذه الطريقة للمحافل الماسونية (٣٧)، وأن الأعضاء الماسون كانوا أسبق من غيرهم في مساندة الثورة .

التحالف الماسوني الصليبي ودفع الاتجاه القومي في المشرق العربي الإسلامي

أولاً : الماسونية في مصر - نشأتها - ومساندتها لدور محمد علي باشا

اتبعت الماسونية في مصر سنة ١٢١٢هـ - ١٧٩٨م، على يد رجال الحملة الفرنسية حيث مهد لها نابليون، ثم أسس خلفه " كليبر " ومعهم مجموعة من ضباط الجيش الفرنسي الماسونيين محفلاً في القاهرة سمي محفل إيزيس، وأوجدوا له طريقة خاصة به هي الطريقة الممفيسية أو الطريقة الشرقية القديمة (٣٨)، وقد تمكن هذا المحفل من أن يضم إليه بعض الأعضاء من المصريين وإن كانوا قلة، ثم انحل هذا المحفل رسمياً في أعقاب اغتيال كليبر سنة ١٢١٤هـ - ١٨٠٠م، وظل أعضاؤه يعملون في الخفاء وبسرية تامة كطبيعة هذه الحركة حتى أعيد تأسيسه سنة ١٢٤٥هـ - ١٨٣٠م (٣٩) .

ويشير المنشور الأول الذي وزعه نابليون على المصريين إلى أنه قد سعى لنشر هذه الأفكار منذ بداية وصول الحملة فيذكر فيه - قولوا لهم - أي المصريين - أن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط " (٤٠)، وكان من أهم الموضوعات التي أثارت الجبرتي في هذا المنشور هو ادعاء الفرنسيين بأنهم مسلمون ومحبون للإسلام، وأبدى تعجبه من تضمن المنشور لعبارة " لا إله إلا الله لا ولد له " حيث وجد في ذلك تناقضاً مع ديانتهم المسيحية، وعلق على ذلك بقوله : " كيف وأن الله خلق الناس بعضهم فوق بعض درجات " بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد ولا شريك في ملكه - إن في ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون إلى الملل الثلاث، ومخالفون لهم بل وبجميع الملل، موافقون للمسلمين في ذكر التسمية ونفى الولد والشريك، ومخالفون لهم في عدم الإتيان بالشهادتين وصحة الرسالة، ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعطومة من الدين بالضرورة. وموافقون للنصارى في غالب أقوالهم وأفعالهم، ومخالفون لهم في القول بالتثليث وجدد الرسالة أيضاً ورفض ديانتهم وقتل القسس، وهدم الكنائس،

وموافقون لليهود في التوحيد، فإن التوحيد لا يقوله اليهود بالتثليث، وإنما هم مجسمة مخالفون لهم في ديانتهم، والذي تحرر من عقائدهم أنهم لا يتفقون على دين، ولا يتفقون على ملة، فكل واحد منهم ينحو ديناً، يخترعه بتحسين عقله ومنهم الباقي على نصرانيته المتكتم لها، وفيهم فرق من اليهود الحقيقيين، ولكن كل ذي دين فهو سائر مصر عليه، موافق للجمهور في ضلالهم المصريين عليه (٤١)، ولا تنفق مع من يرجع ذلك إلى أثر الفكر العلماني الذي ساد فرنسا بعد الثورة بل إن مبدأ المساواة بين الأديان، لا إنكارها، هو أساس في الفكر الماسوني (٤٢) .

وقد أبدى العلماء المصريون تخوفهم من هذا الاتجاه برغم عدم فهمهم له أو إدراكهم لطبيعته أو لأبعاده (٤٣)، فحينما وضع نابليون طيلساتة موشاة بعلم الثورة الفرنسية المثلث (حرية - إخاء - مساواة) على كتف الشيخ الشرفاوي ألقى بها الشيخ على الأرض رافضاً ارتدائها (٤٤)، كما رفض المشايخ كذلك وضع علامة - الجوكار - على صدورهم وهي علامة يقال لها الوردية (٤٥)، ولاشك أن العلم والعلامة (الجوكار والوردية) هي إشارة ماسونية تشير إلى تأثير الحركة الماسونية على الثورة الفرنسية، وكذلك تعبير عن تأثير قادة الحملة بفكر هذه الحركة .

ويبدو تأثيرهم بفكر هذه الحركة كذلك وسعيهم لنشره بين المصريين فيما حاولوا فرضه من العادات التي استهجنتها المصريون كالبغاء والسفور وتشجيع النساء من الحرافيش ونساء الهوى على ارتكاب المحرمات بشكل علني واضح (٤٦)، حيث يعد هذا الأمر من بين أساليب انتشار الماسونية (٤٧) .

وتوحي بعض الدلائل على أنهم - أي الفرنسيين - قد نجحوا في ضم بعض المصريين من المشايخ والعلماء من بينهم الشيخ - حسن العطار - إلى المحفل الماسوني الذي أسسه كليبر سنة ١٢١٤هـ - ١٨٠٠م، فبعد أن هرب الشيخ حسن العطار إلى الصعيد في أعقاب قدوم الحملة كغيره من العلماء ثم عاد إلى القاهرة على أثر دعوة الفرنسيين للعلماء اتصل على الفور برجال الحملة ونقل عنهم علومهم، وفي نفس الوقت تولى تعليمهم اللغة العربية (٤٨)، وقد اندمج إلى حد كبير في علومهم، وكثيراً ما تغزل العطار في أشعاره بأصدقائه منهم (٤٩)، ودعت هذه الأمور أن يوصف العطار بأنه من دعاة التجديد (٥٠) وقد توثقت صلة الشيخ العطار بمحمد على بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التي

يعتمد عليها محمد على فى خطواته التجديدية وهو أمر يشير إلى وجود صلة بين محمد على والمحفل الماسونى المصرى الذى تأسس إبان الحملة الفرنسية (٥١) .

كما أن تطور الأحداث يشير إلى تشبع محمد على بالأفكار الماسونية التى كان مهياً لها بحكم تكوينه الطبيعى، فينقل عن محمد على قوله وهو يفاوض الفرنسيين على مسألة احتلال الجزائر " ثقوا أن قرارى لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفوننى وتعلمون أننى متحرر من هذه الاعتبارات التى يتقيد بها قومى.. قد تقولوا أن مواطنى حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها " (٥٢) .

وقد شهد عصر محمد على تأسيس أكثر من محفل ماسونى فى مصر فقد أنشأ الماسون الإيطاليون محفلاً بالإسكندرية سنة ١٢٤٥هـ - ١٨٣٠م، على الطريقة الاسكتلندية، وذكر البعض أنه لم يكن محفلاً ماسونياً بل كربونارياً وأن العامة قد خلطوا بينهما لوجود بعض السمات المشتركة كالسرية التامة واستخدام الرموز ووحدة التعارف بين أعضائها بواسطة إشارات ولمسات. لكنهما يختلفان من حيث التكوين والوسائل الخاصة بتحقيق الأهداف حيث أن الماسونية متدرجة فى تطبيق أهدافها فى حين أن الكربونارية تلجأ إلى أسلوب الثورة الفجائية (٥٣)، وأن أول محفل ماسونى أنشأه الإيطاليون سنة ١٢٦٥هـ - ١٨٤٩م، ثم تلاه العديد من المحافل التى أنشأوها فى مصر مثل محفلى كايوغراكور بمبىاى بشرق الإسكندرية ومحفلى أهرامى والكون بشرق القاهرة (٥٤)، كما تم تأسيس مقام يشغل بالدرجات العليا حتى الدرجة ٣٣ عام ١٢٨٠هـ - ١٨٦٤م، وأعطى له سلطة تشييد مقامات أخرى فى الجهات المصرية المختلفة، وذكر جورجى زيدان أن هذه المحافل كانت على وفاق تام مع محفل الأهرام الفرنسى.

أما الفرنسيون الماسون فقد أسسوا محفلهم الأول من كوادى المحفل المؤسس إبان الحملة سنة ١٢٥٣هـ - ١٨٣٨م، فى القاهرة وسمى محفل ممفيس وكان تحت المجلس العالى الممفيسى الفرنسى، وتبعه محفل آخر لهم فى الإسكندرية سنة ١٢٦١هـ - ١٨٤٥م، تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسى وضم العديد من أبناء مصر إلى جانب العناصر الأجنبية، وكان منهم الأمير حليم بن محمد على وكذلك الأمير عبد القادر الجزائرى (٥٥)، إلى جانب الإيطالى " زولا " الذى وصل إلى درجة أستاذ أعظم للشرق الأعظم والمحفل الأعظم المصرى، لكنه هاجم الماسونية وشهر بها فى نهاية حياته فطرده وتم شطب اسمه منها

وتأخر إنشاء المحافل الإنجليزية في مصر إلى عهد " الخديوى إسماعيل " حيث أنشئ " محفل الكونكورد الشرق " وكان أغلب أعضائها من ضباط الجيش (٥٦) وكانت اللغة العربية والإنجليزية هي اللغة الرسمية لهذه المحافل ما عدا محفل " جرسيا " الذى كان يعمل باللغة اليونانية، ومحفل " كوكب الشرق " الذى اشتغل باللغة العربية (٥٧) .

وبشكل عام يعتبر عصر إسماعيل هو أزهى عصور الماسونية فى مصر بعد عصر " محمد على " حيث كان انضمامه إليها وحمايته ودعمه لها سببا فى ازدياد عدد محافلها وتوسع نشاطها (٥٨)، تأسست المحافل الماسونية الوطنية إلى جانب المحافل الأجنبية، وانتمى إليها عدد كبير من كبار الملاك والأعيان والعلماء وبعض مشايخ الأزهر وفى مقدمة كل هؤلاء ولى العهد " توفيق " .

وقد سعت إنجلترا لتقريب بعض أعضاء محفل " كوكب الشرق الماسونى المصرى " وبخاصة الذين كانوا يضيّقون بسياسة الخديوى الاستبدادية، وشجعتهم على سياستهم المتوافقة مع سياستها الرامية إلى عرقلة النفوذ الفرنسى الذى كان يساند الخديوى وبالتالي المساهمة فى زيادة حجم النفوذ الإنجليزى (٥٩)، وكانت تلك الأمور تشير إلى دخول الصراع السياسى بين إنجلترا وفرنسا حول نفوذهما فى مصر داخل هذه المحافل .

ونجح الإنجليز فى تقريب عدد من أعضاء المحفل الماسونى المصرى بفروعه الراغبين فى مقاومة إسماعيل ومن خلفه النفوذ الفرنسى باسم مقاومة نفوذ الأجانب، كما نجحوا من خلال محافلهم فى العاصمة العثمانية فى دفع السلطان " عبد العزيز " لتقريب الأمير حليم بن محمد على الذى كان يطمع فى تولى عرش مصر بعد " إسماعيل "، ولكن " إسماعيل " سعى إلى تغيير نظام الوراثة ووضع ابنه " توفيق " وليا للعهد، فتقرب الإنجليز من الأمير حليم وكرسوه فى محفل " البلور - أو البلوار " الإنجليزى سنة ١٢٨١هـ - ١٨٦٥م فى حفل كبير شهده كبار الماسونيين الإنجليز، ورقوه إلى أعلى المراتب فى هذا المحفل وعينه " أستاذ أعظم إقليمى للديار المصرية "، وثبتوه فى وظيفته عند زيارته لانجلترا سنة ١٢٨٣هـ - ١٨٦٧م (٦٠) .

وقد أدى الاهتمام الماسونى الإنجليزى بالأمير " حليم " إلى اضطهاد إسماعيل له ولمحفظه بعد أن توجس خيفة من نشاطه فصادر أملاكه ونفاه خارج البلاد، وتم تعيين الإيطالى " زولا " خلفا له (٦١) وتعهد الماسون الإنجليز

بسبب هذه الإجراءات بعدم تأسيسهم لمحافل أخرى في مصر (٦٢)، لكنهم عادوا وأسسوا المحفل الأكبر الإقليمي لمصر والسودان سنة ١٢١٦هـ - ١٨٩٩م، بعد احتلال إنجلترا لمصر والسودان، وعينوا للورد " كتشنر " أستاذا أعظم لهذا المحفل (٦٣) .

وفي عام ١٢٩٣هـ - ١٨٧٧م، تقرر الانتقال بالمحفل الأكبر المصري من الإسكندرية إلى القاهرة. وأصبحت أغلب المحافل الماسونية المصرية التي وصل عددها حتى هذا التاريخ إلى ٢٩ محفلا تابعة له باستثناء مجامع الدرجات العليا، ولكن تم إنشاء مجمع آخر هو "الشرق الأعظم المصري" الذي نازع - الشرق الأعظم الوطني المصري - السلطة، وظل الصراع بينهما إلى فترة طويلة (٦٤) .

ثانيا . المحافل الماسونية في الشام

بعد أن نجحت الحركة الماسونية في تثبيت أقدامها في مصر بعد حملة نابليون، ومن خلال تمكين أحد أتباعها في تولي السلطة وهو " محمد على باشا "، كانت الخطوة التالية هي الانتشار في الولايات العربية، وسيقت الإشارة إلى أن الدور الذي لعبه محمد على - وابنه - إبراهيم باشا - في الشام وما أحدثه من تغييرات كانت في مجملها لصالح العناصر غير الإسلامية من المسيحيين واليهود، وكذلك ما قام به من فتح الباب للعديد من الإرساليات التبشيرية والجمعيات السرية ودور التعليم التابعة لها قد هيا الفرصة لتأسيس المحافل الماسونية في بيروت ودمشق وغيرها، وبخاصة أن فرنسا قد أبدت حرصا في التنويه على استمرار رعايتها لهذه المؤسسات في اتفاقية لندن سنة ١٢٥٥هـ - ١٨٤٠م ، والتي أقرت عودة هذه الولايات إلى الدولة العثمانية بعد محمد على.

وتشير المراجع إلى أن أول محفل ماسوني في بلاد الشام قد تأسس في بيروت سنة ١٢٧٨هـ - ١٨٦٢م تحت رعاية الشرق الأعظم الإسكتلندي بشرقي فلسطين رقم ٤١٥، وانضم إليه عدد غفير من أعيان البلاد وطنيين وأجانب، وكانت لغته الرسمية الفرنسية، وقد توقف سنة ١٢٨٤هـ - ١٨٦٨م، بسبب غياب رئيسه. وظل كذلك حتى جددت رخصته سنة ١٣٠٥هـ - ١٨٨٨م (٦٥)، وتلاه محفل آخر في دمشق في عهد والي راشد باشا سنة ١٢٨٠هـ - ١٨٦٤م (٦٦)، وهو المحفل الذي تشير بعض الدراسات إلى سعيه لدعم اتجاه الأمير عبد القادر

الجزائري الذي كان منتميا لهذه الحركة، والرامي إلى الاستقلال بالشام بنفس الطريقة التي ساعدت به الحركة الماسونية اتجاه محمد علي في مصر (٦٧).

على أننا لا نتفق مع ما ذكره جورجى زيدان من أن أول محفل تأسس فى فلسطين كان فى سنة ١٢٨٩هـ - ١٨٧٣م، حيث أشير فى تأسيس محفل بيروت الأول إلى تبعية محفل الشرق الأعظم الإسكتلندى بشرقى فلسطين مما يوحى بوجود محفل فى فلسطين سابق لهذا التاريخ (٦٨)، ولعدم وجود دلائل بين أيدينا تؤكد وجهة نظرنا فإتينا نميل إلى أن هذا التاريخ ١٢٨٩هـ - ١٨٧٣م، هو تاريخ الإعلان عن وجود المحفل وليس تاريخ بدايته وبخاصة أن السرية والتخفى هى من الأمور الهامة التى تعتمد عليها الحركة الماسونية .

ولا شك أن هناك ارتباطا وثيقا بين تبعية محفل فلسطين للمحفل الإسكتلندى وبين قوة نفوذ بريطانيا السياسية فى المنطقة العربية فى هذه الفترة، وارتباط العديد من المحافل الماسونية التى أنشئت بعد ذلك فى فلسطين بالمحافل المصرية فترة الاحتلال البريطانى، وكذلك يوجد ارتباط بين نمو هذا الاتجاه وبين تبعية فلسطين للإنجليز وفقا لاتفاقية سايكس بيكو سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م، وهو أمر ساعد كثيرا على صدور وعد بلفور سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م، فضلا عن دور بعض النصارى فى دعم هذا النشاط فى فلسطين منذ بدايته وبخاصة دور " الأخ الماسونى " - ولیم أسعد خياط " الذى كان يعمل مترجما فى القنصلية الإنجليزية والذى رأس المحفل الفلسطينى سنة ١٣٠٠هـ - ١٨٨٤م، ولمدة أربعة سنوات (٦٩)، وتوالى بعد ذلك تأسيس المحافل فى بلاد الشام فتأسس محفل آخر فى بيروت تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسى سنة ١٢٨٥هـ - ١٨٦٩م. وتبعه العديد من المحافل فى سوريا وفلسطين، وبلغ مجموع هذه المحافل سنة ١٣٤١هـ - ١٩٣٣م، وبإتتماعاتها المختلفة ثلاثون محفلا ضمت فى عضويتها خمسة عشر ألف ماسونى بخلاف المحافل الموجودة فى مصر التى كانت تعد المركز الرئيسى لهذه الحركة فى المنطقة بأكملها (٧٠) .

التحالف الماسونى الصليبي وراء فكرة القومية العربية

ترتبط بداية ظهور حركة القومية العربية بالفترة التى سيطرت فيها قوات محمد على باشا على بلاد الشام (١٢٤٥ - ١٢٥٢هـ) (١٨٣٣ - ١٨٤٠م)

حيث سمح للعديد من الإرساليات التبشيرية الفرنسية والأمريكية بالدخول بشكل واسع، وسمح كذلك ببناء العديد من الأديرة والكنائس وتزويدها بالمطابع دون غيرها من المدارس حيث حرصت الدول الأوروبية على حصرها في يد المسيحيين، وقامت بطبع الكتب وتوزيعها في شتى أنحاء البلاد، ولهذا ارتبط ظهور هذه الحركة بدور بعض الكتاب من المسيحيين (٧١) .

واحتوت هذه الكتب والنشرات وغيرها على ما يدعو إلى إحياء التراث العربي السابق للإسلام ، وما يثير العناصر العربية على دولة الخلافة الإسلامية، وعلى الرغم من مساندة إبراهيم باشا لهذا الاتجاه بنفس قدر مساندته للعناصر المسيحية واليهودية المروجة له إلا أنه لم يكن يمثل اتجاه العرب المسلمين الذين ظلوا على ولائهم للنظام الإسلامي المتمثل في دولة الخلافة (٧٢) وظلت هذه القلة من المسيحيين، وبرغم مساندة جيش محمد علي والدول الأجنبية والمحافل الماسونية لها وامتلاكها لأسباب انتشارها فكانت لا تمثل إلا نفسها وقلة من الذين انضموا إليها .

ولم يكن أغلب هؤلاء المسيحيين من دعاة القومية مخلصين في اتجاههم لإحياء الأمجاد العربية حيث كان هدفهم الأساسي، المرتبط بأهداف المحافل الماسونية والاستعمار الغربي، هو تمزيق دولة الخلافة الإسلامية، واستبدال حكم العثمانيين المسلمين بحكم دول أوروبية مسيحية، فقد رفعت مجموعة ذكرت أنها تمثل مسيحيي الشام عريضة إلى الملك لويس فيليب في باريس سنة ١٢٥٩هـ - ١٨٤٤م، أكدوا فيه عبوديتهم له وأنهم يعتبرون أنفسهم من جملة رعاياه وأنه وحده الذي يملك تقرير مصيرهم بالشكل الذي يمكنهم من الخلاص من دائرة النفوذ العثماني ويوفهم كيما يكونوا عبيدا طيعين لجلالة ملك فرنسا، ورفعت عريضة أخرى إلى رابطة نساء فرنسا بالجامعة الدينية التي تجمعهن بمسيحيي الشرق، وأن الجميع يدينون بدين واحد وينتمون إلى كنيسة واحدة ويخضعون لرئيس روحى واحد، وذكروا فيها التاريخ المشترك للمنتمين الفرنسيين مع أبناء دينهم مسيحيي الشرق خلال الحروب الصليبية مما أدى إلى تخالط الدماء والأنساب بين أبناء الديانة الواحدة (٧٣) .

ومن دعاة القومية النصراني نصيف اليازجي ١٢١٤ - ١٢٨٧هـ / ١٨٠٠ - ١٨٧١م، ولد في لبنان وتعلم في الأديرة . بدأ حياته بالعمل كسكرتير لأحد رجال الدين، ثم اتصل بالإرسالية التبشيرية الأمريكية - التي وظفته - لتستعين به في

وضع كتب باللغة العربية توزع على المدارس بعد طباعتها وتخدم هدف هذه المدارس في إثارة الاتجاه القومي للعربي من جهة ويقصد تدعيم نفوذهم في المنطقة من جهة أخرى (٧٤)، وقد أمدته هذه الأديرة بالعديد من المخطوطات المحفوظة لديها والمتعلقة بقضايا ثقافية وأدبية في العصر الجاهلي، وقد استعان اليازجي بها وبغيرها في سبيل تحقيق هدفه وهو ما يطلق عليه البعض - إحياء روح العروبة - وبالطبع فإنه من السذاجة أن ينساق كتاب التاريخ إلى حد تتبع نشأة هذا التيار من خلال عناصر مأجورة تعلمت في مدارس لا تخدم أهداف شعوب المنطقة مثل اليازجي، وهذه العناصر لا تمثل إتجاه الأغلبية المسلمة أو حتى العربية ولا تنتمي إلى هذه الأغلبية كذلك، ووصل حد السذاجة ببعض هؤلاء الكتبة للتاريخ إلى اعتبار اليازجي - رسولا يبشر ببعث ذلك الأدب " (٧٥) .

وفي نفس الفترة - تقريبا - ظهرت شخصية مماثلة لليازجي في أسلوب التعليم والتكوين والهدف وهي شخصية - بطرس البستاني " (١٢٣٤ - ١٣٠٠هـ - ١٨١٩ - ١٨٨٣م)، فهو مسيحي لبناني تعلم في مدرسة - عين ورقة - القائمة على نظام الأديرة، وقد اختاره الرهبان ليدرس على نفقتهم في الكلية المارونية في روما، لكنه لم يسافر إلى روما مفضلا للتعلم في بيروت بعد أن توثقت صلته بالإرسالية الأمريكية فيها، ووظفته كما وظفت اليازجي قبله في علم اللغة العربية في مدارسها، وتأليف الكتب المدرسية (٧٦) .

ومع أن البستاني قد أسهم بإضافة معجم للغة العربية استغرق منه وقتا وجهدا كبيرين، وصدر سنة ١٢٨٦هـ - ١٨٧٠م باسم - محيط المحيط" ، وكذلك قام بتصنيف ستة أجزاء من دائرة معارف عربية، إلا أن هذه الأعمال - رغم فائدتها الواضحة - كانت تدور في محيط هدفه وهو إثارة النعرة القومية العربية بغية الخلاص من الإطار الإسلامي الذي كانت تمثله في ذلك الوقت الدولة العثمانية، وهو اتجاه حظي في عمومه بتأييد بعض المفكرين في العالم العربي.

وعلى الرغم من التنافس الظاهري بين الإرساليات التبشيرية الأمريكية البروتستانتية والإرساليات الفرنسية الكاثوليكية والذي كان القصد منه هو توسيع دائرة نفوذهم، إلا أنهم التقوا على هدف واحد رأوا فيه الوسيلة لتحقيق هذه الأهداف وهو إثارة الروح القومية العرقية من خلال إحياء الثقافة العربية، فسعى كل فريق من الفريقين لتأسيس الجمعيات التي تتولى هذا الدور، وتأسست أولى هذه الجمعيات سنة ١٢٦٣هـ - ١٨٤٧م، بناء على اقتراح تقدم به كل من

اليازجى والبستاني إلى الإرسالية الأمريكية، وأطلق عليها اسم " جمعية الآداب والعلوم " (٧٧) .

ولم تنجح هذه الجمعية في أن تضم إليها عضوا واحدا من المسلمين. واقتصر أعضاؤها على مجموعة من النصارى الشوام إلى جانب اليازجى والبستاني، وكان رئيسها هو الدكتو " فان ديك " رئيس مبشرى الأمريكان، كما ضمت لعضويتها الكولونيل ونستون تشرشل الإنجليزى الذى أصبح من رجال السياسة المشهورين بعد ذلك والذى كان موجودا فى بيروت (٧٨) .

ولا يرجع عزوف العناصر الإسلامية عن الاشتراك فيها إلى كون أغلب أعضائها من المبشرين فقط بل لأنها قد ركزت فى نشاطها على ما اعتبره المسلمون استفزازا وإثارة ليس فقط لتقاليدهم الاجتماعية المستمدة من الدين الإسلامى نفسه، فقد اشتملت مجموعة الخطب والمقالات التى تظهر نشاط هذه الجمعية على تعليم النساء الموسيقى إلى جانب الزراعة والطب (٧٩)، وحث المرأة على السفر وغير ذلك من الأمور التى تستفز استقرار الأسرة وهز البنيان الاجتماعى.

وعلى غرار هذه الجمعية أقام المبشرون الفرنسيون (اليسوعيون) جمعية أخرى سنة ١٢٦٦هـ - ١٨٥٠م، هى - الجمعية الشرقية - ضمت مجموعة من نصارى الشام إلى جانب مجموعة من المبشرين الفرنسيين والأجانب، ولم يشترك فيها هى الأخرى أى من الأعضاء المسلمين (٨٠) .

وكان من الطبيعى أن ينتهى دور هاتين الجمعيتين وذلك لأن الأهداف التى قامت من أجلها ليس القصد منها أن يعرفها النصارى ولكن الهدف هو إثارة النعرة القومية لدى المسلمين إلى جانب الأهداف الاجتماعية التى كان الهدف منها هو اهتزاز القواعد الإسلامية التى يقوم عليها البناء الأسرى وغير ذلك من أهداف، ولهذا تركز نشاط المبشرين واليهود وأعضاء المحافل الماسونية على ضرورة تحقيق هذه الأهداف من خلال جمعية تضم عناصر إسلامية، وتنتشر أفكارها بين المسلمين فظهرت - الجمعية العلمية السورية - سنة ١٢٧٣هـ - ١٨٧٥م. وكان أغلب أعضائها من أعضاء المحافل الماسونية، وركزوا هدفهم على إثارة النعرة القومية العربية الذى كان هو الهدف الرئيسى للجمعيات السابقة التى أقامها المبشرون، ولهذا فحينما اشترط مؤسسوا الجمعية الجديدة ألا يدخلها مبشرون وافق المبشرون على ذلك فى نفس الوقت الذى قدموا فيه كل

التسهيلات والمعونات للجمعية، وإن كانت قد ضمت عناصر من كل الطوائف كان من بينهم من هم أوثق صلة بمدارس التبشير كإبراهيم اليازجى ابن ناصيف اليازجى الذى ألقى قصيدة فى افتتاحها السرى دعا فيها العناصر العربية للتمرد على الأتراك، وتغنى بأمجاد العرب فى نفس الوقت الذى ندد فيه بالترك واتهمهم بالظلم (٨١) .

مسئولية النصارى والدول الأوروبية عن أحداث ١٢٧٦هـ - ١٨٦٠م فى الشام

لاشك أن نشاط هذه الجمعيات، إلى جانب التنظيمات الحكومية التى صدرت فى الشام منذ عصر إبراهيم باشا، ومساندة الدول الأجنبية التى ساعدت على قصر أغلب جوانب الرواج الاقتصادي على النصارى دون غالبية المسلمين، كل هذه العوامل قد أسهمت فى أن يصبح للنصارى وضع متميز على المسلمين. وأدت هذه الأوضاع إلى تطاول أغلب النصارى على كثير من المسلمين الذين لم يعتادوا على ذلك ولدرجة وصفها أحد الكتاب النصارى فذكر أن الأمر زاد عقولهم تصلبا وصاروا يتباهون به وظنوا أنهم قبضوا على مفاتيح السماء (٨٢)، وفى نفس الوقت ظلت بعض الطوائف الدينية المسيحية تتجه إلى الدول الأوروبية لحمايتها وتأييد وضعها شبه المستقل.

وكانت هذه الأوضاع مقدمة طبيعية لمذابح سنة ١٢٧٦هـ - ١٨٦٠م، بين المسيحيين والمسلمين، وقد زادت اشتعالا بفعل تدخلات الدول الأوروبية وتدبيرها حيث وقف الفرنسيون وراء المواردنة فى حين وقف الإنجليز وراء الدروز، فكان لذلك أثر بالغ فى التهينة لاحتدام الموقف بين الجانبين (٨٣) وإذا كان هناك دور للتنظيمات العثمانية فى هذه الأحداث فينبغى أن يكون واضحا أن التنظيمات الجديدة التى صدرت فى الدولة العثمانية فى هذه الفترة - كما سبق التوضيح - كانت بفعل الاتجاهات الماسونية ودور الدول الأوروبية، وأن ما تضمنته من السعى لتطبيق المساواة على أسس علمانية لم يكن من السهل تقبلها والانصياع لها فور صدورها لكونها لم تسلك سبيل التدرج على أن ذلك لا يعنى أن التنظيمات العثمانية السابقة عليها والتى كانت مستمدة من الأحكام والمفاهيم الإسلامية لم تكن تطبق المساواة بل كانت تراعى حقوق الأقليات ومسئولياتهم بالمسلمين فى حدود ما يقره الإطار الحضاري الإسلامي، وارتضاها جميع رعايا الدول بكل طوائفهم، ولم تظهر أية مظاهر للتمرد عليها إلا بفعل الدور الذى

قامت به الدول الأجنبية التي طالما سعت لإثارة العوامل الطائفية بغية أن توجد مبررا لتدخلها ثم لتوسيع دائرة نفوذها وتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية .

ولم يكن من السهل على العناصر الإسلامية في الشام والتي تعرضت للكثير من الضغوط منذ حكم إبراهيم باشا أن تقبل هذه الأوضاع التي تتطور في غير صالحها من كافة الجوانب، تنظيمات وقوانين تصدر لتعلى من شأن المسيحيين. ومساندة واضحة من قبل الدول الأجنبية التي ازداد نفوذها في البلاد، ورواج اقتصادي أدى إلى اتساع دائرة الطبقة اللبوريةجوازية التي أصبحت في أغلبها من الطوائف المسيحية، ومساندة فرنسية للفلاحين المارونيين لإثارتهم ضد الإقطاعيين الدروز، وإعلان صريح بالعداء للديانة الإسلامية، ويسوق بعض الكتاب ما يؤكد هذا فيما حدث من نصارى زحلة، وهي قرية قريبة من دمشق تسكنها أغلبية نصرانية . فيذكر أن النصارى فيها كانوا يسبون النبی محمدا صلى الله عليه وسلم جهرا، ويجبرون الراكبين من المسلمين أن يترجلوا إذا ما دخلوا زحلة، وساند الفرنسيون التجار النصارى كي ينافسوا التجار المسلمين (٨٥)، ولهذا كانت هذه البلدة مستهدفة من قبل المسلمين والدروز إبان أحداث سنة ١٢٧٦هـ - ١٨٦٠م.

وعلى الرغم من كل هذا الاستفزاز المستمر من المسيحيين للمسلمين إلا أن الأسباب المباشرة لأحداث سنة ١٢٧٦هـ - ١٨٦٠م كانت من العناصر المسيحية، فقد قامت عناصرهم من قرية "بيت مری" سنة ١٢٧٥هـ - ١٨٥٩م، بالهجوم على مسلمي القرية والاعتداء عليهم وطردهم من القرية، وحاولوا حث المسيحيين في القرى الأخرى على أن يقوموا بأعمال مماثلة (٨٦)، ونتج عن هذا الحادث سريان روح عدائية لدى المسلمين وتحفز وهيبة من العناصر النصرانية التي انتظرت رد فعل الدروز على هذه الأحداث . وفي مايو ١٢٧٦هـ - ١٨٦٠م، قامت مجموعة من نصارى زحلة بمهاجمة قرية درزية هي قرية "عيد دارا" فتصدى لهم أهلها من الدروز وردوهم على أعقابهم، وتشجع الدروز وقاموا بمهاجمة العديد من القرى التي يسكنها نصارى وحدثت العديد من المذابح بين الطرفين التي تحمل فيها النصارى النصيب الأكبر (٨٧)، وهو أمر جعل بعض المؤرخين ينظرون إلى نتائج الأحداث وليس إلى أسبابها

ودوافعها، فادانوا المسلمين والتنظيمات العثمانية ولبصقوا بتاريخ المسلمين والعثمانيين ما ليس صحيحا ولا يستند إلى دليل.

وعلى أية حال فقد وجدت الدول الأوروبية في هذه الأحداث مسوغا لتدخلها في شئون بلاد الشام ومنحوا جبال لبنان نظاما للحكم يضمن تسيد العناصر المسيحية على حساب الأغلبية المسلمة (٨٨) .

التحالف النصراني اليهودي وقيام الجمعيات الماسونية في الشام :

عاود مسيحيوا الشام نشاطهم بعد أن سانددهم للتدخل الفرنسي الذي جاء في أعقاب أحداث الصراع الطائفي، فعادت الجمعية العلمية السورية لتزاول نشاطها من جديد في الدعوة إلى القومية وتهاجم استمرار الارتباط بدولة الخلافة الإسلامية. وتكونت جمعيات أخرى في بيروت ودمشق ذات هدف ديني غايتها نشر المبادئ المسيحية، إلى جانب جمعيات عديدة تدرب المدرسين على الخطابة حتى يمكن توظيفهم لأهداف الدعوة إلى القومية في كل ربوع الشام (٨٩) .

ولعل أخطر هذه الجمعيات جميعا جمعية بيروت السرية التي أسسها خمسة من خريجي الكلية البروتستانتية سنة ١٢٩١هـ - ١٨٧٥ (٩٠)، فقد اتجهت إلى تحويل دورها إلى النشاط في الدعوة إلى القومية ومناهضة فكرة الجامعة الإسلامية (٩١)، وقد استطاعت هذه الجمعية أن تضم اثنين وعشرين عضوا من الطوائف المختلفة، وكذلك ضمت عددا من اليهود، وكان من بينهم يعقوب صروف وإبراهيم اليازجي وفارس نمر وإبراهيم الحوراني وشاهين مكاريوس وإلياس حبالين، وأعلنوا انضمامهم جميعا إلى الجمعية الماسونية حيث رأوا أن في ذلك كل الخير لقضيتهم (٩٢) .

وقد دأبت هذه الجمعية على توزيع المنشورات السرية الداعية إلى الثورة على العثمانيين وإقامة نظام ذاتي لسوريا ولبنان وفصلهما . ولم تقتصر منشوراتها على الدعوة للانفصال عن دولة الخلافة فقط بل إنها أعربت عن عدم رغبتها في أن تقوم أية حكومة إسلامية، وفضلت صراحة الخضوع لحكم دولة مسيحية أجنبية، فاقترح المارونيون فرنسا في حين اقترح البروتستانت بريطانيا أو أمريكا (٩٣) .

ومن الأمور التي أسهمت في دعم هذا التيار القومي الماسوني دور مدحت باشا الذي عينه السلطان عبد الحميد واليا على سوريا سنة ١٢٩٤هـ - ١٨٧٨م،

فعلى الرغم من الجهود التى قام بها فى سبيل الإصلاح والتحديث فى العراق ثم فى سوريا إلا أنه قد سار فى سبيل تعميق الشعور القومى المعادى لفكرة الجامعة الإسلامية بغية أن يستقل بالشام كما فعل محمد على فى مصر، كما سار فى طريق تحقيق الهدف المنشود للجمعيات المسيحية والماسونية وهو التخطيط لتقسيم الدولة العثمانية (٩٤)، واستبدال القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية بأخرى غربية، ويعتبر الدستور الذى أصدره سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٦م، فى بداية عهد السلطان عبد الحميد من أهم الخطوات التى ترجمت الخطوات إلى علمنة الدولة العثمانية وتمزيق ولاياتها. وقد استعان فى تنفيذ أهدافه بمجموعة من المسلمين الشوام ممن استطاع أن يضمهم إلى المحافل الماسونية كي ينفذ من خلالهم إلى داخل البلاد بعيدا عن عنصر الإثارة الذى كان يواجه العناصر النصرانية، فأنشأ جمعية المقاصد الخيرية بناء على اقتراح من الشيخ طاهر الجزائري الذى كان يريد إحياء العلوم الإسلامية مع الاستفادة من علوم الغرب. وحين ساند السلطان عبد الحميد رجال هذه المدرسة من المسلمين وكون منهم مجلسا للمعارف، وزاول بعضهم نشاطا يتسم بالترويج للثقافة الإسلامية، دأبها - بعد ذلك - أعضاء جمعية الاتحاد والترقى الماسونية وأنهوا ذلك النشاط (٩٥).

المواهب

(١) حول تعريف الماسونية ونشأتها وفقا لما ورد فى الموسوعات المعرفية المختلفة
أنظر : أبو إسلام أحمد عبد الله : الطابور الخامس فى الشرق الإسلامى -
للماسونية الجديدة - القاهرة، سنة ١٩٩١م، ص ١٧ وما بعدها، وتعرف فى
دائرة المعارف البريطانية بأنها " للتعاليم والممارسات الخاصة بالطريقة الأخوية
السرية للبنائين الأحرار والمقبولين من غير البنائين، وهى أكبر جمعية سرية فى
العالم، انتشرت بفعل تقدم الإمبراطورية البريطانية .. وأن المحفل الأكبر تأسس
١٧١٧م، د. على شلش : اليهود والماسونية فى مصر - الزهراء للإعلام ص
١٩٤.

(٢) لمزيد من التفاصيل أنظر : جولد رفعت ألتخان (الجنرال)، ت : نور الدين رضا
للواعظ، سليمان محمد أمين القابلى : أسرار للماسونية ب. ت ص ٥٧، محمد عبد
الله عنان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة - مطبعة التأليف والترجمة
والنشر - القاهرة، ط ٢ سنة ١٩٥٤، ص (٨٨) وما بعدها، حسين عمر حمادة :
الماسونية والماسونيون فى الوطن العربى، دار فنية - دمشق - ب، ت، ص ١٥،
نجدة فتحى صفوة : الماسونية فى الوطن العربى، مركز الدراسات العربية - لندن
سنة ١٩٨٠م ص ٧ وما بعدها، ويرى الأخير - نقلا عن دائرة المعارف البريطانية
أن هذه الجمعيات سرية فقط بلحتوائها على طقوس وأسرار لا تفضى لغير الأعضاء
الذين يقسمون لادى انتمائهم إلى الجمعية على كتماتها والحرص على عدم إفشائها،
ولكن محافظتها تؤسس بموافقة السلطات الحكومية، فى البلاد التى تفتح فيها،
وأماكن اجتماعها تكون معروفة عادة. والهيئات التى تديرها تنشر إجراءاتها
سنويا. وأعضاء هذه للجمعيات - وبخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية -
معروفون يجهرون بعضويتهم فيها ولا يخفونها ولذلك لا يمكن وصفها بأنها جمعيات
سرية، والأدق أن يقال أنها جمعية ذات أسرار . وحول مزيد من التفاصيل أنظر
"جورجى زيدان : تاريخ للماسونية العالم، شاهين مكاريوس : الأسرار الخفية فى
الجمعية الماسونية، د. صابر طعيمة : الماسونية ذلك العالم المجهول - دراسة فى
الأسرار التنظيمية لليهودية للعالمية ... ويرى البعض أن الماسونية لم تبرز إلى
حيز العمل إلا عام (١٧١٧م) عند تأسيس أول محفل فى إنجلترا، ثم أسس أول محفل
فى باريس سنة (١٧٣٢)، وفى ألمانيا سنة ١٧٣٣، وفى البرتغال سنة ١٧٣٥.

وفى هولندا (١٧٤٥) وفى سويسرا سنة ١٧٤٠، وفى إيطاليا سنة ١٧٦٣، وفى بلجيكا سنة ١٧٦٥، وفى روسيا سنة ١٧٧١، وفى السويد سنة ١٧٧٣م، وفى الهند سنة ١٧٧٣، وفى أمريكا أسس أول محفل فى نيويورك وبعض المدن الأمريكية. أنظر : سعيد عبد الله حارب .. أضواء على الماسونية - مكتبة الأمة - دبی - الإمارات - ط١، سنة ١٩٨٥، ص ٢٧-٢٩. ، وعرف البعض المحفل الأكبر بأنه الرابطة التى تجمع جميع المحافل فى إنجلترا ثم انتقلت فكرته إلى البلدان الأخرى د. على شلش : المرجع السابق ص ١٩٤.

(٣) جواد رفعت ألتخان : المرجع السابق، ص (٢٣، ٢٢) ويراعى تركيز هذه المحافل على التأثير الاقتصادى فى نشاطها الخفى والعلنى والذى من خلاله استطاعت التأثير على كافة الأبعاد السياسية والاجتماعية والفكرية بل وحتى الدينية.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٤ . وانظر بشكل عام حول هذه القضية : -

ALEXANDER HOORME : KING SOLOMANS TEMPLE IN THE TRADITION, LONDON 1972 BROTHER HOOD-THE SECRET WORLD OF THE FREEMASONS. LONDON .

وعن أبعاد الصلة بين هذه الحركة وبين الحركة الصهيونية ووقوعها فى قبضة اليهود وتنفيذها لأهدافهم هناك عدد كثير من الأبحاث والدراسات منها : د. صاب طعيمة : المرجع السابق، حسين عمر حمادة : المرجع السابق، نجدة صفوة : المرجع السابق، وقد أشار أحد أعضاء هذه الجماعة بعد خروجه منها وهو - الدكتور أحمد غلوش الذى اشتهر فى مصر فى الثلاثينات والأربعينيات من هذا القرن أن هذه الحركة والصهيونية صنوان كلاهما شئ واحد ويكمل أحدهما الآخر، وأنها تهدف إلى أحد الأغراض وأن وجودها ينذر بخطر جسيم، وله كتاب بعنوان : الجمعية الماسونية حقائقها وخفاياها . ويذكر أحد الكتاب ما جاء فى النشوة اليهودية الماسونية الأوربية الصادرة سنة ١٣٢٧هـ / ١٩١٠م بنىويورك ما معناه " أن الماسونية الأوربية تشيد بناءها حيث يعيش إله إسرائيل إلى الأبد " ويقول الحاخام الدكتور إسحاق وايز فى مجلة (THE ISRAELISE AMERICA) وفى عددها الصادر فى ٣ أغسطس سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٦م ما معناه " : الماسونية مؤسسة يهودية فى تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وإيضاحاتها - يهودية من البداية إلى النهاية . " وعن مزيد من التفاصيل أنظر : سعيد عبد الله حارب : أضواء على الحركة الماسونية - مكتبة الأمة - دبی - الإمارات - ط١ (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، ص (١٠) وما بعدها، وجاء فى البروتوكول الرابع من بروتوكولات حكماء صهيون " أن المحفل الماسونى المنتشر فى كل أنحاء العالم ليعمل فى غفلة كقناع لأغراضنا . ولكن الفائدة التى نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة فى خطة عملنا وفى مركز

قيادتها ما تزال على الدول غير معروفة للعالم كثيرًا، محمد خليفة التونسي : بروتوكولات حكماء صهيون - الخطر اليهودي - دار الكتاب العربي - ط ٧ (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، ص (١١٩)، (١٢٠) د. عبد الصبور مرزوق : الغزو الفكري - أهدافه ووسائله ط ٣ - مكة المكرمة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م)، ص ٩٦ وما بعدها.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٤ لا تنتمسك للمحافل الماسونية الأمريكية بالاعتقاد بوجود الله وبالكتاب المقدس وعدم دخول السياسة في المحفل أو عدم التمييز الديني أو المذهبي وينتمي العديد من رؤساء الجمهورية في أمريكا إلى هذه المحافل من أول جورج واشنطن وكان الرئيس جون كنيدي هو أول رئيس كاثوليكي لا ينتمي إليها بحكم تحريم الكنيسة الكاثوليكية لها، ولكنه لم يستطع أن يتخذ شيئاً ضدها في ظل الدستور الأمريكي، أما الدول الشيوعية والاشتراكية فلا تسمح قوانينها بتأسيس هذه المحافل، أنظر : نجدة فتحي صفوة : المرجع السابق، ص ١٩، ١٨ على أن يراعى أن أغلب المفكرين الاشتراكيين والزعماء الشيوعيين من اليهود، كما أن البعض يشير إلى انتشارها في بولندا في القرن التاسع عشر، كما ظهورها في روسيا في فترة سابقة. د. علي شلش المرجع السابق ص ١٩٥.

(٦) جواد رفعت أتلخان : المرجع السابق، ص ٢٦، نقلا عن bulten masonik 1899. p. 67

(٧) مؤتمر المحافل الماسونية سنة ١٨٨٤ نقلا عن المرجع السابق، جواد أتلخان، ص ٢٦.

(٨) المرجع السابق، ص ٢٧

(٩) المرجع السابق، ص ٢٧.

(١٠) يلاحظ أن هذه الأساليب قد ازداد اتساعها وتأثيرها في أغلب بلاد العالم، وهذا يوحى باتساع انتشار وتأثير الحركة الماسونية وما تفرع عنها مثل جمعيات الليونز ونوايا الروتاري، وقد سيطرت على وسائل التأثير الإعلامي الأكثر تطوراً والأكثر تأثيراً مثل السينما والتلفزيون والمجلات والصحف والفيديو وأشرطته وكلها أسهمت في تلوين ثقافة الشعوب وابتعادها عن الحقيقة ووقوفها في دوائر الغفلة، محمد خليفة التونسي :

بروتوكولات حكماء صهيون . ونشير الي تشكيك البعض في صحة هذه البروتوكولات.

(١١) المرجع السابق، ص ٢٩، نقلا عن مجلة أكاسيا الماسونية الإيطالية سنة ١٩٠٤، ص ٢٥٦.

وفي مضابط مؤتمر بلجراد للماسوني سنة ١٣٢٨هـ / ١٩١١م إعلان بعدانهم للأديان وسعيهم للقضاء على مظاهرها، وفي تعميم للمشرق الأعظم سنة ١٣٢٠هـ / ١٩١٣م، أشار إلى ضرورة تنشئة لخلق تضاهي الأخلاق الدينية في قوتها، وتوضح مضابط المؤتمر الماسوني العالمي سنة ١٣١٧هـ / ١٩٠٠، ص ١٠٢ إلى ضرورة إبادة الدين من الوجود، وتوضح مجلة أكاسيا الماسونية الإيطالية سنة ١٩٠٢ إلى أن النضال ضد الأديان

لا يبلغ نهايته إلا بعد فصل الدين عن الدولة ولنا بعد ذلك أن نقوم أهدافها ونظرتنا إلى المنتمين إليها في مشرقنا الإسلامى.

(١٢) المرجع السابق، ص ٤٣، وما بعدها، ويوضح الأعداد الهائلة من اليهود التى تسيطر على كافة أجهزة هيئة الأمم المتحدة، وبشكل عام تشير بعض التصريحات الصادرة عن جمعيتين يهوديتين بأن غاية الماسونية قد انتهت من اليهودية، وأن أكثر عادات الماسونيين من معبد سليمان، كما أن أكثر الإشارات والرموز عبرانية. وانظر أي؟ ١: حسين عمر حمادة: المرجع السابق، ص ٥٧، محمود عبد المنعم مراد : العالم المجهول وحكومته الخفية - جريدة الوفد المصرية، ١/٨/١٩٩١م. وعن نموذج ارتباط هذه المحافل بالعصابات الإجرامية التى تعينها على تحقيق أهدافها كعصابات المافيا فى إيطاليا أنظر : الأهرام المصرية (جريدة (فى ٢٣/١١/١٩٩٢ ص ٥. وقد أشار التحقيق إلى إنجاز أعضائها فى المخدرات وتوريد السلاح إلى منطقة الشرق الأوسط وبالطبع بقصد الثراء الذى يوجد القدرة على تحقيق الأغراض بشكل عام والأهداف اليهودية لإسرائيل بشكل خاص.

(١٣) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط ص ٦٩.

(١٤) د. أحمد عبد الرحيم : فى أصول للتاريخ العثمانى ص ١٧٤

(١٥) د. أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ١٧٥، ١٧٦.

(١٦) برنارد لويس : المرجع السابق ص ٥٧.

(١٧) د. أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ١٩٩. ولا تتفق مع مذكره الدكتور عبد العزيز الشناوى فى اعتباره هذا الدستور دليلا على عالمية الدولة العثمانية حيث أن فترات التزامها بالشريعة الإسلامية تعبر عن هذا الاتجاه أكثر مما يعبر عنها هذا الدستور. د. عبد العزيز الشناوى : للدولة العثمانية ج ١ ص ٩٦.

(١٨) د. أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ٢٠٠.

(١٩) نقلا عن د. أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ٢٠١.

Pears : Life Of Abdul Hamid , P. 2 .

(٢٠) د. عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ج ١ ص ٩٧.

(٢١) برنارد لويس : المرجع السابق ص ١٢٧ : وظهر فى عصر السلطان سليم الثالث من هذه العناصر " باسمان أوغلى " للنمساوى الأصل الذى اعتنق الإسلام وسمى باسم عثمان باشا، وقاد حركة تحرر فى البلقان ضد دولة الخلافة، ولم يكن ملتزما بما ينسبه إلى الإسلام، وانتهت حركته بموته ١٨٠٧م، وكذلك " إنجليز مصطفى " وهو مسيحى إنجليزى دخل الإسلام وقام بتدريب الجيش. د. الشناوى ج ١ ص ٥٢٢.

(٢٢) أبو الفدا : محمد عزت محمد عرف : نهاية لليهود ص ١٣١.

- (٢٣) د محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٤٨ . د. عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص 286.
- (٢٤) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ص ١٧٦.
- (٢٥) د . محمد علي الزغبى : الماسونية فى العراق ص ٢١٩ . محمد صفوت السقا وسعدى أبو حبيب : الماسونية ص ١٥٨.
- (٢٦) د . محمد علي الزغبى : المرجع السابق ص ٣١٩ : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٢٦٣ حيث يذكر أن يهود الدونمة هم من أبناء اليهود من أتباع المسيح الدجال شبتاي (١٦٣٢ - ١٦٧٥م) الذين تحولوا معه إلى الإسلام سنة ١٦٦٦م حين أرغمه السلطان على إعلان زيف ادعاءاته بأنه المسيح وقد حافظوا طويلا على شخصيتهم باعتبارهم جماعة متميزة، فكانوا لا يتزاوجون مع المسلمين أو مع اليهود كما مارسوا سوا بعض الطقوس اليهودية.
- (٢٧) د محمد الزغبى : المرجع السابق ص ٢١٩.
- (٢٨) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٨٦.
- (٢٩) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٧٦.
- (٣٠) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٨٦.
- (٣١) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٨٦، جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٧٦ وغيرهما من المؤرخين.
- (٣٢) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثماني، ص ٢٢٧، والكاربونارى أسلوب من أساليب الحركة الماسونية.
- (٣٣) المرجع السابق ص ٢٢٦.
- (٣٤) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ١٠٦، ١٠٨، د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٤٨ وقد وصف السلطان عبد العزيز بالاستبداد.
- (٣٥) F. O. 8001 , 193. A.
- نقلا عن : حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ١١٢، ١١٣.
- (٣٦) د . أحمد عبد الرحيم : ص ٢٦٥ د محمد أنيس : المرجع السابق ص ٣٥٥.
- (٣٧) محمد صفوت السقا وسعدى أبو حبيب : الماسونية ص ٢١٤.
- (٣٨) حسين عمر حماده : الماسونية والماسونيين فى الوطن العربى - دار قتيبة - دمشق - ب - ت ص ٢١٥، مجلة المجتمع الكويتية : حقائق فى وثائق . النشاط الماسونى فى مصر . حلقة، فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٨٣ م العدد (٦٤٥) بقلم : العقيد محمد كامل إبراهيم . لكنها والماسونية منظمة سرية خفية لم تتضح هويتها أو تاريخها برغم كثرة الكتابات عنها . لكنها

تتخفى وراء أهداف تبدو نبيلة في مقاصدها كدعوتهم للخير والمحبة والسلام والتعايش السلمي في حرية وإخاء ومساواة تحت ظل حكومة عالمية موحدة بعيدة عن التعصب، وقد ظهرت حديثا في أسماء متعددة كالروتارى والليونز وغيرها . ومن بين الذين ذكروا تاريخها أشاروا إلى أنها ترجع إلى الحكم البابلي . والمتفق عليه بين كل من تناولوها هو صلتها باليهودية كديانة ثم بالحركة الصهيونية، وبالتالي تحولت أغراضها إلى سياسة دون أن يكون ذلك أمرا معلنا . وقد ارتبط الفكر الماسونى بالفكر الليبرالى وبخاصة فى إنجلترا، وبفكر الطبقة الوسطى فى مرحلة نشوء وتطور الرأسمالية، واهتمت المحافل الفرنسية منذ بدايتها بالأمر السياسى والدينى، وسلكت أسلوب العمل الخفى حتى تستطيع أن تسيطر على كافة الأمور . على أن اهتمامها بالنواحي الدينية ليس إيجابيا بل ترى أن كافة الأديان هى العدو الحقيقى للبشرية وأنه لا بد من العمل على إبادةها . انظر د . عبد الصبور مرزوق: الغزو الفكرى . أهدافه ووسائله، ط ٣ رابطة العالم الإسلامى ص ٩٢، ٩٣ (ب ت)، أبو إسلام أحمد عبد الله : الماسونية فى المنطقة ٢٤٥، القاهرة سنة ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م طه ص ٣٠، ٣١ . وعن وجودها فى مصر يرى البعض أنها عرفت سنة ١٧٤٧م وأن الأجلب قد أسسوا محفلا فى الإسكندرية فى هذا التاريخ ولكن هذه الرواية ضعيفة . د . على شلش: المرجع السابق ص ٢١٠.

(٣٩) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٦، . أبو الفدا " محمد عزت محمد عرف:" نهاية اليهود، جدة سنة ١٤١٠هـ ص ١٣٢.

(٤٠) د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص ٨٣ . وحول الأسس والجوانب البراقة لهذه الحركة أنظر : أبو إسلام أحمد عبد الله : الروتارى - شرخ فى جدار . دار الإعتصام القاهرة سنة ١٩٨٨م ص ٣٧ - ٣٨.

(٤١) د صلاح العقاد : للجبرتى والفرنسيين . بحث ضمن مجموعة دراسات الجبرتى ص ٣١٣ . (٤٢) المرجع السابق.

(٤٣) تعجب الجبرتى من دعائهم الإسلام ثم قيامهم بالعبث بالأماكن المقدسة أنظر: عجائب الآثار، ج ٣ أحدث سنة ١٣١٣ هـ ج ٣ ص ٢٦.

(٤٤) د صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٣٢٠.

(٤٥) د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص ٨٥.

(٤٦) الجبرتى : عجائب الآثار ج ٣ ص ١٦١.

(٤٧) عبد الجبار الزبيدى : الماسونية تحت الأضواء - بيروت سنة ١٩٨٨م ص ٣٣.

(٤٨) د . إبراهيم العدوى : المرجع السابق ص ٨٥.

- (٤٩) د صلاح للعقاد : المرجع السابق ص ٣١٦.
- (٥٠) د جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٥٩.
- (٥١) أصبح اسم " محمد على " رمزا من رموز الماسونية، وإسما لأحد محافل الإسكندرية وعن صلة محمد على باليهود أنظر : محمد على الزغبى : الماسونية فى العراق، مؤسسة الرسالة، بيروت سنة ١٩٨٨م ص ٣٠٠.
- (٥٢) د سليمان القنام : المرجع السابق ص ٨٤.
- (٥٣) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٧.
- (٥٤) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢١٨.
- (٥٥) المرجع السابق : ص ٢١٩، وقد انتشرت المحافل الماسونية فى بعض المدن الداخلية على يد الفرنسيين مثل بور سعيد والسويس والإسماعيلية.
- (٥٦) نجدة فتحى صفوة : الماسونية فى الوطن العربى، ص ٢١.
- (٥٧) حسين عمر حمادة : الماسونية والماسونيون فى الوطن العربى، ص ٢٢١.
- (٥٨) دخل إسماعيل الماسونية فى ٢٩ / أبريل سنة ١٨٧٣م بعد سنوات من دعمه لها وسعيه للإضمام إليها، وساعده الإمبراطور الفرنسى نابليون الثالث، أنظر : حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢١، نقلا عن شاهين مكاريوس : إسماعيل باشا، اللطائف - ج ٣، السنة ٨ فى ١٥/٣/١٨٩٥، ص ١٠١، ١٠٢، ويذكر للبعض أن زولا قد مثل بين يدي إسماعيل وقدم واجب العبودية وأعرب عن حسن مقاصد العشيرة الماسونية فذكر إسماعيل بعض الشروط ونسج له بعدها بمزاولة نشاطه . أنظر د . د . على شلش : المرجع السابق ص ٢١٣ .
- (٥٩) حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢١.
- (٦٠) المرجع السابق : ص ٢٢٢.
- (٦١) عبد المجيد يونس : المحفل الأكبر الوطنى المصرى، ص ٩، وتعرض حليم لمحاولة موت من الماسون للطلبان التابعين لإسماعيل سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٩م . أنظر د . على شلش : المرجع السابق ص ٢٢٣.
- (٦٢) زكى إبراهيم : صوت الماسونية أو التقويم الماسونى العام لمحفل منف ص ١٦٦.
- (٦٣) حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢٢ ويراعى أن عام ١٣١٦هـ / ١٨٩٩م الذى أنشئ فيه هذا المحفل هو نفس العام الذى وقعت فيه اتفاقية السودان بين إنجلترا ومصر (الواقعة تحت احتلال إنجلترا) وهى أمور تشير إلى الربط بين المخططات الاستعمارية ونشاط المحافل الماسونية.

(٦٤) نوقان قرقوط : الماسونية العربية - محاولة أولية لتقديم صورة عن موقفها من الصهيونية في فلسطين - مجلة قضايا عربية - العدد ٩ بيروت - يناير سنة ١٩٧٥م، ص ١٢.

(٦٥) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ١٧٦.

(٦٦) للمرجع السابق ص ١٠٣.

(٦٧) المنار : ج-١١، ١٢ ص ٨٣١ سنة ١٩٠٩، مقال بعنوان " : العرب والتراث."

(٦٨) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢٥٥.

(٦٩) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ٢٥٥.

(٧٠) حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ١٨٤.

(٧١) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٠٠، ١٠١، ١٠٥ : د محمد أنيس : المرجع السابق، ص ٢٦٦، ولا ننفي مع ما أورده البعض من أن إتباع الدعوة للسلفية في الجزيرة أو الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد دعوا إلى هذه الفكرة ولم يرد ذكر هذا إلا عند مؤرخ فرنسي ثم رده بعض الكتاب من أمثال صبحي وحيد في كتابه : فبي أصول المسألة المصرية، ط ٢ - القاهرة - بت -، ص (١٩٠) .

(٧٢) برنارد لويس : المرجع السابق ص ١٣٢.

(٧٣) أحمد فهد الشوابكة : الجامعة الإسلامية ص ١٠٣.

(٧٤) د محمد عبد الرحمن برج : دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر ص ٥٤.

(٧٥) د. عبد الرحيم عبد الرحمن : دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ١١٥.

وقد تبع في هذا جورج أنطونيوس في يقطعة العرب ص ١١١ - ١١٢.

(٧٦) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١١٣ : د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع

السابق ص ١١٥، ١١٦٦. د. محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٨٢.

(٧٧) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١١٧ : د محمد عبد الرحمن برج : المرجع

السابق ص ٩١ : د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١١٧.

(٧٨) د محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٩٢ : جورج أنطونيوس : المرجع

السابق ص ١١٧.

(٧٩) د محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٩٢.

(٨٠) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١١٨ : د. محمد عبد الرحمن برج : المرجع

السابق ص ٩٢ : د. عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ١١٨. وقد ذكر أن

مؤسس هذه الجمعية من اليسوعيين الأمريكان وهذا ليس صحيحا.

- (٨١) د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٥٨ ، نقلا عن ميخائيل مشافه .
- (٨٤) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٢٢ .
- (٨٥) د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٦٤ .
- (٨٦) المرجع السابق ص ٦٥ نقلا عن ميخائيل مشافه .
- (٨٧) المرجع السابق ص ٦٩ وما بعدها ، وقد أدان جورج أنطونيوس الدروز المسلمين واتهمهم ببدأ الاعتداء ووصفهم بالمعتدين ، يقطعة العرب ، ص ١٢٤ .
- (٨٨) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٢٦ . وعن دور الدول الأوروبية في إثارة هذه الفتن ومساندة العناصر المسيحية ضد المسلمين أنظر الوثائق في : د . عبد العزيز نوار : الوثائق السياسية ص ٤٢٩ وما بعدها .
- (٨٩) د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٩٥ .
- (٩٠) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٦٧ .
- (٩١) أحمد فهد بركات للشوابكة : فكرة الجامعة الإسلامية ص ١٠٣ .
- (٩٢) حسين عمر حماده : المرجع السابق ص ١٧٦ ، ١٧٧ وقد انتقل بعض أعضاء هذه الجمعية إلى مصر ليقوموا بنشاط مماثل في الدعوة إلى القومية والاتصال النهائي عن دولة الخلافة ومساعدتهم بريطانيا على ذلك بعد احتلالها مصر . واتضموا للمحفل الماسوني فيها ، وقاموا بنشر بعض الصحف ومنهم فارس نمر ويعقوب صروف : جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٤٩ .
- (٩٣) أحمد فهد الشوابكة : المرجع السابق ص ١٠٣ ، حسين عمر حماده : المرجع السابق ص ١٧٧ .
- (٩٤) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٥٣ ، وعندما كان مدحت واليا على الدانوب أمر بإضافة الصليب على العلم العثماني ذي الهلال والنجمة ليصبح علما محليا ، ورأى تدريس اللغات القومية كالبغارية في مدارس الدولة الرسمية وقام بتعيين ولاية يهود ومسيحيين في ولايات تسكنها أغلبية مسلمة ، ولعب دورا مماثلا في ولايته في الشرق .
- (٩٥) د . محمد عبد الرحمن برج : المرجع السابق ص ٨٦ ، ٨٧ .

الفصل السابع

الهجوم الاستعماري على بقية الوطن العربي

- الاحتلال الفرنسي لتونس سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م :
(البعد الصليبي الماسوني اليهودي لاحتلال فرنسا لتونس)
- الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م .
(ثورة عرابي بين التآمر الماسوني الاستعماري والبعد الشعبي
الإسلامي)

البعد الصليبي الماسوني لاحتلال فرنسا لتونس سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م :

كانت تونس تمثل جزءاً من حركة الجهاد الإسلامي التي اتخذت من سواحل الجزائر مقراً لها منذ فتحها سنة ٩٨١هـ / ١٥٧٤م، إلا أن حمايتها التي زاد عددها إلى أربعة آلاف قد دعتها إلى أن تطلب من السلطان العثماني أن تكون نيابة مستقلة ٩٩٧هـ / ١٥٩٠م، ووافق السلطان على ذلك .

وخلال القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي توالى ظهور بعض (الدايات) الضعاف الأمر الذي أدى إلى زيادة نفوذ (البايات) في الأقاليم، واستطاع أحد هؤلاء البايات وهو " مراد بك " أن يخضع حكومة الداي في العاصمة لنفوذه الشخصي في منتصف ذلك القرن، وأن يورثه لأولاده فيما عرف بالأسرة المرادية التي ظلت تسيطر على الإدارة حتى أوائل القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي .

على أن الخلاف الذي دب بين أبناء هذه الأسرة واستعانة بعضهم بدايات الجزائر قد أعاد نيابة تونس إلى دائرة نفوذ دايات الجزائر حتى تمكن أحد ضباط الإنكشارية وهو " حسين علي" من السيطرة على زمام الأمور ووضع نظام أساسي لحكمه وحكم أسرته التي عرفت بالأسرة الحسينية سنة ١١١٦هـ / ١٧٠٥م .

وتخللت هذه الفترة موجات من الصراع بين ولايتي الجزائر وتونس حيث سعى بعض دايات الجزائر ضم تونس إليهم أملاً في توحيد صفوف الجهاد ضد الهجوم الصليبي الأوربي، لكن حكام الأسرة الحسينية أبدوا حرصاً على وجودهم باسم الحرص على الاستقلال وهو أمر كان يلقي دعماً من قبل السيطرة عليهم، وقد أسهمت هذه الأمور في دخول تونس في صراع القوى الأوروبية من جهة والأوربية الإسلامية من جهة أخرى (١) .

ففي الوقت الذي وقفت فيه ولاية الجزائر أمام القوى الأوروبية المعادية سعى حكام ولاية تونس للتقرب إلى هذه القوى لحمايتها وضمان استقلالها سواء من الجزائر أو من الدولة العثمانية في بعض الأحيان وهو الأمر الذي دعا البعض لوصف الحسينيين بالتمرد على دولة الخلافة متأثرين بتوجيه الأوروبيين وبخاصة الفرنسيين . كما أن هذه السياسة التي سلكها من قبل ذلك حكام تونس قد مهدت الطريق للقوى الأوروبية وبخاصة فرنسا لاستخدام تونس في تحقيق أهدافها حيث فرضت العديد من المعاهدات التي انتقصت من استقلالهم - أي حكام تونس - لصالح النفوذ الفرنسي شينا فشينا . وكانت أول هذه المعاهدات معاهدة عقدت

سنة ١٠٩٦هـ / ١٦٨٥م، تضمنت امتيازات اقتصادية وقضائية لصالح الرعايا الفرنسيين، بل وتعهد حاكم تونس بالقبض على السفن المعادية لفرنسا وقفل الموانئ التونسية في وجهها في حالة حدوث حرب، وقد تم تعديل بنود هذه المعاهدة تعديلا محدودا في عهد الحسينيين سنة ١١٣٩هـ / ١٧٢٨م .

على أن بعض حكام الحسينيين قد أبدى عدم تقبده بهذه المعاهدات وحاول التقرب إلى دايات الجزائر والمشاركة في حركة الجهاد بشكل أوسع من ذي قبل، وفي نفس الوقت أظهر جانب العداء للقوى الأوروبية ولذلك فلم تكن التهديدات الأوروبية التي أخذت شكلا دينيا صليبيا، والتي نتجت عن مؤتمر فيينا سنة ١٢٤٠هـ / ١٨١٥م، وما تبعه من مؤتمرات سيطرت عليها الروح الصليبية المعادية للمسلمين، قاصرة على حركة الجهاد في الجزائر وحدها بل شملت تونس كذلك حيث وجهت الحملة الإنجليزية الفرنسية، التي خرجت باسم أوربا المسيحية والمدعومة من البابوية، إنذارا إلى تونس تنفيذا لقرارات مؤتمر إكس لاشابل سنة ١٢٤٤هـ / ١٨١٩م (٢) .

وفي الوقت الذي أبدى فيه دايات الجزائر رفضهم للتهديدات الإنجليزية الفرنسية وأعلنوا عزمهم على مواصلة الجهاد تَخاذاً لبايات تونس وأعلنوا رضوخهم للمطالب الأوروبية، ووصل الأمر إلى حد رفض الباي في تونس استقبال وفد من الدعاة المجاهدين قبيل احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٠م في حين استقبل مبعوث الحكومة الفرنسية (٣)، بل إن الباي أعطى وعدا للمبعوث الفرنسي بمساعدة الحملة الفرنسية على الجزائر يتمثل في إرسال وفد إلى فرنسا للتهنئة بنجاح الحملة وانتصارها على الجزائريين قبل أن تتضح نتيجة الحملة بشكل حاسم، ولم يثر انتباهه أو حفيظته الطابع الصليبي لهذه الحملة، أو يراعى تعاطف الرأي العام في تونس مع إخوانهم المجاهدين، أو ينتبه لأطماع فرنسا في تونس نفسها وهو ما كان يسهل إدراكه من شروط المعاهدات وتحركات الأسطول الفرنسي حول السواحل التونسية .

ويبدو من السياسة التي اتبعها " الباي حسين " سنة (١٢٤٩-١٢٦٠هـ) (١٨٢٤-١٨٣٥م) والتي اتسمت بالعداء لتوجهات الرأي العام الإسلامي في تونس أو خارجها، وارتمائيه في أحضان الفرنسيين، أن هناك وجه شبه بينه وبين " محمد علي " والى مصر. ولم تتوفر لدينا وثائق عن دور الحركة الماسونية في تونس التي لاشك أنها كانت الدافع الأساسي وراء هذه السياسة . ولقد أدت هذه

السياسة إلى أن يبدي أحد المؤرخين الليبراليين وهو الدكتور صلاح العقاد استغرابه وحيرته في تفسير موقف " الباي حسين " وخلفه " الباي أحمد " (١٢٦٢-١٢٨٠هـ) (١٨٣٧-١٨٥٥م) حيث نفى أن تكون هذه السياسة ترجع إلى العداء مع دايات الجزائر وبخاصة بعد توقيع معاهدة معهم بوساطة الباب العالي العثماني سنة ١٢٥٢هـ / ١٨٢٧م، أو ترجع إلى خشيتهم من سيطرة الدولة العثمانية التي لم يكن لها سوى سيادة إسمية لم تسع إلى تغييرها، أو ترجع إلى بعد قومي " لعدم وجود فكرة قومية محلية تعارض فكرة التضامن الديني (٤) "، أو حتى ترجع إلى الرغبة في الاحتماء بالفرنسيين من سلطان دايات الجزائر حيث أن فرنسا سرعان ما طالبت ولاية تونس - بعد احتلالها للجزائر - بالإتواء التي كانوا يدفعونها للجزائر، فضلا عن أنها - أي فرنسا - قد واصلت فرض شروطها من خلال معاهدات متعاقبة أدت إلى زيادة نفوذها باضطراد في تونس .

ولم تقتصر سياسة بايات تونس المتخاذلة على المجال الخارجي ببل شملت الأوضاع الداخلية كذلك حيث سمح للفرنسيين ببناء كاتدرائية في مواجهة مدينة تونس، وعهد إليهم بفتح المدارس وتدريب الجيش الذي لم يكن يستخدمه في تحقيق أطماع شخصية مثل محمد علي بل لهدف آخر توافق فيه مع محمد علي أيضا وهو حمايته من الرأي العام الإسلامي الذي كانت تأثيره هذه السياسة .

وتبع " أحمد باي " خلفه " محمد باي " (١٢٧١-١٢٧٥) (١٨٥٥-١٨٥٩م) الذي كان في بعض جوانب سياسته يشبه الخديوي " إسماعيل " في مصر حيث وقع في مظاهر الإسراف وبناء القصور ونفقات الحريم التي أوقعت البلاد في شباك الديون الأجنبية، كما نتج عنها زيادة نفوذ الأوربيين . ومن أبرزهم اليهود مما اضطره إلى إصدار دستور سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٧م، الذي كان مشابها لخط شريف جلخانة (الدستور) الذي صدر في الدولة العثمانية كتعبير عن زيادة نشاط ودور العناصر الماسونية، ثم تبعه دستور آخر في نيابة " محمد الصادق " (١٢٧٥-١٢٩٩هـ) (١٨٥٩-١٨٨٢م) صدر سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦١م، وقد أتلحت بنود هذا الدستور الفرصة للعناصر الأجنبية من السيطرة على الموارد الاقتصادية وبالتالي التحكم في المراكز الرئيسية في الإدارة التونسية (٥)، وأصبحت هذه المراكز مرهونة بشكل عام بتوجيهات العناصر

اليهودية التي كانت تشكل العناصر الاقتصادية الهامة وكذلك السيطرة على المحافل الماسونية .

وكان من الطبيعي أن تسهم هذه الأوضاع بدور كبير في إثارة الرأي العام المسلم في تونس، فقامت ثورة شاملة ذات طابع إسلامي وبعد اقتصادي " على بن داغام " استولت على بعض المصالح التي كانت تملكها بالخصخصة مثل سفاقس، وبدأت ملامح الغضب والكره لكل ما هو أجنبي على هذه الثورة، وأعلن الثائرون ارتباطهم بدولة الخلافة العثمانية، ورفعوا العلم السلطاني في مدينة سفاقس (٦) .

وسارعت الدولة العثمانية بالتدخل لدعم الثورة وحماية تونس من التدخل الأجنبي تحت إيداع حماية الأجانب والمصالح ، لكن الجنود العثمانيين ووجهوا بتكتل من الدول الأوروبية - وبيد ديني أيضا - حيث حالت أساطيلها دون نزول الجند العثمانيين إلى تونس، وشاركت في هذا التكتل أساطيل كل من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا (٧) .

وسعى المبعوث العثماني للتوسط بين "محمد الصادق" وزعيم الثوار المسلمين، واستجاب "الصادق" لهذه الوساطة، وفي نفس الوقت أدرك مدى قوة الاتجاه الإسلامي المعارض، وأصدر أمرا بإلغاء دستور سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦١م . ولم تكن العناصر اليهودية والماسونية المسيطرة على كثير من جوانب الاقتصاد والإدارة لتترك الأوضاع تتطور لصالح الرأي العام الإسلامي فبدأت تكشف عن وجهها الذي حاولت إخفاءه من قبل من خلال سياسة اتبعتها في إيقاع البلاد في شباك الديون، وبدأ أمام البائ ما كان غافلا عنه من جوانب هذه السياسة وحقيقة الديون التي أوقعت البلاد في يد الأجانب، وكانت هذه السياسة التي اتبعتها هذه العناصر في مصر قبيل الاحتلال مما يوحى بوحدة السياسة ووحدة المصدر والمتمثل في المحافل الماسونية .

ومن أبرز الشخصيات التي لعبت دورا في هذا المجال شخصية "مصطفى الخزنة دار" الذي شغل منصب الوزير الأعظم (١٢٦٢ - ١٢٨٩هـ) (١٨٣٧ - ١٨٧٣م)، فقد اتبع سياسة أوقعت تونس في المزيد من الديون ولصالح فرنسا على وجه الخصوص، ثم لصالح عناصر يهودية ومالطية . وحين قامت ثورة المسلمين سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٤م سارع - باسم الإصلاح - بعقد المزيد من القروض الخارجية أدت إلى زيادة الديون . ونتج عن هذه السياسة تكوين لجنة

من الأجانب للإشراف على المالية فى تونس سيطرت على أغلب الموارد الاقتصادية فيها وفى هذه الأثناء أسندت الحكومة إلى أحد الذين اشتهروا بالإصلاح وهو " خير الدين التونسي " على أمل إخراج البلاد من أزمتها .

على أن وصول " خير الدين التونسي " لرئاسة الوزارة لم يكن يراد به وجه الرأى العام المسلم وإنما أريد به امتصاص موجة غضب هذا التيار، فقد سبق أن أسند إليه القيام بجهد واضح فى تأسيس مجلس الشورى سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦١م، الذى كان على أسس غربية مما جعله مستهدفا بالهجوم من قبل الثائرين المسلمين حتى تم إبعاده عن العمل السياسى . ثم عكف على كتابة مؤلفات تحمل آراءه فى الإصلاح والتجديد التى تنحو نحو التقريب بين القيم الإسلامية وجوانب الحضارة الأوروبية، وظل على ذلك حتى أعيد إلى ممارسة نشاطه السياسى كرئيس للجنة الدين سنة ١٢٨٦هـ / ١٨٧٠م (٨)، ويبدو أن عودته لممارسة نشاطه السياسى كان مرتبطا برحلته التى جاب خلالها أغلب بلدان أوربا خلال فترة بعده عن النشاط السياسى والتى كان مكلفا فيها للقيام ببعض المهام من قبل الباي وكذلك من قبل والد زوجته " مصطفى الخزنة دار"، وقد زكت هذه الرحلة نهجه فى الإصلاح والمرتبطة بالمدنية الغربية (٩) .

وجاء توليه رئاسة الوزارة سنة ١٢٨٩هـ / ١٨٧٣م، بعد إبعاد صهره " مصطفى الخزنة دار" الذى أغرق البلاد فى الديون (١٠)، وحاول فى البداية أن (١١) . واتبع سياسة مماثلة فى العلاقات الخارجية حيث ساوى بين امتيازات الدول الأجنبية وإن كان قد غلب فرنسا على غيرها فى نفس الوقت الذى أبدى تقاربا لدولة الخلافة العثمانية، على أن يتبع سياسة متوازنة فى جمع الضرائب لسد عجز الميزانية متلافيا طريقة العنف والقهر التى اتبعت من قبل، كما أنه لم يعد إلى طرح فكرة العودة إلى مجلس الشورى على النهج الغربى خشية عودة الرأى العام المسلم للثورة عليه، وبرز ذلك بما كان ينبغى أن يدركه من قبل حين دعا إلى تأسيسه وهو أن مثل هذه المجالس لابد أن تكون مطلبا جماهيريا وليست فرضا على الجماهير، كما أنه بهذا التبرير قد وجد تبريرا آخر لأسلوبه الاستبدادى فى الإدارة هذه السياسة كانت متوازنة فى ظاهرها حيث كانت العلاقة مع الدولة العثمانية قاصرة على الميدان السياسى، وقد جعلتها الفرمانات قاصرة على سيادة إسمية، فى حين كانت السياسة مع الدول الأوروبية تتصل بالمصالح

الاقتصادية التى أصبحت فى أيديهم بحكم زيادة حجم الامتيازات الممنوحة لهم، وبالتالي كانوا الأكثر قدرة على التأثير فى مصير البلاد .

وبشكل عام لم تلق هذه السياسة، التى استمرت أربع سنوات (١٢٨٩- ١٢٩٣هـ) (١٨٧٣- ١٨٧٧م)، قبولا لدى الرأى العام المسلم فى تونس الذى اتهم " خير الدين " بممالأة الفرنسيين، كما أن " خير الدين " لم يسع إلى طرح إصلاحات اجتماعية تسهم فى تخفيف العبء عن كاهل الكادحين إلا بشكل محدود. لا تصطدم ومصالح كبار الملاك للذين ينتمى إليهم حيث كان يملك مزرعة كبيرة فى إقليم الساحل تسمى الأنفيدا (١٢)، فضلا عن أنه كان متأثرا بالنهج الفرنسى فى الإصلاح بحكم أنه قد تعلم على يد ضباط البعثة الفرنسية فى نشأته العسكرية والثقافية، وكان أحد أعضاء المحافل الماسونية المرتبطة بالمحافل الفرنسية (١٤). وعلى الرغم من ذلك فإن توجه " خير الدين " للدولة العثمانية لم يصادف ارتياحا لدى الفرنسيين، وفى نفس الوقت لم تحظ سياسته بقبول لدى البائى الذى كان " خير الدين " قد أخضع مصروفاته لرقابة شديدة (١٥)، فكان من الطبيعى أن يترك الوزارة، بل ويتعرض للتضييق بعد خروجه منها، مما اضطره إلى السفر إلى دولة الخلافة والاستقرار فيها ومزاولة نشاطه الذى صادف دعوة السلطان عبد الحميد الثانى لفكرة الجامعة الإسلامية (١٦) .

أما على صعيد تنافس الدول الأوربية حول تونس وهى إنجلترا وفرنسا وإيطاليا فقد كانت رهينة سياسة التحالفات والتكتلات العسكرية التى ظهرت فى أوربا بعد توحيد ألمانيا وإيطاليا، وأن هذه الدول كانت قد بدأت تتخلى عن سياسة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية وتطرح فى مؤتمراتها فكرة المساومات والتعويضات فيما بينها، فالنمسا تسيطر على البوسنة والهرسك، وألمانيا تسعى لإبعاد الفرنسيين عن الأكراس واللورين، وإنجلترا تساوّم على مصر ثم قبرص مقابل ترك يد الفرنسيين فى تونس والإيطاليين فى طرابلس .

وحين أدرك الفرنسيون أن حجم المعارضة لتوجههم نحو تونس قد خف عن ذى قبل ولم يبق فى ساحة معارضتها سوى الإيطاليين فى الغالب بدأت تتخذ سياسة فى تونس كان من شأنها زيادة نفوذهم حيث تغلغت فى النواحي الاقتصادية، وقد لعبت العناصر اليهودية دورا واضحا فى هذا الميدان . وكان عليهم أن يتبعوا ذلك - كما كان مخططهم - بإيجاد الأسباب المباشرة لتدخل عسكرى . وجاءت هذه الأسباب، المختلفة كعادة الأوربيين. فى إدعاء الفرنسيين

أن بعض القبائل الموجودة على الحدود الجزائرية التونسية قد أغارت عليهم وأن على السلطات التونسية تأييدهم في مهاجمتها لضمان الأمن، وأرسلوا حملة عسكرية كانوا قد أعدوا لها قبل اختلافهم، وهي أشبه بحجة الإنجليز في تدخلهم في مصر بعد ذلك بعام واحد، ودخلت القوات الفرنسية تونس سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١ م .

وقد نالت هذه الحملة تأييد الإنجليز. وبخاصة " جلاستون " الذي عرف عنه كرهه الشديد للعالم الإسلامي بحكم أنه كان قسيسا قبل اشتغاله بالسياسة، ولم يكن بوسع إيطاليا أن تدخل في حرب مباشرة مع الفرنسيين، وكذلك كانت أحوال الدولة العثمانية لا تساعد على القيام بدور حاسم لوقف هذه الموجه . وعلى الرغم من احتشاد جموع من التونسيين لمقاومة الاحتلال إلا أنهم لم يستطيعوا الصمود أمام تكتل القوى الأوروبية .

احتلال الإنجليز مصر سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م

**ثورة عرابى بين التآمر الماسونى الاستعمارى
والبعد الشعبى الإسلامى**

مقومات الثورة - الأجانب والسيطرة الاقتصادية :

على الرغم مما أبداه بعض المؤرخين من تحفظ في إطلاق مصطلح ثورة على هذه الأحداث إلا أننا نتفق مع الذين يعتبرونها ثورة ذات بعد اجتماعي يمثلها - فقط - اشتراك جموع الفلاحين من غالبية الشعب المصري حيث حاولوا مقاومة نفوذ الأجانب في الداخل والتدخل الأجنبي الخارجي (١٧)، وذلك على الرغم من أن هذا البعد ينفى عن الشرائخ التي تصدرت هذه الأحداث أو سيطرت عليها .

وتعود الجذور الحقيقية لهذه الثورة إلى عصر " محمد علي " وما ساد من مظالم واستبداد بجموع المصريين، وفي نفس الوقت إلى سياسته التي اتبعها حين فتح الباب على مصراعيه للأجانب في دخول البلاد، فحوت هذ العناصر حثالة شعوب البحر المتوسط من السماسرة والعاطلين والمجرمين والفقراء الساخطين، ومكنتها تشريعات " محمد علي " ثم تشريعات أبنائه من السيطرة على الحياة الاقتصادية شيئا فشيئا والتحكم في وسائل أرزاق جموع المصريين (١٨) .

وقد تمكن الأجانب في ريف مصر، وبفضل الحماية والامتيازات الأجنبية وسريان القوانين الأجنبية، ووجود المحاكم المختلطة التي أنشئت سنة ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٦م، بعد أن أخذت أشكالا متعددة، من نسج خيوط مكنتهم من الاستيلاء على أراضي البلاد، ففتحوا الملاهي وأماكن الشهوة والقمار والفنادق والخمارات وبيوت الدعارة، وفتح الباب على مصراعيه للهوى والإسراف والفجور، وبرز في ساحة المجتمع عناصر من دعاة الهوى والغايات والقوادين، وأدى ذلك إلى وقوع بعض أصحاب الأراضي في الإسراف وشباك الفسق، فباعوا أرضهم للأجانب . فعلى سبيل المثال اشترى " يوسف زغيب " قنصل البرتغال في الإسكندرية مساحة (٧٩٧) فداناً من أطيان " على حيدر باشا " في الدقهلية، وبيعت أطيان حسن باشا رسمي ومساحتها (١٦٨٧) فداناً " لإبراهيم الدرعى الإسرائيلي " التاجر بالسنبلاوين و" إيليا هوتوريل " من رعايا فرنسا " وروفانيل وسعد سوارس " (١٩) . هذا إلى جانب قيام العناصر الأجنبية بشراء بعض أراضي الفلاحين الذين اضطروا لبيعها أمام كثرة الديون بسبب الضرائب وأعباء المعيشة . (٢٠)

وفي الريف أيضا أحكم الأجانب سيطرتهم على وابورات المياه ووابورات حلج الأقطان وطحن الحبوب، فكانت سبيلهم لإيقاع الفلاحين في الديون وكثر

المرابون اليهود فى الغالب، ونتج عن ذلك بيع كثير من الفلاحين لأراضيهم . وقام الأجانب بتأجير الأراضي المملوكة للدولة ثم إعادة تأجيرها من الباطن للفلاحين بأجور أعلى فزاد العبء وزادت الديون (٢١)، وازداد بيع الأرض للأجانب، وتحولت جموع كثيرة من أبناء البلاد إلى أجزاء لدى الأجانب الذين يخالفونهم فى الدين .

أما فى المدن فسيطرت العناصر الأجنبية على وابورات تنقية المياه والمتاجر ووسائل الوساطة التجارية والوظائف بشكل زاد عن كل حد، ووصل أمر سيطرتهم إلى حد المتاجرة فى الحمير والبغال، إلى جانب فتح العديد من حانات الخمر ودور اللهو وبيوت الدعارة والقهاوى (٢٢) .

ولاشك أن مثل هذه الأوضاع قد أتاحت الفرصة لتدخل رأس المال الأجنبى المصحوب بمزيد من النفوذ السياسى للدول الأجنبية وبخاصة إنجلترا وفرنسا . فقد حاول الإنجليز فرض نفوذهم فى عهد " عباس الأول " حين سمح لهم بإنشاء مشروع السكك الحديدية، إلا أن الفرنسيين قد حققوا نفوذا أقوى حين نجحوا فى الحصول على امتياز شق قناة السويس فى عهد " سعيد " وازداد النفوذ الفرنسى إلى حد كبير فى عهد " إسماعيل " حيث زاد حجم البعثات العلمية إلى فرنسا، وتم إدخال القانون الفرنسى فى المحاكم وتأسست دار الأوبرا (٢٢)، وكانت زيارة ملكة فرنسا من الدلائل الواضحة على زيادة نفوذ فرنسا فى مصر، وقد أدى ذلك إلى إثارة حفيظة الإنجليز. وبشكل عام كان عصر إسماعيل وابنه " توفيق " صراعا بين الإنجليز والفرنسيين للسيطرة على السلطة والعناصر المتسترة بالحماية الأجنبية فى مصر .

على أن ما ينبغى مراعاته هو أن العناصر اليهودية قد تمكنت من السيطرة على خيوط الوجود الأجنبى فى مصر سواء من خلال المحافل الماسونية بوسائلها الاقتصادية أم من خلال الديون المالية، فقد سيطر آل روتشيلد على مصلحة الدين والسكك الحديدية، ووصلت عناصر يهودية إلى السلطة ومواطن التأثير منذ عصر " محمد على " مثل نوبار وباغوص وغيرهم . (٢٣)

وأدرك " إسماعيل " أنه قد أصبح فى يد القوى الأجنبية لتحكم مصيره بعد أن كثرت الديون وأحكموا السيطرة على الاقتصاد فى الداخل، فحاول الاستعانة بعناصر محلية من المصريين، لكنها كانت فى أغلبها - وبفعل اضطهاد أبيه - عاجزة عن القيام بأى دور وبخاصة أنه واصل اضطهاد الكثير منها . فقد كان

دور مشايخ الأثرر — الذين بقوا على الساحة — محدودا وقاصرا على المشاركة في الحفلات الرسمية المرتبطة بالسلطة، واستطاع الكثير منهم من خلال توليهم نظارة الأوقاف أن يكونوا ثروة كبيرة، وأصبح شيخ الأثرر " الشيخ عبد الرحمن نافذ" وكذلك الشيخ البكرى شيخ الطرق الصوفية من أصحاب الأملاك الكبيرة . واستقطب " إسماعيل " بعض رجال العلم بعطاياه فمنج " الشيخ عlish " مائة فدان ومعاش شهرى، ومائة وعشرون فدانا للشيخ " أبو العلا الخلفاوى " والشيخ " السادات " والشيخ " حسن العدوى "، كما كان " رفاعة الطهطاوى " يملك (١٥٤٦) فدانا، وكان الشيخ " الامبابي " الذى أصبح شيخا للأثرر إبان الثورة العربية تاجرا للأقمشة ووكيلا لمصانع إنجليزية فى ماتشستر (٢٤) .

وسعى " إسماعيل " لتقريب فئة أخرى وهم الأعيان عقب انشقاق أخيه " حلیم " عليه على أثر استصداره فرمانا سلطانيا يسمح بتولي ابنه " توفيق " ولاية العهد، وكون من الأعيان مجلس شورى القوانين بانتخابات صورية زائفة . ولم يكن القصد من تكوين هذا المجلس قاصرا على تقريب الأعيان فقط ولكن بقصد مساعدة أعضاء المجلس له فى جمع المزيد من الضرائب للتخفيف من حدة الأزمة المالية من جهة، ولكى يبدو أمام القوى الغربية أنه يسير فى طريق الارتباط بهم وبالتالي لا خوف على مصالحهم فى بلاده من جهة أخرى .

على أن مجلس " إسماعيل " لا ينبغى أن يعتبر من الدلائل أو الشواهد على وجود شكل من أشكال الحياة النيابية فى مصر، فكان هذا المجلس من وضع الحاكم لا تلبية لمطالب ورغبات المحكومين، كما كان أغلب أعضائه ينتمون إلى شرائح أجنبية لا تمثل مصالح الأغلبية أو تتوافق معهم، وإلى جانب صورية الانتخابات وتزييفها فكان مديروا المديریات هم الذين يختارون النواب، وكان على النواب إبلاغ الأهالى بأوامر الخديوي واستجلاب الموافقة — فقط الموافقة — على هذه الأوامر فى حين لم يكن من حقهم تلقى التماسات الأهالى، هذا إلى جانب أن النواب كانوا يشغلون مناصب حكومية وبالتالي لا يمكنهم مراقبة الحكومة بل التبعية المطلقة للحاكم . ومن الدلائل على ذلك أن " إسماعيل " حين أراد أن يظهر بمظهر المقلد للجمعية الوطنية الفرنسية والبرلمانات الأوروبية وطلب من أعضاء مجلسه تقسيم أنفسهم إلى يمين ويسار ووسط لم يجلس أحد منهم فى اليسار أو الوسط رغم إدراك الجميع لصورية المجلس (٢٦)، وكذلك حين عزل " إسماعيل " وعين ابنه " توفيق " وأمر أعضاء المجلس بالبقاء فى قراهم إمتثلوا للأمر دون

إبداء رأى أو مشاركة فيما يحيط بالبلاد . وعلق الدكتور " أحمد عبد الرحيم مصطفى " على ذلك بأن التحول فى مصر لم يتم بشكل تدريجى وبشكل عضوى نابع من ظروف محلية إذا ارتبط بإرادة حكام فرضوا على البلاد إصلاحات معينة بقصد اقتباس مظاهر معينة من الحضارة الغربية وبالتالي لم تقترن بيقظة ذهنية وظل النمط العقائدى السائد دون أدنى تغيير (٢٧).

ومع ذلك حاول " إسماعيل " أن يستخدم المجلس فى الوقوف أمام الحكومة التى ضمت وزيرين أجنيين، كما كون من بعض أعضائه جبهة المعارضة التى سعت لإسقاط وزارة " توفيق " وأطلق عليها اسم الجمعية الوطنية (٢٨) .

وعلى صعيد آخر حاول " إسماعيل " أن يفتح الباب لعناصر صحفية وثقافية ليستعين بهم على فك الطوق الذى أحكمه الأجانب حول رقبتة، فساعدهم وسمح لهم بفتح الصحف، فوفدت العديد من العناصر، واجتمعت " بإسماعيل " وبالمحافل الماسونية التى زادت فى عهده، وراحوا ينفذون أهدافه وأهدافهم تحت ستار مقاومة النفوذ الأجنبى . فشاطره الأجانب بزيادة عناصرهم فى هذه المحافل وتأسيس المزيد منها، ووجدوا من خلالها عناصر صحفية ساعدوها على فتح صحف تهاجم استبداد " إسماعيل " واختلط الحابل بالنابل (٢٩)، وامتألت الساحة بالمغامرين والمقامرين وتجار السياسة .

فمن أعضاء هذه المحافل، الذين استعان بهم " إسماعيل "، " مصطفى رياض باشا " الذى كان والده " إسماعيل الوزان " ناظر سك العملة، وينحدر من أسرة يهودية بأزمير . تولى مديرية الجيزة وعمره عشرين عاما (١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م)، وشغل عدة وظائف بالقصر والمديريات فى عهدى " عباس " و " سعيد " . (٣٠)، وكان يعمل لحساب المحافل الماسونية ووفق توجهاتها من خلال المناصب التى تولاها فى مصر، كما كان يعمل لحساب بيت روتشيلد اليهودى، ووقف إلى جانبه فى سياسته هذه كثير من مشاهير الفترة مثل " على مبارك " و " على إبراهيم " و " حسين فخرى " و " بطرس غالى " و " عبد الله فكرى " و " سالم سالم " و " محمود الفلكى " و " إسماعيل فكرى " إلى جانب استقطابه لبعض مشاهير الصحافة والسياسة فى هذه الفترة (٣١) .

وكذلك " نوبار باشا " الذى ينتمى هو الآخر إلى أصل يهودى من أزمير، وقد تلقى تعليمه فى فرنسا، وانضم إلى المحافل الماسونية فيها، ورشحه عمه " باغوص بك " ناظر خارجية " محمد على " لوظائف الإدارة العامة وهو فى

السابعة عشرة من عمره ١٢٥٧هـ / ١٨٤٢م، وظل يترقى حتى أصبح من أبرز وزراء " إسماعيل " (٣٢) .

وظهر أيضا " محمد شريف باشا " الذي ولد في القاهرة سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٦م، وكان ابنا لقاضى مصر العثمانى، ولم يعد مع أبيه إلى استانبول، وتولى " محمد على " تربيته فأرسله إلى مدرسة ضباط الأركان، وأوفده ضمن بعثة الأمراء إلى فرنسا سنة ١٢٥٩هـ / ١٨٤٤م، حيث التحق بالأكاديمية العسكرية (٣٣)، ثم عاد سنة ١٢٦٤هـ / ١٨٤٩م، ليعمل مع " إسماعيل باشا الفرنساوى " (وهو يهودى من قادة محمد على)، وتزوج ابنته، وتنقل فى بعض وظائف رجال القصر حتى عصر إسماعيل الذى برز فيه كواحد من الثلاثة المقربين منه بعد " رياض ونوبار " (٣٤)، وكان من أبرز أعضاء المحافل الماسونية .

ولعل من أبرز العناصر التى وفدت إلى مصر فى عصر " إسماعيل " وحظيت بعنايته " جمال الدين الأفغانى " الذى دخل مصر من خلال صلته " برياض باشا "، واستغله " إسماعيل " فى محاولة التخفيف من سطوة النفوذ الأجنبى، وعينه - لقاء ذلك - عالما بالأثر، ودفع له مبلغ ألف قرش شهريا . واستطاع " جمال الدين " أن يجمع حوله مجموعة من الصحفيين والكتاب مثل " محمد عبده " و " سعد زغلول " و " إبراهيم اللقانى " و " إبراهيم الهلباوى " وغيرهم . وتبع " جمال الدين " مجموعة من الصحفيين الشوام مثل " أديب إسحاق " الذى تعلم بإحدى مدارس الإرساليات فى دمشق، وعندما انتقل إلى بيروت اهتم بترجمة المسرحيات الفرنسية الموجهة .

وسبقه " سليم نقاش " الذى ينحدر من أسرة مسيحية فى بيروت وقد شارك " أديب إسحاق " فى إصدار جريدة " مصر " التى فتحها لهم " رياض " و " الأفغانى " سنة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٧م، ثم جريدة التجارة سنة ١٢٩٤هـ / ١٨٧٨م (٣٥)، كما شارك فى عروض الأوبرا المسرحية، وحظى بعناية كاملة من " إسماعيل " وعلى الرغم من أن " رياض " هو الذى فتح " لأديب إسحاق " باب دخول مصر إلا أنه عمل لحساب " شريف باشا " حين اختلف مع " رياض " وحرر لحسابه من باريس صحيفة " مصر القاهرة "، ثم عاد إلى مصر فى عهد " توفيق " ليتعاون معه ومع سلطات الاحتلال البريطانى، وحين اختلف معهم طرده من مصر (٣٦) .

ومن بين الصحفيين الماسون الشوام " سليم نقلا" الذى أصدر، بمساعدة " إسماعيل"، جريدة الأهرام التى كانت منبرا للمصالح الفرنسية فى مصر لفترة طويلة، وكان بعض مشاهير الفترة من بين كتابها الداعين إلى الأخذ بعلم الغوب واقتفاء منهجه وحضارته، إلى جانب اهتمامه بالثقافة الدينية (٣٧).

واجتذبت هذه الصحف، وهذه المحافل، بعض العناصر من المصريين الذين تأثروا بالثقافة الغربية وساروا فى ركب مصالحهم، فظهر " ميخائيل عبد السيد" الذى أسس جريدة " الوطن" التى سارت فى طريق معارضة سياسة " إسماعيل" لصالح الإنجليز.

ومن العناصر التى قربها " الأفغانى" ووضعها فى طريق معارضة إسماعيل " يعقوب صنوع" وهو يهودى من مواليد القاهرة سنة ١٢٥٤هـ — ١٨٣٩م، وأسرته من أصل إيطالى وفنت إلى مصر ضمن موجة السطو الأجنبى الذى فتح له محمد على الباب وتلقى تعليمه فى موطنه الأصلى (إيطاليا) بين علمى (٦٨ — ١٢٧١هـ) (٥٢ — ١٨٥٥م) على نفقة أحد أفراد أسرة " محمد على" الذين احتوتهم المحافل الماسونية وهو " أحمد يكن" (٣٨). وتنقل فى وظائف التعليم الخاص حتى وجهه " إسماعيل" لتسييس مسرح الشعب، لكن انتماءه لمحفل ماسونى تابع للمحافل الإنجليزية فى البداية قد دعاه إلى الانضمام إلى ركب المعارضين لسياسة " إسماعيل" التى كان فيها — من خلال المسرح — أكثر تأثيرا وحين نفاه إسماعيل سنة ١٢٩٤-١٨٧٨م هاجم " إسماعيل" هجوما شديدا عبر جريدته " أبو نضارة"، وتلقى معونات — أو أموالا — فى هذا الشأن من " حليم" الذى طرده " إسماعيل"، وكذلك من الباب العالى الذى انتقل عليه " إسماعيل" واتبع سياسة الاستقلال عنه (٣٩)، وروج " صنوع" لشعار " مصر للمصريين" إبان الثورة العربية (٤٠)، وقد دعا هذا الترويج البعض لأن يجعل من هذا اليهودى الإيطالى الأصل بطلا قوميا على حساب طمس الشعار الحقيقى للثورة وللفترة بأكملها الذى برز من خلال اشتراك جموع الكادحين المسلمين والمسيحيين من الفلاحين ويعبر عن طبيعتهم وحقيقة هويتهم الإسلامية.

ومن الملاحظ أن الصحف وروادها من دعاة الوطنية فى هذه الفترة كانوا مفروضين على الساحة المصرية، فمنهم من استجلبه " إسماعيل" ومنهم من استجلبه الأجانب ليعبر عن صراع النفوذ والمصالح بينهم، كما أن أغلب الصحفيين كانوا فى توجههم ومنهجهم وما يكتبونه لا يعبرون إلا عن أنفسهم

ومصالحهم التابعة، ولهذا فمن الخطأ أن ننتع أي من هذه العناصر بالوطنية وكذلك صحفهم حتى ولو صادف وجود بعض الجوانب الوطنية فيما كتبوه والتي وردت بشكل عارض في طريق تنافسهم أو تنافسهم من أجل أهدافهم ومصالحهم (٤١) .

ولعل متابعة المحافل الماسونية خلال هذه الفترة يضيف مزيدا من الضوء على القوى الخفية الكامنة وراء الأحداث والمحرك الفعلي لها والتي استفحل دورها وتأثيرها في مصر منذ الحملة الفرنسية وخلال عصر " محمد علي " .

المحافل الماسونية ودورها إبان أحداث الثورة العربية

سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م

يعتبر عصر " إسماعيل " هو أزهى عصور الحركة الماسونية في مصر بعد عصر " محمد علي " حيث كان انضمامه إليها وحمايته ودعمه لها سببا في ازدياد عدد محافلها وتوسع نشاطها (٤٢)، فتأسست المحافل الماسونية الوطنية إلى جانب المحافل الأجنبية، وانتمى إليها عدد كبير من كبار الملوك والأعيان والعلماء وفي مقدمة هؤلاء جميعا ولي العهد " توفيق " .

وقد سعت إنجلترا لتقريب بعض أعضاء محفل " كوكب الشرق الماسوني المصري " وبخاصة الذين كانوا يضيّقون بسياسة الخديوي الاستبدادية، وشجعتهم على سياستهم المتوافقة مع سياستها الرامية إلى عرقلة النفوذ الفرنسي الذي كان يساند الخديوي وبالتالي المساهمة في زيادة حجم النفوذ الإنجليزي (٤٣)، وكلنت تلك الأمور تشير إلى دخول الصراع السياسي بين إنجلترا وفرنسا حول نفوذهما في مصر داخل هذه المحافل .

ونجح الإنجليز في تقريب عدد من أعضاء المحفل الماسوني المصري بفروعه الراغبين في مقاومة " إسماعيل " ومن خلفه النفوذ الفرنسي باسم مقاومة نفوذ الأجانب، كما نجحوا من خلال محافلهم في العاصمة العثمانية في دفعهم السلطان عبد العزيز " لتقريب الأمير " حليم بن محمد علي " الذي كان يطمع في تولي عرش مصر بعد " إسماعيل " لكن " إسماعيل " سعى إلى تغيير نظام الوراثة ووضع ابنه " توفيق " وليا للعهد، فتقرب الإنجليز من " الأمير حليم " وكرسوه في محفل " البلور - أو البلوار " الإنجليزي سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٥م، في حفل كبير شهده كبار الماسون الإنجليز، ورقوه إلى أعلى المراتب في هذا المحفل

وعينه " أستاذ أعظم إقليمي للديار المصرية " وثبته في وظيفته عند زيارته لإنجلترا سنة ١٢٩٤هـ / ١٨٦٧م (٤٤) .

وقد أدى الاهتمام الماسوني الإنجليزي بالأمير " حليم " إلى اضطهاد " إسماعيل " له ولمحفله بعد أن توجس خيفة من نشاطه فصادر أملاكه ونفاه خارج البلاد، وتم تعيين الإيطالي " زولا " خلفا له (٤٥) . وتعهد الماسون الإنجليزي بسبب هذه الإجراءات بعدم تأسيسهم لمحافل أخرى في مصر، ولكنهم عادوا وأسسوا المحفل الأكبر الإقليمي لمصر والسودان سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٩م (٤٦)، بعد احتلال إنجلترا لمصر والسودان، وعينوا اللورد " كتنشر " أستاذا أعظم لهذا المحفل (٤٧) .

وفي عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٧م تقرر الانتقال بالمحفل الأكبر المصري من الإسكندرية إلى القاهرة، وأصبحت أغلب المحافل الماسونية المصرية، التي وصل عددها حتى هذا التاريخ إلى ٢٩ محفل تابعة له باستثناء مجامع الدرجات العليا، ولكن تم إنشاء مجمع آخر هو " الشرق الأعظم المصري " الذي نازع " الشرق الأعظم الوطني المصري " السلطة، وظل الصراع بينهما إلى فترة طويلة (٤٨) .

الماسونية والثورة العربية والاحتلال الإنجليزي لمصر

سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م

في سنة ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م قرر " المحفل الأكبر الوطني المصري " اختيار الخديوي " توفيق " رئيسا له بدرجة " أستاذ أعظم " ونال هذا المحفل الممثل لكثير من المحافل المصرية عناية " توفيق " ودعمه (٤٩) . على أن هذا الاختيار يعد تغيرا في توجه " توفيق " الماسوني من ميول إلى المحافل الفرنسية إلى المحافل المصرية التي تنال تأييد وعناية المحافل الماسونية الإنجليزية في الغالب، منذ بداية توليه الحكم، كما كان ذلك متوافقا مع زيادة نفوذ إنجلترا على حساب النفوذ الفرنسي في مصر بعد الاحتلال الإنجليزي لمصر بالطبع وهي أمور تزيد تأكيد اشتغال هذه المحافل بالأمور السياسية .

ويشير البعض إلى أن من أبرز من انضم إلى المحافل الماسونية خلال هذه الفترة " السيد جمال الدين الأفغاني " الذي انضم إلى محفل كوكب الشرق التابع للمحفل الإنجليزي الأعظم سنة ١٢٩٢هـ / مايو ١٨٧٥م، وتبعه بعض تلاميذه مثل الشيخ محمد عبده، وأنه رقى في غضون سنوات ثلاث حتى أصبح رئيسا

لهذا المحفل، لكنه برز كمصلح اجتماعي وسياسي إسلامي، وحاول أن يستغل انتماءه للماسونية للمساعدة في هذا الصدد فلقى معارضة من أتباع هذا المحفل لإدراكهم لمدى ضرر هذا الاتجاه على نفوذ الإنجليز الأمر الذي أدى إلى خروجه منه لا من الماسونية ككل، وأسس محفلا جديدا برنامجه تابعا " للشرق الأعظم الفرنسي " (٥٠)، ونجح في أن يضم العديد من تلاميذه حتى بلغ عددهم ثلاثمائة كانوا في أغلبهم من المفكرين والعلماء وحقق نجاحا في سياسته الإصلاحية التي تأثرت بالفكر الغربي إلى حد كبير (٥١) .

وحين طالب " الأفغاني " وتلاميذه بالدستور والحياة النيابية ومزيد من الإصلاحات، وكان من قبل قد نجح - من خلال انتمائه للمحفل الإنجليزي - في مساعي عزل " إسماعيل "، وارتاب " توفيق " من ذلك ومن خلفه الإنجليز فقبض على الأفغاني ونفاه من مصر (٥٢) .

وكان أغلب رواد الفترة من الكتاب والمفكرين الذين وفوا في أغلبهم من بلاد الشام أعضاء في محافل ماسونية، وكانوا في أغلبهم من اليهود والنصارى من أمثال " سليم نقاش " و " أديب إسحاق " إلى جانب اليهودي الإيطالي " يعقوب صنوع "، وانضم إليهم بعض الكوادر المصرية ممن شاركوا في تأسيس جمعية حلوان وجمعية مصر الفتاه (٥٣).

على أن ما ينبغي ملاحظته هو أن الإنجليز رغم حذرهم من أسلوب الأفغاني في إشعال الروح الوطنية المعادية للأجانب ونفوذهم في مصر بشكل عام إلا أنهم قد ساعدوا هذه المجموعة - بشكل مباشر أو غير مباشر - على نشاطهم الداعي إلى غرس الروح القومية من جهة وعلى وقوفهم في تيار معارض لتوفيق ومن حوله من جهة أخرى وهو الدور الذي ساهم في الإنجليزى " ولفريد سكاويلانت "، حتى يساعد ذلك على احتدام الموقف في ظل تنامي نفوذهم وبالشكل الذي أشعل الثورة العربية، وأتاح لهم فرصة التدخل العسكى الذي أدى إلى احتلالهم لمصر سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨٢م .

ولعل ذلك يشير بشكل واضح إلى اشتغال المحافل للماسونية بالسياسة بل واستخدامها في تحقيق أهداف سياسية (٥٤)، وهو أمر يتناقض مع دعوى هذه المحافل في عدم دخول السياسة في نشاطها، وبررت هذا التدخل وهذا الاستخدام بمساندتها لحركات التحرر المتمثلة في الثورة العربية، أو تفسير تخفى العربيين وراءها فيما أسماه أحد المؤرخين المصريين بالواجهة الماسونية (٥٥) .

ومما يؤكد دور المحافل الماسونية فى الثورة العربية أنها - أى هذه الثورة - لم تكن ثورة - إذا اتفقنا مع الذين قوموها كذلك - تحركها عوامل إجتماعية طبيعية فى أغلب مراحلها منذ البداية، أوحى ثورة سياسية، فالحزب الوطنى الذى يعد أول القوى الداعية للثورة كان عبارة عن محفل ماسونى، وكانت الجمعية الوطنية التى تفرعت عنه سنة ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م تمثل الأرسنقراطية الجركسية والأجنبية التى أفرزها عصر " محمد على " والتى كانت لها السيادة فى عصر " إسماعيل " وتقلص دورها بعد إبعادها . ثم تكونت من أعضائها جمعية حلوان التى تزعمها " شريف باشا " أحد أعضاء المحافل الماسونية والذى كان يستهين بالمصريين (٥٦) وضمت فى عضويتها " إسماعيل راغب " " أحد أهم أعضاء المحفل الماسونى ووالد إدريس راغب " الذى أصبح رئيسا للحركة الماسونية فى مصر على مدى ثلاثين عاما (٥٧). وتكونت جمعية مصر الفتاة من مجموعة من المفكرين الشوام من أعضاء المحافل الماسونية فى الشام ثم فى مصر، وكان أغلب أعضائها من اليهود، وقد احتوى بيئاتها الأولى على بند يؤكد حرصها على صيانة الأملاك الذى يعنى الحفاظ على الهيكل الاجتماعى الذى كان الأجانب يشكلون فيه دورا كبيرا بما لديهم من ملكيات إلى جانب النفوذ (٥٨) .

أما جماعة العسكريين فقد انحصرت مطالبهم الذاتية لا الوطنية فى أمور خاصة بإصلاح أحوالهم فى الجيش كتعديل الرواتب وفتح باب الترقى أمامهم، والخوف من الإحالة إلى الاستبداد أو الطرد من الخدمة، كما كان " عرابى " قد أصبح من أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة نسبيا حيث كان يملك (٩٧٦) فدانا، وعبد العال حلمى " يملك (٥٤) فدانا (٥٩) .

وعلى الرغم من اختلاف شكل هذه الواجهات الوطنية إلا أن الصلة والتنسيق بين أعمالها كان يتم من خلال أساليبها الاقتصادية، فالأفغانى كان على صلة " بشريف باشا " قبل وبعد طرد " إسماعيل " من الحكم (٦٠)، وكان " محمد سلطان باشا " وهو رئيس مجلس النواب وأحد أعضاء جمعية حلوان على رأس قسم المخابرات العسكرية التى تجسست على عرابى لصالح الإنجليز والخديوى (٦١) .

وكانت الصحف والمنشورات الى تدعو إلى أفكار التحرر فى الظاهر تستمد مواردها الكاملة من المحافل الماسونية. وكان قسم كبير منها يصدر باللغات

الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية سواء في مصر أو في باريس وبالتالي لم تهتم بمخاطبة جماهير المصريين بقدر اهتمامها بمخاطبة الأجانب أو من يدور في فلكهم من أصحاب السطوة والتأثير، والمصالح، ولهذا كانت بعض هذه الصحف تطبع في باريس وتوزع مجاناً على المراد التأثير عليهم مثل صحيفة "أبو نضارة" لصاحبها "يعقوب صنوع" التي كانت ترسل وتوزع مجاناً على جماعة العسكريين من عرابي وصحبه بعد أن أصبحوا من أصحاب المصلح (٦٢)، وكان الممول الأساسي لكل هذا هو محفل كوكب الشرق الفرنسي الماسوني .

كما ان المحررين الشوام الذين كانوا يروجون لهذه الأفكار من أعضاء المحافل الماسونية ومن لا ينتمون في جذورهم إلى السواد الأعظم من شعب مصر "كسليم" "العجوري" "ويعقوب صنوع" و"مikhail عبد السيد" وسليم نقاش "وبشارة تقلا" وغيرهم، وكانوا في أغلبهم يستظلون بحماية السفارات الأجنبية، كما لم يكن حب مصر أو مصلحة شعب مصر هو شاغلهم كما راج عنهم من خلال شعارهم "مصر للمصريين" ولم تكن علاقة مصر بدولة الخلافة أو إحياء الشعور الوطني والسعي لاستقلال مصر هو الحل لخروج المصريين من قضايا الظلم الإجتماعي التي أطبقت على خناقهم، وكانت هذه الأوضاع قد حددت وضع مصر في إتفاقية لندن سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٤٠ م، بل كان نفوذ الأجانب الذين ازداد عددهم في مصر منذ عصر "محمد علي" وبتخطيطه وبخاصة العناصر اليهودية والسماح لهم بالسيطرة على ثروات البلاد والسخرة التي فرضوها على الكادحين قبل وأثناء وبعد حفر قناة السويس هي لب المشكلة الحقيقية في مصر، والتقى معهم أصحاب المصالح من الوافدين الشوام أو المصريين للدفاع عن مصالحهم وإن اختلفوا في أسلوب تطويع العامة واستخدام العامل الديني وهو ما نظمته المحافل الماسونية .

تبعية المحافل الماسونية في مصر للمحافل الأجنبية

حاول محفل ممفيس الماسوني المصري إيجاد فروع له في الدول الأوروبية لكنه لم يستطع بسبب عدم تقبل الأوروبيين لأسلوبه الشرقي أو لتعرضه للحرب من قبل المحافل الأوروبية . بل إن الأسلوب الماسوني المصري لقي حرباً مشابهة على الساحة المصرية من قبل المحافل الأوروبية أو العناصر الأوروبية الموجودة داخل محافل مصر، وانتهت هذه المنافسة أو الحرب بسيادة المحافل الأوروبية في مصر

والقضاء على محفل أو طريقة ممفيس الماسونية، وقد نتج عن ذلك اتباع كافة المحافل المصرية للمحافل الأوربية وفقا لتوجهاتها وأهوائها (٦٣) .

وقد بدت عدة محاولات للماسون المصريين من اتباع المحفل الممفيسى تكوين كيان ماسونى مستقل فى محاولة للتخلص من التبعية للمحافل الأجنبية والاعتماد على عناصر مصرية، وبدت أولى هذه المحاولات حين تمكن الماسونى الإيطالى " اسكاروترا " من الحصول على تصريح من المجلس السامى الايطالى للدرجة ٣٣ للمملكة الإيطالية بفرع مستقل فى وادى النيل سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٤م، كما حصل الماسونى " بوريجار " على براءة بتأسيس مجلس بطارقة بدرجات ٩٥ للعظماء المحافظين عل طريقة ممفيس البنائية (الطقس الشرقى) سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٥م، وفى سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٧م، حصل " الأمير حليم بن محمد على " عل براءة تأسيس المحفل الأكبر الإنجليزى الإقليمى للبلاد المصرية وملحقاتها (٦٤) . لكن صعوبات عديدة واجهت محاولة استقلال الماسونية المصرية لعل فى بدايتها وأهمها عدم إقبال العناصر المصرية لاعتقادهم - الصحيح - بأنها عدوة للدين، كما أن العناصر الأوربية المشاركة فى محفل ممفيس كانت من العدد والقوة بشكل جعلها تبطل هذه المحاولات .

وبعد خلع " إسماعيل " من الحكم، وتخلّى الخديوى " توفيق " عن رئاسة المحفل الماسونى المصرى سنة ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م، تم تعيين " إدريس راغب " أستاذا أعظم للمحافل المصرية . وقد حارب " راغب " سلطات المحافل المصرية لصالح المجلس السامى الماسونى المصرى التابع للمحفل الإسكتلندى (٦٥)، وأضعف قوة محفل ممفيس حتى قضى عليه، و أكد تبعية المحافل المصرية للمحافل الأجنبية بشكل كامل حيث كانت براءات التكوين وشهادات التكريس والترقى والالتحاق فى المحافل الماسونى والنظام الداخلى لهذه المحافل وعلاقاتها بأعضائها أو ببعضها البعض تصدر من المحافل الأجنبية فى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وأمريكا (٦٦) .

أحداث الثورة :

أما عن الثورة فقد أدرك الضباط المصريون نية " توفيق " لتصفيتهم حين عين " عثمان رفقى " ناظرا للجهادية وخاصة بعد إحالة عدد كبير منهم للاستيداع. فبدأ الخوف من الطرد من الخدمة يساورهم. وتجمع أربعة منهم هم أحمد

عرايى " و " عبد العال حلمى " و " أحمد عبد الغفار " و " على فهمى " فى بيت " عرايى " فى منتصف يناير سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م واختاروا " عرايى " ليتحدث باسمهم بشرط مؤازرته (٦٧) .

وأعد " عرايى " مذكرة تعرب عن توجس هذه المجموعة من ناظر الجهادية لكنها تؤكد على عدالة " توفيق "، وتضمنت المذكرة الإشارة إلى تصسف ناظر الجهادية ضدهم وبخاصة فى فصل القائم مقام " أحمد عبد الغفار " وطلبوا بإقصائه من الوزارة (٦٨) .

ثم اتجهوا للقاء ناظر الداخلية رياض باشا " الذى أسموه " أبا المصريين " فى السابع عشر من يناير، وفى اليوم التالى (٦٩) . وعرض " رياض " أمرهم على الخديوى الذى قرر إلقاء القبض عليهم ومحاكمتهم محاكمة عسكرية يرأسها رئيس الأركان وهو جنرال أمريكى يدعى " ستون " وعضوية جنرالات أجنبية هم " لارمى " و " فون بوليتز " وأربعة لواءات جراكسة . وجرد الثلاثة من سلاحهم ودخلوا السجن فى انتظار المحاكمة وأهينوا إهانة بالغة، وعين ناظر الجهادية ثلاثة مكانهم . ولكن حدث أمر لم يكن يتوقعه الخديوى وناظر الجهادية حيث رفض ضبط الآليات الثلاثة تسليم القادة الجدد، وقام أحد هؤلاء الضباط وهو " محمد عبيد " بالقبض على قائد الحرس الخديوى الجديد، ورابطت أورطة بقيادة " البكباشى " أحمد فرج " أمام قصر عابدين، وتحرك البكباشى " محمد عبيد " والبكباشى محمد عيسى " إلى قصر النيل، وأحكموا الحصار على نظارة الجهادية، وأطلقوا النار عليها ففر الجميع بما فيهم ناظر الجهادية، وأطلقوا سراح القادة الثلاثة وعادوا إلى ثكناتهم (٧٠) .

وأسرع " عرايى " بالكتابة إلى القنصل الفرنسى، ومن خلال المحفل الماسونى، طالبا الوقوف إلى جانبهم ضد الخديو والضباط الجراكسة، وكذلك إلى روفانيل بورج " نائب القنصل الإنجليزى وأحد أبرز الأعضاء الماسون فى مصر " (٧١) .

ويبدو من خلال المرحلة الأولى من الأحداث أن المسألة كانت تخص الضباط ومطالبهم ومصالحهم ولا تتصل بأي مطالب شعبية أو وطنية من بعيد أو قريب، كما أن هؤلاء الضباط وهم " عرايى " وصحبه كان دافعهم الحرص على مصالحهم الخاصة التى دعته لتدعيم صلتهم بإخوانهم العسكريين وإبداء ولائهم للخديوى فى نفس الوقت، كما يبدو واضحا صلتهم بالمحافل الماسونية وأن لها أثرا وضحا

فى توجيههم، وكذلك قناصل الدول الأجنبية دون أى من القوى الشعبية، فحين أشار قناصل الدول على "توفيق" قبول مطالب العسكريين وإقالة ناظر الجهادية استمع إلى تلك وعين "البارودى" مكان "عثمان رفقى" وأعاد العسكريين الثلاثة إلى مناصبهم (٧٢). واقتصرت مطالب العسكريين من "البارودى"، والتي كتلت لجس النبض، على مطالب خاصة بفتحهم وهو ما يؤكد عدم وجود أى بعد شعبى لدور "عربى" وصحبه حتى هذه الأحداث، فقد طالبوا ببذل نقدى للغذاء ورواتب كاملة عن الأجازات التي لا تتجاوز شهرا ونصفها فيما يزيد، والسفر بنصف أجرة فى السكك الحديدية، وصرف بدل ملابس للجنود وإلغاء ورش التريزية، وعدم إجراء ترفيقات إلا وفق اللوائح، وزيادة رواتب الضباط والجنود، وإعادة "أحمد عبد الغفار" إلى منصبه. وبعد أن رفع "البارودى" الأمر لمجلس النظار برئاسة "رياض" ووافق على أبرز مطالب العسكريين وأقيمت وليمة كبرى أكد فيها "رياض" بأن الخديوى قد بعث فى مصر الحياة، وتحدث "عربى" فاعتبر المصريين والأجانب إخوانا يعملون من أجل الوطن، ثم أقسم وصحبه يمين الطاعة للخديوى (٧٣)، ولم يشر من قريب أو بعيد إلى ما يعانى به الشعب من الأجانب وبخاصة الفلاحين، ولم تكن هناك أية أبعاد لما قاموا به بل كانت - كما سبق القول - مطالب خاصة نابعة من الخوف، وموجهة من جهات غير شعبية تخلصو تماما من البعد الوطنى.

وأقال الخديوى "البارودى" من منصبه حين رفض "البارودى" إبعاد "عبد العال حلمى" وعين صهره "داود يكن" ناظرا للحربية مما دعا الضباط للارتياح مما ينويه الخديوى تجاههم، وقدموا مذكرة إلى "رياض باشا" ببعض المطالب كنوع من جس النبض أيضا، فصدق ما توقعوه حيث أعاد "رياض" المذكرة إلى "عربى" مشفوعة بلفت نظر (٧٤).

وتحت ستار الإصلاح أصدر "رياض" بعض التشريعات بمساعدة من "توفيق" والتي كانت ستلحق الضرر بكبار الملاك من الأعيان، فاندفع الأعيان لمساعدة العسكريين، واندفعت الصحف - من خلال المحافل - لدفع الأحداث إلى طريق العنف الذى حذر منه البعض مثل "الشيخ محمد عبده" (٧٥).

وعلى أثر قيام ناظر الجهادية بنقل بعض الآليات العسكرية بعيدا عن العاصمة أدرك الضباط أن القصد هو محاولة إضعاف قوتهم ثم تصفيتهم، وأثير شعور الارتياح عن تفكيرهم فى القيام بمظاهرة عسكرية سنة ١٢٩٨هـ/ يوم ٩ سبتمبر

١٨٨١م، وقد لعبت الصحف - وبخاصة ذات التوجه الإسلامي - دورا واضحا فى هذه الأحداث، وكان اشتعال فكرة الجامعة الإسلامية، واحتلال فرنسا لتونس من أهم العوامل التى أسهمت فى إثارة جماهير المسلمين فى مصر ضد الأجانب والتى ألهمت مقالات الشيخ " حمزة فتح الله " الذى فر من تونس إلى مصر ليشارك فى تحرير جريدة الإسكندرية، وكذلك الحجاز والفسطاط " لإبراهيم سراج "، وصحيفة الاتحاد العربى التى كانت تصدر فى لندن والتى كان وراءها " بلنت " و" جريجورى " و" محمد عبده "، والتتكتيت والتبكتيت " لعبد الله النديم "، والوقائع والشورى " لمحمد عبده "، وكانت جريدة مصر من أوضح الصحف التى يبدو منها تحريك الإنجليز لها حين نادت بشعارات وطنية ولكن فى إطار الدعوة للتفاهم مع الإنجليز الذين يؤيدون - كما أعلنت الصحيفة - على لسان ملكهم " شارل ديكل " - ثورة عرابى (٧٦)، ولعل ذلك يوضح دور المحافل الماسونية والقوى الأجنبية وراء الأحداث وهدفهم منها .

وعلى الرغم من أن " عرابى " قد حركته الرغبة والمطالب والمصالح الخاصة بفنته العسكرية حتى هذه الأحداث وهو الأمر الذى جعل البعض يذكر أنه لم يكن يمثل مطالب الأمة (٧٧)، وأنه كان يحسب حساب القوى الأجنبية دون أن يسعى - وكان هذا أكثر من حدود إمكانياته - للقوى الشعبية، إلا أن الصحف التى قصدت إثارة القوى الشعبية، ومن خلال العامل الدينى فى المقام الأول، وربطها به قد وجهت " عرابى " وصحبه تجاه هذه القوى، فتلاققت دوافع الصدق - النسبى - فى مظاهرة عابدين سنة ١٢٩٨هـ / ٩ سبتمبر ١٨٨١م (٧٨)، وعبر عنها " عرابى " فى العريضة التى قدمها للخديوى وأطلق عليها مطالب الأمة على الرغم من خلوها من تفاصيل لمطالب تحد من ظلم الكادحين أو تتفق ومصالحهم . وتركزت مطالب العسكريين بزعامة " عرابى " عل إسقاط وزارة " رياض " وتشكيل مجلس نيابى على النسق الأوروبى وزيادة عدد الجيش إلى القدر المحدد فى القرارات السلطانية، وقد رفض الخديوى هذه المطالب وذكر لعرابى " أنكم عبيد إحساننا "، فرد " عرابى " لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا فوالله الذى لا إله إلا هو إتينا لا نورث ولا نستعبد بعد هذا اليوم " (٧٩) .

وعلى أثر توسط القنصل الإنجليزى " كوكس " أقال الخديوى الوزارة، وترك " عرابى " ميدان عابدين، وطالب بتعيين " شريف باشا " رئيسا للوزراء (٨٠) .

وجاءت وزارة " شريف " مخيبة للآمال حين شرعت فى تشتيت شمل العسكريين، وحذر " البارودى " " شريف باشا " من ترك " عرابى " بالقرب من موطنه " الشرقية "، ولعل ذلك يؤكد حرصهم على استخدام العسكريين فى سبيل مصالحهم أكثر من حرصهم على استخدام العسكريين فى إحداث أى نوع من الإصلاح . وحاول " شريف " استدعاء " عرابى " وترقيته، لكن عرابى رفض - خوفاً - هذا العرض لإدراكه لطبيعة دور هؤلاء (٨١) .

وفى سنة ١٢٩٩هـ / فبراير سنة ١٨٨٢م، انتخب مجلس جديد للنواب برئاسة " محمد سلطان باشا " (٨٢)، وادفع أعضاء المجلس من الأعيان لحماية مصالحهم من خلال مناقشة الميزانية، ولم يرق هذا الأمر لإجتراء وفرنسا فرفضت مناقشة المجلس لها وأيدهم رئيس الوزراء " شريف باشا "، فثار النواب عليه سانداهم العسكريون الذين سيطروا على الموقف داخل المجلس، فأقيل " شريف " وعين البارودى رئيساً جديداً للوزراء وعين " عرابى " ناظراً للجهادية . وأقدم " عرابى " على التخلص من الضباط الجراكسة فى الجيش فأحال الكثير منهم إلى الاستيداع، وأرسل أغلب من بقى منهم إلى السودان مما دفعهم لتدبير مؤامرة لإغتياله، فقبض على الكثير منهم وحاكمهم وقضى بنفيهم إلى أقصى السودان (٨٣)، ورفض الخديوى التصديق على الأحكام مما أثار العسكريين، وعرض الخديوى إرسال لجنة تحقيق من الباب العالى فى حين رأى العسكريون عرض الأمر على مجلس النواب، ورفض الخديوى استدعاء المجلس، وتجرر الموقف لينذر بقرب حدوث انفجار (٨٤) .

وأدرك الخديوى أن الموقف قد حان للإعراب عن حاجته إلى قوة عسكرية من الخارج فطلب ذلك من الباب العالى، ويبدو أنه حين طلب منه الباب العالى توضيح من يقف وراء الثوار ذكر أنه لا يدري، ولكن يعلم وقوف فرنسا خلفهم وهو أمر أعلنته جريدة " اللطائف " (٨٥)، وأنها - أى فرنسا - تؤيد " حليم " ضده، وكذلك يبدو من إبلاغه الباب العالى أن صحيفة " أبو نضارة " كانت تطبع فى باريس وتهرب إلى مصر وتوزع مجاتا على العسكريين (٨٦)، كما كان يدرك أبعاد الدور الإنجليزى فى إثارة الأحداث ففى الوقت الذى نصحه فيه مندوبى إنجلترا وفرنسا " ماليت " وسفنكى " باستخدام صلاحياته فى مسألة مؤامرة إغتيال " عرابى " دون انتظار الباب العالى نصحوهم فيه " البارودى " بفصل الضباط الجراكسة المتآمرين دون استشارة الخديوى، كما اتفق - توفيق - و " ماليت " على الكتابة إلى البلاد

الأوربية عن طريق القناصل بأن " البارودى " يهدد بعمل مذبحه للأوربيين فى مصر، فى نفس الوقت الذى أبلغوا فيه ذلك " للبارودى " (٨٧).

وتمكن الخديوى و " ماليت " من تقريب " محمد سلطان " رئيس مجلس النواب - الذى كان يقوم بدور التجسس للمخابرات العسكرية الإنجليزية على " عرابى " وأحد أعضاء جمعية حلوان الماسونية - واتفقوا على طلب إستقالة الوزارة وإبعاد الضباط فى نفس الوقت الذى تحركت فيه الأساطيل الإنجليزية الفرنسية صوب الإسكندرية . وقدم " ماليت " مذكرة معلنة إلى الخديوى بالمطالب التى كانوا قد اتفقوا عليها لعرضها على " البارودى " و " عرابى "، وأبلغ " البارودى " الخديوى برفضه هذه المطالب، فرفض الخديوى الرد، فقدم " البارودى " إستقالته مما أدى إلى تفاقم الأحداث وبخاصة بعد أن دبر الإنجليز مذبحه للأجانب فى الإسكندرية كى تكون مبررا للتدخل العسكرى (٨٨)، وفى نفس الوقت طلب الخديوى من " عرابى " الاستمرار كناظر للجهادية إستكمالاً للتدبير .

وكان الباب العالى قد أبدى إحتجابه على أى نوع من التدخل العسكرى الخارجى فى مصر، وطرح فكرة إرسال قوات عثمانية مما أثار الإرتياب فى نفوس قوى التآمر الأجنبى، وسارعت فرنسا باقتراح عقد مؤتمر دولى فى الآستانة أقرت فيه الأطراف بعدم التدخل فى مصر، ولكن إنجلترا أضافت عبارة إلا فى الضرورة القصوى، ولعل فى ذلك ما يؤكد دور الإنجليز فى دفع الأحداث إلى الحد الذى يسمح لهم بالدخل العسكرى (٨٩) .

الطابع الإسلامى للثورة ومحاولة إنقاذ مصر :

لعل إدارك كل القوى المتصارعة لدور العامل الدينى وإثارة مشاعر المسلمين المصريين فى هذا السبيل ليؤكد الطابع الحقيقى لهذه الثورة وهو الطابع الإسلامى إذا كنا سنرصد الحدث التاريخى من زوية صانعة لا مصطنعية .

فذكر المؤرخ الألمانى " شولش " أنه على الرغم من إفئقار القرية المصرية إلى الوعى السياسى والتنظيم إلا أن الفقر والعوز لم تضعف سمة الإصرار التى ميزت الشخصية الجماعية فيها فجموع الفلاحين مرتبطون بالأولياء والغيبيات التى كانت تفوق تعاليم الأثر قوة (٩٠) .

وحين سمح للصحف ذات التوجه الإسلامى - والموجهة فى أغلبها - أن تلهب مشاعر الشعب وتربطه بعرابى، سارعت أقلام الكتاب المسلمين - مخلصين

أو موجهين - لإثارة الشعب ضد النفوذ والتدخل الأجنبي والخبوي الأمر الذي أثار المندوب الإنجليزي فكتب إلى وزير خارجيته بشأن إحدى هذه الصحف وهي " المفيد " لمحررها " حسن الشمسي " مما جعل الجريدة ترد على مخاوف المندوب الإنجليزي فكتب الشمسي يقول : " أظهرت لنا الأديان أننا لا نرفع سلاح الكراهية إلا في وجه من حاربنا منهم ونهتنا عن توجيه الإيذاء لمن كان بيننا وبينه مودة " (٩١) .

وحين نجح الإنجليز في الضغط على الباب العالي وأصدر منشورا بعصيان " عرابي " والمحافظة على الخديوي رفض " عرابي " نشر المنشور خشية تقلب القلوب عنه، ويذكر " إسماعيل سرهنك " أن " عرابي " وقع اليأس في نفسه بعد قراءة منشور السلطان وأقر إخفاء ذلك عن الجند . لكن الخديوي أدرك ذلك ونشر المنشورين بين الجند مما جعل اليأس يتسرب إلى نفوسهم، وضعفت حميتهم الدينية حين رأوا أنفسهم عصاة على السلطان ومخالفين لكتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) (٩٢) .

وحاول " عرابي " استعادة تأثيره بين الناس فدفع الصحافة فهاجمت البعثة العثمانية التي كانت وراء المنشور ولكن حرصت على إبداء حرص " عرابي " على دوام الارتباط بالدولة العلية، وركزت على مهاجمة الأجانب واعتبار الحرب معهم حربا صليبية . وكان ذهاب المتطوعين إلى ميادين القتال أفواجا برئاسة " الشيخ حسن العدوي " من بين عوامل رفع المعنويات، ووزع طلبة الأزهر المنشورات التي تحت على الجهاد، وواصلت الصحف مساعيها لاحتواء الأزهر وامتلات المساجد بالداعين إلى مناصرة عرابي، وقام عرابي وصحبه بتعيين الشيخ الامبايبي شيخا للأزهر، والتبرع بالأموال لمساعدته وفتح بلادهم وبيوتهم للمهاجرين بسبب الحرب بعد دخول الإنجليز الإسكندرية (٩٣) .

وكانت الصحف قد واصلت إثارة مشاعر المسلمين فوصفت " عرابي " بحامي حسي المسلمين، وهيجت المشاعر ضد الأجانب، وهاجمت الحضارة الغربية، ومما زاد من هياجها وهجومها على الأجانب مهاجمة جريدة LE EGYBTE الفرنسية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ووصفه بأنه نبي مزيف (٩٤)، واضطر " شريف باشا " إلى وقف هذه الجريدة خشية حدوث المزيد من هياج العلماء والمشايخ وأوقف معها جريدة " الحجاز " بناء على طلب من القنصل الفرنسي (٩٥) .

وبدأت الصحف تصف " عرابى " بمولانا و أمير المؤمنين، وفى نفس الوقت حاولت إثارة رأى العام ضد الخديوى فذكرت جريدة " المفيد " أن الخديوى أطلق النار على خطيب دعا فى المسجد للمسلمين بالنصر فى صلاة الجمعة، وأنه أمر بسجن " الشيخ عفيفى " بسبب دعائه للمسلمين (٩٦) .

وأشيع فى أعقاب ذلك أن الخديو متحالف مع الإنجليز وأنه السبب فى هتك أعراض المسلمين وقتلهم فى الإسكندرية، وأن " عرابى " الذى يحفظ القرآن وابن العالم الأزهري سيكون واليا عليهم لأنه من السلالة النبوية الشريفة وولى من أولياء الله المكشوف عنهم الحجاب . وطاف العلماء فى القرى ليعلنوا للناس أنه توجد نصوص قاضية على أن " عرابى " سينتصر ويتسلم ولاية مصر بدلا من الخديوى، ويجرى رفع المظالم، ويعيد قطع دابر الإفرنج والأتراك، وتبقى الحكومة لزام المصريين فى الوظائف وتنحصر فى الفلاحين الذين هم عمدة البلاد، وأن " عرابى " سيصير ملكا للعرب عموما بما فيها الشام والحجاز (٩٧) .

وذكرت الصحف الناس بالثواب الذى ينتظر من يجاهد فى سبيل الله ضد أعداء الله، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد وعد من يزود عن بلاد الإسلام بعون من الله .. وامتألت بالآيات القرآنية الداعية إلى الجهاد مثل " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة "، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيدهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة، " يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال "، كما ذكرت بعض الصحف أن الحرمين الشريفين يتعرضان لتهديد الإنجليز، وطالبت بحماية الوطن والعرض منهم (٩٨) .

وبدت ملامح إستجابة الفلاحين لهذا التأثير فتكون منهم حزب أسموه " حزب الله " أعلن أتباعه الجهاد ضد المعتدين الكفار . وأقبل أبناء الفلاحين على التطوع فى الجيش بعد أن اعتادوا الهروب من التجنيد، وتعالى نداءات الأهالى بنصرة " عرابى " فقد نادى " عبد ربه يوسف عبده " (٩٩) من كفر عبد الخالق بمديرية المنيا بالتوجه إلى " عرابى " حيث هو من نسل المبرور، وأن الله بعثه لحماية الوطن والدين وسيجعله واليا على القطر المصرى (١٠٠) .

وذكر البعض أن جموعا من النساء قد تبرعن بجليهن عن طيب خاطر، وهرع الشيوخ إلى المساجد للدعوة لنصرة " عرابى " لدرجة دعست " عرابى " للتفكير فى تكوين قوة منهم لحماية المدينة أو إرسالهم إلى جبهة القتال إذا لزم الأمر (١٠١) .

وردا على فتوى " الشيخ محمد العباسى " بعصيان " عرابى " أفتى " الشيخ حسن العدوى " بشرعية عصيان الخديوى وأن الوقت قد حان لنشوب حرب مقدسة وأيده فى ذلك " الشيخ عليش " حيث اعتبرا جمع من المشايخ معهما أن احتياز الخديوى للإنجليز مروق عن الدين (١٠٢) .

وعلى الرغم من خلو صفوف المتطوعين من النصارى إلا أن بعض كبار الملاك منهم تبرعوا لعرابى، كما أن العناصر النصرانية قد شاركت فى المناطق التى داهمتها أحداث الحرب بالضرورة، هذا على الرغم من أن سلبية البعض منهم أو مساندة البعض للعناصر الأجنبية المعادية - وهم قلة - قد جعلهم مستهدفين لبعض الإنتفاضات كما حدث فى طنطا حين تعرضوا هم وبعض اليهود والأروام لهجوم أودى بحياة بعضهم (١٠٣) .

ويبدو جليا أن " عرابى " حين طور من حجم المطالب الخاصة بشريحته العسكرية إلى مطالب أغلب الكادحين، ومن حجم دوره فى لعبه التنافس بين القوى الأجنبية إلى دور المدافع عن مطالب وطنية، وربط مصيره بمصير قطاع كبير من الشعب ضد أعداء البلاد وأعداء الدين الكفرة تبوأ مكانه الزعامة فى نفوس المصريين وانتقل من مجرد أمير آلاى متمرد إلى بطل شعبى، ولم يعد يبدى أفكارا تنافى توجهات غالبية شعب مصر المسلم كالدولة العثمانية أو الجمهورية أو الزعامة القومية بل هو الجهاد ضد أعداء الشعب وأعداء الإسلام، ولو أنه أبدى مثل هذه الأفكار المعادية لتوجهات غالبية الشعب خلال التدخل العسكرى الأجنبى، أو عرف الناس طبيعة دوره السابق فى الإتصال بالجمعيات السرية اليهودية أو قناصل الدول الأجنبية لكان قد فقد مكانته لديهم ولما استحق أن يصبح فى نظرهم زعيما لثورة شعبية . وبهذه الروح حقق " عرابى " - رغم تباين التسليح والتنظيم - العديد من مواطن الإنتصار التى فاقت بعض التوقعات.

وعلى ذلك، وكما سبق القول، فإنه يصعب وصف هذه الثورة بأنها كانت ثورة إجتماعية حيث خلت من البعد الإجتماعى بالنسبة لانتماء القائمين بها والمؤيدين لها فى البداية وهم من الأعيان وكبار الملاك، ومن بينهم " عرابى " إلى فئة تسعى لإقرار الواقع لا إلى تغييره (١٠٤) . كما أنها لم تكن ثورة سياسية تقصد تغيير نظام الحكم وفرض نظام بديل . وكذلك لا يمكن إضفاء الطابع القومى عليها حيث كان دعاة القومية فيها لا ينتمون إلى جذور شعبية أو يعبرون عن شريحة أو فئة من المصريين بل كانوا أقليات وافدة غرباء فى جذورهم وثقافتهم . أما

الذين تمكنوا من إثارة مشاعر غالبية الشعب ونجحوا فى ربطهم بدور " عرابى " وأسهموا فى تحوله إلى زعيم شعبى فكانوا يمثلون البعد الإسلامى بكل أبعاده وإن اختلفت مآربهم وأهدافهم ومصالحهم فالشيخ حمزة فتح الله " من تونس، والشيخ إبراهيم سراج " من الجزائر، و" الشيخ عليش " من المغرب، " والشيخ محمد عبده " و " عبد الله النديم " من مصر وغيرهم، جمعهم نداء الجهاد ضد أعداء الإسلام بغض النظر عن كون ندائهم أو دعوتهم هدفا أو وسيلة، لكنه الميدان الذى مكنهم من الوصول إلى قلوب الكادحين واستجابتهم، فتأثر هؤلاء الكادحون بالعامل الدينى بغض النظر عن تأثر مهيجهم بعوامل أخرى تتصل بمصالحهم ومآربهم الإقتصادية والسياسية .

وأدرك " عرابى " تأثير هذا العامل الدينى فبدأ يرسل الصحف ذات التوجه الإسلامى إلى الهند والبلقان والآستانة أملا فى كسب تأييدهم، كما كان أساسا فى جمع الناس حوله فى مصر، وهى فترة يمكن الدمج فيها بين طموحات عرابى وأهدافه العامة للكادحين من المسلمين والنصارى معا .

وبشكل عام، فإن طابع الثورة، كما ذكر المؤرخ الألمانى " شولش " كان نضالا دينيا خلا من مفهوم الدولة القومية العثمانية (١٠٥)، أو بمعنى أوضح كانت ثورة شعبية إسلامية بطلها الحقيقى والأول هو شعب مصر المسلم مهما كان هدف الذين قادوها المتمثل فى الدفاع عن مطالب فئوية خضعت لتأثير المصالح الاقتصادية لدى الدول الاستعمارية التى كانت وراء الأحداث .

المراجع والهوامش

- (١) د. جلال يحيى : المغرب الكبير، ص ٢٦٠. وينكر أن كثيرا من المؤرخين قد سعى إلى التضخيم في صراع تونس والجزائر بقصد تأصيل البعد القومى ولكن هذا العامل لم يكن موجودا .
- (٢) د. جلال يحيى : المرجع السابق، ٢٥٩، د. صلاح العقاد : المغرب العربى، ص ١٧٤ .
- (٣) د. صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٧٤ .
- (٤) د. صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٧٦ .
- (٥) د. صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٧٩، د. جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٢٦٨ .
- (٦) د. جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٢٦٩، ويراعى أنه وصف هذه الثورة بأنها حركة رجعية .
- (٧) د. صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٨٦
- (٨) د. صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٨٣ . تبدو محاولته فى استقطاب الرأى العام المسلم من سياسة توثيق الروابط مع الدولة العثمانية وعقده فرمان معها سنة ١٨٧١م نظم العلاقات بين الجانبين .
- (٩) د. جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٢٧٢ .
- (١٠) المرجع السابق، ص ٢٧٠ .
- (١١) المرجع السابق، ص ٢٧٤ .
- (١٢) المرجع السابق، ص ٢٧٤ .
- (١٣) د. صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٩٥ .
- (١٤) مجلة المجتمع الكويتية : ٢٥ مارس ١٩٨٦م (الماسونية العربية) .
- (١٥) د. جلال يحيى : المرجع السابق، ص ٢٨٥ . ويذكر أن الإيطاليين هاجموه واعتبروه دسيسة فرنسية بل وآله فى يد فرنسا .
- (١٦) د. صلاح العقاد : المرجع السابق، ص ١٨٥ .
- (١٧) شولش : مصر للمصريين، ت : د. رءوف عباس، ص ١٣، ويطلق عليها البعض حركة .
- (١٨) د. على بركات : حركة المطالبة بالأرض فى الثورة العربية، ص ٣٤٨ .
- (١٩) د. على بركات : المرجع السابق، ص ٣٤٩ .

- (٢٠) عن أثر سياسة الاحتكار والضرائب والسخرة التى اتبعتها محمد على . أنظر : د. على شلبى : الريف المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (١٨٤٧-١٨٩١) دار المعارف ١٩٨٣، ص ٥١ وما بعدها .
- (٢١) د . على بركات : المرجع السابق، ص ٣٥٣-٣٥٥ .
- (٢٢) تيرع إسماعيل بتسعة آلاف جنيه لدار الأوبرا رغم ديونه، وما كان ذلك إلا سعيا للتقرب من العناصر الأجنبية والمحفل الماسونى للفرنسى . د. الحيدى : عبد الله القديم، ص ١٦٧ . وكانت عروض الأوبرا موجهة من هذا المحفل وبقصد هدم التقاليد الاجتماعية والثقافية المستمدة من التراث الإسلامى ومركز من مراكز اللهو والفجور . ونشير هنا إلى أن الذى تولى ترجمة القانون الفرنسى سنة ١٨٦٣م للعمل به فى المحاكم كبديل للشريعة الإسلامية هو رفاعة الطهطاوى تنفيذا لتوجهات إسماعيل باشا .
- (٢٣) د. الحيدى : المرجع السابق، ص ١٦٧، وهى أمور تدعو لإعادة النظر فى أصل " محمد على " ويراعى سيطرة العناصر اليهودية على البنوك التى تأسست خلال هذه الفترة والتى أحكمت قبضتها على الاقتصاد المصرى . أنظر : محمد نور عارف : تاريخ غزو رأس المال الأجنبى لمصر ١٨٥٤-١٨٨٢ . رسالة دكتوراه غير منشورة - آداب المنيا، سنة ١٩٨٠، ص ١٤٨ .
- (٢٤) شولش : المرجع السابق، ص ٤١، ٤٤ - ٤٦، ويراعى أن أملاك الطهطاوى لم تأت منه عن طريق الميراث .
- (٢٥) شولش : المرجع السابق، ص ٢٥ - ٢٧ .
- (٢٦) شولش : المرجع السابق، ص ٢٧ - ٢٩ .
- (٢٧) د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : قيادة الثورة، ص ١٩٠ .
- (٢٨) د . رفوف عباس : المرجع السابق، ص ٥٣ - ٥٦ .
- (٢٩) تعددت الصحافة بشكل يثير التساؤلات عن مصادر تمويلها والقوى الكامنة خلفها وأهدافها وغير ذلك، فكانت " مصر " والتجارة " والمحروسة " والفسطاط " والعصر الجديد " ومراة الشرق " وصدى الأهرام " و " الأهرام " والوقت والأفكار و " الوقائع " والإسكندرية " ثم الصحف ذات التوجه الإسلامى مثل " الحجاز " و " البرهان " و " السفير " و " المفيد " و " النديم " وغير ذلك من صحف مثل " مصر للقاهرة " .. وأبو نضارة " و " الوقائع " والشورى " و
- (٣٠) شولش : المرجع السابق، ص ٦٧ .
- (٣١) شولس : المرجع السابق، ص ١٦٤، وهذا الارتباط هو أساس الشهرة .

(٣٢) المرجع السابق، ص ٦١، ويراعى أن "محمد على" قد جعل من مصر ميدان تجارب لتغير أبنائها على حساب شعبها.

(٣٣) حول حقيقة نسبه وما ورد فيه إنتظر : د . طلعت اسماعيل رمضان : محمد شريف باشا ودوره فى السياسة المصرية، للقاهرة ١٩٨٣ م ، ص ٢٦ وما بعدها .

(٣٤) شولش : المرجع السابق، ص ٧٠ .

(٣٥) د. رؤوف عباس : المرجع السابق، ص ٤٧ . وقد مات نقاش فى الإسكندرية سنة ١٨٨٤ .

(٣٦) د. إبراهيم عبده : أعلام الصحافة العربية، ص ١١٦ - ١٢٤ .

(٣٧) د . رؤوف عباس : المرجع السابق، ص ٤٦ .

(٣٨) كان " أحمد يكن " يملك ٣٣,٤٣٨ ألف فدان .

(٣٩) شولش : المرجع السابق، ص ١٣٩ . وقد تحول بعد ذلك إلى محفل الأفغانى التابع لأحد المحافل الفرنسية .

(٤٠) د . لطيفة سالم : صحافة الثورة العربية، ص ٢٨٦ .

(٤١) د . على شلبى : الثورة العربية، ١٣٤ .

(٤٢) دخل " إسماعيل " الماسونية فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٧٣ بعد سنوات من دعمه لها وسعيه

للانضمام إليها، وساعده فى هذا السبيل الإمبراطور الفرنسى نابليون الثالث . أنتظر :

حسين عمر حمادة : للمرجع السابق، ص ٢٢١ . نقلا عن شاهين مكاريوس : إسماعيل باشا - اللطائف ج ٣ السنة ٨ فى ١٥ مارس سنة ١٨٩٥ م، ص ١٠١، ١٠٢ .

(٤٣) حسين عمر حماده : المرجع السابق، ص ٢٢١ .

(٤٤) المرجع السابق، ص ٢٢٢ .

(٤٥) عبد المجيد يونس : المحفل الأكبر الوطنى المصرى، ص ٩ . وكان حليم يملك

(٤١٤٤٨) كما نفى "إسماعيل" أخوه "مصطفى فاضل" واستولى على أملاكه البالغة

(٢٠٧٠٢) فدان، . شولش : المرجع السابق، ص ٣٠، ولهذا احتفى حليم بالإنجليز فى

حين ظل مصطفى فاضل يهاجم السلطان العثمانى وفكرة الجامعة الإسلامية، ومن بين أبنائه

نازلى فاضل التى احتمت بالمحافل الماسونية وشاركت بنشاط فيها . وكان مصطفى فاضل

منتميا إلى جمعية شباب العثمانيين التى تأسست عام ١٨٦٥م وكانت تستلهم أفكارها من

الكاربوناري الإيطالى وهو أسلوب من أساليب الماسونية . د . أحمد عبد الرحيم مصطفى :

فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٢٢٧ .

(٤٦) زكى إبراهيم : صوت الماسونية أو التقويم الماسونى العام لمحفل منف. ص ١٦٦ .

(٤٧) حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢٢ . ويراعى أن عام ١٨٩٩م الذى أنشئ فيه هذا المحفل هو نفس العام الذى وقعت فيه اتفاقية السودان بين إنجلترا ومصر (الواقعة تحت احتلال إنجلترا) وهى أمور تشير إلى الربط بين المخططات الاستعمارية ونشاط المحافل الماسونية .

(٤٨) ذوقان قرقوط : الماسونية العربية - محاولة أولية لتقديم صورة عن موقفها من الصهيونية فى فلسطين - مجلة قضايا عربية - العدد (٩) - بيروت، يناير ١٩٧٥م، ص ١٢ .

(٤٩) حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢٢، ٢٣٠، وكان الماسونى " ديواتيس أكونومبولو " قد عين أستاذا أعظم سنة ١٨٨١م، ولكن الماسونية ضعفت فى عهده مما حدا بأعضائها لطلب تعيين " الخديو توفيق " ليكون أستاذا أعظم، وقبل ذلك سنة ١٨٨٨م وعين الأخ كلى احترام " حسين فخرى " ناظر الأشغال العامة نائبا عنه، ولكن الخديو أبدى رغبته بترك هذه المهمة سنة ١٨٩١ فعين " إدريس راغب " فى هذا المنصب .

(٥٠) د . رءوف عباس : مصر للمصريين، المعارضة الوطنية وإرهاصات الثورة، ٥٩ .

(٥١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث - القاهرة سنة ١٩٤٩م، ص ٧٤ .

(٥٢) د . سامى عزيز : الصحافة المصرية - القاهرة، سنة ١٩٦٨، ص ٣١٦ .

(٥٣) لم تضم جمعية حلوان سوى شريف وشاهين وإسماعيل راغب . وعمر لطفى الذى اشتهر فى مجال العمل التعاونى . وقد عمل يعقوب صنوع فى صفوف الماسون الذين ساندوا حليم ابن محمد على وكذلك أدیب اسحاق وسليم نقاش الذين تقلبوا بينه وبين توفيق بتغير انتماءاتهم الماسونية أنظر : د . على شلش : المرجع السابق ص ٢٢٤ .

(٥٤) كان للإنجليز شبكة من القنصلين المحليين منهم (روفايل بورج) نائب القنصل بالقاهرة الذى كانت لديه مصادر المعلومات الخاصة من خلال دوره فى المحافل الماسونية فى مصر. شولش : المرجع السابق، ص ١٠ . على أن جمعية حلوان لم تستمر طويلا حيث سحقها رياض .

(٥٥) د . رءوف عباس : مصر للمصريين - المعارضة الوطنية وإرهاصات الثورة - القاهرة سنة ١٩٨١م ص ٥٩، ويذكر زكى إبراهيم فى كتابه " صوت الماسونية " أنه لم يكن الإنجليز يستفيدون من أحرار المصريين فحسب بل كانوا يظهرون التودد لعناصر المقاومة أينما كانت يسندونها ويعدونها ويزيدون نارها اشتعالا " زكى إبراهيم : صوت الماسونية أو التقويم الماسونى العام لمحفل منف، ص ١٦٦ . ويذكر شولش التوافق بين عرابى وبلنت حول الفكرة العربية . المرجع السابق ص ٢٣٨ ويذكر أيضا أن كولفن برغم شكه فى

أبعاد الحركة العربية إلا أنه أوصى بعدم إحباطها بصفتها حركة ليبرالية، وطالب بوضع حدودها بوضوح وأنها لا يجب أن تؤثر على مؤسسات المراقبة، كما رأى "ماليت" أن السياسة البريطانية لا ينبغي أن تضع عقبات في طريق الحركة بل يجب أن تؤيد ها إذا لم تندفع بسرعة نحو المزيد من التغييرات، وطلب من "بلنت" تهدئة أصدقائه المصريين على النوايا البريطانية، شولش : المرجع السابق ص ٢٤٤ .

(٥٦) قال شريف باشا للمستر "بلنت" إن المصريين أطفال ويجب أن يعاملوا باعتبارهم كذلك د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : قيادة الثورة العربية - مصر للمصريين، ص ٢٠٢ .
(٥٧) نجدة صفوة : المرجع السابق، ص ٥٢ .

(٥٨) كانت جريدة "أبو نضارة" لمحرها اليهودى الماسونى "يعقوب صنوع" هى لسان حال جمعية مصر للفتاة د. عبد المنعم الجميعى : وقائع الثورة، ص ٧٥، د. على الحديدى : عبد الله النديم، ص ٨١ . وقال عنها الشيخ محمد عبده (أى جمعية مصر الفتاة) أنها لم تضم مصرى واحد حقيقى وأن أغلب أعضائها من اليهود الذين يتمتعون بالحماية الأوربية فمنهم ٦ أو ٧ من اليونانيين وواحد من مالطة . شولش : المرجع السابق، ص ١٤٥ . وكان بيان الحزب الوطنى الذى وزعه شريف باشا سنة ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م لمهاجمة وزارة رياض باللغة الفرنسية وناشد فيه الزعيم الألمانى بسمارك أن يوفر لهم الحماية، وبشكل عام فإنه إذا كانت الظروف قد جعلتهم فى موطن صناعة القرار إلا أنهم لم يشكلوا جزءا من نسيج المجتمع المصرى وبالتالي اقتضت مشاركتهم فى الأحداث على حماية مصالحهم ومن خلال مسرحية صاغتها القوى الأجنبية .

(٥٩) يراعى أن عربى اشترى ٨١٠ فدان من أملاك الدولة فى أول عام ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢ م وهى الفترة التى كان يعلن فيها نضاله ضد الدولة، شولش : مصر للمصريين - ص ٤١ . فى حين ورث هو وأخوته عن أبيه ثمانية فدادين ونصف، وكان عربى فى البداية مجندا برتبة نقر عادى ثم تطور فى سلك الجندي ببعض الوساطات لعل من بينها زواجه بعد ذلك من إحدى بنات وصيفة من وصيفات القصر - ومن جهة أخرى .. يذكر المؤرخ الألمانى شولش أن عبد العال حلمى "كان أقل الشخصيات جاذبية ووصفه البعض بأنه جاهل خامل متبجح، وقد رفاقه "توفيق" إلى رتبة قائمقام، ولم تشترك فرقته فى الحرب مع "عربى" . أما "على فهمى" الذى ينتمى إلى المنوفية فكان قريبا إلى البلاط فى عهد "توفيق" فكان ياورا وقائد للحرس الخديوى، ونفى بعد الهزيمة مع "عربى" وعبد العال حلمى "إلى سيلان" ، ثم عاد بقرار عفو سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠١م . على أننا نختلف مع الدكتور رءوف عباس فى اعتباره التنظيم العسكرى الذى ضم هؤلاء الضباط أنه من أبناء الفلاحين

بشكل يوحى بأنه يعبر عنهم د. رؤوف عباس : المرجع السابق، ص ٦٧ . ولعل ذلك يتضح من مطالب عربى التى أسماها مطالب الأمة فى مظاهرة عابدين وهى إسقاط وزارة رياض وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبى وزيادة عدد الجيش وغير ذلك وهى فى مجموعها لا تمثل مطالب الفلاحين ولا تشير إليهم من قريب أو بعيد د. الجميعى : المرجع السابق، ص ٨١ . كما ذكر الشيخ " محمد عبده " أن الجيش لا يتحدث باسم الأمة، وإن كان قد غير رأيه بعد سقوط وزارة رياض . شولش : ص ٢٠٦ . وأنظر أيضا د. رفعت السعيد : الأساس الاجتماعى للثورة العربية، مكتبة مدبولى - القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٢٧ .

(٦٠) المرجع السابق : ص ١٣٨ .

(٦١) د. عبد المنعم الجميعى : وقائع الثورة : ص ١١٠ .

(٦٢) د. لطيفة سالم : صحافة الثورة العربية، ص ٢٨٧ نقلا عن البرقيات المتبادلة بين القاهرة والآستانة أثناء الثورة ترجمة للدفتى رقم (٢٨٨) برقية من نظامى باشا إلى كبير أمناء الحضرة السلطانية، ص ١٠ .، كما أن بيان الحزب الوطنى الذى وزعه شريف باشا ليهاجم وزارة رياض سنة ١٢٩٦هـ / ١٨٧٩م كتب باللغة الفرنسية وناشد الزعيم الألمانى بسمارك أن يوفر لهم الحماية .

(٦٣) حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٢٣ .

(٦٤) عبد المجيد يونس : المحفل الأكبر الوطنى المصرى، ص ج .

(٦٥) ولد " إدريس راغب " سنة ١٨٦٢م، وهو ابن " إسماعيل - باشا راغب " الذى أصبح رئيسا للوزارة فى عهد الخديوى " توفيق " وأثناء الثورة العربية وأحد أعضاء جمعية حلوان، وبعد أن قضى " رياض باشا " على هذه الجمعية بإيحاء من " الخديوى " توفيق " حماه القنصل الفرنسى مثل " شريف باشا " . وقد ترك ثروة طائلة " لإدريس " الذى أنفق منها الكثير لخدمة الماسونية . وعين " إدريس " سنة ١٨٩٥م مديرا للقلبيوبية وأسس بها محفلا ماسونيا باسم عاصمتها " بنها " . وقد اتسع نطاق المحافل الماسونية ونشاطها أثناء رئاسته لها حتى بلغ عدد ها ٥٤ محفلا منها، حمل اسمه " محفل إدريس " نمرة ٤٣، ومحفل راغب نمرة ٥١ . وقد ظل رئيسا للماسونية المصرية أكثر من ثلاثين عاما حتى حل محله " الأمير محمد على " كأستاذ أعظم سنة ١٩٢٢م . أنظر : نجدة فتحي صفوة : المرجع السابق، ص ٢٤، شولش : مصر للمصريين، ص ١٦٢، د. رؤوف عباس : المرجع السابق، ص ٦٢، حسين عمر حمادة : المرجع السابق، ص ٢٣١ .

(٦٦) عبد المجيد يونس : المرجع السابق، ص . هـ، زكى إبراهيم : صوت الماسونية، ص ١٧١ .

(٦٧) شولش : المرجع السابق، ص ١٨٠، ١٨١ .

(٦٨) المرجع السابق .

(٦٩) لم يكن أحمد عبد الغفار معهم وكانوا ثلاثة .

(٧٠) المرجع السابق : ص ١٨٤، ١٨٥ .

(٧١) المرجع السابق : ص ١٨٦ .

(٧٢) المرجع السابق : ص ١٨٨ . وكان اختيـار " النـهارودى " من الخديوى لا من العسكريين كما يرى البعض .

(٧٣) المرجع السابق : ص ١٩٣ . وقد أقيمت الوليمة فى ٢٠/٤/١٨٨١ م .

(٧٤) شولش : المرجع السابق، ص ١٩٤ .

(٧٥) شولش : المرجع السابق، ص ٢٠٦ د . على شلبي، المرجع السابق، ص : ١٥٤ حيث يذكر أن اشتراك الأعيان كان يهدف إلى الحصول على قدر كبير من المشاركة فى السلطة فى إطار النظام القائم .

(٧٦) د . لطيفة سالم : المرجع السابق، ص ٢٧٩ - ٢٩٦ .

(٧٧) شولش : المرجع السابق، ص ٢٠٦ . ويراعى أنه لم يكتب عن الشورى فى الوقائع إلا بعد خروج رياض من السلطة وقد شبه فى إحدى مقالاته الخديوى توفيق بالخليفة عمر بن الخطاب، واعتبر بعض قرارات توفيق عيدا يستوجب الإحتفال به . نفس المرجع، ص ١٦٩، ١٧٠ .

(٧٨) أحاط عرابى القنصل البريطانى علما فى اليوم السابق للمظاهرة وطمأنه على سلامة رعايا البلاد الصديقة . شولش، ص ٢٠٩ .

(٧٩) د . عبد المنعم الجميـعـى : المرجع السابق، ص ٨١ .

(٨٠) د . عبد المنعم الجميـعـى : المرجع السابق، ص ٨٤ .

(٨١) المرجع السابق : ويتضح هنا أن المصالح كانت متبادلة بينهم وبين العسكريين .

(٨٢) كان سلطان قد تقرب إلى السلطان العثماني وقدم له العديد من الهدايا ولكنه كان يعمل جاسوسا لحساب الإنجليز كأحد أعضاء المحفل الماسونى .

(٨٣) د عبد المنعم الجميـعـى : المرجع السابق، ص ٨٧ .

(٨٤) لعب بلات دورا واضحا فى هذه الأحداث من خلال صلته بمحمد عبده وعرابى، وسافر إلى بلاده بعد قرب تفجر الأحداث. وكان دوره موجها من قبل المحفل الماسونى .

- (٨٥) د. لطيفة سالم : المرجع السابق، ص ٢٩٨ .
- (٨٦) شولش : المرجع السابق، ص ٢٢٢ .
- (٨٧) المرجع السابق، ص ٢٩٣ . ولعل هذا يشير إلى دور الإنجليز في مذبحة الأجانب بالإسكندرية، ويشير البعض إلى قيام عربى بحرق الإسكندرية قبل أن يدخلها الإنجليز .
- د . عبد المنعم الجميلى : المرجع السابق، ص ١٠٠ .
- (٨٨) شولش : المرجع السابق، ص ٣١٠، وكان إبعاد عربى وصحبه عن مصر من بين هذه المطالب .
- (٨٩) عقد المؤتمر فى ٢٣/ يونية سنة ١٨٨٢م، ثم كان تدخل الإنجليز فى ١١ يوليو، وقصر المدة بين الحدثين، وصعوبة قبول فكرة فجائية التدخل يشير إلى التدبير الخارجى والداخلى وراء الحدث .
- (٩٠) شولش : مصر للمصريين، ص ٥١، ٥٣ .
- (٩١) د . لطيفة سالم : المرجع السابق، ص ٢٨٣ .
- (٩٢) د . عبد المنعم الجميلى : المرجع السابق، ص ١٠٧-١٠٩، شولش : المرجع السابق، ص ٣٤٦ .
- (٩٣) د . على شلبى : المرجع السابق، ص ١٣٨، قام بهذا الشيخ محمد عبده .
- (٩٤) شولش : المرجع السابق، ص ٢٣١ .
- (٩٥) المرجع السابق، ص ٢٢٧ .، وصحيفة الحجاز كان يصدرها إبراهيم سراج الدين المدنى الذى نزح من المدينة المنورة ليدرس بالأزهر وطرد أصلا من الجزائر لموقفه العدائى من الفرنسيين، وكذلك كانت صحيفة البرهان التى كان يحررها الشيخ حمزة فتح الله "التونسى" .
- (٩٦) د . لطيفة سالم : المرجع السابق، ص ٢٨٥ .
- (٩٧) د . لطيفة سالم : القوى الاجتماعية فى الثورة العربية — هيئة الكتاب سنة ١٩٨١م ص ٣٢٤، د . على شلبى : المرجع السابق، ص ١٧٣ . وقد نادى " يعقوب صنوع " بقيام جمهورية بتزعمها عربى لكن ذلك لم يكن له تأثيره على جموع الفلاحين .
- (٩٨) شولش : المرجع السابق ن ص ٣٤٤ .
- (٩٩) المرجع السابق، ص ١٦٣ .
- (١٠٠) د . على شلبى : المرجع السابق، ص ١٧٥ .
- (١٠١) د . عبد المنعم الجميلى : المرجع السابق، ص ١٠٧ .

(١٠٢) د على شلبى : للمرجع السابق، ص ١٣٨ . الشيخ عليش مغربى من فاس ولد فى
وكان مصر معارضا لمحمد عبده والأفغانى، وقد نفى بعد هزيمة عرابى لمدة خمس سنوات
شولش : للمرجع السابق، ص ٢٢٥ .

(١٠٣) د. على شلبى : للمرجع السابق، ص ١٨٠، وقد استولى بعض الفلاحين فى منفلوط
بأسبوط على أطيان بعض كبار الملاك من الأجانب والنصارى . د . على بركات : المرجع
السابق، ص ٢٦٧ . كما رفض بعض الفلاحين التخلي عن أراضيهم التى باعوها للأجانب
والمرابيين كما حدث فى شنتنا الحجر مع إخوان بسطولى .

(١٠٤) يمكن اعتبارها ثورة إجتماعية من منظور جموع الفلاحين الذى أعطوها بعدا شعبيا،
كما أنهم كانوا يطمعون فى التغيير، ولكن ينتهى هذا البعد من قبل قيادات الثورة، وقد
اقتصرت رغبة التغيير عند قادة الثورة عند الحد الذى كان سيمكنهم من الحفاظ على
مصالحهم الاقتصادية .

(١٠٥) شولش : للمرجع السابق، ص ٣٤٤ .

الفصل الثامن

العرب والحرب العالمية الأولى

١٣٣١ - ١٣٣٥ هـ / ١٩١٤ - ١٩١٨ م

■ مقدمة .

■ حركة الشريف حسين ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م بين الدعاوى القومية والبعد

الإسلامي

■ اتفاقية سايكس بيكو واكتمال السيطرة الاستعمارية .

■ وعد بلفور سنة ١٣٣٤ هـ - ١٩١٧ م، وتأثير اليهود على طرفي الحرب .

■ الأوضاع السياسية في الوطن العربي بعد انتهاء الحرب .

مقدمة :

كان النفوذ الألماني قد ازداد في الأوساط السياسية العثمانية في الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى من خلال مشاركة ألمانيا في العديد من المشروعات الهامة كمد خطوط سكك حديدية وبعض الاستثمارات إلى جانب المشاركة في إعادة تدريب للجيش العثماني وتسليحه . وقد ساعد على ذلك استيلاء بريطانيا على العديد من ممتلكات الدولة العثمانية كمصر وقبرص وعدن، وكذلك استيلاء فرنسا على الجزائر وتونس، والتوغل البريطاني في الخليج العربي وأنهار العراق . ومع ذلك ظلت بريطانيا تلعب دور المساعد الرئيسي للدولة العثمانية في مواجهة الأطماع الروسية . كما شاركت إيطاليا في هذه الموجه بالاستيلاء على ليبيا سنة ١٢٢٩هـ - ١٩١١م، بعد أن شاركت القوات العثمانية - شكليا - في الحرب الطرابلسية .

على أن الموقف قد تغير إلى حد كبير عند بدء الحرب حيث تحالفت كل من بريطانيا وفرنسا مع روسيا العدو التقليدي للدولة العثمانية، كما وقفت ألمانيا وراء النمسا في ضرب الصرب في البلقان وتحطيم أهداف الجمعية السلافية التي كانت تود إقامة دولة واسعة ترتبط بروسيا، وبالطبع وقفت روسيا إلى جانب الصرب منذ بدء الحرب .

وقد انقسمت الآراء بين أعضاء جماعة الاتحاد والترقي الذين تولوا السلطة في تركيا حيث كان الفريق الذي يمثل " جمال باشا " يميل إلى اتخاذ موقف الحياد، وإذا اقتضت الضرورة دخول الحرب فيكون إلى جانب الحلفاء بزعامة بريطانيا، أما الفريق الذي كان يتزعمه " أنور باشا " فكان يرى دخول الحرب إلى جانب ألمانيا . وكان " أنور باشا " متأثرا في ذلك بتعليمه في ألمانيا، كما أنه كان يرى أن دخول الحرب إلى جانب ألمانيا سيتيح الفرصة أمامه لاستعادة مصر وقبرص من بريطانيا وأن ألمانيا ليست لها أطماع سياسية في بلاده .

وعلى الرغم من أن " أنور باشا " قد اتجه إلى عقد اتفاق سرى يقضى بدخول الحرب إلى جانب ألمانيا دون علم أغلب أعضاء جماعته إلا أن وقوع حادثة الطرادين قد دفع الرأي العام التركي للتحويل إلى تأييده بعد أن كان منقسما على نفسه أو أقرب إلى الحياد . فكانت بريطانيا تتولى إعداد طرادين حربيين للدولة العثمانية، واضطرت الحكومة لجمع التبرعات من الناس لسداد ثمنهما، وتبارى الناس في ذلك باعتباره تعبيراً عن الدفاع عن الدولة حتى بلغ الأمر إلى

تبرع النساء بالحلى، وفى الوقت الذى تهيأ الناس فيه للاحتفال بنتاج إسهامهم المباشر أعلنت بريطانيا وقف التسليم وضمهما للبحرية البريطانية، وتهديات الظروف للألمان بتسليم سفينتين كانتا فى مياه المضائق للسلطات العثمانية، فمل رأى العام لمساندة دخول الحرب إلى جانب الألمان .

وسارع "أنور باشا" الذى أدرك دعم رأى العام باتخاذ إجراءات استفزازية فى البحر الأسود، وكذلك على الصعيد الاقتصادى أدت إلى أن تعلن دول الحلفاء الحرب على الدولة العثمانية فى آخر أكتوبر ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م، ولا شك كان لهذه الخطوة أثرها على الأوضاع السياسية فى العالم العربى حيث حاولت تركيا توجيه حملة إلى مصر لطرده بريطانيا سنة ١٣٣٣هـ - ١٩١٥م، فى حين أعلنت بريطانيا فصل مصر عن الدولة العثمانية وأحكمت قبضتها عليها. وسعت بريطانيا كذلك لتقويض الوجود العثمانى فى الجزيرة العربية والخليج والوقوف وراء الإعلان عن ثورة عربية باسم الشريف "حسين بن على" شريف الحجاز، إلى جانب عقد العديد من الاتفاقيات والوعود التى كان لها تأثيرها على مستقبل المنطقة العربية بعد الحرب .

حركة الشريف حسين ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م، بين الدعاوى القومية والبعد الإسلامى :

قبل تناول أحداث سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م، التى عرفت بالثورة العربية تلقى بعض الضوء على شخصية "الشريف حسين" الذى كان وراء هذه الأحداث، فلم تكن علاقته سوية بالسلطان "عبد الحميد الثانى" لعدم تعيينه له فى منصب شريف مكة سنة ١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م، مفضلاً عليه عمه الشريف "عون رقيق" (١)، وكان ذلك سبباً فى إثارة "الشريف حسين" للقلق ضد عمه حيث أرسل العديد من الشكاوى إلى السلطان، كما كانت بداية لأزمة ثقة بينه وبين الإدارة العثمانية . وقد استطاعت الإدارة العثمانية الوقوف على أطماعه أو طموحاته السياسية بعد أن أرسلت لجنة للتحقيق فى شكاويه فأكدت براءة الشريف عون وإدانة الوالى العثمانى (٢) .

وحرصاً من "السلطان عبد الحميد" على استتباب الأمور فى الحجاز التى كانت أهم مراكز دعمه فى فكرة الجامعة الإسلامية، ولقربها من مصر التى احتلها الإنجليز فى ١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م، استدعى السلطان "الشريف حسين" وأبناءه

ليكونوا ضيوفاً عليه في الآستانة سنة ١٣١٠هـ - ١٨٩٣م، وأكرم وفادتهم كعادته، حتى مع خصومه السياسيين، ليقموا إقامة طويلة (٣) .

واستطاع " الشريف حسين " وأبنائه خلال هذه المدة تدعيم اتصالاتهم بالسفارة البريطانية، وكذلك بكثير من أعضاء جماعة الاتحاد والترقي، أي بلعاء السلطان، وبخاصة بعد أن رفض السلطان للمرة الثانية تعيين " الشريف حسين " في منصب شريف مكة على أثر وفاة " الشريف عون " سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٥م، وقام بتعيين " علي بن عبد الله بن محمد عون " الذي كان من المقربين إليه .

وحانت الفرصة للشريف حسين حين نجح الاتحاديون في الثورة على السلطان " عبد الحميد " في ١٣٢٥هـ - ١٩٠٨م، وفرار الشريف على شريف مكة إلى مصر، إلا أن الاتحاديين قاموا بتعيين الشريف " عبد الإله " الطاعن في السن مما أغضب " الشريف حسين " ولكن غضبه لم يستمر لأكثر من يومين حيث مات الشريف " عبد الإله " فسارع " الشريف حسين " إلى بذل مساعيه لدى السفارة الإنجليزية وغيرها في استنابول التي قامت بدورها بالسعي لدى حكومة الاتحاديين وتم تعيين " الشريف حسين " شريفاً على مكة (٤) .

ومنذ بداية تولي " الشريف حسين " السلطة لم تتوافق رغباته في إحكام قبضته على الحجاز مع سياسة المركزية التي سعت حكومة الاتحاديين لتطبيقها على الولايات التي كانت ما زالت في حوزتها ومن بينها الحجاز، وظل هذا الخلاف يتصاعد إلى سنة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م قبيل قيام الحرب العالمية الأولى ولهذا سارع " الشريف حسين " بالاتصال ببريطانيا في هذه الفترة، واستغلت بريطانيا هذا الخلاف لصالحها طوال سنوات الحرب (٥) .

فعلى أثر إعلان تركيا الحرب رسمياً في الخامس من نوفمبر ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م، واتضمامها إلى ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر ضد بريطانيا وروسيا وفرنسا سارعت بريطانيا بالاتصال " بالشريف حسين "، ولقى ذلك استجابة من الشريف حيث رد عبد الله بن الشريف حسين " على ستورز " المرسل من قبل اللورد كتنشر وزير الحربية البريطاني بأنه يريد التفاهم مع بريطانيا، وأنه يمكنه الخروج من حالة الحياد إلى إعلان الثورة على الأتراك لقاء بعض المطالب، ورد " كتنشر " من خلال مبعوثه " ستورز " بتعهد بريطانيا بضمان بقائه في منصب شريف مكة وحمايته من أي عدوان خارجي، وكذلك مساعدة العرب عامة على نيل حريتهم شرط الوقوف إلى جانب الحلفاء ضد تركيا في هذه الحرب (٦) .

وأبقت هذه المباحثات المبدئية طموحات الشريف حيث بدا أنه لم يكن مقتنعاً بمنصب الشريف لمكة فقط بل نظر إلى أن يكون ملكاً للعرب وخليفة للمسلمين وبخاصة أنه قد أدرك عن قرب أبعاد التحول القومي للحكومة التركية الاتحادية. وقد اتضح ذلك من الرسالة التي أرسلها الشريف إلى بريطانيا في ١٣٣٣هـ - ١٤ يوليو ١٩١٥م - وكان هذا في أعقاب فشل الحملة التركية بقيادة "جمال باشا" على قناة السويس - يطالب فيها بالموافقة على إعلانه خليفة للمسلمين مقابل إعلانه الثورة على الترك، وجاءه رد " السير مكماهون " في ١٣٣٣هـ - أغسطس ١٩١٥م، ليؤكد له " أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى بيت عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة " (٧)، ولكنه طالب بإرجاء الكلام في مسألة الحدود لأنه موضوع سابق لأوانه وهو ما اعتبره "جورج أنطونيوس" مراوغة .

وكانت الظروف الحربية قد دعت مجلس الوزراء البريطانى فى جلسته التى عقدت فى ١٣٣٣هـ - ٣ فبراير سنة ١٩١٥م، إلى إصدار تصريح فى سنة ١٣٣٣هـ - أول يونيو ١٩١٥م يشير إلى أن بريطانيا ستساعد العرب على نيل استقلالهم والاعتراف بخلافة عربية بدلاً من الخلافة العثمانية، وتم توزيع منشورات بذلك فى كل من الحجاز ومصر والسودان (٨) . وقد أشار "لوراتس" إلى أن بريطانيا كانت مضطرة إلى ذلك حيث كان هو الوسيلة الأفضل لدفعهم إلى القتال إلى جانبها، ومع أن بريطانيا لم تكن تعول على قوتهم كثيراً لكنها كانت فى حاجة إلى واجهة عربية من جهة كما أنها كانت تخشى - وهو العامل الأقوى - من الاتجاه تحت أى ظرف لإعلان دعوة الجهاد الإسلامى ضد الحلفاء التى يسعى لها الأتراك من جهة ثانية (٩)، وقد أكدت الوثائق البريطانية وجهة النظر هذه فيما ذكره " مكماهون " أنه يبذل جهداً لحث الشريف على بذل جهده لمنع العرب من مساعدة الترك (١٠) .

ومع أن البعض يرى أن الجمعيات القومية العربية فى بلاد الشام قد ساندت اتجاه " الشريف حسين " متأثرة بسوء حكم الاتحاديين لولاية الشام، وكذلك بالدور الثقافى المعادي لدولة الخلافة فى مدارس التنصير والمحافل الماسونية فى بلاد الشام مثل حزب اللامركزية الذى ضم الي جانب المفكرين الشوام عناصر من النصارى واليهود، وهم من أصحاب المصالح الاقتصادية، إلا أن الشريف لم ينجح فى استغلال هذه المساندة القومية المحدودة أو الموقف الضعيف الذى كانت عليه

بريطانيا منذ بداية سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م وأظهر في كل المراحل حاجته إلى المساندة البريطانية واستعداده بالتألى للوقوف بجانبها بكل قوته مما جعل مؤرخاً مثل "كارل بروكلمان" يصفه بأنه "غالى فى تقدير قوته الفعلية بأحلام رومانتىكية عن عظمة البيت الهاشمى كما أخطأ فى تقدير مركزه فى شبه الجزيرة العربية" (١١). بل إن البعض أشار إلى علمه بالاتفاق الذى كان بين إنجلترا وفرنسا المعروف باسم "سايكس بيكو" بشكل عام دون التفاصيل الدقيقة لهذا الاتفاق كدليل على انحيازه الكامل إلى جانب بريطانيا بنفس قدر ارتباطه بالجمعيات القومية العربية (١٢)، ذلك الارتباط الذى كان فى أبعاده حماية لأصحاب المصالح الاقتصادية فى الحجاز والشام المرتبطة بالمصالح الاستعمارية.

وعلى الرغم من انتهاء الجمعيات القومية العربية (جمعية الفتاة وجمعية العهد) فرصة إعدام "جمال باشا" لبعض الزعماء القوميين العرب فى الشام (١٣)، وكذلك انتهاء "الشريف حسين" فرصة هذا الحادث ليكون توقيتاً مناسباً ومسوغاً مقبولاً لإعلان ما عرف بالثورة على الأتراك، إلا أن قدر الالتفاف حول الشعارات القومية لم يكن ليكفل نجاح هذه الثورة مما اضطر الجميع - الشريف والأتراك وحتى الإنجليز - لاستخدام العامل الدينى لإثارة الجماهير أو كسب ولائها فيما يؤكد غلبة هذا العامل على غيره من عوامل وقوة تأثيره على مسيرة الأحداث (١٤)، ولعل ذلك يشير إلى استغلال أصحاب المصالح للعامل الدينى السائد عند صناع الأحداث من العامة.

فقد حاول "جمال باشا"، وهو من غلاة الاتحاديين وأحد أعضاء المحفل الماسونى، استغلال العامل الدينى منذ بداية توليه قيادة الجيش الرابع التركى فى دمشق للتقرب إلى العناصر العربية، فذكر فى إحدى خطبه "إنى أناشد الشبان الأتراك والعرب قائلاً إن هذين الشعبين مقضى عليهما بالفناء لا محالة فى اللحظة التى يتخاذلان فيها، فالنزاع والاختلاف بين عمودى الإسلام لا بد وأن يؤدى إلى سقوط ذلك الدين" (١٥). وسبق أن ذكرنا إعلان "مكماهون" بأن بريطانيا تريد انتقال الخلافة إلى بيت عربى صميم من فرع تلك الدوحة النبوية المباركة.

أما فيما يتعلق بأحداث الحركة فيلاحظ أن درجة وعى أو إيمان سكان المدن الحجازية أو البدو بالبعد القومى العربى لا يذكر على الإطلاق بل إن التلويح بأمر غير الإسلام كان كفيلاً بالتصدى له وعدم تقبكه. ولا يرجع ذلك إلى مكانة الحجاز الدينية فحسب بل إلى طبيعة سكان المدن المقدسة التى تجمع خليطاً سكانياً

من المجاورين والوافدين من كل أرجاء العالم الإسلامى، فلا تجمع بينهم إلا الرابطة الدينية، وكذلك شدة تمسك البدو بتعاليم الدين الإسلامى (١٦) .

وبقدر إدراك الأتراك لأثر العامل الدينى كان الشريف، والإنجليز كذلك، يدركون هذه الحقيقة فكانت أول مجموعة من المتطوعين حول الشريف فى المدينة المنورة قد تطوعت تحت دعوى الجهاد إلى جانب دولة الخلافة العثمانية ضد الإنجليز (١٧)، وجمعها الشريف أثناء مباحثاته السرية مع الإنجليز، أى أنه كان يعلم أنه سيقف مع الإنجليز ضد الأتراك، لكنه لم يكن يستطيع إعلان ذلك فى البداية (١٨) .

وحين أعلن ولدى الشريف " على " و " فيصل " ما عرف بالثورة على الأتراك فى المدينة المنورة فى الخامس من يونيه سنة ١٩١٦م ١٣٣٤هـ، صاغوا - بالاشتراك مع والدهما - بيان هذه الثورة صياغة دينية خشية تسرب المتطوعين، ومع ذلك لم تستطع هذه القوة السيطرة على المدينة بعد وصول القوات التركية إليها وحتى نهاية الحرب (١٩) . وربما أن قوات الحلفاء، التى كانت تمثل القوة الرئيسية وراء ما أسموه بالثورة، لم تكن تعول كثيراً على سقوط المدينة، بل إن القائد الفرنسى فى الحجاز " بريموند " كان لا يحبذ سقوطها فى يد " الثوار " خشية امتداد الحركة العربية منها وتبدلها بشكل لا يرضى الحلفاء، ولعل فى ذلك إشارة إلى عدم التوافق بين فهم متطوعة الشريف لطبيعة دورهم وبين ما اتفق الشريف عليه مع الحلفاء . وقد يوحى فى جانب منه إلى إدراك الحلفاء لتطلعات الشريف السياسية، وبالتالي خشيتهم من احتمال اتصاله - إذا دخل المدينة - بالأتراك وتغير موقفه مع الحلفاء .

كما راعى منشور الشريف الداعى إلى الحركة أو الثورة العامل الدينى حيث ذكر أن الاتحاديين خرجوا على الشريعة وبدلوا الأحكام، وأن الاستقلال الذى أعلنه لا تشوبه شائبة مداخلية أجنبية ولا تحكم خارجى، وأن الغاية هى نصر الدين الإسلامى وإعلاء شأن المسلمين مستندين فى كل الأعمال على الأحكام وأصول القضاء (٢٠) .

أما فى مكة المكرمة فكان الشريف قد نجح - بهذا العامل - فى استمالة بعض البدو، واستطاع مهاجمة القوة التركية المحدودة فيها، لكنه لم يستطع أن يدخل جدة إلا بعد أن ضربها الأسطول البريطانى من البحر الأحمر (٢١) .

وتكرر فشل قوات الشريف في دخول الطائف حتى تم دعمه من الإنجليز مما اضطر الإنجليز إلى إرسال كتيبتين مدفعية جبلية من قوتهم في مصر، وكذلك بعض القادة الإنجليز حيث أرسلت الكولونيل "ولسن" معتمداً لدى الشريف، وعين السير "ونجت" قائداً أعلى للعمليات الحربية في الحجاز وبدأت الأسلحة والعتاد تصل إلى الحجاز عن طريق بورسودان (٢٢) .

وشارك الفرنسيون - بناء على طلب الإنجليز - في دعم قوة الشريف فأرسلوا بعثة عسكرية وسياسية تضم بعض الضباط برياسة "بريموند" في ١٣٣٤هـ - سبتمبر سنة ١٩١٦م، وطلب الإنجليز بضرورة إرسال الفرنسيين لقوة عسكرية وعتاد ومعدات لمساعدة الشريف (٢٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب القوات التي تجمعت حول الشريف في الحجاز كانت في أغلبها - إلى جانب المتطوعين الذين جمعهم باسم مساندة دولة الخلافة - من العربان البدو الذين كانوا قد اعتادوا مهاجمة أفواج الحجيج وفرض الإتاوات عليها وإلا تعرضوا للسلب والنهب، وقد أغراهم الشريف بالمال الذي حصل عليه من الإنجليز . إلى جانب نجاحه في تقريب بعض القبائل والإغداق عليها بالمال والسلطة، وقد انتظمت هذه القوة تحت قيادة بعض الضباط المسلمين الذين عملوا في صفوف الجيش العثماني ثم تركوه في ظل الاتحاديين مثل "عزيز المصري"، وهو من أصل جركسي وكان منتمياً لإحدى المحافل الماسونية التركية، وجعفر بك وغيرهما (٢٤) .

وانتهز الشريف فرصة تجمع بعض زعماء القبائل الموالين له في مكة المكرمة بمناسبة رأس السنة الهجرية (٢ محرم ١٣٣٥هـ - ٣ أكتوبر ١٩١٦م) وأعلن نفسه ملكاً على البلاد العربية (٢٥) . وجاء هذا الإعلان مفاجئاً للإنجليز والفرنسيين، كما أنه لم يلق قبولاً في الدوائر السياسية والعسكرية في البلدين، وكان الشريف يدرك أن اعترافهما به يعد أمراً ضرورياً وإلا يصبح لا قيمة لإعلانه، ولهذا بذل مساعى متعددة لديهما، فحينما وصلت بعثة فرنسية إلى الحجاز استدعى أحد رجالها ليلبغه حرصه على العلاقة مع فرنسا وإخلاصه لها. ونتج عن هذه المساعى أن أبلغه السير "ونجت" قائد العمليات الحربية في الحجاز قرار الحكومات الثلاث، روسيا وإنجلترا وفرنسا، بالاعتراف به قائداً للعرب الثائرين على الأتراك . ولكن الشريف واصل مساعيه لعدم قناعته بهذا القرار حتى اعترف

به الإنجليز والفرنسيون ملكاً على الحجاز فقط، وكان هذا فى نهاية سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٦م (٢٦) .

ويبدو أن الإنجليز والفرنسيين قد اضطروا إلى هذا الاعتراف حيث كانت قواتهم، والقوات المؤيدة للشريف، فى طريقها للاستيلاء على الوجه، فقد بلغه الاعتراف فى ١٣٣٥هـ - ٣ يناير ١٩١٧م، فى حين دخلت القوات الوجه فى ١٣٣٥هـ - ٥ يناير ١٩١٧م، وكانت الوجه تمثل أهمية بالغة للحلفاء من الناحية العسكرية فقد أصبحت قاعدة تنطلق منها الهجمات على السكك الحديدية التى كانت الوسيلة الرئيسية بين القوات التركية فى المدينة المنورة والشمال، وهو أمر أعرب عن أهميته للقائد الفرنسى " بريموند " فى لقاء سابق مع السير " ونجت " عندما التقيا فى السودان فى سنة ١٣٣٤هـ - ديسمبر ١٩١٥م، قبل تعيين السير " ونجت " قائداً للعمليات الحربية فى الحجاز (٢٧) .

واتجهت القوة بعد ذلك للاستيلاء على العقبة ذات الأهمية البالغة للأتراك حيث كانت منطلق هجماتهم على السفن الإنجليزية، وكانت على نفس القدر من الأهمية بالنسبة للإنجليز لحماية قناة السويس .

وكان دخول قوات الشريف المدعومة من الحلفاء للعقبة فى سنة ١٣٣٤هـ - ٦ يوليو ١٩١٦م، خطوة هامة أسهمت فى كبر حجم دور الشريف وإغراء البعض من قبائل الشام وفلسطين للانضمام إليه، وفى نفس الوقت كانت ضربة قاسية على الأتراك (٢٨) .

وكنتيجة لسقوط العقبة قرّر " اللنبى " قائد القوات البريطانية فى مصر دخول غزة التى استعصت على بريطانيا كثيراً، وانتقلت تبعية قوات الشريف فى العقبة والتى كان يتزعمها ابنه " فيصل "، ثم انضمت إليها قوات ابنه " زيد " الذى انتقل من حصار المدينة المنورة إلى العقبة بعد سقوطها، من السير " ونجت " قائد العمليات الحربية فى الحجاز إلى القيادة المباشرة لـ " اللنبى " (٢٩) .

وأصدر " اللنبى " لأمره إلى " فيصل " بالاتجاه نحو معان ثم التقدم إلى البحر الميت ليلتقى بالقوات الإنجليزية، وكان على " زيد " متابعة إمداد القوات الإنجليزية بعد غزة إلى موانئ فلسطين بالتموين، واستطاعت هذه القوات (الإنجليزية) احتلال الخليل ويافا وبيت لحم ثم القدس التى دخلتها فى سنة ١٣٣٦هـ - ٩ ديسمبر ١٩١٧م . ولم تنجح قوات " فيصل " فى دخول معان فاكثفت بمهاجمة السكك الحديدية، ولم يتيسر لها دخولها إلا بعد مهاجمة " اللنبى " للقوات

التركية فيها وهزيمتها (٣٠)، وأصبح من السهل على قوات " فيصل " دخول دمشق تحت قيادة " للنبي " سنة ١٣٣٦هـ في أول أكتوبر ١٩١٨م، وحلب في السادس والعشرين من نفس الشهر .

ويتضح من أحداث الحركة قلة حجم وعدد الذين ناصروها وهم بعض قبائل تحيط بالطريق البري للحجاج للقادمين من شمال الحجاز اعتاد بعضها على الحصول على إتاوات من وفود الحجيج مقابل تأمين الطريق، وأن نجاح الشريف في استمالتها يرجع إلى ما أغرقه عليها من أموال حصل عليها من الإنجليز وليس من خلال إقتاعهم بدعاوى الثورة على الترك أو ما تصوره البعض من نضوج للعامل القومي (٣١) .

ولهذا فإن الدور الفعلي الذي أدته هذه العناصر في العمليات الحربية كان دوراً محدوداً للغاية حيث لم يستطيعوا دخول المدينة المنورة حتى نهاية الحرب، كما أنهم لم يدخلوا الوجه إلا تحت قيادة السير " ونجت " قائد العمليات الحربية في الحجاز، وكذلك مساعدة الأسطول الإنجليزي من البحر، فضلاً عن دور المعدات الإنجليزية والفرنسية التي وصلت إلى الحجاز قبل التحرك إلى الوجه، وبنفس الأسلوب والعوامل كان دخول العقبة (٣٢) .

وبدا دور الحلفاء في العمليات الحربية اللاحقة واضحاً، فقد رد الشريف على " مكماهون " حين طلب منه " مكماهون " التدخل في سورية بأن على قوات الحلفاء التعرض لسواحل سورية بأسطولهم لتشجيع أهلها على الثورة ضد القوات التركية، بل طلب منه فرض الحصار على الحجاز لمنع وصول الحبوب إليه بقصد إثارة الرأي العام ضد الأتراك حتى تنهياً نفوس الناس للقيام بثورة، ثم طلب وضع كميات من الأسلحة والعتاد في بورسودان لتكون جاهزة تحت الطلب (٣٣). بل أن الشريف أرسل رسالة لاحقة إلى " مكماهون " أعرب له فيها عن فقدانه الأمل في قدرة السوريين على الثورة ضد الأتراك بعد تفرق الزعماء الوطنيين منهم بين السجون والمنافي، ثم عاد وطلب منه ضرورة نزول حملة بريطانية في الساحل السوري لتسهل على ابنه " فيصل " وقواته الذين ينظرون إلى الفرج من مثاقب الإبر مما يقاسونه من أنواع التعذيبات، وأخبره كذلك بأنه اتخذ ترتيبات لقطع سكك حديد سورية الحجاز حتى يواجه تفوق قوات الترك النظامية (٣٤) .

وحين أراد " فيصل " مهاجمة القوات التركية المنسحبة أمام جيش " للنبي " متراجعة من فلسطين وشرق الأردن باتجاه دمشق حذره " للنبي " من ذلك،

ونصحه بعض الضباط الإنجليز بالابتعاد حتى لا تسحقه القوات التركية، واكتفى " فيصل " بمهاجمة السكك الحديدية أو بعض الممرات على طريقة الكر والفر، ثم سار على ميمنة القوات البريطانية حين كانت في طريقها إلى دخول دمشق (٣٥). وكانت قوة الشريف قد ظلت في العقبة حتى جاءت القوات الإنجليزية من مصر إلى الشام حيث قاد " للنبي " الحملة العسكرية من مصر إلى فلسطين ثم إلى دمشق وحلب، وبالتالي فإن حساسية وضع الحجاز من الناحية الدينية هي التي دعت الحلفاء لعدم الإعلان عن تصدّر قادتهم العسكريين للأعمال الحربية فيه .

كما أن القوى الشعبية العربية في الشام لم تؤيد - في الغالب - حركة أو دعوة الشريف (٣٦)، وكان موقفها المؤيد نسبياً لقوات " للنبي " ومعها قوات " فيصل بن الحسين " متأثراً إلى حد كبير بأحكام الإعدام التي نفذها " جمال باشا " ضد دعاة القومية العربية في أوائل الحرب (٣٧)، كما أن بلاد الشام قد تأثرت بتصدّر دعاة القومية من رجال الاتحاد والترقي للحياة السياسية في عاصمة الخلافة العثمانية بعد إسقاط السلطان " عبد الحميد الثاني " سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٩م، هذا إلى جانب الدور الذي قامت به مدارس التنصير " التبشير " في إثارة مشاعر القومية والنصرة المعادية للأتراك - سالكين في ذلك وسائل كثيرة (٣٨).

ومع ذلك فإنه على الرغم من صغر حجم القوة التي تجمعت حول الشريف؛ وصغر دورها بالتالي، إلا أن أثرها كان أكبر من حجمها بشكل أفاد الحلفاء، فقد أسهم حصارها للمدينة المنورة في تعطيل استخدام القوة التركية فيها، كما تأثرت المواصلات، أو خطوط الإمداد التركية، بسبب الهجمات على السكك الحديدية بفعل هجمات البدو - بعد تنظيمهم وبمساعدة القوات الإنجليزية والفرنسية - عليها، هذا إلى جانب أن دراية البدو بدروب الصحراء الوعرة وتحملهم لمناخها القاسي الذي اعتادوه ومعرفتهم بمصادر المياه النادرة وإفسادها على القوة التركية قد ترك أثراً بالغاً على تحركات هذه القوة، وسهل في نفس الوقت على الحلفاء الاستيلاء على الوجه ثم العقبة . كما أن وجود واجهة عربية مسلمة لدور الحلفاء قد أسهم في تمزق وجهة العرب والمسلمين وفي نفس الوقت حرم القوات التركية في الجزيرة العربية والشام من مساندة شعبية كانوا يتوقعونها وكان الحلفاء يحسبون لها ألف حساب (٣٩) .

أما بقية القوى والكيانات العربية فلم تكن تؤيد حركة - أو ثورة - الشويف، بل إن بعض هذه القوى كانت ترى أن إعلان الجهاد ضد بريطانيا وفرنسا ضرورة

بغض النظر عما آلت إليه دولة الخلافة، وبالتالي فإن مناصرة الحلفاء أمر لم يلق قبول الأوساط الشعبية المسلمة في العالم العربي .

كانت اليمن، وعسير التي كان يحكمها الإدريسي تناصر - في الغالب - دولة الخلافة (٤٠)، واحتفظ " ابن سعود " في نجد بحياده الذي فرضه على الإنجليز منذ سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٥م، دون أن يزج بنفسه - وهو ما كان يرجوه الإنجليز - في مهاجمة الأتراك داخل الجزيرة العربية في المدينة المنورة أو على ساحل الخليج متأثراً بمساندة الترك لأعدائه من آل الرشيد (٤١) .

ولم تستطع بريطانيا أن تحجب مشاعر العداء الشعبي لحركة الشريف والرغبة في الوقوف وراء دولة الخلافة الذي عبرت عنه الأوساط الشعبية في مصر مما اضطرها إلى نفى المنات من العناصر الوطنية المسلمة إلى خارج مصر، وكذلك إلى سجن الآلاف من الشباب داخل البلاد وحتى انتهاء الحرب .

ووقف سلطان دارفور في السودان ضد قوات الإنجليز وأعلن الجهاد العام، وقاد السنوسي الجهاد ضد الإنجليز في مصر والإيطاليين في ليبيا (٤٢)، وكان الرأي العام في الجزائر مسانداً للعثمانيين ومعادياً للحلفاء كتعبير عن التحالف الإسلامي وإعلان للعداء ضد الفرنسيين المحتلين . وحاولت فرنسا - عبر حملة إعلامية واسعة - الحد من هذا الاتجاه، وأرسلت بعثة من الحجاج الجزائريين إلى مكة بعد إعلان الشريف لثورته كان أغلبها من الشباب الجزائري المتفرنس للتعبير عن تأييدهم لهذه الثورة وكوسيلة لإيجاد حوار بين الشريف وبين فرنسا، ولم يكن خافياً على أوساط الحلفاء أن هذه البعثة لا تعبر عن اتجاه القوى الشعبية المسلمة في الجزائر (٤٣) . كما وقفت غزة لفترة طويلة ضد القوات البريطانية التي فشلت في دخولها عدة مرات وبمعمونة شخصيات عربية أرسلها الشريف للتأثير على البدو فيها وإفهامهم بأن الإنجليز أصدقاء للعرب (٤٤) .

وبهذا فإن حجم الإعلان عن الثورة في الحجاز من خلال جريدة " القبلة " وكذلك المنشورات كان أكبر من حجمها الفعلي بكثير، كما أن حرص الكتاب والمؤرخين الأجانب ومن تبعهم من دعاة القومية مثل لورانس وجورج أنطونيوس وليموند وساطع الحصرى على وصفها بالعربية وأنها كانت تعبيراً عن نمو الوعي القومي العربي بعيداً عن الموضوعية إلى حد كبير . ومع أن جريدة " القبلة " قد ركزت منذ عدها الأول الذي صدر في أعقاب الإعلان عن الثورة سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م على الفكرة العربية أو إثارة النعرة العرقية لدى العرب ضد الأتراك من

خلال ربط العرب بالإسلام وإظهار عيوب الاتحاديين مستعينة في ذلك بالعديد من الكتاب الشوام كمحب الدين الخطيب وفؤاد الخطيب وجميل العظم، إلا أن هناك العديد من العوامل التي قللت من حجم تأثير هذه الجريدة وما حملته من أفكار لعل في مقدمتها ظروف الحرب، وكذلك طبيعة سكان المدن المقدسة في الحجاز الذين لا تجمعهم رابطة جنسية بل رابطة دينية حيث هم من المجاورين الوافدين من كل العالم الإسلامي، فضلا عن عدم انتشار هذه الجريدة بين البدو سواء لعدم انتشار التعليم أم لصعوبة التنقل . على أن شعار هذه الجريدة الذي كان من آيات القرآن الكريم " وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب عليه " والذي يوضح استخدام الشريف للعامل الديني كوسيلة لجلب الأنصار حوله يوحي بغلبة العامل الديني على العامل القومي (٤٥) .

وإذا سلطنا باهتزاز الوجه الإسلامي لدولة الخلافة حتى قبل تولي السلطان عبد الحميد الثاني أو بعده، وهو ما سمح أو ساعد على نمو نسبي للفكرة العربية في أوساط المثقفين والعسكريين فإن العامل الديني قد ظل من أهم المؤثرات على مسيرة الحركة السياسية الشعبية في الأقطار العربية وهو أمر بندا واضحا في الأحداث التي تلت الحرب العالمية الأولى (٤٦) .

وبغض النظر عن مجريات الحرب فإن بريطانيا وحلفائها - تساندهم القوى اليهودية السياسية - كانت تخطط لتفتيت الوحدة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية، فيذكر لورانس في مذكراته "أهدافنا الرئيسية تفتيت الوحدة الإسلامية ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها .. وإذا عرفنا كيف نعامل العرب، وهم الأقل وعيا للاستقلال عن الأتراك، فسنبقون في دوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاكمة ومتنافرة، غير قابلة للتماسك، إلا أنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحدة ضد أية قوة خارجية (٤٧) .

وذكر لورانس في تقرير له عن سياسات مكة " لو تمكنا من تحريض العرب على انتزاع حقوقهم من تركيا فجأة، وبالعنف، لقضينا على خطر الإسلام إلى الأبد، ودفعنا المسلمين إلى إعلان الحرب على أنفسهم، فتمزقهم من داخلهم وفي عقر دارهم، وسيقوم، نتيجة لذلك، خليفة للمسلمين في تركيا وآخر في العالم العربي، ليخوضا حربا دينية داخلية فيما بينهما، ولن يخيفنا الإسلام بعد هذا أبدا (٤٨) .

وكما حاولت بريطانيا استغلال حركة القومية العربية، التى ساهمت فى إيجادها، من خلال اتصالها بالشرىف حسين وسعيها لتكوين مؤسسات جديدة تروج لها ضمت كوادر عربية مثل المكتب العربى البريطانى الذى أسسته فى القاهرة سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م، والذى حاولت من خلاله الاستخبارات البريطانية تطويع حركة القومية العربية لخدمة الأهداف الحربية البريطانية، سعى السياسيون اليهود كذلك لتطويع هذه الحركة منذ ما قبل الحرب وأثناءها، ولعل شخصية لورانس تمثل هذا التحالف المزدوج بين الاستعمار والحركة الصهيونية ضد العالم الإسلامى .

لهذا كانت هذه الحركة أكثر سلبية على الأوضاع السياسية العربية، ومع أن دعايتها كانوا لا يتوقعون ذلك ولا يسعون إليه وكانت لهم طموحات سياسية كبيرة لصالح أمنهم إلا أنهم لم يكونوا فى بعض الجوانب - ويفعل الظروف السياسية الدولية - أصحاب بصيرة سياسية ثاقبة كما حاول البعض أن يصبغ ذلك عليهم وهو أمر لا يقلل من دورهم أو طموحاتهم القومية والإسلامية .

التحالف الصهيونى الاستعمارى واتفاقية سايكس بيكو

سنة ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م :

لم تكن هذه الاتفاقية التى عقدت سرا بين إنجلترا وفرنسا وروسيا والتى اقتصرت على تقسيم الولايات الإسلامية فقط التابعة للدولة العثمانية بين إنجلترا وفرنسا وروسيا نتيجة لاحتياز دولة الخلافة لجانب ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى بل كانت فى الحقيقة سببا فى الاحتياز العثمانى المبكر لألمانيا منذ ما قبل الحرب وأثناءها . فقد بدت أطماع هذه الدول فى ممتلكات الخلافة الإسلامية منذ أواخر القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى حين بدا التنافس بين إنجلترا وفرنسا فى الخليج العربى والبحر الأحمر (٤٩) . ولذلك فإن الحملة الفرنسية على مصر والشرق تعد من حلقات التنافس والصراع بين هاتين الدولتين فى مساعيها لىسط نفوذهما على المنطقة والذى اتسمت به سياستهما - وراءهما الأطماع اليهودية - تجاه المنطقة طوال القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى .

كما كانت هذه السياسة الاستعمارية اليهودية سببا في توجه سياسة السلطان عبد الحميد الإسلامية التي تبلورت في فكرة الجامعة الإسلامية والتي كان يسعى من خلالها لمقاومة هذه الأطماع بما فيها بؤادر الأطماع الألمانية .

وعلى الرغم من قيام تحالف بين إنجلترا وفرنسا وروسيا أسبق من التحالف الألماني العثماني في الحرب العالمية الأولى والذي لعب لليهود دورا فيه إلا أن إنجلترا وفرنسا لم تسمحتا بتطور الأطماع الروسية لتصل إلى المضائق والوصول إلى البحار الدافئة، وقد تمكنتا من حصر هذه الأطماع في الممتلكات العثمانية الشمالية في القوقاز والقرم والبحر الأسود، وكان ذلك سببا من أسباب إفشاء الثورة الروسية فور قيامها سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م، لأسرار اتفاقية سايكس بيكو وكذلك إلى خروج روسيا من الحرب .

وتعود بداية هذه الاتفاقية إلى سنة ١٣٣٢هـ - أغسطس ١٩١٤م، حين طلب وزير الخارجية الروسي " سazanوف " من سفيرى إنجلترا وفرنسا التباحث بشأن المضائق وتأمين وصول روسيا إلى البحر المتوسط ضمانا لمصالحهما (٥٠) .

وعلى أثر إعلان تركيا دخول الحرب إلى جانب ألمانيا طلبت روسيا من إنجلترا وفرنسا الموافقة على وضع المضائق والقسطنطينية تحت إشرافها مقابل إطلاق يد إنجلترا في مصر وبلاد فارس وبعض المستعمرات الألمانية في إفريقيا والتسليم بالمصالح الفرنسية في سوريا ولبنان وفلسطين، ووافقت حكومتا الدولتين مبدئيا على المطالب الروسية .

وخلال هذه الفترة أبدت فرنسا حرصا شديدا على بسط نفوذها على سوريا ولبنان وفلسطين (٥١)، ولم تسمح لظروف الحرب أن تفرض عليها نزول قوات إنجليزية إلى هذه المنطقة إلا بعد الاتفاقية التي أقرت هذا النفوذ، وحددت أبعاد دور القوة العربية المحدودة التابعة لشريف مكة والتي كان مقررا لها متابعة زحف " النبي " في بلاد الشام .

وكانت إنجلترا تدرك حساسية فرنسا تجاه ما تعتبره مناطق لنفوذها، وأن هذه السياسة قد تعرقل تطور مباحثات " مكماهون " مع الشريف " حسين " الذي كان يطمع في امتداد نفوذه إلى بلاد الشام . بل إن الشريف كان يدرك أبعاد السياسة الفرنسية الأمر الذي دعاه لاتخاذ سياسة تتسم بالتقارب تجاه فرنسا أملا في ألا تعارض في مطالبه من جهة ولمحاولة الكسب من خلال منافستها مع إنجلترا من جهة أخرى، ولهذا لم يمتنع " عبد الله بن الشريف حسين " الفكرة

الفرنسية التي كانت تقضى بإرسال قوات أوروبية إلى الحجاز وهي فكرة عارضها الإنجليز خشية إثارة مشاعر المسلمين وإفشال الثورة على الأتراك، كما أن الشريف قد منع أحد رجاله من الصحفيين وهو " السيد رشيد رضا " من إكمال خطبته في موسم الحج سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م، والتي تعرض فيها إلى أطماع فرنسا في سوريا، وأعادته بسبب ذلك إلى مصر (٥٢) .

وحين استقرت كل من إنجلترا وفرنسا على تحديد مناطق نفوذها في الولايات العربية من سنة ١٣٣٣هـ - أكتوبر ١٩١٥م، حتى مارس سنة ١٩١٦، سافر مندوباهما إلى روسيا، وهناك تم تحديد المطالب الروسية، ومما يسترعى الانتباه أن روسيا قد طلبت فلسطين ضمن نفوذها، وأوضح مندوبا إنجلترا وفرنسا للحكومة الروسية أنه قد تم الاتفاق على تدويل الأوضاع فيها بين الحلفاء، وقد حضر ممثلون عن " الشريف حسين " جانباً من المباحثات التي تمت عن فلسطين (٥٣)، كما أن إنجلترا قد عارضت وضع فلسطين ضمن مناطق النفوذ الفرنسي، ورأت لجنة شكلت بهذا الخصوص أن تقوم بمباحثات تخص فلسطين لما لها من أهمية (٥٤) .

وفي الوقت الذي رأى فيه بعض المؤرخين أن هذه المعاهدة كانت سرية، وبرهنوا من خلال ذلك على خديعة الدول الأوروبية لحلفائها العرب (٥٥)، رأى البعض الآخر أن " الشريف حسين " كان على دراية بجوانب في هذه المعاهدة وبالتالي لم تكن كلها سرية ولم تخدع إنجلترا وفرنسا - بالتالي - حلفاءها، وصدقت بذلك على وجهة النظر البريطانية الخاصة بأنها - أي بريطانيا - عقدت المعاهدة وهي تعتقد بإخلاص أن موادها لا تتناقض مع شروط الاتفاق مع " الشريف حسين " . فقد تضمنت الرسائل المتبادلة بين " مكماهون " والشريف حسين ما يشير إلى أن هناك اتفاقاً ما بين إنجلترا وفرنسا حول الأراضي العربية منذ أوائل سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م، كما أن الخلاف الذي دب بين "عزيز على المصري " والشريف حسين والذي أدى إلى إخراج "عزيز" من الحجاز تاركاً منصبه العسكري في أوائل سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م، إلى مصر فسره البعض بأنه كان بسبب إبلاغ "عزيز" للشريف بما دار بينه وبين الكولونيل " نيوكمب " في لقاء تم بينهما صرح فيه القائد الإنجليزي " نيوكمب " بوجود اتفاق بين إنجلترا وفرنسا بشأن سورية (٥٦)، وأن الاتفاق سيستكمل بينهما بشكل أشمل في مصر . وقد دعا هذا الأمر الشريف إلى إبعاد "عزيز" إلى مصر حتى لا يفشى هذه المسألة

(٥٧)، كما دعتة إلى مزيد من الاستفسارات عن كافة ما تناولته المباحثات فى هذا الشأن بين إنجلترا وفرنسا مما أدى إلى وصول سايكس إلى جدة للاجتماع بالشريف وإبلاغه له بالجانب الخاص بإنشاء دولة عربية مستقلة كما تناولته الاتفاقية (٥٨)، ثم عودة سايكس وبيكو فى زيارة للحجاز فى مايو سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م، للاجتماع بالشريف مما أدى إلى ارتياح الشريف فى النهاية وإعرابه عن رضاه عما اتفقت عليه إنجلترا وفرنسا وأنه ممتن لفرنسا، كما هو الحال بالنسبة لإنجلترا، لموقفهما تجاه العرب (٥٩) .

على أن مباحثات جدة بين كل من الشريف حسين و سايكس وبيكو - كما رأى البعض - قد تناولت جانباً كبيراً من الاتفاقية كمطالب فرنسا فى سورية والوضع حول فلسطين وغيرها، كما حرصت فرنسا من جانب آخر على إطلاع الشريف على تفاصيل تتعلق بهذه المطالب من خلال إرسالها لبعثة حج من الجزائريين "المترنسين" فى سنة ١٣٣٥هـ - مايو ١٩١٧م، والإشارة إليها بإبلاغ الشريف بجوانب المعاهدة وبخاصة فيما يتعلق بالمطالب الفرنسية (٦٠) .

ولهذا فإن قيام البلاشفة بكشف النقاب عن بنود الاتفاقية فى أعقاب ثورتهم فى روسيا سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م، وكذلك قيام " جمال باشا " بإبلاغ " فيصل بن الحسين " فى سنة ١٣٣٥هـ - نوفمبر ١٩١٧م، بجوانب الاتفاقية وطلبه التفاهم بينهما لعقد صلح يقضى بمنح الولايات العربية استقلالاً ذاتياً، لم يكن كل هذا بجديد سوى على بعض الأوساط العربية السياسية والشعبية لا على الشريف، وأن الشريف لم يكن فى وضع يسمح له بإعادة النظر فى الموقف بعد علمه بكل جوانب الاتفاقية وبخاصة ما يتعارض مع مطالبه، وكان مضطراً أن يساير ركب الحلفاء الذى اختاره وأدرك أن عليه بذل المزيد من الجهد للحصول على أكبر قدر من المكاسب السياسية من خلاهم، وكان يخشى من تأليب رأى العام على الأوضاع الكلية .

وبمعنى آخر فإن ارتباط الشريف وبعض أبنائه بالجمعيات التى كانت تعمل تحت شعارات قومية قد دعاه - ربما مضطراً - لتغليب الإطار القومى على حساب الإطار الإسلامى أملاً فى أن يجد من خلاله ما يمكنه من تحقيق الآمال السياسية، كما أن الدور اليهودى الذى يعد المحرك الحقيقى لأحداث وأبعاد هذه الاتفاقية لم ينل أى قدر من العناية سواء من قبل المؤرخين الأوروبيين أو العرب المسلمين على حد سواء .

إنفاقية سيكس بيكو

١٦ أيار - مايو ١٩١٦

(نقلا عن جورج أنطونيوس : يقظة العرب،

ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد)

والدكتور إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٥٧٩ - ٥٨٢).

نص الوثيقة

المادة الأولى : ان فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) (داخلية سورية) و (ب) (داخلية العراق) المبينتين في الخريطة الملحقة بهذا ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ولانجلترا في منطقة (ب) حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية، وتتفرد فرنسا في منطقة (أ) وإنجلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية .

المادة الثانية : يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سورية الساحلية) وإنجلترا في المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس) (٦١) إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية .

المادة الثالثة : تنشأ إدارة دولية في المنطقة الحمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة .

المادة الرابعة : تنال إنجلترا ما يأتي :

(١) ميناء حيفا وعكا .

(٢) يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في المنطقة (أ) للمنطقة (ب) وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها بأن لا تدخل في مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدما .

المادة الخامسة : تكون الإسكندرونة ميناء حرا لتجارة الامبراطورية البريطانية، ولا تنشأ معاملات مختلفة في رسوم الميناء، ولا ترفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية وتباح حرية النقل للبضائع الإنجليزية عن طريق إسكندرونة وسكة الحديد في المنطقة الزرقاء سواء كانت واردا إلى المنطقة الحمراء أو إلى

المنطقتين (أ) و (ب) أو صادرة منهما . ولا تنشأ معاملات مختلفة (مباشرة أو غير مباشرة) على أى سكة من سكك الحديد أو فى أى ميناء من موانئ المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية .

وتكون حيفا ميناء حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها ولا يقع اختلاف فى المعاملات ولا يرفض إعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسية ويكون نقل البضائع الفرنسية حراً بطريق حيفا وعلى سكة الحديد الإنجليزية فى المنطقة السمراء، سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء أو الحمراء أو المنطقة (أ) أو المنطقة (ب) أو واردة إليها ولا يجرى أدنى اختلاف فى المعاملة بالذات أو بالتبع يمس البضائع أو البواخر الفرنسية فى أى سكة من سكك الحديد ولا فى ميناء من الموانئ فى المناطق المذكورة .

المادة السادسة : لا تمتد سكة حديد بغداد فى المنطقة (أ) إلى ما بعد الموصل جنوباً ولا فى المنطقة (ب) إلى ما بعد سامرا شمالاً إلى أن يتم إنشاء خط حديدى يصل بغداد بحلب ماراً بواحدى الفرات ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين .

المادة السابعة : يحق لبريطانيا العظمى أن تنشئ وتدير وتكون المالكة الوحيدة لخط حديدى يصل حيفا بالمنطقة (ب)، ويكون لها ما عدا ذلك حق دائم بنقل الجنود فى أى وقت كان على طول هذا الخط ويجب أن يكون معلوماً لدى الحكومتين، إن هذا الخط يجب أن يسهل اتصال حيفا ببغداد، وإنه إذا حالت دون إنشاء خط الاتصال فى المنطقة السمراء مصاعب فنية ونفقات وافرة لإدارته تجعل إنشاءه متعزراً فالحكومة الفرنسية تكون مستعدة أن تسمح بمروره فى طريق بربرة - أم قيس - ملقى - إيدار - غسطا - مغاير (٦٢)، قبل أن يصل إلى المنطقة (ب) .

المادة الثامنة : تبقى تعريفه الجمارك التركية نافذة عشرين سنة فى جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقتين (أ) و(ب) فلا تضاف أى علاوة على الرسوم ولا تبدل قاعدة التثمين فى الرسوم بقاعدة أخذ العين إلا أن يكون اتفاق بين الحكومتين .

ولا تنشأ جمارك داخلية بين أية منطقة وأخرى من المناطق المذكورة أعلاه وما يفرض من رسوم الجمرك على البضائع المرسلّة إلى الداخل يدفع فى الميناء ويعطى لإدارة المنطقة المرسلّة إليها البضائع .

المادة التاسعة : من المتفق عليه أن الحكومة الفرنسية لا تجرى مفاوضات فى أى وقت كان التنازل عن حقوقها، ولا تعطى ما لها من الحقوق فى المنطقة الزرقاء لدولة أخرى إلا للدولة أو حلف الدول العربية بدون أن توافق على ذلك سلفا حكومة جلالة الملك التى تتعهد للحكومة الفرنسية بمثل هذا فى ما يتعلق بالمنطقة الحمراء .

المادة العاشرة : تتفق الحكومتان الإنجليزية والفرنسية بصفتها حاميتين للدول العربية على أن لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة أن تمتلك أقطارا فى شبه جزيرة العرب، أو تنشئ قاعدة بحرية فى الجزائر على ساحل البحر الأبيض الشرقى (٦٣) . على أن هذا لا يمنع تصحيحا فى حدود عدن قد يصبح ضروريا بسبب عداء الترك الأخير .

المادة الحادية عشر : تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة لتعيين حدود الدولة أو حلف الدول العربية .

المادة الثانية عشر : من المتفق عليه عدا ما ذكر أن تنظر الحكومتان فى الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح إلى البلاد العربية .

وعد بلفور سنة ١٩١٧م - ١٩١٧م :

كان صدور هذا الوعد نتيجة طبيعية للتحالف بين اليهود بمؤسساتهم العنصرية التى تمثلها الحركة الصهيونية ومؤسساتهم السرية المتمثلة فى الحركة الماسونية وبين الاستعمار الغربى سواء بوجهه السياسى المستغل أم بوجهه الصليبي المعادى للشرق الإسلامى (٦٤) .

فقد سبقت الإشارة إلى دور اليهود فى إضعاف دولة الخلافة العثمانية وإسقاط " السلطان عبد الحميد " بعد رفضه لمساعدتهم الخاصة بالاستيطان فى فلسطين، وبدا كيف كان التوافق بين مساعيهم وبين المخطط الاستعماري الرامى إلى إضعاف قبضة هذه الدولة على ولاياتها تمهيدا للسيطرة عليها .

وسعى اليهود منذ ظهور الحركة الصهيونية فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى إلى استغلال نفوذهم لدى كل الدول الاستعمارية لمساعدتهم فى إقامة الدولة اليهودية بدءا بروسيا، لكن أوضاع اليهود فيها - أى فى روسيا - تعرضت للمقاومة بعد أن تكشف للروس دورهم فى اغتيال القيصر " إسكندر الثانى " سنة ١٢٩٨هـ - ١٨٨١م، إلى جانب دورهم الاقتصادى فى روسيا الذى أصاب الطبقات الكادحة الأمر الذى أدى إلى صدور قوانين سنة ١٢٩٨هـ - مايو ١٨٨١م، المشهورة ضدهم (٦٥) . ومع أن اليهود قد نقلوا نشاطهم إلى ألمانيا إلا أنهم ظلوا يثيرون الفتن فى روسيا ضد الحكومة القيصرية ويحاربون التجارة الخارجية الروسية، ولعبوا بهذا دورا بارزا فى إلحاق الهزيمة بالجيش الروسى فى حربه مع دولة صغيرة بالنسبة لروسيا وهى اليابان، كما ظلت عناصرهم تثير الفتن فى الداخل حتى قامت الثورة الشيوعية التى ضمت عناصر بارزة من المنظمات المنضمة إلى تنظيماتهم السرية من أهمها " لينين " و " تروتسكى " و " زينوفيف " (٦٦) .

وعلى الرغم من أن اقتراح الزعيم اليهودى " وايزمان " وبعض العناصر اليهودية بنقل نشاطهم خارج ألمانيا لم يلق قبولا فى بداية الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٣٣٢هـ - ديسمبر ١٩١٤م إلا أن تطور النشاط الصهيونى الماسونى فى إنجلترا لصالح الأطماع اليهودية قد دعاهم لنقل نشاطهم الأساسى إليها وبخاصة بعد إعلان بريطانيا عن تخليها عن سياسة المحافظة على الأراضي العثمانية وعزمها على تمزيقها (٦٧) .

ولقد كان لليهود قبل ذلك دور واضح فى التأثير على رأى العام فى بريطانيا من خلال امتلاكهم لأبرز الصحف اليومية فيها مثل صحيفة " الدبلى تلجراف " التى أنشأها اليهوديان " موريس ليفى " و " ليفى لوسن " سنة ١٢٧١هـ - ١٨٥٥م، كما تمكن اليهودى " ليفىكونت نورثكليف " والسير " جون ألرمان وارنهورلز " والسير " يومرى نيرتون " من شراء جريدة " التايمز " سنة ١٣٢٥هـ - ١٩٠٨م، إلى جانب العديد من الصحف والمجلات التى استطاع اليهود امتلاكها ثم توجيها (٦٨) .

وقد أثمرت المخططات اليهودية عن وجود العديد من الوزراء البريطانيين أثناء الحرب من الذين يؤيدون الأطماع اليهودية فى فلسطين مثل " هربرت صمويل " وزير الداخلية، " ولويد جورج " (٦٩)، إلى جانب " اللورد كتنشر " الذى أصبح وزيرا للحربية وغيرهم (٧٠) .

وعلى الرغم من ذلك فإن مجريات الحرب قد دعت الحكومة البريطانية إلى عدم الإعلان عن تأييدها العلنى - وربما إلى تعاطفها - مع المطالب اليهودية وبخاصة أنه كان لفرنسا وروسيا تحفظات فى فلسطين، لخدمة اليهود أيضا، وكذلك سير المباحثات مع " الشريف حسين " التى كانت ستتعث إلى حد كبير إذا ما لمس أو أدرك التأييد لمثل هذه الأطماع بشكل واسع وصريح سواء هو أو مؤيدوه من القوميين العرب .

واستطاع اليهود من جهة أخرى ممارسة ضغوط واسعة على الألمان من خلال سيطرتهم على كثير من المؤسسات الاقتصادية وهو أمر دعا الألمان للمطالبة لدى الأتراك بأن يلقى اليهود معاملة حسنة فى فلسطين، وسعى اليهود لاستصدار تصريح من الألمان بتأييد أهدافهم فى فلسطين ولكن الحكومة الألمانية رأت إرجاء ذلك إلى ما بعد انتهاء الحرب (٧١) . وشهدت سنة ١٣٣٥هـ - أكتوبر ١٩١٧م، قيام الثورة الروسية وخروج روسيا من الحرب، حيث أصبح موقف الحلفاء بعد هذا الحادث محرجا، وأصبح سعيهم ينصب على ضرورة بذل المساعى - من خلال اليهود - لدخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانبهم .

وكانت العناصر اليهودية قد نجحت فى التأثير القوى على الكثير من المؤسسات الاقتصادية ووسائل الإعلام فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ فترة مبكرة حيث تملك اليهود شركة للتوزيع والنشر. كما أسس " جوزيف وليتزر " (Joseph Pulitzer) الذى ينحدر من أصل يهودى مجرى صحيفة سانت لويس بوست ديباتش سنة ١٢٩٤هـ - ١٨٧٨م، ثم اشترى صحيفة " نيويورك

وورلد " (The New York World) وهى من أشهر الصحف الأمريكية سنة ١٣٠٠هـ - ١٨٨٣م، ونشر منها طبعتين صباحية ومسائية، وبلغ توزيعها سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م مليون نسخة يوميا (٧٢) . وكذلك استطاع اليهودى " أدولف أوسن هنرى " شراء صحيفة " نيويورك تايمز " سنة ١٣١٣هـ - ١٨٩٦م، وهى من أشهر الصحف الأمريكية اليومية، إلى جانب التأثير اليهودى على عدد كبير من الصحف والمجلات السياسية والفنية وغير ذلك .

كما استطاعوا - أي اليهود رغم قلة عددهم - أن يتركزوا فى المدن الكبرى المليئة بالسكان مما كان له أثر فعال فى مسيرة الانتخابات الأمريكية ومن خلال تملكهم لوسائل التأثير الإعلامى والكثير من المؤسسات الاقتصادية، إلى جانب جمعياتهم السرية الماسونية وفروعها . لذلك لم تستطع الولايات المتحدة أن تظل بمعزل عن القضية الفلسطينية منذ البداية على الرغم من التزامها بسياسة العزلة وعدم التدخل فى قضايا الشرق الأوسط وغيرها (٧٣) .

وقد بلغ تأثير اليهود على طرفى الحرب إلى درجة أدرك معها الطرفان ضرورة السعى للتقرب منهم أو تجنب معاداتهم كما أقر المؤرخ الإنجليزى توينبى، فحين أدركت اللجنة الوزارية لشئون الحرب فى بريطانيا مساعى اليهود لدى ألمانيا لاستصدار تصريح يؤيد أهدافهم فى فلسطين تعجلت وزارة الخارجية البريطانية للسبق فى إصدار هذا التصريح حتى يكسبوا اليهود قبل الألمان. بل أن تركيا نفسها قد سعت للتقارب مع اليهود فالتقى " جمال باشا " مع زعماء الحركة الصهيونية فى ألمانيا سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م، ووعدهم بمعاملة طيبة فى فلسطين، وأن الحكومة التركية حريصة فى الوقت الراهن على عدم إغضاب العرب وهو أمر لا يجعلها قادرة على السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين (٧٤) .

وبعد أن عقدت لقاءات سرية بين عناصر صهيونية وبعض وزراء فى الحكومة البريطانية من أبرزها اجتماع " مارك سايكس " مع " وايزمان " أرسل الأخير رسالة سرية لأحد أصحاب التأثير فى الحكومة الأمريكية معروف بميوليه الصهيونية وهو " برانديز " طالبه فيها بتحريك إيجابى لدخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب الحلفاء . وقبل إصدار التصريح أدركت الحكومة البريطانية أنها لن تلق معارضة من روسيا بعد قيام الثورة فيها وخروجها من الحرب، وفى نفس الوقت حصلت على موافقة مبدئية من الدول الأخرى كالولايات المتحدة وفرنسا وإيطاليا وكان ذلك بفعل تأثير اليهود ونفوذهم فى هذه الدول فى

المقام الأول، كما أن اليهود قد رأوا في هذا التصريح - إلى جانب دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانبهم - أن قيام الدولة اليهودية في شرقى قناة السويس وسيلة للدفاع عنها وقاعدة جوية تيسر طريق مصالحها إلى الشرق .

لهذا أصدر " بلفور " وزير خارجية بريطانيا تصريحه الشهير " بأن حكومة جلالة الملك .تنظر بعين من العطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود فى فلسطين وستبذل جهودها فى سبيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يحجب بالحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى (٧٥) .

واستغل اليهود نفوذهم - بعد صدور تصريح بلفور - فى إقناع الدول الأوروبية وبخاصة فرنسا التى كانت تربطها بإنجلترا معاهدة سايكس بيكو والتى يصعب افتراض عدم علمها بالتصريح قبل صدوره، ثم إيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية، بأن تخضع فلسطين لبريطانيا بدلا من فكرة التدويل التى أشارت إليها هذه المعاهدة .

ويبدو جليا أن التصريح أو الوعد الذى كان يسعى له اليهود - والذى أصدره بلفور - كان سيصدر سواء من بلفور أو من وزير خارجية فرنسا لو آلت فلسطين إليها أو حتى ألمانيا وتركيا، وهو استنتاج طبيعى يتفق وفهم طبيعة تأثير اليهود عالميا وقد أكده المؤرخ البريطانى " توينبى " فى ذكره أن الحرب الأولى قد أظهرت تنافس كل القوى المتحاربة على كسب ود اليهودية العالمية وتجنب عداوتها (٧٦)، أو ربما الرغبة فى التخلص من تأثيرها ووجودها فى أوروبا واستخدامها فى خدمة أهداف استعمارية .

على أنه من الصعب مجازاة الذين يحاولون القول بعدم مبالاة بعض العناصر العربية على هذا التصريح بشكل مطلق مهما قيل عن ارتباطهم بالحلفاء أو انتمائهم للمحافل الماسونية مثل " الشريف حسين وأبنائه ومن خلال علمهم بأغلب جوانب معاهدة سايكس بيكو، ولعل الحرص الذى أبدته وزارة الخارجية البريطانية فى برقية لها إلى السير " ونجت " على تعليقات الصحف خشية إثارة غضب المشاعر العربية ممثلة فى " الشريف حسين " يؤكد مشاعر عدم الرضا من المسلمين العرب تجاه هذا التصريح (٧٧)، ورجوح كفة ارتباطهم الوطنى والإسلامى على غيره .

وبنفس القدر من الصعوبة لم يتم رصد مشاعر الشعوب الإسلامية والعربية تجاه هذا التصريح من المصادر المتاحة في حينها، فالمصادر التي يمكن أن يستقى منها المؤرخ مادته العلمية تنحصر في الوثائق البريطانية ومذكرات الساسة الذين سمحت ظروف الاحتلال في مصر لهم أن يتصدروا العمل السياسي فكان أغلبهم من أصحاب الفكر الغربي ودعاة القومية الليبرالية، وفي نفس الوقت كانوا من أعضاء المحافل الماسونية مثل " سعد زغلول " ورفاقه الذين " امتطوا الركب الثوري " إبان أحداث ثورة الشعب المصري سنة ١٣٣٧هـ — ١٩١٩م، كما أن الصحف التي كانت تصدر في مصر في هذه الفترة كانت مملوكة لأعضاء المحافل الماسونية وأغلبهم من اليهود والبعض من المسلمين والنصارى الذين كانوا ينعمون بحماية سلطات الاحتلال، فضلا عن الرقابة العسكرية الصارمة التي لم تكن تسمح بنشر أى شىء إلا بعد موافقة الحاكم العسكرى البريطانى، ولهذا حجت برقيات الاحتجاج أو رصد مشاعر الرفض عن النشر أو الوصول إلى الخارجية البريطانية في لندن (٧٨)، ولا شك أن ذلك — مع غيره من أحداث — كان وراء أحداث سنة ١٣٣٧هـ — ١٩١٩م .

وشغلت بقية القوى والكيانات العربية بقضاياها الداخلية، فسورية كانت مسرحا للعمليات الحربية حتى انتهاء الحرب، وكذلك العراق، وبدأت بوادر الصراع بين سلطان نجد عبد العزيز بن سعود و الشريف حسين في الحجاز (٧٩) . ومع ذلك فقد دارت العديد من المباحثات بين المبعوثين البريطانيين والشريف حسين كى يقف على حقيقة الدور اليهودى فى فلسطين بعد صدور التصريح، ولم يكن الشريف يستطيع تحديد موقفه إلا بقدر ما أتاحت الظروف والتطورات العامة بالنسبة لمسيرة الحرب والتطورات الداخلية، وتقديره لأبعاد دوره وقوته، ومع ذلك فقد أبلغ — أى الشريف — البريطانيين بأنه لا يقبل قيام دولة يهودية فى فلسطين وإن لم يبد اعتراضا على إقامة اليهود داخلها وبالقدر الذى كانوا عليه وقت المباحثات (٨٠) .

وعندما حاول الأتراك استمالة جيش فيصل بن الحسين والصلح معه بإثارة تصريح بلفور أرسل فيصل إلى أبيه بذلك فأبلغه أبوه بالأا يميل إلى محاولة الترك وأن عليه المواصلة مؤكدا له أن الحلفاء لن يخلو بوعودهم التى اتفقوا عليها (٨١) .

وبقدر ما يوحى ذلك بارتباط الشريف بالحلفاء وهو أمر كان من الصعب تغييره إلا أنه يلقى الضوء على عدم تقبل الشريف أو تصوره لإقامة الدولة اليهودية وهو ما دأبت الحكومة البريطانية على مواصلة تأكيده للشريف (٨٢) .

على أن مجرد السماح - رغم خروجه عن الإرادة - من الشريف بإقامة اليهود في فلسطين وهجرتهم إليها يشير في رأي البعض إلى قدر - ولو ضئيل - من القبول من الشريف لوعده بلفور، وينكر الدكتور " أحمد شلبي " أنه في يناير سنة ١٣٣٧هـ - ١٩١٩م، حصل وايزمان على اتفاق مع " فيصل بن الحسين " يعترف فيه الأخير بوعده بلفور، ووعده فيصل في هذا الاتفاق بكيان بين الدول العربية التي ستنشأ في الشرق الأوسط وبين فلسطين، وورد ذكر هذا الاتفاق عند " جورج أنطونيوس " (٨٣)، وعلى الرغم من أن ذلك قد تطابق مع نشأة إمارة شرق الأردن إلا أنه لا ينبغي أن يدعوا الباحثين بقبول هذا الرأي بشكل مطلق .

الهوامش

- (١) د . عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية - ج٢، ص ١٠١٥ .
- (٢) يرى البعض أن الشريف " عون الرقيق " قدم رشوة للبasha " أحمد راتب " الذى جاء للتحقيق فأدان الوالى، وأن الشريف " عون " هو الذى كان مسمى السمعة ويستشهد المؤلف على ذلك بمقابلة شخصية مع أحد علماء جدة وهو الشيخ " محمد نصيف "،
تتظر : سليمان موسى : الحركة العربية - بيروت - سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، ص ٤٥،
وفى رأينا أن المؤلف ضد " الشريف عون "؛ وأنظر :
- Saleh Mohammad AL Amr : The Hejaz Under Ottoman Rule 1869 - 1914. D . . Of Philosophy at the University Of Leads 1974 .
- (٣) د . الشناوى : المرجع السابق، ص ١٠١٤، وكان الشريف علي والد الشريف حسين يعمل مع السلطان عبد الحميد ومؤيدا لفكرته في عودة الطابع الإسلامى للدولة العثمانية، وحصل علي درجة الباشوية ورتبة الوزارة؛ د حسين مؤنس، تاريخ قريش ص ١ ٧٧ .
- (٤) د . الشناوى : المرجع السابق ص ١٠١٦، ويرى سليمان موسى : أن " الشريف حسين " قد تقدم بطلب للسلطان مباشرة فعينه السلطان . المرجع السابق، ص ٤٧؛ ويذكر أن الاتحاديين قد غضبوا لذلك، واستند إلى مذكرات الملك " عبد الله "، ولكن الكثير من المؤرخين ساروا خلف جورج أطنونيوس فيما ذكره من أن الاتحاديين هم الذين عينوا " الشريف حسين " وليس السلطان " عبد الحميد " .
- (٥) د . محمد عبد الرحمن برج : دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ١٦٨، وتشير الوثائق البريطانية إلى خشية الشريف من أن يقوم الاتحاديون بعزله وطلب مساندة بريطانيا له فى هذه الحالة، ووعدت بريطانيا بأنها ستمنع مرور أى تعزيزات تركية إلى الحجاز .
سليمان موسى : الحركة العربية - ط٢ دار النهار - بيروت سنة ١٩٧٧م، ص ٦٨،
٦٩ .
- (٦) سليمان موسى : المرجع السابق، ص ١١٤ . وهنا تكون فكرة الثورة بوعده قيادة وليس بإرادة شعبية .
- (٧) د . الشناوى : المرجع السابق، ص ١٠١٧؛ د . عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربى . الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص ٤٥٢ .

- (٨) د . محمد برج : المرجع السابق، ص ١٧٣؛ سليمان موسى : المرجع السابق ص ١٥١ .
وقد أعلنت بريطانيا احترامها لمشاعر المسلمين الدينية وعدم التعرض لأماكنهم المقدسة .
(٩) زهدى الفاتح : لورنس العرب على خطى هرتزل، ص ٦٩ ، ٧٢ ؛ وذكر المستر كلايتون
أن الكسب الرئيسى الذى تطمح بريطانيا فى الحصول عليه هو كسب دفاعى بدلا من
نجاح الأتراك فى حشد طاقات العرب والمسلمين ضدهم . أنظر . F . O . 882 \ 2 .
(١٠) F . O . 371 \ 6237 , PP . 33 - 34 .
(١١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ط ٧ ص ٧٤٨ ؛ وحول اشتراك النصارى
واليهود فى حزب اللامركزية أنظر : سليمان موسى : المرجع السابق ص ٦٣ .
(١٢) لاجتمع " الشريف حسين " بكل من " سايكس وبيكو " فى جدة فى ١٣٣٥هـ / ١٩ ، ٢٠
مايو سنة ١٩١٧ م . ولكن هذا ليس دليلا على علمه بكل مخططات إنجلترا وفرنسا ولكن
إدراكا منه لطبيعة تحول الأتراك فى ظل الاتحاديين وهيمنة إنجلترا وفرنسا على قدر كبير
من النفوذ فى المنطقة العربية، وتمشيا مع المبدأ القائل ليس فى الإمكان أبدع مما كان
وهو يشير إلى قدر من مشاعر حب الوطن إلى جانب المصالح الذاتية .
(١٣) هو أحمد جمال باشا الذى شغل منصب وزير الحربية فى الوزارة العثمانية، وكان أكثر
ميلا إلى فكرة التضامن الإسلامى منه إلى الطورانية، وهو غير محمد جمال باشا قائد
الجيش الثامن فى معان . د . عبد العزيز الشناوى : المرجع السابق ن ص ٧٧ هامش (١) .
(١٤) تشير بعض المراجع إلى صلة الشريف وأولاده وبخاصة عبد الله وفيصل كانوا أعضاء
فى جمعية العربية الفتاة السرية الماسونية . جورج أنطونيوس : المرجع السابق،
ص ٣٣٤ ، ولا ينبغي أن نعول على جورج أنطونيوس كثيرا؛ وأنظر أيضا : صالح
العبود : فكرة القومية العربية، ص ٢٠٥ - ٢٠٧ .
(١٥) د . محمد برج : المرجع السابق، ص ١٨٦ .
(١٦) كان الأتراك يدركون هذه الحقيقة ولهذا توالى مساعدتهم لمطالبة الشريف بإعلان الجهاد
ضد الإنجليز، وشاركهم الألمان فى ذلك فطبعوا منشورات تحث المسلمين على الجهاد
ضد الإنجليز الذين صوروهم بأنهم أعداء الإسلام، د . الشناوى : المرجع السابق، ص
٧٦ ، ٧٧ .
(١٧) كان المستر كلايتون يرى أن إعلان الشريف للثورة جهارا سيكون ضربة خطيرة لهيبة
الترك بين كافة المسلمين . . F . O . 882119 .

(١٨) د . محمد برج : المرجع السابق، ص ١٩٠ . وكان جمال باشا قد أرسل خمسة آلاف ليرة تركية للشريف لإعداد هذه القوات للسفر إلى الشام؛ ونظر أيضا : سليمان موسى : الحركة العربية، ص ٢٦٦ .

(١٩) كان إعلان حركة أو ثورة الشريف في الصيف، وكان جزء كبير من القوات التركية في الطائف لجوها للطف، وانتهزت قوات الشريف الفرصة وقطعت للطرق بين هذه القوات وبين بقيتها في المدينة ومكة . سليمان موسى : المرجع السابق، ص ٢٦٩ .

(٢٠) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : تاريخ العرب الحديث، ص ٢٦٩ .

(٢١) عندما استعد الأتراك للهجوم ودخل مكة طلب الشريف فتح جبهة ضدهم في سورية، بل وطلب قوة بريطانية من المسلمين لنزول رابغ لمواجهة الترك . بل أنه وافق على بقاء قوة مسيحية قريبة منه لنجدته وقت تعرضه للهجوم وأرسلت بريطانيا (٦) طائرات في رابغ ثم أرادت سحبها فذعر الشريف وأبلغهم بوضع حياة أبنائه ضمانا لسلامة الطائرات : F. O. 141/462.

(٢٢) د . محمد برج : المرجع السابق، ص ١٩٢ .

(٢٣) نصحت بريطانيا الشريف بمطالبة الفرنسيين بإرسال بطاريات مدفعية دون رجال، وعليه في حالة رفضها أن يطلب البطاريات بعدد قليل من الرجال .

(٢٤) يراعى أن الإنجليز قد أرسلوا قوات عسكرية من قواتهم في مصر وفي الهند وكانت هذه القوات هي نواة الجيش العربي النظامي، سليمان موسى : المرجع السابق، ص ٢٩١ . كما أن قوات البدو والتي أغراها الشريف بالمال لم تبد ولاء له في البداية ولا للإنجليز بل وضعوا العديد من العقبات في وجه القوات الإنجليزية، فقد ذكر الكولونيل نيو كمب في أحد تقاريره أن البدو عاجزين عن القيام بعمل ضد خط سكة حديد الحجاز أنهم يضعون العراقي في وجه قواتنا أكثر مما يفعل الأتراك تجاهنا، وأنهم - أي البدو - لو اتجهوا لإرهاق الترك كما أرهقونا لما بقى تركي واحد بين المدينة ومعان . F. O. 68016 Part 2 .

(٢٥) يلاحظ أن المناسبة دينية .

(٢٦) أثارت هذه المسألة قلقا لدى بعض الحكام والأمراء العرب. سليمان موسى : المرجع السابق ص ٢٩٢ .

(٢٧) د . محمد برج : المرجع السابق، ص ١٩٥ .

(٢٨) د . رافت الشيخ : تاريخ العرب الحديث، ص ٢٩٩ . وكان الدور الذي لعبته قوات أبناء الشريف محدودا حيث منعت اتجلترا إمداد هذه القوات بالسلح الفعال، ويرجع السبب في الموقف البريطاني هذا إلى خشيتها من تحول هذا الجيش لمحاربة ابن سعود حسبما

نكر : سليمان موسى : المرجع السابق، ص ٣٣١ . ولكن السبب الرئيسى فى رأينا هو خشية بريطانيا من اشتداد عود هذه القوت بعد انضمام بعض القوى العربية من الشام وفلسطين إليها .

(٢٩) د . محمد برج : المرجع السابق، ص ١٩٩ .

(٣٠) جورج أنطونيوس : يقظة العرب، ص ٣٢٥؛ F. O. 882/25 .

(٣١) كان مجموع ما أنفقته بريطانيا من أموال على ثورة الشريف ما بين عامى ١٩١٦، ١٩١٩م أحد عشر مليون جنيه، للبركات الذهبية منها أقل من ١٠ %، بينما يمثل البقى ثمن ما قدمته بريطانيا من مؤن وأسلحة وعتاد ونفقات أخرى، وقد عبر " ستورز " عن هذه الأموال بقوله : " أن الشريف فتح فاه والحكومة البريطانية فتحت كيس نقودها أوسع بكثير مما يجب " . سليمان موسى : المرجع السابق، ص ٣٣٢ .

(٣٢) تذكر المراجع دور أحد مشايخ القبائل من الفرسان وهو الشيخ " عودة أبو تايه " زعيم حويطات التوايهة الذين يقيمون فى الغالب حول معان، فقد لعب دورا بارزا فى الاستيلاء على العقبة الأمر الذى جعل الأتراك يتصلون به فى واحدة من مساعيهم لاستعادة العقبة لكنه رفض ذلك . الوثائق البريطانية F. O. 882/7. P. R. O ؛ وأنظر أيضا : جورج أنطونيوس : يقظة العرب، ص ٣١٥ .

(٣٣) سليمان موسى : المرجع السابق، ص ٢٦٢ .

(٣٤) الوثائق البريطانية، نقلا عن سليمان موسى : المرجع السابق . F. O. 882/19. 371/6237

(٣٥) سليمان موسى : ص ٣١٩، ٣٢٠ .

(٣٦) وقع كل من مفتى سورية وحلب وبيروت وسنجق القدس وهم : محمد أبو الخير عابدين، ومحمد العبيسي، ومصطفى نجا، وكامل الحسينى على فتوى بتكفير الشريف حسين وإدانة الثورة العربية المعلنة منه ويرى البعض أنها كانت بدافع من جمال باشا .

(٣٧) كان من بين من أعدمهم " جمال باشا " " عبد الكريم الخليل " الذى نادى بمساعدة الدولة العلية وكذلك بعض الشخصيات الهامة مما جعل هذه الأحكام تترك أثرا عميقا فى نفس أهل الشام ضد الأتراك . ومما يسترعى الانتباه أن " جمال باشا " قد أعدم " نخلة باشا " المطران وأحد وجهاء بعلبك للتصارى بسبب عثوره على طلب منه لدى السفارة الفرنسية طلب فيه ضم بعلبك إلى لبنان ليكون تحت الحماية الفرنسية، وكان " نخلة باشا " قد آوى فى بيته فى استانبول " جمال باشا " و" أنور وطلعت وجاويد " حين تعرض الاتحاديون لثورة إسلامية مضادة سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٩م، ولعل فى هذا إشارة

إلى موقف بعض العناصر النصرانية من الاتجاه الإسلامى. أنظر : سليمان موسى : المرجع السابق، ص ١١٣ .

(٣٨) اتجه كثير من دعاة القومية من العرب إلى الدعوة لمساندة الدولة العثمانية ضد الحلفاء الغربيين مثل " عبد الكريم الخليل " رئيس المفندى الأنبى فى استانبول و " أحمد مختار بيهم " أحد زعماء بيروت الإصلاحيين وعضو مؤتمر باريس العربى، والأمير " سعيد الجزائرى " أحد زعماء سورية الذى دعا الشريف حسين إلى تأييد الدولة العلية لدرجة اضطرت الشريف لأن يطلب منه تحسين علاقته " بجمال باشا " رغم مؤامرة الوالى التركى فى الحجاز " وهيب باشا " لقتل الشريف . أنظر : سليمان موسى : المرجع السابق، ص ٩٧ - ٩٩ .

(٣٩) تشير المراسلات التى دارت بين " للنبي " والسير " ونجت " إلى أن حجم القوات العربية فى كل المواقع قد يصل إلى عشرة آلاف، وكان هذا بعد دخول العقبة وتحقيق العديد من الانتصارات التى أغرت بعض المتطوعين من عرب فلسطين والشام . سليمان موسى : المرجع السابق، ص ٣١٣ .

(٤٠) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٧١ .

(٤١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - ط ٨ - سنة ١٩٧٩م، ص ٧٤٤، ونعارض ما ذكره الدكتور عبد الرحيم عن تحالف ابن سعود مع الحلفاء والذى استند فيه إلى خطبة حث فيها على ذلك حيث أنه لم يشارك فى أى عملية حربية معهم - المرجع السابق، ص ٢٧٠ . بل أن الإنجليز كانوا يخشون تحوله ضدهم لصالح الأتراك وهو ما دعاهم لاعتقال محب الدين الخطيب الذى كان موفدا من قبل حزب اللامركزية إلى نجد والعراق قبل أن يلتقى بأمير نجد وأثناء مروره بالكويت، كما أن الإنجليز قد سعوا إلى حياده الذى وجدوا فيه سبيلا لعدم تلاقى القوى العربية أو توحيدها حيث كان فى ذلك إرباك لخططهم، أنظر : سليمان موسى : المرجع السابق، ص ١٥٩، ١٦٤ . كما يراعى أن خطبة أمير نجد كانت من قبيل المناورة السياسية مع الإنجليز حيث كانت فى أعقاب إعلان الشريف حسين نفسه ملكا على العرب وهو أمر أثار الكثير من الأمراء العرب ومن بينهم " ابن سعود " ولكن المستر كوكس كتب لابن سعود بظمنه باعتراف الشريف باتفاقهم معه . وأنظر أيضا : د . فتوح الخترش : الحرب الحجازية النجدية سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٦م . مجلة الخليج العدد (٢٦)، ص ٣٨، د . خالد حمود السعدون : المفاوضات التى أدت إلى عقد معاهدة سنة ١٩١٥م، مجلة الدارة، ص ٥٤٠ .

(٤٢) د . عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٢٧١ .

- (٤٣) د. فهمي سعد :حركة عبد الحميد بن باديس ودورها في بقطة الجزائر- دار الرحاب - بيروت، سنة ١٩٨٣م، ص ٤٢ .
- (٤٤) F. O. 882/19 .
- (٤٥) د. طالب محمد وهيم : جريدة القبلة الحجازية والقضية العربية - مجلة الخليج العربي - العراق - العدد (١) سنة ١٩٨٩م، ص ٢١ .
- (٤٦) د . عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق، ج١، ص ٧٣، حيث يذكر ابتعاد الاتحاديين عن الإسلام، واضطراهم لاستخدامه وقت الأزمات الحربية كالحرب الطرابلسية والحرب العالمية الأولى .
- (٤٧) زهدى الفاتح : لورانس العرب على خطى هرتزل - تقارير لورانس السرية دار النفائس - بيروت - ط٤، سنة ١٩٩١م، ص ٦٤ .
- (٤٨) المرجع السابق، ص ٧٤، ٧٥ . ولعل لورانس بهذا لا يستحق الثناء من بعض الكتاب العرب، وبدا مدحه واضحا عند جورج أنطونيوس (بقطة العرب ص ٣١٦، كما أثنى عليه وإيزمان في مذكراته لما قدمه للقضية اليهودية، ويذكر لورانس نفسه أنه قد نجح في إخفاء حقيقة شخصيته عن العرب . أنظر : صالح العبود : فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، ص ١٣٣ . ويراعى أن القوى الاستعمارية والمنظمات والجمعيات اليهودية إلى جانب الشريف حسين هم الذين أطلقوا مصطلح الثورة دون بقية القوى الشعبية في المشرق العربي وكذلك أغلب المفكرين .
- (٤٩) سليمان موسى : الحركة العربية، ص ٣٣٩ .
- (٥٠) د . محمد عبد الرحمن برج : دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٢٠٧ .
- (٥١) يراعى أن فرنسا قد حصلت من قبل ذلك في مؤتمر برلين سنة ١٢٩٥هـ - ١٨٧٨م، على اعتراف الدول الأوروبية المجتمعة بالاحتفاظ بالحقوق التي تمتلكها في حماية الأماكن المقدسة في فلسطين . د . محمد مصطفى صفوت : مؤتمر برلين سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م وأثره على البلاد العربية - القاهرة سنة ١٩٥٧م، ص ٤٨، كما أن روسيا قد طالبت بفلسطين أثناء المباحثات السابقة للمعاهدة ولكنها أقيمت أنها ستدول وهو نظام يسمح لكل دول الحلفاء بالاشتراك في إدارة شئونها. د. محمد برج : المرجع السابق، ص ٢١٥ . ولعل فكرة التدويل هذه كانت تخفى وراءها الدور الصهيوني وتأثيره على الدول الاستعمارية وبخاصة إنجلترا وفرنسا، ولا شك أن هذه الفكرة، أو الاتفاقية بشكل عام كانت مقدمة لوعد بلفور .
- (٥٢) د . محمد برج : المرجع السابق، ص ٢١٣ .

(٥٣) د . محمد برج : المرجع السابق، ص ٢١٦.

**Report Of Committee Set Up to Consider Certain Correspondence (٥٤)
between Sir Lt. McMahon and The Sherif of Mecca in 1915, 1916
. Cnd 5974 (1938), P. 51.**

نقلا عن سليمان موسى : الحركة العربية، ص ٣٤٠، د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق، ص ٤٦٢.

(٥٥) يزيد جورج أنطونيوس هذا الاتجاه ويستبعد معرفة الشريف بالمعاهدة : يقظة العرب - ٣٥٣ - ٣٥٧ . وإن كان أنطونيوس لا يوحى بالثقة في كثير من الجواب .

(٥٦) F. O. 882 / 16.

(٥٧) تشير الوثائق البريطانية إلى سبب آخر عن إبعاد الشريف لعزیز المصرى من الحجاز وهو خشيته منه بعد أن أشار عليه الكولونيل ولسن بمنح عزیز المصرى صلاحيات لإنشاء قوة جيش نظامى حيث رأى فى ذلك ما قد يؤدى إلى ثورة عسكرية ضده كما حدث للسultan عبد الحميد، وبخاصة أن المسألة لم تقف عند عدم رده على اقتراح ولسن حيث أن عزیز المصرى قد طلب من الإنجليز مباشرة أن يمنحوه هذه الصلاحيات والمال اللازم لها فازدادت خشية الشريف منه أنظر : F. O. 882/ 6, F. O. 686/ 33, 34.

F. O. 371/ 3059. 28, 30, Apr. 1917. (٥٨)

(٥٩) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربى، ص ٢٩٧، وكان بيكو قد صرح فى القاهرة أمام حشد من السوريين بأن فرنسا ستكون وصية على لبنان .

(٦٠) د . محمد برج : المرجع السابق، ص ٢٢٠، د . فهمى سعد : حركة عبد الحميد بن باديس ودورها فى يقظة الجزائر ن ص ٤٢ .

(٦١) أصبح يعرف بالخليج العربى .

(٦٢) جاءت الأسماء فى أنطونيوس على الوجه التالى : باتياس - أم قيس - صلحد - تال - عسدا - مسمية .

(٦٣) ورد فى أنطونيوس : " أو تنشأ قاعدة بحرية فى الجزائر الواقعة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر " بدلا من " أن تنشأ قاعدة بحرية فى الجزائر على ساحل البحر الأبيض الشرقى " .

(٦٤) لا نود الوقوع فى خطأ التعميم فالمقصود هنا اليهود الذين ينتمون إلى هذه المؤسسات فقط .

(٦٥) د . صابر طعيمة : الماسونية ذلك العالم المجهول - دار الجيل - ط ٥، سنة ١٩٨٦ م. ص ٣٩٩-٤٠١، د . محمد برج : المرجع السابق، ص ٢٥٥ .

(٦٦) اشترك لينين في الحزب الثوري، واسمه الحقيقي فلاديمير وإليانوف، انتقاما لإعدام شقيقه إسكندر أوليانوف بعد فشل محاولته في اغتيال القيصر إسكندر الثالث، كما ظهر من الزعامات اليهودية في الثورة الشيوعية تروتسكى الذى نادى بالتقيد الحرفى بأراء وأفكار كارل ماركس. د. صابر طعيمة : المرجع السابق، ص ٤٠٢٠. ويجدر الإشارة إلى أن اليهود لم يكونوا يريدون إحداث ثورة وتغيير في روسيا بل اتصبت مساعيهم على إحداث مزيد من التصدع في المجتمع الروسى، ولكن قيام الثورة لم يمنعه من السعى لبسط نفوذهم على مقدرات روسيا السياسية .

(٦٧) د. محمد برج : المرجع السابق، ص ٢٥٦ .

(٦٨) زياد أبو غنيمة : السيطرة للصهيونية على وسائل الإعلام العالمية - دار عمان - الأردن، ط٢، سنة ١٩٨٩م، ص ٢٥، وما بعدها، وعن سيطرة اليهود على إنجلترا من المحافل الماسونية أنظر : د. صابر طعيمة : الماسونية، ص ٤٢٠ .

(٦٩) تولى لويد جورج وزارة الحربية بعد موت كتشنر، ثم هيات له الصحافة اليهودية الطريق إلى رئاسة الوزارة التى صدر في عهدها تصريح بلفور، ويقال عنه أن التوراة قد صنعتها، أنظر : سليمان موسى : المرجع السابق، ص ٣٦٦ .

(٧٠) تشير الوثائق البريطانية إلى التقارب الشديد بين اليهود والإنجليز فيذكر وايزمان للرئيس الأمريكى ولسن في اجتماعهما في باريس سنة ١٣٣٧هـ - ١٩١٩م، أن الإنجليز أكثر الأمم في العالم بعد اليهود تعلقا بتعاليم التوراة . وكانت علاقة وايزمان مع لويد جورج وبلفور قد تدعت بسبب اختراع وايزمان لمادة الأسيتون الضرورية في صناعة المتفجرات . د. عمر عبد العزيز : المرجع السابق، ص ٥٠٥ .

(٧١) د. محمد برج : المرجع السابق، ص ٢٥٩ .

(٧٢) زياد أبو غنيمة : المرجع السابق، ص ٣٣ .

(٧٣) د. احمد عبد الرحيم مصطفى : الولايات المتحدة والشرق الأوسط ص ٥٤ .

(٧٤) د. محمد برج : المرجع السابق، ص ٢٥٤، ٢٦٠، ويراعى أن موقف الاتحاديين من اليهود كان موقفا غير حازم كموقف السلطان عبد الحميد، وكانوا يفرقون بين اليهود من سكان الدولة العثمانية واليهود الذين يأتون من خارجها بأطماعهم وأهدافهم، فضلا عن أن مجموعة كبيرة من رجال الاتحاد والترقى كانوا من أصل يهودى . ويرى البعض أن الاتجاه العام في الدول الأوربية وغيرها لمساعدة اليهود في إنشاء وطن قومى لم يكن تعبيرا عن نجاح اليهود في التأثير على صناع القرار في هذه البلدان فقط وإنما يرجع كذلك الى اتجاه عام يرمى الى التخلص منهم .

(٧٥) سليمان موسى : الحركة العربية، ص٣٦٨ .

(٧٦) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق، ص٥٠٥ .

F. O. 371 / 3054 (٧٧)

F. O. 371 / 3054 (٧٨)

(٧٩) د . خالد حمود السعدون : موقف إمارة حائل من الحرب العالمية الأولى، مجلة الإدارة،

ص٣٢ .

F. O. 882 7 . (٨٠)

F. O. 371 / 3395, 686 / 37, 636 . (٨١)

F. O. 636 / 37, 371 / 3380, 371 / 75 . (٨٢)

الختام

خاتمة :

لعل من أبرز الحقائق التي تناولها هذا البحث المنظور الخاطيء الذي تناول به أغلب المؤرخين لدور الدولة العثمانية وإنكار طابعها الإسلامي وجهودها فى الدفاع عن العالم الإسلامي عبر قرون عدة وتسخيرها لمواردها لخدمة هذا الهدف بشكل دعاها للتقصير فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية فى بداية نشأتها وتطورها على الأقل، وعلى الرغم من الضعف الذي كان قد بدأ يدب فى أوصالها منذ أواخر القرن الحادى عشر الهجرى السابع عشر الميلادى، مما أدى إلى ظهور بعد الولاة المتمردين والمغامرين خلال القرن الثانى عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى من أمثال " على بك الكبير"، إلا أن استنادها - أي الدولة العثمانية - إلى رصيد واسع بين الشعوب المسلمة قد أسهم، أكثر مما أسهمت قواتها العسكرية، فى القضاء على هذه الحركات . وبدلاً من أن يسجل المؤرخون هذه الحقيقة قلبوها باعتبارهم هؤلاء المغامرين أبطالاً قوميين دعماً لمنظورهم القومى الذي كان يغيب عن الشعوب الإسلامية تماماً .

ويعتبر موقف المؤرخين من دور " محمد على" قمة التزييف للحقيقة التاريخية منذ سطوه على الولاية فى مصر وارتباطه بالحركة الماسونية الوليدة فى مصر مروراً بدوره فى تحقيق أهداف الاستعمار الغربى فى ضرب التيار الإسلامى فى مصر والشام والجزيرة العربية والخليج وشمال إفريقيا، ومساعيه لتمزيق الوحدة التي كانت قائمة بين الشعوب الإسلامية تحت الخلافة العثمانية بدلاً من أن يسعى لتقويتها فهياً المنطقة للاستعمار العربى حيث ساهم فى الوجود البريطانى فى الخليج والبحر الأحمر والوجود الفرنسى فى الجزائر، واستكمل أبناؤه سياسته حتى خضعت بقية الشعوب الإسلامية العربية للاستعمار الغربى، وحاول المؤرخون القوميون صبغ الحركات الوطنية فى الشعوب العربية بالصبغة القومية خلال فترة مقاومة الاستعمار رغم غياب البعد القومى عن جموع الكادحين المجاهدين للاستعمار الذين نظروا إلى الاستعمار من منظور دينى فى الغالب، واستند هؤلاء المؤرخون فى سبيل دعمهم لمنظورهم على صحف ومجلات ووثائق خاضعة لعناصر ماسونية تسعى لدعم الفرقة والتمزق من خلال إثارة النعرات القومية والجنسية متخفية وراء دعاوى مشبوهة وهى مساندة حركات التحرر، ورغب الاستعمار بدور هذه العناصر التي أفرزت عناصر من أصحاب المصالح لكونها قد سرت له سبيل التهام هذه الشعوب باسم حماية مصالحها،

فضلاً عن تأثير السياسة الاستعمارية بدور هذه العناصر، فبدأ تحالف ماسونى استعماري ساندته القوى الدينية المعادية للمسلمين، وكذلك أصحاب المصالح الاقتصادية التي تسيّدت الساحة السياسية .

ومن خلال هذا المنظور تناول المؤرخون حركة " الشريف حسين " سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م، على أنها ثورة قومية ضد الخلافة العثمانية على الرغم من أن هذه الحركة وإن كان دافعها الأساسي دافع اقتصادي يتمثل في حرصها على مكاسبها من وضعها الديني وصلتها بالمؤسسات الاستعمارية إلا أنها قد استغلت العامل الديني في جمع قلة من الأنصار، وجعلت منهم ومن الإعلانات التي كانت أكبر من حجمها - على الرغم منها، قناعاً يسمح بدخول الجيوش الاستعمارية الكافرة لأرض الحجاز الطاهرة لتنفيذ مخططات كانت في دوافعها من قبل الاستعمار ونتائجها بشكل عام معادية لمصالح شعوب المنطقة ومستقبلها وهو أمر لم يكن في مجمله يتفق ورغبة هذه الزعامات أو حتى مصالحها وطموحاتها الإقليمية .

ثم كانت إتفاقية " سايكس بيكو " سنة ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦م، والتي مازال البعض يعتبرها خديعة استعمارية في حين كان بعض الحكام في المنطقة العربية على علم ببعض أبعادها، وأن الكثير من جلساتها قد عقدت في ميناء جدة الإسلامى على مرأى ومسمع ممن خدعتهم صداقة الذئاب، وتحملت النتيجة شعوب المنطقة بأسرها دون إدراك طبيعة الخداع عند دول الاستعمار الغربي .

وحتى وعد بلفور فما زال المعروف عنه أنه كان نتيجة مرور بريطانيا بأزمة مالية أسهم اليهود في حلها، ولكنه في الحقيقة كان تعبيراً عن التحالف بين الحركة الماسونية والاستعمار، حيث نجحت العناصر الماسونية بتأثيرها الاقتصادي والسياسي المترتبة عليه في إدخال الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب الحلفاء . وكانت دول المحور تسعى إلى ذلك أيضاً، وكان كل جانب يسعى لإرضاء اليهود بوعد كوعد بلفور سواء ألمانيا أو تركيا بعد أن دانت لعناصر ماسونية من أعضاء الاتحاد والترقى أو فرنسا، ولو أن الإنجليز قد تأخروا في إصدار وعد بلفور لكان قد صدر في مكان آخر أو أماكن أخرى .

ومن أهم الحقائق التي تناولها هذا البحث محاولة تصحيح ما ذهب إليه المؤرخون القوميون في اعتبارهم معاهدة " سيفر " المهينة التي وقّع عليها الخليفة العثماني في أنها وصمة في جبين نظام الخلافة في نهاية الحرب العالمية الأولى،

وفى نفس الوقت إضفاء طابع الإنقاذ والوطنية على مصطفى كمال الذي عرف باسم " أتاتورك " بعد أن استعاد أراضى تركيا وأجبر دول أوروبا على توقيع معاهدة لوزان سنة ١٣٤١هـ - ١٩٢٣م، والحقيقة أن سلطة الخلافة الإسلامية الفعلية فى الآستانة قد انتهت بإبعاد السلطان " عبد الحميد الثانى " سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٩م، وأن مسئولية الحرب وما آلت إليه تقع على جماعة الاتحاد والترقى وبعدها عن الطابع الإسلامى، فى حين أن " مصطفى كمال " لم يجتمع المجاهدون الثوريون المسلمون حوله تحت شعارات قومية بل تحت شعارات إسلامية ظل يجاهر بها فى البداية، لذلك فإن البعد عن العامل الدينى كان وراء الهزيمة وتوقيع معاهدة سيفر حتى ولو أجبر الخليفة ظاهريا على التوقيع، والقرب من الطابع الدينى أدى إلى نجاح " أتاتورك " وعقده معاهدة لوزان رغم تنكره له بعد ذلك .

على أن العامل الاقتصادى قد لعب دورا مؤثرا فى مسيرة الأحداث سواء على مستوى علاقة الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية أم على مستوى الأحداث الداخلية فى المشرق الإسلامى حيث كان العامل الأكثر تأثيرا فى تشكيل القوى والكيانات السياسية العربية. فالحركة الاستعمارية التى بدأتها البرتغال فى مطلع القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى وإن كانت فى بدايتها قد تأثرت بالعامل الدينى لإرضاء المغامرين أو العوام إلا أن الطبقة البرجوازية التى سيرت هذه الرحلات وأسست الشركات التجارية كانت تهتم بتحقيق فوائد مادية أكثر من أي عامل آخر، وسرعان ما طغى العامل الاقتصادى وسخر العوامل الأخرى لأهداف هذه الطبقة .

ولا شك أن الصراع الروسى العثمانى الدائم قد لعب فيه العامل الاقتصادى دورا رئيسيا مهما بدا من أثر للعامل الدينى، فقد سخر الإقطاعيون وكبار الملاك فى روسيا العامل الدينى للقيام بحروب عديدة ضد العثمانيين بهدف السيطرة على المضائق والخروج إلى البحار الدافئة أملا فى تحقيق مكاسب اقتصادية. وكان وقوف بريطانيا وفرنسا مع الدولة العثمانية ضد روسيا تأكيدا على غلبة العوامل الاقتصادية على ما سواها .

وإذا كان العامل الدينى قد لعب دورا رئيسيا فى اندفاع جموع المسلمين إلى ساحل الخليج العربى للاشتراك فى الجهاد ضد الاستعمار الغربى فى البداية فإن العامل الاقتصادى قد لعب دورا هاما فى هذا الاندفاع لكون المنطقة كانت أكثر عطاء من المناطق الداخلية التى تعرضت للجذب والجفاف، فضلا عن زيادة حجم

الشرائح السكانية المتعاملة مع المراكز التجارية الاستعمارية التي ارتبطت في مصالحها ووجودها شيئاً فشيئاً بالمصالح الاستعمارية إلى أن توافقت مصالحهما وهو ما عبرت عنه في النهاية اتفاقيات الحماية بينهما .

ويعد العامل الاقتصادي من أبرز العوامل التي اعتمدت عليها المحافل الماسونية في تحقيق كافة أهدافها رغم صغر حجمها وعدد المنتمين إليها، حيث استطاعت به أن تسخر محمد علي لسياستها بعد أن يسرت له سبيل الوصول إلى السلطة في مصر، وبنفس الطريق عثمان بك في البلقان، و" مصطفى رشيد باشا " في استانبول، و" داود باشا " في العراق وكذلك " مدحت باشا " وغير ذلك . وكان البعد الاقتصادي وراء التقارب البريطاني أو الفرنسي من " محمد علي " فدعموه في التمهيد لسياستهم التجارية في البحر الأحمر والخليج الذي، وحاربوه حين بدت أطماعه مهددة لأطماعهم في هذه المناطق .

أما من حيث أثر العامل الاقتصادي في تكوين القوى الكيانات السياسية في العالم العربي فقد بدا هذا العامل واضحاً تشكيل هذه القوى في الخليج حيث كان وراء هجرة العتوب إلى الكويت، ثم خروج آل خليفة والجلالمة إلى قطر، وكان العامل الأساسي سواء في صراع هذه القوى أو في أبعاد علاقاتها بالقوى الاستعمارية. وكذلك كان هذا العامل وراء تقارب أصحاب المصالح من الشركات التجارية البريطانية في عدن وارتباط مصالحها بالاستعمار مما مهد السبيل لانسلاخها عن اليمن رغم العمق التاريخي لوجود هذا البلد موحدًا .

وفي شمال إفريقيا لعب العامل الاقتصادي دوراً هائلاً في التشكيل السياسي للدول فيه، فحين عرض بعض دايات الجزائر ضم تونس إليهم تحت حجة وحدة الجهاد ضد الفرنسيين والأطماع الاستعمارية عموماً أبدت الأسرة الحسينية في تونس رفضها لهذا العرض متعلة بالرغبة في الاستقلال الذي كان يعنى لها الحفاظ على مصالحها، ولقى الدور اليهودي مناحاً حيث كانت العناصر اليهودية مسيطرة على بعض الجوانب الاقتصادية الهامة والمؤثرة في صنع القرار .

وفي بلاد الشام لم يفلح دعاة القومية في فرض الدولة العربية الواحدة المتمثلة في سورية الكبرى بعد انتهاء النفوذ العثماني في نهاية الحرب العالمية الأولى حيث قامت الأقلية من أصحاب المصالح الاقتصادية، ومدفوعة بعوامل طائفية، بطلب استقلال لبنان مع ارتباطه بفرنسا لحماية المصالح المشتركة بينهما.

وفي مصر نجح الاحتلال البريطاني في ربط مصالح الطبقة البرجوازية وكبار الملاك بمصالحه ووجوده فصاغوا دورهم الوطني في إطار وجوده وساعدهم في تسيير العمل الوطني الصوري المتمثل فيهم، ولم تفلح ثورات العامة في زحزحة الاحتلال أو تحقيق أي قدر من العدل الاجتماعي بسبب هذا الترابط . وظل الوضع على هذا التميع للحركة الوطنية حتى قامت ثورة العسكريين سنة ١٣٧١هـ — ١٩٥٢م، وسط ظروف دولية ساعدتها على القيام والصمود والاستمرار . ومع أن هذه الثورة تمكنت من تغيير نسبي للتركيب الاجتماعي في مصر من خلال تملك السلطة إلا أنها لم تحقق أي قدر من العدل الاجتماعي إلا في حدود ضيقة وبعد فترة زمنية طويلة بفعل حصار القوى الاستعمارية وخنقها لهذه الثورة خشية أن تؤدي إلى ضرب مصالحها في المنطقة إلى جانب عوامل داخلية أخرى .

وبشكل عام فإن المصالح الاقتصادية الاستعمارية قد استطاعت أن تسخر كافة العوامل السياسية والدينية والفكرية في تمزيق الدولة الإسلامية وإعادة تشكيلها إلى دول وكيانات سياسية ضعيفة في الغالب، وأوجدت فيها شرائح وفئات ارتبطت في مصالحها ووجودها بالقوى الاستعمارية لحمايتها وحماية مصالحها من نداءات التغيير .

على أن العامل الديني قد ظل يشكل العامل الأساسي لدى صناع الأحداث من الطبقات المعاتية والكادحة في العالم العربي، ومع أنه قد أصبح عاملاً تبريرياً وغير مؤثر عند صناع القرار إلا أن البحث التاريخي لا ينبغي أن يغفله في رصد الأحداث، أي أنه بالعاملين معاً الاقتصادي والديني يجب رصد الأحداث التاريخية ولدى كافة الشرائح الاجتماعية، وبهذين العاملين يمكن استلهاهم تصور قابل للتطبيق في تحقيق الوحدة المأمولة، فالوحدة الاقتصادية تحقق الوحدة الفعلية من خلال المصالح والتنمية، والإطار الديني يحدد مسار التنمية في سبل خيرة ويحمي المصالح من الاضطرابات والقلقل .

وإذا كانت محاولة تعقب دور الحركة الماسونية وتحالفها مع الدوائر الاستعمارية بوجهها الاقتصادي والديني تعد من الجوانب البارزة في هذا البحث فإن جوانب خفية تحيط بهذه الحركة مازال يكتنفها الغموض لطبيعتها، وآمل أن تجد اهتماماً من الباحثين مستقبلاً حتى تتكشف المزيد من الحقائق وينجلي قدر التزييف الذي مازال يحيط ببعض الأحداث والأشخاص .

علي أن محاولة تقويم الصفوة لا ينبغي أن تفهم علي أنها اتجاه لإسقاط الرموز التاريخية بل هي محاولة لإبراز الحقيقة التي ينبغي أن نعلو فوق كل الرموز وإعلاء دور الشعوب من خلال ربط الرموز بقاعدتهم الشعبية، وفي نفس الوقت رفض التسليم بالرموز المفروضة علي حساب رموز أهلها ككتاب مغرضون فطمسوا دورها في التدوين التاريخي .

كما أن صياغة التاريخ من منظور إسلامي ليس اتجاهًا للانغلاقية أو الاحتواء بالماضي أمام تحدي الحضارة الغربية بل هي تأكيد علي ضرورة إبراز الهوية الإسلامية بشكل عام والعربية بشكل خاص ولتساعد هذه الصياغة علي توضيح ما يمكن استلهاه من التاريخ في طريق هذا التحدي .

وهي كذلك ليست محاولة لإثارة التناقض بين العروبة والإسلام لكنها أسس لتأكيد مدي احتواء الكل الإسلامي للعروبة وغيرها عبر التاريخ وأن السعي للخروج علي هذا الكل قد أسهم وسيهم في حدوث العديد من الهزات .

ولعل أحداث التاريخ قد أكدت أن الطرح الإسلامي الحضاري لم يكن طرحاً ثيوقراطياً أو كهنوياً أو طائفياً بل هو طرح شامل لكل الطوائف والأعراق والمذاهب والديانات والثقافات واللغات، وأن هذه الشمولية هي السبب في استمراره والإصرار علي هذا الاستمرار حتى من المعتدلين من غير المسلمين. وبالتالي فإن الإشارة إلي بعض العناصر السلبية من النصاري أو حتى اليهود لا تنبع من نظرة متعصبة بل من نظرة موضوعية شمولية تستند إلي الرصيد الحضاري الإسلامي الشمولي التاريخي الذي احتمت به هذه العناصر ليس فقط في الإطار النظري .

وآمل في النهاية أن يوجد جيل حوار حر يدرك ماضيه وحاضره بوضوح ويسعى إلي إخراج المنطقة من دوائر الظلام المدعوم بوسائل الحضارة المادية، وأن تستعيد الأمة التائهة ذاكرتها الحقيقية من تراثها التاريخي الصحيح لا أن تفرض عليها ذاكرة التاريخ من مزيفي التاريخ مهما كانت أساليب دعمهم أو الظروف المرحلية المحيطة بهذا الدعم .

المصادر والمراجع

الوثائق غير المنشورة :

(١) العربية

وثائق عابدين — دار الوثائق القومية — القاهرة

• محفظة رقم (٣٦١) خلافة إسلامية .

• محفظة رقم (٦٧) .

(٢) الإنجليزية :

- Correspondence Re (Persian) Gulf, VOL 64 - 1060 Of 1839, Part VI .
- F . O . 882 / 13 .
- F . O . 882 / 2 .
- F . O . 371 / 6237 , 3395 .
- F . O . 882 / 19 .
- F . O . 141 / 462 .
- F . O . 686 / 6 .
- F . O . 686 / 33 - 34 - 37 - 636 .
- F . O . 882 / 7 .
- F . O . 371 / 6237 , 75 , 3380 .
- F . O . 882 / 8 .
- F . O . 882 / 16 .
- F . O . 882 / 6 .
- F . O . 371 / 3054 - 3059 .
- F . O . 608 / 98 .

المراجع العربية

- د . إبراهيم أحمد العدوى :
الصراع الفكرى بين أجيال العصور الوسطى والعصر الحديث كما صورته
الجبرتى - بحث ضمن مجموعة أبحاث ندوة الجبرتى - القاهرة سنة
١٩٧٦م.
- د . إبراهيم عبده :
إعلام الصحافة العربية - القاهرة .
- إبراهيم محمد الصبحى :
الحجاز فى القرن السابع عشر - رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب
جامعة طنطا، ١٩٨٩م .
- ابن إياس - محمد بن أحمد :
بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٤ تحقيق د . محمد مصطفى، القاهرة سنة
١٩٦٠م .
- ابن بطوطة :
تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبنانى ب -
ت .
- ابن العجيمى - محمد بن حسن :
خبايا الزوايا، مخطوط رقم (٧) - مكتبة الحرم المكى - نسخ عبد الستار
الدهلوى سنة ١٣٢١هـ .
- أبو إسلام أحمد عبد الله :
الطابور الخامس فى الشرق الإسلامى - الماسونية الجديدة - القاهرة سنة
١٩٩١م .
- أبو إسلام أحمد عبد الله :
الماسونية فى المنطقة ٢٤٥، القاهرة سنة ١٩٩٣م .
- أبو إسلام أحمد عبد الله :
الروتارى - شرح فى جدار - دار الاعتصام - القاهرة سنة ١٩٨٨م .
- أبو الفدا - محمد عزت عارف :
نهاية اليهود - جدة - سنة ١٤١٠هـ .

- أبو القاسم سعد الله :
- محاضرات فى تاريخ الجزائر الحديث - القاهرة سنة ١٩٧٦ م .
- أحمد أمين :
- الفتنة فى الإسلام - القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
- أحمد توفيق مدنى :
- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا - ط ٢ سنة ١٩٧٦ م .
- د . أحمد صبحى منصور :
- السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة - القاهرة سنة ١٩٨٢ م .
- أحمد خاكى :
- الجبرى ومحمد على - بحث ضمن ندوة الجبرى - القاهرة سنة ١٩٧٦ م .
- د . أحمد عبد الرحيم مصطفى :
- فى أصول التاريخ العثمانى - دار الشروق - بيروت - سنة ١٩٨٢ م .
- د . أحمد عبد الرحيم مصطفى :
- الجبرى مؤرخاً - ضمن مجموعة ندوة الجبرى - القاهرة سنة ١٩٧٦ م .
- د . أحمد عزت عبد الكريم :
- دراسات فى تاريخ العرب الحديث - بيروت - سنة ١٩٧٠ م .
- د . أحمد عزت عبد الكريم :
- الجبرى مؤرخ على مفترق الطرق - ضمن مجموعة ندوة الجبرى - القاهرة سنة ١٩٧٦ م .
- أحمد فهد الشوابكة :
- فكرة الجامعة الإسلامية - مكتبة المنار - الأردن سنة ١٩٨٤ م .
- د . أحمد فؤاد متولى :
- الفتح العثمانى للشام ومصر - القاهرة سنة ١٩٧١ م .
- أرمنيوس فامبرى :
- تاريخ بخارى - ت د . أحمد محمود الساداتى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر - القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
- أرنولد توينبى :
- عبد الرحمن الجبرى وعصره - بحث ضمن مجموعة ندوة الجبرى - القاهرة سنة ١٩٧٦ م .

- العبد سعيد مسعود :
- المجتمع الجزائري في العهد العثماني - الجزائر - ب . ت .
- السالمي :
- تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان - ج ٢ .
- أنور الجندى :
- اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى - دار الاعتصام - القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- بارتولد . و :
- تاريخ الترك في آسيا الوسطى - ترجمة د . أحمد السعيد سليمان - ب - ت .
- د . بدر الدين عباس الخصوصي :
- دراسات في تاريخ الخليج الذي الحديث والمعاصر - ط ٢ الكويت سنة ١٩٨٤ م .
- برنارد لويس :
- الغرب والشرق الأوسط - ت . د . نبيل صبحي - بيروت سنة ١٩٦٥ م .
- بيير نوفان :
- تاريخ العلاقات الدولية، ترجمة د . جلال يحيى - القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
- توماس . و . أرنولد :
- الدعوة إلى الإسلام - ت . د . حسن إبراهيم حسن وآخرين - النهضة العربية - القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- د . جمال محمد محمود حجر :
- بريطانيا والنشاط السوفييتي في الحجاز . ١٩٢٤ - ١٩٣٨ م - الدوحة - ب . ت .
- د . جلال يحيى :
- المغرب الكبير - العصور الحديثة وهجوم الاستعمار - القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- ج . بيير - ت . د . عبد الخالق لاشين :
- دراسات في التاريخ الاجتماعي لمصر الحديثة - القاهرة .
- د . جمال زكريا قاسم :
- الأنصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية - القاهرة . د . ت
- دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقيا . القاهرة - د . ت

الصراعات المحلية والدولية فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن
السادس عشر . ندوة البحر الأحمر . القاهرة سنة ١٩٨٠ م .

عبد الرحمن الجبرتى — سيرة وتقييم — مجموعة أبحاث ندوة الجبرتى —
القاهرة سنة ١٩٧٦ م .

• جواد رفعت ألتخان — ت : نور الدين رضا الواعظ ومحمد أمين القابلى :
أسرار الماسونية — ب . ت :

• جورج أنطونيوس :

يقظة العرب — ت د . ناصر الدين الأسد ود . إحسان عباس ط ٦ .

• د . حسن أحمد محمود :

الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى بين الفتحين الذى والتركى —
النهضة العربية — القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

• حسين عمر حمادة :

الماسونية والماسونيون فى الوطن الذى — دمشق — ب . ت .

• حسن لييب :

تاريخ الأتراك العثمانيين — القاهرة سنة ١٩١٧ م .

• د . حسين نجيب المصرى :

صلات بين العرب والفرس والترك — الأجلو المصرية سنة ١٩٧١ م .

• د . رؤوف عباس :

مصر للمصريين — المعارضة الوطنية وإرهاصات الثورة .

• د . رأفت غنيمى الشيخ :

دراسات فى تاريخ العرب الحديث — القاهرة سنة ١٩٨٦ م .

• د . رفعت السعيد :

الأساس الاجتماعى للثورة العربية — القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

• د . خالد حمود السعدون :

المفاوضات التى أدت إلى عقد معاهدة سنة ١٩١٥ م — مجلة الدار .

• د . رأفت غنيمى الشيخ :

أمريكا والعلاقات الدولية — القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

• ذوقان قرقوط :

الماسونية العربية - موقفها من الصهيونية - مجلة قضايا عربية - العدد ٩
- بيروت سنة ١٩٧٠ م .

• د . زكريا سليمان موسى :

- التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين - دراسة فى
فكر الشيخ محمد عبده - القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

- موقف مصر من ضم ابن سعود للحجاز - القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

- قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين - جدة سنة ١٩٩١ م .

- موقف مصر من المتغيرات فى تركيا بين الحربين العالميتين -
القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

• زهدى الفاتح :

لورنس العرب على خطى هرتزل - بيروت - ط٤ - دار النفائس سنة
١٩٩١ م .

• د . زكى إبراهيم :

صوت الماسونية - التقويم الماسونى فى العام لمحفل منف القاهرة .

• د . سعد زغلول عبد ربه :

البرتغاليون والبحر الأحمر - مجموعة بحوث ندوة البحر الأحمر - القاهرة
سنة ١٩٨٠ م

• د . سليمان محمد الغنام :

قراءة جديدة لسياسة محمد على التوسعية - دار تهامة - سنة ١٩٨٠ م .

• د . سليمان موسى :

الحركة العربية - بيروت سنة ١٩٧٧ م .

• د . سامى عزيز :

الصحافة المصرية - القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

• د . سيد نوفل :

الأوضاع السياسية لإمارات الخليج الذي وجنوب الجزيرة - الكتاب الثانى -
ط٢ - القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

• سعيد عبد الله حارب :

أضواء على الماسونية - دى - سنة ١٩٨٥ م .

• د . شوقى ضيف :

- فصول من الشعر ونقده - القاهرة سنة ١٩٧١ م .
- زيد أبو غنيمة :
- السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية . دار عمار - الأردن ط ٢ سنة ١٩٨٩ م .
- صبحى وحيدة :
- فى أصول المسألة المصرية - ط ٢ - القاهرة ب . ت .
- شولش :
- مصر للمصريين - ت د . رؤوف عباس - القاهرة .
- د . شوقى الجمل :
- تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها - ط ٢ - القاهرة سنة ١٩٨٠ م .
- د . صابر طعيمه :
- الماسونية ذلك العالم المجهول .
- صلاح عبد الله العبود :
- فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام - الرياض سنة ١٤٠١ هـ .
- د . صلاح العقاد :
- المغرب فى بداية العصور الحديثة - القاهرة سنة ١٩٨٠ م .
- التيارات السياسية فى الخليج الذى - القاهرة سنة ١٩٧٤ م .
- الجبرى والفرنسيين - بحث ضمن ندوة الجبرى - القاهرة سنة ١٩٧٦ م .
- دراسة مقارنة للحركات القومية - معهد الدراسات العربية - القاهرة .
- صلاح عيسى :
- منهج عبد الرحمن الجبرى فى رؤية الظواهر التاريخية - ندوة الجبرى - القاهرة سنة ١٩٧٦ م .
- د . طالب محمد وهيم :
- جريدة القبلة الحجازية والقضية العربية - مجلة الخليج فى سنة ١٩٨٩ م .
- د . عبد الحميد البطريق وآخرون :
- التاريخ الأوروبى الحديث - دار الفكر الذى - القاهرة سنة ١٩٧٦ م .
- عبد الجبار الزبيدى :
- الماسونية تحت الأضواء - بيروت سنة ١٩٨٨ م .
- عبد الرحمن الجبرى :

- عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — دار فارس — بيروت — ب.ت.
- د . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم :
الوثائق الخاصة بشبه الجزيرة العربية فى عصر محمد على — قطر .
الدولة السعودية الأولى — معهد الدراسات العربية — القاهرة .
دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر — القاهرة سنة ١٩٨٦م.
- عبد الصبور مرزوق :
الغزو الفكرى — اهدافه ووسائله — ط٣ — مكة المكرمة ب . ت .
- د . عبد العزيز نوار :
الوثائق السياسية من تاريخ لبنان الحديث — بيروت سنة ١٩٧٤م .
- د . عبد العزيز محمد الشناوى :
الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها — ٣ أجزاء — الأنجلو المصرية
سنة ١٩٧٨م .
- د . عبد الكريم غرابية :
تاريخ العرب الحديث — بيروت سنة ١٩٨٤م .
- د . على شلبى :
الريف المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر — القاهرة سنة
١٨٨٣م .
- د . على بركات :
حركة المطالبة بالأرض فى الثورة العرابية — من كتاب مصر للمصريين —
القاهرة .
- د . على الحديدى :
عبد الله النديم — سلسلة أعلام العرب .
- د . عبد الله سراج منسى :
المواجهة العثمانية البريطانية فى الخليج الذى ١٨٦٩ — ١٩١٤ — القاهرة
سنة ١٩٩٤م .
- عثمان بن بشر :
عنوان المجد فى تاريخ نجد — ج ٢ .
- د . على حسون :
الدولة العثمانية — المكتب الإسلامى — بيروت سنة ١٩٨٠م .

- على معتوق القط :
- الحجاز فى القرن الثامن عشر - رسالة ماجستير - القاهرة سنة ١٩٦٩ م .
- د . عمر عبد العزيز عمر :
- تاريخ المشرق الذى ١٥١٧-١٩٢٢م - دار المعرفة الإسكندرية سنة ١٩٨٤ م .
- فلق حمدي طهنبوب :
- تاريخ البحرين السياسى - الكويت سنة ١٩٨٣ م .
- د . فاروق عثمان أباطله :
- عدن - السياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩ - ١٩١٨م - القاهرة سنة ١٧٦ .
- فتحى رضوان :
- مصطفى كمال أتاتورك - القاهرة سنة ١٩٨٣ م .
- عبد المجيد يونس :
- المحفل الأكبر الوطنى المصرى - القاهرة .
- د . على شلش :
- اليهود والماسون فى مصر - دراسة تاريخية للزهاء للإعلام الذى - القاهرة سنة ١٤٠٧هـ - ١٨٦م .
- د . فهمى سعد :
- حركة عبد الحميد بن بارس ودورها فى يقظة الجزائر - بيروت سنة ١٩٨٣ م .
- د . فتوح الخترش :
- الحرب الحجازية البحرية ١٩٢٤ - ١٩٢٦م - مجلة الخليج العدد ٢٦ .
- فيشر هربرت :
- فى اصول التاريخ الأوروبى الحديث - ت . د . زينب راشد . د . أحمد عبد الرحيم مصطفى - ط ٣ .
- قطب الدين النهروالى :
- أخبار مكة المشرفة - مكة - ب . ت .
- كارل بروكلمان :

- تاريخ الشعوب الإسلامية — ترجمة منير البعلبكي ونبیه أمين فارس ط ٨ —
دار العلم للملايين — بيروت سنة ١٧٩م .
- كلود كاهن :
تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى ظهور الإمبراطورية
العثمانية — دار الحقيقة — بيروت ط ٣ . سنة ١٩٨٣م .
- كوبلبرينج — ت :
الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته — ت : د . عبد الرحمن أيوب — سلسلة اللف
كتاب — العدد (١١٦) القاهرة سنة ١٥٢م .
- د . لطيفة سالم :
صحافة الثورة العربية — مصر للمصريين — القاهرة .
- د . لويس عوض :
تاريخ الفكر المصري الحديث — الخلفية التاريخية — ط ١ — القاهرة سنة
١٩٧٩م .
- د . ليلى عبد اللطيف أحمد :
تاريخ ومؤرخي مصر والشام في العصر العثماني — القاهرة سنة ١٩٨٠م .
- د . أبير :
التجديد والرجعية وإمبراطورية محمد علي — ت : مكي حبيب المؤمن — مجلة
المؤرخ الذي — العدد ١٨ سنة ١٩٨١م .
- محمد أديب غالب :
من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي — دار الإمامة السعودية ط ١ سنة
١٧٥م .
- د . محمد العيدروس :
دولة الإمارات العربية من الاستعمار إلى الاستقلال (١٤٠ — ١٨٩) الكويت .
- د . محمد أنيس :
الدولة العثمانية والمشرق الذي — القاهرة سنة ١٩٦٣م .
- د . محمد أنيس :
مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني — القاهرة سنة ١٩٨٦م .
- محمد خليفة التونسي :
بروتوكولات حكماء صهيون — ط ٧ — دار الكاتب الذي سنة ١٩٨٤م .

- محمد عبد الله عنان :
تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة - القاهرة - ط ٢ - سنة ١٩٥٤ م .
- محمد علاء الدين منصور :
جماعات الفتوة فى الأناضول فى العصرين السلجوقى والعثمانى - رسالة
دكتوراه غير منشورة - آداب القاهرة سنة ١٩٨٣ م .
- محمد على الزغبى :
الماسونية فى العراق - مؤسسة الرسالة - بيروت - سنة ١٩٨٨ م .
- د . محمد فؤاد شكرى :
مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١-١٨١١م) - القاهرة سنة ١٩٥٨ م .
- محمد فؤاد كوبريلى :
قيام الدولة العثمانية - ت : د . أحمد السعيد سليمان - دار الكاتب الذى ب. ت .
- محمد أبو الخير عبد القادر :
نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية - مكتبة وهبه - القاهرة سنة ١٩٨٥ م .
- محمد فريد بك :
تاريخ الدولة العلية .
- محمد كامل إبراهيم :
النشاط الماسونى فى مصر - مجلة المجتمع الكويتية - العدد (٦٤٥) سنة ١٨٨٣ م .
- د . محمد عبد الرحمن برج :
دراسات فى التاريخ الذى الحديث - القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
- محمد قطب :
التفسير الإسلامى للتاريخ .
- د . محمد محمد حسين :
الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر - جزآن - ط ٣ - بيروت سنة ١٩٧٢ م .

- د . محمد مصطفى صفوت :
مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م وأثره على البلاد العربية — القاهرة سنة ١٩٥٧ .
- د . محمد موفاكو :
البكتاشية — مجلة الذي — العدد (٢٢٠) سنة ١٩٧٧م .
- د . محمود حلمى مصطفى :
الجبرتي ومعاصروه من أمراء المماليك — مجموعة ندوة الجبرتي — القاهرة سنة ١٩٧٦م .
- د . مصطفى محمد رمضان :
مخطوطة من تأليف الجبرتي — مجموعة ندوة الجبرتي — القاهرة سنة ١٩٧٦ .
- محمد نور عارف :
تاريخ غزو رأس المال الأجنبي لمصر ١٨٥٤-١٨٨٢ — رسالة دكتوراه —
آداب المنيا سنة ١٩٨٠م .
- د . نور الدين حاطوم :
عصر النهضة الأوربية — دار الفكر الذي — بيروت سنة ١٩٦٨م .
- د . نبيل عبد الحميد سيد أحمد :
الزحف الإمبريالى على مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر —
الأهرام — القاهرة سنة ١٩٨١م .
- نجدة صفوة :
الماسونية فى الوطن الذي — مركز الدراسات العربية — لندن سنة ١٩٨٠م .
- نورمان بينز :
الإمبراطورية البيزنطية — ت : د . حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد —
القاهرة سنة ١٩٦٤م .
- د . يونان لبيب رزق :
الجبرتي والشخصية المصرية — مجموعة ندوة الجبرتي — القاهرة سنة ١٩٧٦م .

الدوريات :

- المنار :
١٩٠٩ - ١٩١٣ - ١٩٢٤ م .
- الوطن :
١٩٠٨ - ١٩٠٩ م .
- اللواء :
١٩٠٩ - ١٩١٠ م .
- الأخبار :
١٩٢٢ م .
- الأهرام :
١٩٢٤ م .
- المجتمع الكويتية :
١٩٨٣ م .
- الذي :
١٩٧٧ م .
- قضايا عربية - العدد (٩) - بيروت - يناير سنة ١٩٧٥ م .

المراجع الأجنبية

- Alexander Horne : King Solomon's Temple in the Tradition. London , 1972 .
- Bernard Lewis : The Emergence of Modern Turkey, Oxford u.p. 1961 .
- Kamal Karpat : Turkey's Political : The Translation to Multi - Party , N.J. 1969 .
- Kushmer, David : The Rise of the Turkish Nationalism 1876 - 1908, London, 1977 .
- Marco. E : Yemen and Western World Since 1571, London, 1968 .
- Marston, T.E : Britain, S Imperial Role in the Red Sea area .
- Naday Safran : Egypt in Search of Political Community (Cambridge Harvard University Press, 1961) .
- J.M. London : Prolegamena to a study of secret societies in modern Egypt . Middle Eastern Studies, Vol. I. No. 2,0. London 1965 .
- Saleh Muhammad AL Amr : the Hejaz under Ottoman Rulle 1869 - 1914 , D. of Philosophy at the University of Leeds , 1974 .
- Smith, W. C. Islam in Modern history , U.S.A. 1955 .
- Stephen Knight : The Brotherhood - the secret World of the Fremasons - London .
- Wittek. P. The Rise of Ottoman Empire, London , 1938 . Page 4040 - 405 .

كتب المؤلف

- الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية فى الحياة السياسية المصرية ٢٨ - ١٩٤٨م، مكتبة وهبة - القاهرة سنة ١٩٧٩م .
- الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ١٩٠٧-١٩٥٣م - القاهرة سنة ١٩٨٠م .
- التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين - دراسة تاريخية فى فكر الشيخ محمد عبده - الهيئة العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٨٣م .
- مصر الحديثة بين الانتماء العقائدى والقومى - مكتبة وهبة - القاهرة سنة ١٩٨٣م .
- الاتجاه الإسلامى فى ثورة مصر سنة ١٩١٩م - دار الكتاب الجامعى - القاهرة سنة ١٩٨٣م .
- الإخوان المسلمون بين عبد الناصر والسادات من المنشية إلى المنصة - مكتبة وهبة - القاهرة سنة ١٩٨٧م .
- قضايا الفلاح فى البرلمان المصرى ١٩٢٤-١٩٣٦م - هيئة الكتاب - القاهرة سنة ١٩٨٧م .
- موقف مصر من ضم ابن سعود للحجاز ١٩٢٤-١٩٢٦م - دار الكتاب الجامعى - القاهرة سنة ١٩٨٨م .
- موقف مصر من المتغيرات فى تركيا بين الحربين العالميتين ١٩١٨-١٩٣٨م، دار الكتاب الجامعى - القاهرة، سنة ١٩٨٩م .
- الحزب الوطنى الجديد - فتحى رضوان ومجموعته - دار الكتاب الجامعى - القاهرة سنة ١٩٨٩م .
- الصوفية بين الساسة والسياسة فى مصر المعاصرة - ١٩٠٣-١٩٨٠م - دراسة تاريخية وثائقية - دار الصحوة - القاهرة ١٩٩١م .

- قراءة جديدة فى تاريخ العثمانيين - التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي - عالم المعرفة - جدة سنة ١٤١٢هـ .
- الوجه الإسلامي لتاريخ مصر الحديث والمعاصر - تحت الإعداد .
- قراءة إسلامية فى تاريخ الخليج العربى - محاضرات لطالبات كلية التربية للبنات بجدة .
- جوائز الإعجاز فى الحضارة الإسلامية - بالاشتراك مع آخرين - تحت النشر.

المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
٧	المقدمة
	الفصل الأول
٩	بداية مرحلة التاريخ الحديث في المشرق العربي الإسلامي
١٣	متى يبدأ تاريخ العرب الحديث
١٧	الوجود العثماني في المشرق العربي بين طبيعة الفتح وتهمة الاحتلال
٢٧	العثمانيون وتهمة فرض العزلة على المشرق العربي الإسلامي
	الفصل الثاني
	الحركات السياسية في المشرق العربي
٣٩	في العصر العثماني بين التمرد والإصلاح الديني
٤٢	حركات التمرد بين الأطماع الشخصية والمساعدة الاستعمارية
٥٣	الحركات الإصلاحية ذات للطابع الإسلامي
	الفصل الثالث
	نشأة القوى السياسية في الخليج العربي
٦٥	بين البعد الإسلامي والإطار القومي
٦٧	للتطبيع الإسلامي للقوى السياسية على ساحل الخليج العربي
٦٩	اليعدرية والبوسعيدون في عمان
٧٢	للقواسم
٧٥	للدعوة السلفية في الخليج العربي
٧٨	بنو خالد في الاحساء
٧٩	هجرة العتوب وتكوين الكويت وقطر والبحرين
	الفصل الرابع
	دور محمد علي باشا في ظل
٩٣	الماسونية الفرنسية والحماية البريطانية
٩٦	الحملة الفرنسية ودوافعها الصليبية الماسونية
١٠٥	الأطماع الإنجليزية وظهور محمد علي

- ١٠٧ محمد على والسطو على ولاية مصر
- ١١٢ محمد على بين الماسونية الفرنسية والحماية البريطانية
- ١١٧ محمد على وضرب الاتجاه الإسلامى فى مصر وظلمه لشعبها

الفصل الخامس

محمد على يقضى على القوى الإسلامية فى

- ١٣٥ المشرق العربى ويهىء المنطقة للاستعمار الغربى
- ١٣٨ محمد على والاتجاه الإسلامى فى الجزيرة العربية
- ١٤١ محمد على والقوى الإسلامية فى الخليج
- ١٥٣ محمد على والقوى الإسلامية فى الشام
- ١٦٠ محمد على يفتح الطريق لفرنسا لاحتلال الجزائر
- ١٧٠ نتائج سياسة محمد على فى عدن وجنوب الجزيرة العربية

الفصل السادس

المخطط الماسونى الصليبي وانتشار

- ١٨١ الفكرة القومية فى العالم الإسلامى
- ١٨٣ الماسونية
- ١٨٨ المحافل الماسونية فى عاصمة الخلافة العثمانية
- ١٩١ انتماء الجمعيات القومية التركية إلى المحافل الماسونية
- ١٩٥ التحالف الماسونى الصليبي ودفع الاتجاه القومى فى المشرق العربى
- ١٩٥ الماسونية فى مصر، نشأتها ومساندتها لدور محمد على
- ١٩٩ الماسونية فى الشام
- ٢٠٠ التحالف الماسونى الصليبي وراء فكرة القومية العربية
- ٢٠٤ مسئولية النصارى والدول الأوربية عن أحداث سنة ١٨٦٠م فى الشام
- ٢٠٦ التحالف النصرانى اليهودى وقيام الجمعيات الماسونية فى الشام

الفصل السابع

الهجوم الاستعمارى على بقية الوطن العربى

- ٢١٧ الاحتلال الفرنسى لتونس سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م
- ٢١٩ الاحتلال الإنجليزى لمصر سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م

الفصل الثامن

العرب والحرب العالمية الأولى

٢٥٩	مقدمة
٢٦١	حركة الشريف حسين سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م بين الدعاوى القومية والبعـد الإسلامي
٢٦٢	اتفاقية سايكس بيكو سنة ١٣٣٣هـ - ١٩١٦م واكتمال السيطرة الاستعمارية وعـد بلفور سنة ١٣٣٤هـ - ١٩١٧م وتأثير اليهود على طرفى الحرب
٢٨٠	خاتمة
٢٩٧	المصادر والمراجع
٣٠٣	الـحتـويات
٣٢١	

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة ت: ٧٧٩٧٥٥٠